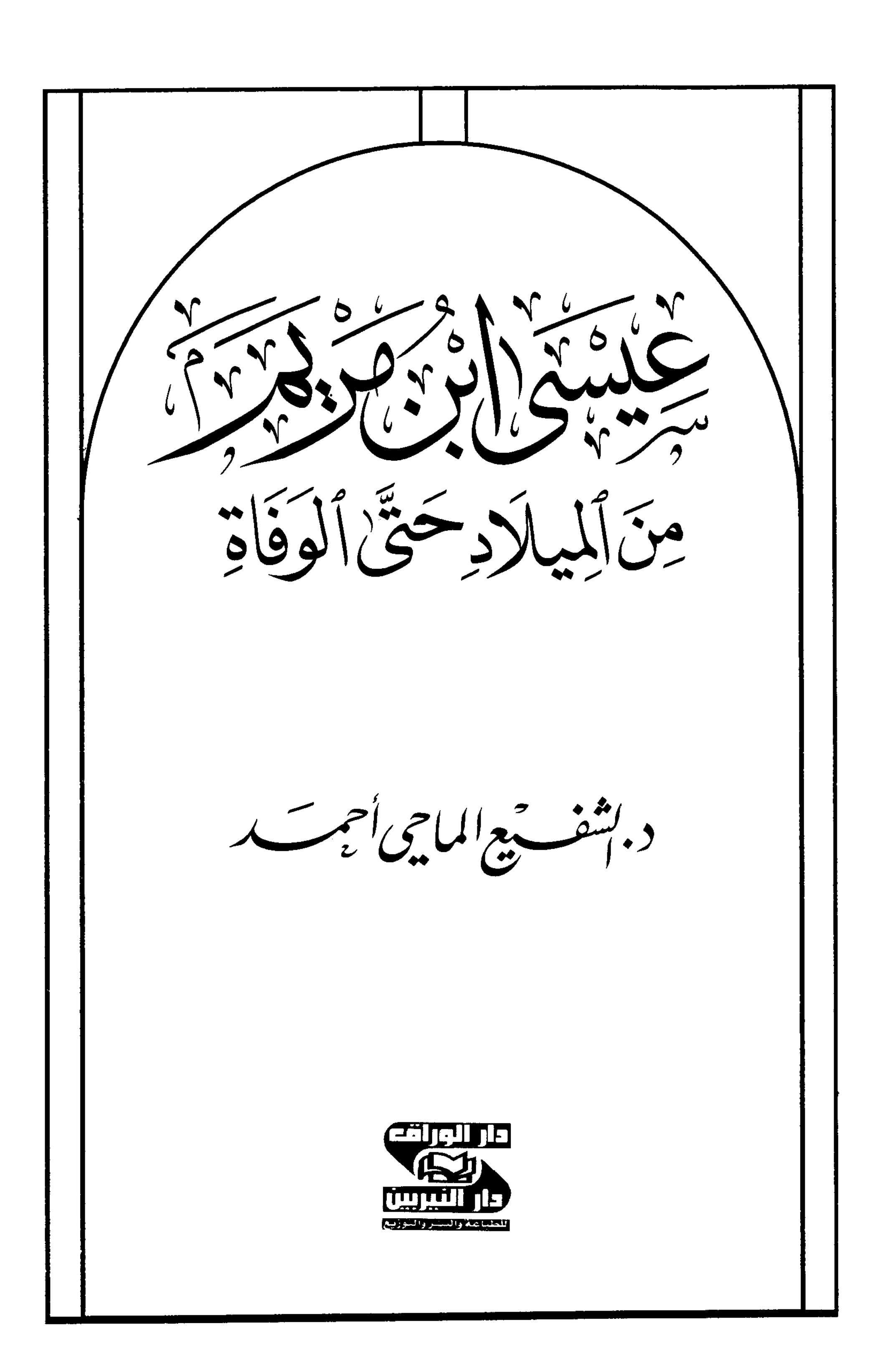
د. الشفيع الماحي أحمد

عيسى ابن مريم

من الميلاد حتى الوفاة

دار الوراق
دار النيربين


عيسى ابن مريم
من الميلاد حتى الوفاة
د. الشفيع الماحي أحمد
دار الوراق
دار النيربين
للطباعة والنشر والتوزيع



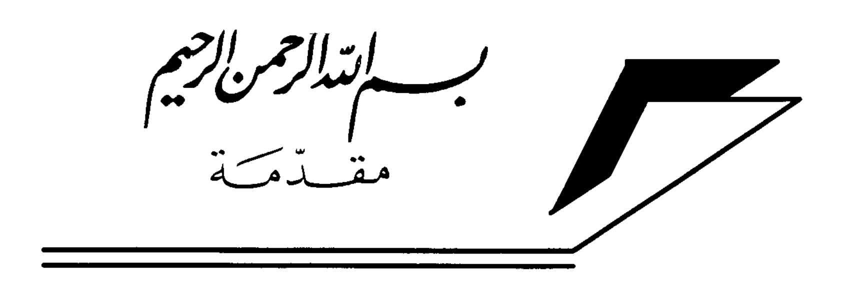
الطَّبعَةُ الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م



بيروت : تلفاكس 664499 (9611 +) ـ ص . ب : 6380 / 14
الرياض : هاتف 4162527 (9661 +) ـ ص . ب : 250641 الرمز 11391
دمشق : هاتف 2230914 (96311 +) ـ ص . ب : 7603
E.mail : warrak@zajil.net
www.daralwarrak.com

فهرس



خضعت منطقة فلسطين - إبان الفترة القصيرة من عمر **عيسى عليه السلام** على الأرض - إلى الإمبراطورية الرومانية. وكانت السلطات الرومانية قد قسمتها إلى خمس مناطق إدارية. فمنطقة التلال الواقعة بين شاطىء البحر الأبيض ووادي الأردن تنقسم إلى قسمين: القسم الجنوبي المكون من التلال الكلسية هو أرض اليهودية. والقسم الشمالي: الذي تنتشر فيه الحدائق والحقول هو أرض الجليل. وعلى الشاطىء الغربي كانت تقع السامرة. وفي جنوب شرقي الجليل تقع العشر مدن (ديكابوليس)، وتتلوها من الجنوب وعلى امتداد الضفة الغربية لنهر الأردن منطقة بيرية.

انتهج الرومان في إخضاعهم لسكان هذه المنطقة بادىء ذي بدء نظام الحماية الذي يوفر الأمن ويعفي الأهالي من أغلب وظائف المواطنين الضرورية، وعلى رأسها الدفاع عن البلاد، فأوكلوا ظاهر السلطة إلى رجل متهود هو هيرودتس خدم في صفوفهم، واستبسل في الدفاع عن أملاكهم، وأعانهم على إدارة البلاد. فكافأه الرومان على خدماته بتنصيبه ملكاً على معظم الأقسام الإدارية لفلسطين. واجتهد هو من ناحيته على محاكاتهم في الأزياء والشارات والأسماء وكل مظاهر الحضارة الرومانية، فمنحوه صلاحيات واسعة حتى أصبحت فلسطين في عهده مستقلة استقلالاً داخلياً تحت السيادة الرومانية.

كان هيرودتس حاد الذكاء فطناً، بعيد الأفق، قوي الإرادة، استطاع من بداية توليه مقاليد الأمور مداهنة السلطة الدينية بالبلاد وإرضاء عامة اليهود، وذلك بمغالاته في الغيرة على الدين اليهودي والتوارة التي هو متدين بها، وتكفل شخصياً بإتمام بناء هيكل سليمان، حيث أضاف إليه عدداً من الأروقة. وعندما ضرب وباء جارف وقحط شديد لانحباس المطر معظم الأقاليم الخاضعة لسلطاته أرسل إلى البلاد الغنية من حوله كل ما لديه من ذهب وفضة لابتياع كميات كبيرة من القمح ليوزعها على الفقراء والمحتاجين.

ورغم كل هذا فقد كان هيرودتس فظ القلب قاسي الفؤاد شرس الطباع، وشديد الغيرة على ملكه لا يتوانى لحظة في الفتك بأي شخص يشك في ولائه له. ولو كان أقرب الأقربين لديه، وكان طاغية يفوق غيره من طغاة التاريخ، حيث أقدم على أعمال انتقامية فظيعة في سبيل المحافظة على ملكه من أكثرها وحشية ودموية قتله للأطفال حديثي عهد بالولادة في بيت لحم وتخومها وذلك فقط لمجرد سؤال بَدَرَ من المجوس الذين جاءوا من فارس لرؤية **عيسى عليه السلام** عند ميلاده: أين ولد ملك اليهود.

ولما توفي هيرودتس بعد ست أو سبع سنوات من ميلاد **عيسى عليه السلام**، اضطر الرومان إلى إخضاع البلاد برمتها إخضاعاً مباشراً لحكمهم، فضمت مناطق اليهودية في الجنوب والسامرة في الوسط ضمن ولاية واحدة، عُين عليها والياً رومانياً هو بيلاطس بونثيوس، حيث اتخذ بيت المقدس عاصمة لولايته. ثم قسمت البلاد بعد ذلك إلى مقاطعات بين أبناء هيرودتس الثلاثة:

- فوقعت منطقة اليهودية من نصيب أرخلاوس.

- ووقعت منطقة الجليل من نصيب أنتيباس.

- ووقعت مشارف الشام، أي الجزء الشمالي من نهر الأردن في حصة فيليب.

وتعتبر اليهودية من أهم هذه المناطق الثلاث، لأن عاصمتها بيت

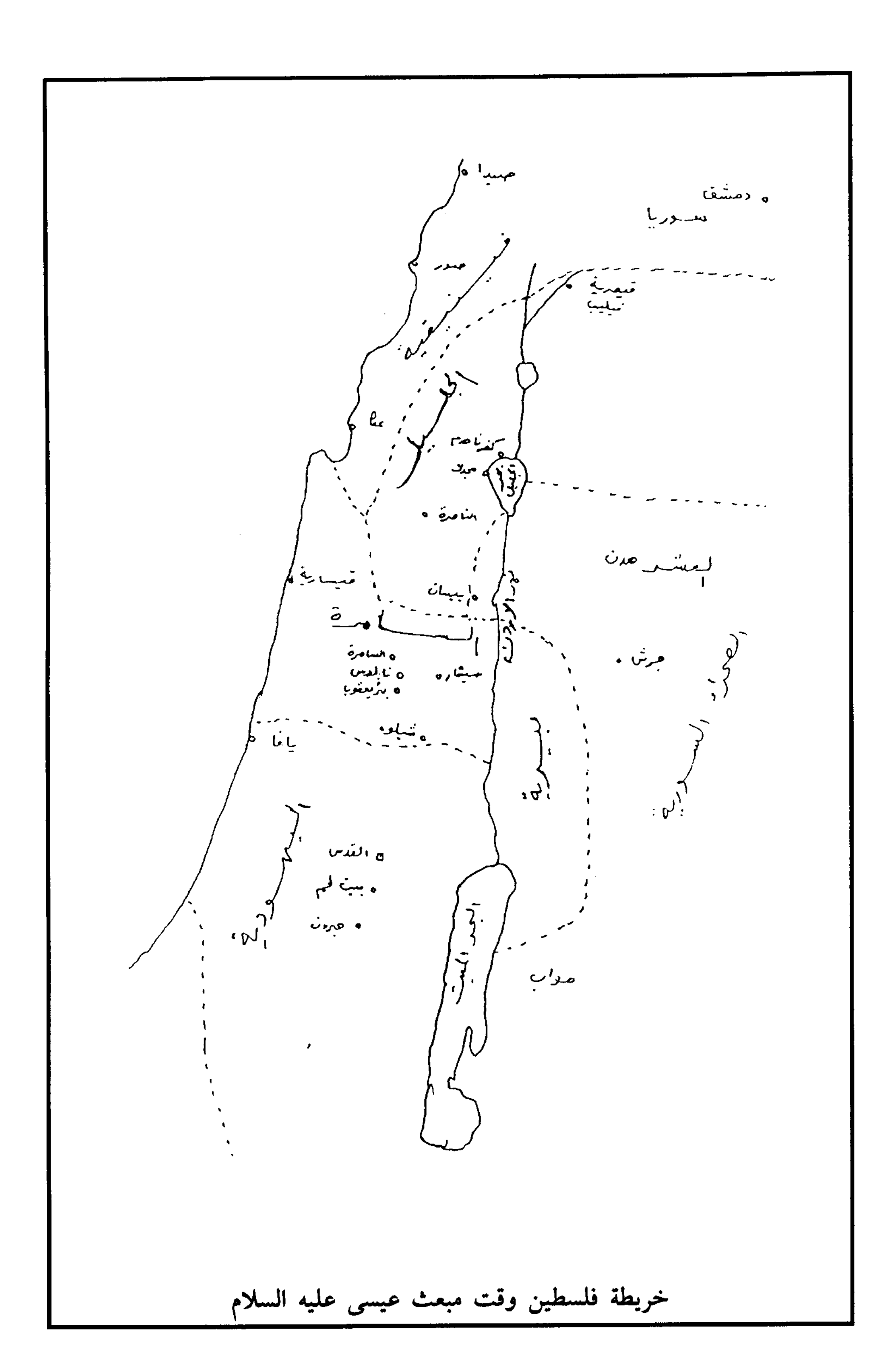
المقدس المدينة الروحية لدى اليهود. وكانت اليهودية هي القسم الجنوبي من فلسطين والذي سكنه اليهود العائدون من السبي البابلي، ومعظمهم من سبط يهوذا، ولذلك سميت المنطقة ببلاد يهوذا، ثم تحول اسمها فيما بعد إلى اليهودية، وتمتد حدودها الشمالية من يافا على ساحل البحر الأبيض إلى موضع من نهر الأردن يبعد عشرة أميال شمالي البحر الميت. وتمتد حدودها الجنوبية من موضع يبعد سبعة أميال جنوب غربي غزة إلى بئر سبع، ثم إلى الطرف الجنوبي من البحر الميت.

كانت منطقة اليهودية أرضاً قاحلة من الحجر الجيري، وليس لها أي ميزة سوى أن بها بيت المقدس. ومن أهم مدنها بعد بيت المقدس، بيت لحم، وأريحا، وبيت عنيا، وبيت فاجي، والرامة، وأفرايم، وبيت صور. وحبرون (مدينة الخليل) وساليم، وسوخار، وشكيم، وعمواس، وعين نون، وقيصرية، ويافا وغزة.

وتلي منطقة اليهودية في الأهمية إقليم الجليل. وهو القسم الشمالي من فلسطين. وهو من الناحية الجغرافية ينقسم إلى قسمين: الجليل الأعلى والجليل الأسفل، فالجليل الأعلى يحده من الشمال مدينة صور، ومن الجنوب السامرة، ومن الغرب فينيقية، ومن الشرق نهر الأردن وبحيرة طبرية المسماة ببحر الجليل، أما الجليل الأسفل فيقع جنوب الجليل الأعلى ويمتد من بحر الجليل إلى قرب عكا على البحر الأبيض.

كان إقليم الجليل على النقيض من منطقة اليهودية عظيم الخصوبة، أرضه ناضرة وزاخرة بالكروم والبساتين، ومكتظة بالمدن الآهلة بالسكان، وكانت عاصمة الجليل هي سيفوريس ومن أهم مدنه: الناصرة، وكفرناحوم، وكورازين وصور وصيدا وطبرية، ومجدل، ودلمانوثة، وقانا الجليل، وقيصرية فيليب، وعكا.

أما أقليم السامرة فهو أقل مناطق اليهود أهمية، ويقع في وسط فلسطين بين الجليل في الشمال واليهودية في الجنوب، ويمتد إلى نهر الأردن شرقاً. ولا يصل إلى ساحل البحر الأبيض غرباً.



خريطة فلسطين وقت مبعث عيسى عليه السلام

والسامرة من الأقاليم الغنية بمروجه ورياضه ومراعيه، أما سكانه فقد اختلطت عقائدهم بالكثير من العقائد الوثنية، ولذلك لم يكن اليهود يخالطونهم أو يتعاملون معهم، بل كانوا يحتقرونهم ويتجنبون السكن معهم أو المرور ببلادهم، وعاصمة الأقليم هي مدينة السامرة والتي تقع فوق رابية تتوسط وادياً خصباً على مسافة خمسة أميال ونصف تقريباً غربي شكيم، ومن أهم مدنه: شيلوه ونابلوس وسومار.

وعندما وضع الرومان أيديهم على المنطقة وجدوا أن السكان يهيمن على حياتهم الدينية والمدنية مجلساً أطلق عليه اسماً يونانياً هو السنهدريم بمعنى (المجمع الكبير) اتخذ من هيكل سليمان في بيت المقدس مقراً له، فأبقوا عليه بلا تغيير، وكان يتألف من خواص الكهنة يرأسهم كاهناً يعرف بالكاهن الأعظم أو كبير الكهنة، وعن طريقه يحكم المجمع في كل الشؤون المتعلقة بالشريعة الطقسية والجنائية والمدنية، كما هو أيضاً المحكمة الاستئنافية العليا للقضايا الهامة التي فصلت فيها مجالس المدن والقرى.

إضافة إلى هذا فالسنهدريم هو الممثل الوحيد للشعب اليهودي، أي هو حكومة اليهود التي تملك كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ولكنه حكومة كهنوتية، أو هيئة كهنوتية عليا تملك سلطة الحكم في كل المخالفات التي تمس الشريعة الموسوية. وسلطة تنفيذ ما يصدر من أحكام، وتسانده قوة عسكرية خاصة به لضبط المتهمين وتنفيذ الأحكام فيهم، عدا الحكم النهائي بعقوبة الموت، فلا بد من التصديق عليه من الوالي الروماني، فإن لم يصدق عليه أصبح الحكم باطلاً.

يبلغ عدد أعضاء السنهدريم سبعين عضواً، فضلاً عن رئيس المجلس الذي هو في ذات الوقت رئيس الكهنة، وكان أولئك الأعضاء ينتخبون من كهنة الطوائف والفرق اليهودية كالفريسيين والصدوقيين والكتبة والآسينيين وغيرهم. وكانوا يعينون باحتفالات دينية فخمة، إذ يعد عضو السنهدريم شخصية لها مكانة مرموقة في المجتمع اليهودي، ويحظى بلقب نائب اليهود، كما يلقب أيضاً بالمشير أو المستشار.

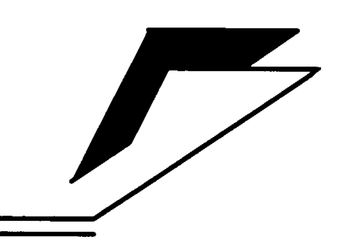
وقبل تعيين بيلاطس والياً رومانياً كان الكاهن الأعظم أو كبير الكهنة الذي يرأس السنهدريم هو يوسف قيافا، ولما عُين بالفعل وبسلطات دستورية واسعة ثبته هو ورفقاءه في مناصبهم، وبقوا في مناصبهم تلك مشاركين في كل الأحداث التي ارتبطت بمبعث **عيسى عليه السلام.**

أما القضاء في المدن والقرى فقد كان أمره موكولاً إلى المجالس المحلية المعروفة باسم المجامع (بيت هكنيسيت) وتحت الإشراف المباشر للسنهدريم، وكل مجلس منها يتألف من عدد من الشيوخ البارزين في المدينة أو القرية، ويقوم السنهدريم بتعيينهم وتعيين رئيس لهم. وللمجامع سلطة محاكمة المجرمين وإصدار الأحكام عليهم وتنفيذها حاشا الحكم بالموت، وللناس الحق في استئناف أحكام المجامع أمام رئيس الكهنة في السنهدريم.

خضع **عيسى عليه السلام** طوال الفترة القصيرة من عمره والتي تقدر بثلاث وثلاثين عاماً مثله في ذلك مثل سائر أبناء ملته ومن الناحية السياسية والإدارية للسلطة الرومانية ولقوانينها الإمبراطورية، وخضع من الناحية الدينية التعبدية للشريعة الموسوية. ومن الناحية المدنية لسلطة السنهدريم. وعلى رأس الثلاثين من عمره أوحى الله تعالى إليه وأرسله إلى خاصة قومه، فدخل بتلك النبوة والرسالة في صراع مع السلطة الكهنوتية، وهو الصراع الذي انتهى برفعه حياً إلى السماء.

وتهدف الفصول التالية إلى تتبع حياة **عيسى ابن مريم عليه السلام** في هذه الحقبة من يوم **ميلاده** إلى يوم **وفاته** في آخر الزمان.





الفصل الأول
الميلاد

إن أفعال الله تعالى كلها صادرة بإرادة عنه وباختيار منه. وليست إرادته تعالى حادثة عن جولان فكر وتمييز، لتنزهه تعالى عن الانفعال والتغيير، وليس اختياره هو تردد حادث بين شيئين كلاهما ممكن الوقوع فيترجح أحدهما لمصلحة أو فائدة، ولا عن نقص للمراد إذا حصل استكمل النقص وكفت الإرادة. لأجل ذلك عدت إرادته تعالى لأفعاله من قبيل الحكم على مفعوله حكماً تخصيصياً. به يتميز الفعل عن مثله ونظيره، وبه يتفاضل الفعل على الآخر. مما يجعل الإرادة في جوهرها معنى ثابتاً، ويجعل من الحكم المرادف لها بمثابة تقديره تعالى للأفعال وتعيينه لها إثباتاً ونفياً. أما الاختيار فيساوق الإرادة في المعنى ويرادفها في المفهوم ويتلوها في المقام والرتبة. ولكنه يتخذ من الوجهة المظهرية والنظرية أسماء عديدة كالإيثار والاجتباء والاصطفاء وغيرها من الأسماء التي تدور حول الإرادة ومعانيها المختلفة.

ويعود دوران الاختيار على تلك الأسماء إلى كونه مشيئة الله، ومشيئة الله هي بصورة أو بأخرى اختياره تعالى لوجود الموجودات اختياراً مساوقاً للعلم الإلهي. وموافقاً للمصلحة والمنفعة. حيث تحدث الأشياء وتصدر الأفعال بأحكام يدق على أفهام العارفين.

فمنها على سبيل المثال مشيئة واختيار يقدم فيها الله تعالى بعض خلقه عمن سواهم، كما في إيثاره تعالى للبعض على الآخر، ومنها مشيئة

هي من قبيل الاجتباء، كأن يخص بعض خلقه بفيض من نعمه، ومن غير سعي أو اجتهاد من المنعم عليه. كاجتبائه تعالى لأنبيائه ورسله ومن يقاربهم في المنزلة كالشهداء. ومن هؤلاء وغيرهم من يجتبيهم اجتباء لا تشوبه شائبة بوجه من الوجوه، بل هو الاجتباء الخالص من كل شوب، وذلك هو الاصطفاء الذي يحظى به الأنبياء والرسل ومن شاء أن يصطفيه من عباده.

ومن بين الذين اجتباهم الله واصطفاهم من عباده آل عمران، ومن آل عمران اصطفى عمران بن يواقيم وزوجته حنا بنت فاقوذ، اللذان اشتهرا في بني إسرائيل بالتقوى والصلاح وكثرة الصلاة والذكر. وكانت امرأة عمران عاقراً وعقيماً. وظلت على هذه الحالة حتى بلغت من الكبر والعجز حداً انقطع فيه رجاؤها من النسل. وذات يوم وبينما هي جالسة في ظل شجرة من أشجار الناصرة حيث كانت تقيم، أبصرت طائراً في عشه يطعم فرخاً له، ففجرت هذه الواقعة البسيطة والمتكررة مشاعر الأمومة في نفسها بكل ما فيها من حنان تجاه المولود وشفقة عليه ورحمة به. واشتاقت إلى ولد يرفع عنها عار العقم، وبه تكتمل أنوثتها. فدعت الله أن يهب لها غلاماً تقر به عينها، ويحصل لها من السرور والفرح ما يحصل لكل والدة.

استجاب الله تعالى لدعاء امرأة عمران فحاضت بعد أن انقطع عنها الطمث، ولما طهرت واقعها زوجها فحملت منه، وبعد فترة من تحقق حبلها وظهور علامات الجنين على بطنها مات زوجها عمران. عندئذ أوجبت على نفسها وألزمتها بما ليس واجباً ولا لازماً، إيجاباً وإلزاماً أشبه بالوعد والتبرع إن هي رزقت بولد أن تجعله عتيقاً خالصاً لله. وخادماً لبيت المقدس حبيساً عليه، ولا ينتفع به في أمر من أمور الدنيا، ومتفرغاً لعبادة الله.

وكل من الوعد والتبرع من الأشياء المتعارف عليها فيما بينهم والمسموح به في دينهم وشريعتهم، وعلى أولادهم طاعتهم والامتثال لرغبتهم، وفاء لوعد ألزموا به أنفسهم بلا إيجاب ولا فرض، وهو الذي حكاه الله تعالى على لسانها حيث قالت:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

إن نذر امرأة عمران في صيغته تلك ينبىء على أنها كانت تظن أن ما في بطنها ذكراً، فصدر منها النذر مقصوراً على الذكورة كما هو شائع بينهم ومتعارف عليه في نذرهم، فيقول الواحد منهم:

ـ اللهم إن لك عليّ نذراً واجباً ولازماً لي شكراً لك إن رزقتني ولداً أن أتصدق به وأهبه لبيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه.

ويسمى عندهم محرراً وعتيقاً، تشريفاً له. إذ هو في خلوصه لخدمة بيت المقدس يعتبر وكأنه قد حرر من أسر الدنيا وعبوديتها إلى حرية عبادة الله.

كان المحرر في أعرافهم لا سلطة لوالديه عليه، ولا يستخدم في شيء يشغله عن خدمة البيت. ولا يبرحه حتى يبلغ الحلم، فإذا بلغ الحلم خُير بين الاستمرار في الخدمة والإقامة عاكفاً معتكفاً فيه، وبين الذهاب، فإن أبى الخدمة والمقام ترك وشأنه. وإن اختار عن إرادة واعية ورغبة حرة المقام والخدمة قيد باختياره وألزم به. ولا مجال له بعد ذلك في النكوص عن وعده، وأغلب أنبياء بني إسرائيل من نسل هؤلاء المحررين والعتقاء.

غير أن المحرر والعتيق كان جائزاً فقط على الغلمان، ومقصوراً عليهم وحدهم. أما الإناث فلم يكن يصلحن أصلاً للخدمة وذلك لما يطرأ عليهن من نقص وعجز بسبب الحيض. وخروج الدم من أرحامهن في أوقات مخصوصة من الشهر، ونذر الآباء والأمهات كانت مبنية على هذا التقدير، ولأجل ذلك دعت امرأة عمران ربها أن يرزقها ذكراً وغلاماً، لعلمها بهذه الحقيقة البديهية، ولما وضعت حملها المنذور لله وعتيق البيت المقدس كان المولود أنثى، على عكس تقديرها، فقالت مناجية ربها كالمتحسرة على خيبة رجائها، وكالحزينة لانقطاع أملها:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٥.

﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[1].

تضمنت مناجاة امرأة عمران على قصرها من المعاني الدقيقة ما كشفت عن مكنون مشاعرها وأحاسيسها لحظة الميلاد. فهي من ناحية قد فزعت وروعت، فزعاً وروعة بلغ حد الكراهية لولادتها أنثى، وسعت جاهدة من ناحية أخرى إلى مغالطة نفسها في الإذعان لحكم الله وقضائه. ولما تحققت من كل ذلك بنفسها سكنت واطمأنت وهدأ بالها، ثم انتقلت إلى التحسر من فوات مقصودها وأسفها على عدم نوال مرادها، ولأن الأنثى عورة ولا تصلح للخدمة أكملت مناجاتها وكالمعتذرة عن أمر هو على خلاف أمانيها. وعلى الضد من ترقبها وتلهفها فقالت:

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[2].

فالذكر الذي رغبته وأرادته ليس مساوياً للأنثى التي وهبها الله تعالى لها. وذلك لأن الذكر يصلح لخدمة بيت المقدس ومؤهل لذكورته بالاستمرار في خدمته مدى الحياة. ولا يصح هذا في حق الأنثى من جراء ما يعرض لها من عوارض النساء، والذكر قوي، والأنثى ضعيفة، والذكر يختلط بالناس بلا حرج ولا تهيب، ولا يدركه عيب ولا تصيبه تهمة في الاحتكاك بهم ليل نهار، وليست الأنثى كذلك. إلى غيرها من الوجوه التي فضل بها الذكر على الأنثى في خدمة البيت وفي غيرها من أمور الحياة.

وفي سياق مناجاتها اللطيفة سمتها (مريم) بمعنى العابدة وخادمة الله، تيمناً وتبركاً بمريم أخت موسى وهارون، وتقرباً إلى الله تعالى كي يعصمها ويصدق ظنها فيها، حتى تكون قدوتها في دنياها مريم أخت موسى وهارون أفضل العابدات. ويكون فعلها مطابقاً لاسمها. ثم أتبعت ذلك منتقلة نقلة أظهرت فيها رضاها ومحبتها بما قدره الله وذلك بالدعاء لها دعاء يدل هو

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٦.

الآخر على الرضا والمحبة بأن يعيذها الله من كيد الشيطان. ويدفع عنها وعن ذريتها إغوائه ومكره.

وكما هو واضح فقد جعلت امرأة عمران مقصودها مرتباً وخاضعاً لضوابط محددة، ومنظماً وفقاً لقواعد محققة كلها لطاعة الله تعالى ونوال رضاه. فقابل الله تعالى مقصودها بقبول هبتها، ورضي بابنتها نذيرة ومحررة لخدمة بيته، وحلها عنده محل الذكور في نذورهم فقال تعالى مستجيباً لدعائها.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[1].

غير أن قبوله تعالى لابنتها لم يكن قبولاً عادياً كقبول سائر النذور والهبات، بل هو ترقى في قبول النذيرة وتقبلها إلى درجة أنه أقامها مقام المنقطع لله في العبادة من الذكور، وانتقل بها من مرتبة الإناث التي لم يشرع لهن أصلاً بخدمة البيت إلى مرتبة الذكور الذين يرجى أن ينحدر من أصلابهم نبي أو رسول. ولعل في هذا القبول إرهاص بأنه سيكون من هذه النذيرة رسول أو نبي تماماً مثلما كان يؤمل من الذكور المنذورين.

بقيت مريم ابنة عمران في حضانة والدتها ثلاثة أعوام تولاها الله تعالى خلالها بالتربية الحسنة والإعداد الطيب الذي يعود عليها بالصلاح والفلاح في حاضرها ومستقبل أيامها وفي جميع أحوالها. ويسر لها من أسباب الخير والتوفيق. وهيأ لها من منازل السمو ومراتب الرفعة ما هي خليقة به وأهل له. وهي الفترة التي وصفها الله تعالى بقوله:

﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾[2].

حيث شبه إنشاءها بإنشاء النبات الغض حين ينمو ويترعرع تحت كنف صاحبه، ويتعهده بالرعاية والحماية، لا يغفل ولا يغيب عنه. حتى يستوي على سوقه ويشتد ساعده. وبذلك كانت مريم في صغرها مثل النبتة الطيبة

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

جميلة الشكل، بهية المنظر، تسر الناظرين جمالاً وملاحة.

وعندما أكملت مريم عامها الثالث حملتها أمها وذهبت بها إلى الهيكل وفاء بنذرها، وهناك قدمتها إلى رعاة البيت وكهنته وعباده المقيمين فيه. وكان عمران والدها وحتى وفاته رئيساً لهم ومقدماً عليهم وإمامهم في الصلاة، ولذلك أراد البعض منهم الاستئثار بشرف ضمها إليه والقيام بمعاشها والإنفاق عليها وفاء لمعلمهم وصيانة لبضعة منه، في حين سعى البعض منهم مدفوعاً بعامل التقرب إلى الله إلى كفالتها لكونها محررة ومنذورة لعبادة الله وخدمة بيته، وهو الأمر الذي أداهم في النهاية إلى التنازع والاختلاف فيمن هو أحق بكفالتها من غيره. وبلغ عدد المتنافسين عليها من الكهان والعباد والأحبار ـ كما يروي الزمخشري[1] ـ عدداً يقدر بحوالي سبعة وعشرين رجلاً.

كان زكريا بن بنيامين عليه السلام من كهان البيت وعباد الهيكل وفي الوقت نفسه نبيهم. فأراد الاستحواذ بكفالتها مستنداً في ذلك على كونه أحقهم بها؛ فزوجته ألياصبات هي أخت حنة امرأة عمران وخالة مريم، والخالة بمنزلة الأم، ولكنهم ردوا مسوغاته في الانفراد بكفالتها من دونهم. وجرت العادة في منازعاتهم وخلافاتهم، أو في المعضلات التي تحدث نوعاً من التنافس والخصام بينهم. وفيها تنعدم العناصر التي يترجح بها الحق. اللجوء إلى الاقتراع على المعضلة محل النزاع والخصام، وذلك بكتابة أسماء المقترعين أو كتابة أسماء الأشياء المقترع عليها على أقلام ونحوها. ثم وضعها في مكان يتفق عليه وسحب أحدها، عندئذ يتعين صاحب الحق. أو يرجح صاحب الحق على غيره.

وفي يوم إجراء القرعة جاء كل واحد منهم بالقلم الذي اعتاد الكتابة به حتى غدا علماً عليه، ثم حملوها ووضعوها في مكان بعينه، عندها أمروا غلاماً صغيراً لم يبلغ الحلم بعد باختيار واحد منها، فوقعت يد الغلام دون

---

(١) تفسير الزمخشري جـ (١) ص٣٥٧.

اختيار منه على قلم زكريا، وبطبيعة الحال لم ترق للبعض منهم هذه الطريقة التي كان المرجح فيها عنصراً واعياً ومميزاً. ومن هنا اتفقوا على أن يذهبوا إلى نهر الأردن، وهناك يلقون أقلامهم في الماء، فمن وقف قلمه وثبت في الماء مع خفة وزنه وقوة تيار الماء، وامتنع من الانسياب معه، فهو حاضنها وكافلها، ففعلوا. فجرت أقلامهم ووقف قلم زكريا وثبت وهو يتراقص يمنة ويسرة هازئاً بقوة التيار المتدفق، محطماً بثباته واستقراره كل ما اعتادوا عليه وألقوه.

وعلى الرغم من ذلك كله فقد أبى البعض منهم التسليم برجحان كفة زكريا، ومن ثم اتفقوا وللمرة الأخيرة على الاقتراع. فأيهم جرى قلمه ضد تيار الماء هو الغالب، ففعلوا، حيث جرى قلمه عليه السلام على عكس تيار الماء، خارقاً هذه المرة كل ما عرفوه من خواص الماء، وطبيعة جريانه. عندها أذعنوا معترفين ومقرين بحق زكريا في كفالة مريم شرعاً وقدراً.

اتخذ زكريا عليه السلام لمريم غرفة في الهيكل أو البيت أمكنه هو وخالتها من الإشراف عليها إشرافاً مباشراً، وتعهداها ليل نهار بالعناية والرعاية والمحافظة. بحيث لا يسمحان لسواهما بالاشتغال بشيء من شؤون معاشها، فلما كبرت وتقدمت في السن وبلغت من العقل والتعقل الحد الذي استقلت فيه بنفسها جعل لها محراباً في البيت. وهو غرفة صغيرة معدة للخلوة والعزلة لا يدخلها سواها، ولا يدخل عليها إلا زكريا وحده. فلزمتها تتعبد فيها ومنها تخرج لتقوم بما يجب عليها من خدمة البيت، حتى وصلت مرحلة البلوغ والتكليف. فإذا حاضت أخرجها من المحراب إلى منزله، فتمكث مع خالتها مدة الحيض، ثم تتطهر وتغتسل فيردها ثانية إلى المحراب.

ولعل في تلك الأشهر التي أعقبت البلوغ وسن التكليف أرسل الله ملائكته الكرام لإخبار مريم باجتباء الله واختياره لها، تمهيداً وإعداداً لميلاد عيسى ونبوته، فقالوا لها:

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

إن تكرار الاصطفاء في إخبار الله مرتين على مسامع مريم مرده إلى أن الاصطفاء الأول اصطفاء ذاتي وذلك حين تقبلها تعالى من أمها وأنبتها نباتاً حسناً، وجعل من بيته مقراً لها، ثم نزهها من الأكدار والأدناس والوساوس، وسائر ما يستقذر من الأفعال ويذم. أما الاصطفاء الثاني فهو تفضيل لها على غيرها من نساء العالمين في زمانها وسائر الأزمنة، بل هي أفضل من جميع نساء العالم من لدن حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، فهي دون النساء التي بلغتها ملائكة الله بالوحي والتكليف والإخبار كما بلغت سائر الأنبياء. وسيهب الله تعالى لها عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك ولن يكون لأحد من النساء.

وتكرار فعل النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى﴾ آمراً لها بتكاليف تعبدية مثل ملازمة العبادة والخشوع وإدامة الطاعة والسجود والركوع، المراد به التنبيه إلى خصوصية أخرى لمريم وهي ركوعها مع الراكعين، إذ أذن الله تعالى لها بالصلاة ضمن جماعة المصلين. أي في الجماعة دون غيرها من نساء قومها، إظهاراً لمعنى ارتفاعها وسموها عن بقية النساء. ولذلك جاء الأمر بعبارة مع الراكعين بعلامة التذكير، إشارة إلى هذا التفضيل وتلك الخصوصية.

وهكذا مضت الأيام بمريم وهي في عبادة دائمة وموصولة، فوهبها الله جملة من الأحوال الكريمة والصفات السامية الشريفة، حتى صار يضرب بها المثل في العبادة والتبتل، وملازمة البيت وخدمته. ولاحظ زكريا عليه السلام وهو الذي كان يتعهدها في عبادتها ومعاشها تلك الهبات الربانية. فكان كلما دخل عليها في محرابها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه. وثماراً في غير وقت وجود صنفها ونوعها، ففي قيظ الصيف وحره يجدها تقتات من فاكهة

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٤٢ ـ ٤٣.

الشتاء، وفي زمهرير الشتاء وحدة برودته يجدها تقتات من فاكهة الصيف، فسألها مستفهماً عن المكان والجهة التي تأتيها منها تلك الأرزاق المتنوعة قائلا:

﴿يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾[1].

فكان جوابها على استفهامه وردها عليه:

﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[2].

نبهت إجابة مريم زكريا عليه السلام ليس فقط على عظم منزلتها وسمو مقامها عند الله، بل أيضاً ألا يستبعد من الله شيئاً. وفي الدقائق القليلة التي أعقبت ردها الموجز السريع بكل ما فيها من الفيوضات الربانية وخوارق العادات، وفي داخل محرابها الطاهر، ومحاط بمكان وزمان امتلأ بعبق تجلى من تجليات رحمة الله الواسعة. رغب زكريا بفيض من رحمة الله كالذي يجري ويشاهده أمامه.

فأقبل بكليته على ربه داعياً ومناجياً، دعاء ومناجاة بقيت سراً مستتراً لم يطلع عليه ولا حتى مريم الجالسة إلى جواره، وخالصتان لوجه الله لا تشوبهما شائبة من رياء النفس وحظوظ الدنيا، راجياً بكتمانهما من الله القبول والاستجابة فقال:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾[3].

مهد زكريا عليه السلام إلى اضطراره لطلب الذرية بوصف ما آلت إليه حالته بعد عمر طويل، حيث حصر وصفه في أمرين اثنين. وهن العظم والشيب، وعلى أنهما من الحالات المقتضية للاستعانة بالولد. وإسناد الوهن

---

(١)(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٧.

(٣) سورة مريم: الآيات ٤ ـ ٦.

إلى العظم دون غيره مما يشمله الضعف في بدنه أوجز في الدلالة على انتشار الضعف وفقدان القوة في سائر بدنه فقداناً دائماً لا علاج له، إذ إن العظم هو عمود البدن وأصل بنيانه وبه قوامه، وهو أقوى وأشد وأصلب ما فيه، فإذا ضعف ووهن تداعى وتساقطت بقية قواه، أو على أقل تقدير كان ما دونه في القوة والصلابة والشدة أضعف وأهون.

وزاد في وصف ضعفه بتوغله في كبر السن وما يرادفه من وهن، بأن شبه بياض شعره وغلبة الشيب على رأسه بانتشار شعاع النار في البياض والإنارة والاشتعال، فكأنه بهذا التشبيه وتلك الاستعارة الجميلة ينادي ربه قائلاً:

لقد شخت وضعفت.

وما بين تضرعه وتوسله لله تعالى بعموم ضعفه وشيخوخته وطرح مسوغات ندائه وطلبه للذرية الصالحة، أظهر كالمعترض في كلامه على ذلك التمهيد وأبان الكثير من أفضال الله تعالى عليه، ومن بينها إجابة الله دوماً لأدعيته. ولذلك فهو لم يكن بدعاءه لله تعساً ولا شقياً، إذ لم يخيب الله تعالى له في الماضي دعوة، ولم يرد له نداء، فكأنه بعبارته المعترضة تلك أراد القول:

- إنك عودتني الإجابة على دعائي فيما مضى.

أو:

- لم أكن فيما دعوتك من قبل مردود الدعوة منك.

فقد عهد من الله دائماً الاستجابة كلما دعاه أو ناداه، جهرة أو سراً وبصوت خفي.

فإذا كان وصف زكريا عليه السلام لحالته بمثابة التمهيد لندائه ودعوته، فإن مناجاته السابقة هي الأخرى بمثابة تمهيد لطلبه ورجائه، ولكن عن طريق التضرع والتوسل بما سلف له تعالى من الاستجابة والقبول، واستمرار أفضال الله تعالى ونعمه الوفيرة عليه. ليتحول بعدها مباشرة إلى إيراد

مسوغاته من طلب الذرية الطيبة المباركة وعلى نحو خارق للعادة والمألوف فحصرها هي الأخرى في أمرين:

أولهما: خشيته على بني إسرائيل من أن يبتلوا عقب موته بأهله وقرابته، ومن يلونه في النسب والرئاسة، لما يعلمه من حالهم وعدم استمساكهم بالدين والشريعة، من ضياع دينهم وانقطاع صلتهم بالله تعالى.

وثانيهما: عقم زوجته والذي تسبب في انقطاع نسله.

واستناداً على ما مضى وتأسيساً عليه رغب أن ينعم الله تعالى عليه ومن غير تخصيص وعلى سبيل الهبة، وعلى جهة التعويض، لا على جهة الثواب والمكافأة، نصيراً وحليفاً، منسوباً لله تعالى وصادراً عنه، مرضياً عنه في أخلاقه وأفعاله، وصالحاً يرضى عنه واهبه، وبطريقة ليست معهودة أو معتادة، ولا يخضع للأسباب والمسببات لتلاشي وانعدام الأسباب عنده. فتكون هبته تعالى منَّة وكرامة وتشريفاً له بين العالمين. كي ينقل إليه أمر النبوة والرسالة، فيقوى دين قومه، وتسود شريعته تعالى بينهم.

وتحقق لزكريا عليه السلام ما رغب فيه وتمناه، واستجاب الله لدعائه بسرعة تضاهي سرعة استجابته لأدعيته ونداءاته الماضية. فبينما هو قائم يصلي ذات يوم في محرابه ومجلس مناجاته، وهو اليوم الذي وقعت فيه عليه القرعة حسب عادة أحبار بيت المقدس وكهنته على أن يدخل الهيكل وحده ويشعل فيه البخور. وكان جمهور الناس يصلون خارجاً وقت البخور، في هذا الوقت ظهر له جبريل واقفاً عن يمين مذبح البخور في صحبة جمهرة من الملائكة تناديه بالخبر الذي تنبسط له أسارير وجهه فرحاً وسروراً، فقالت له:

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

وورد نص بشارة الملائكة لزكريا في إنجيل لوقا على النحو التالي:

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٩.

«لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك أليصابات ستلد ابناً وتسميه يوحنا، ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته، لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس. ويرد كثير من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء، والعصاة إلى فكر الأبرار، لكي يهيىء للرب شعباً مستعداً»[1].

ألقت الملائكة على مسامع زكريا نص ما تعهد به الله تعالى إليه تعهداً لا يوحي في دلالته العامة بالإلزام أو الوجوب، بل يدخل في حقه تعالى من باب التفضل والإحسان، وفحواه أن الله وعده بإنجاب ولد من صلبه سماه حصراً وتقييداً باسم يحيى (يوحنا ـ يهوحانان) بمعنى الله تحنن. وهو اسم مقصور على ابنه وخاص به إلى حد التضييق فقال له:

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾[2].

في إشارة جلية ولفتة بارعة إلى أولى منن الله تعالى على زكريا إذ اختار لابنه اسماً لم يكن معروفاً ومتداولاً بين الناس، كما لم يسمح لأحد قبل يحيى بحمله، أو يشبه اسمه هذا الاسم الفريد المبتكر.

إن إخبار الله تعالى لزكريا بهذا الاسم، وفي خلوة من خلواته العديدة يعد في حد ذاته سراً أودعه الله له، وأتمَّه عليه، فلا يتبادر إطلاقه على أحد من الأبناء. على أقل تقدير في الفترة الواقعة بين البشارة وبين ولادة يحيى وإعلام الأهل والأقارب باسمه. وهذا إكرام من الله لزكريا، إذ ميز ابنه باسم لم يسبق إليه، والأسماء الفريدة المبتكرة قوية في دلالاتها التعيينية والإشارية للمسمى بها. ولا تكون شائعة الاستعمال، ثم تشيع ويكثر تداولها وتشتهر بين الناس تيمناً وتبركاً.

أما صفات يحيى وخصائصه وأحواله ودوره الرسالي في حمل النبوة

---

(١) إنجيل لوقا ١: ١ ـ ٥.

(٢) سورة مريم: الآية ٨.

فهي بدورها فريدة وبديعة كاسمه لم يسبق إليها نبي مرسل، وقد فصلت ضمن سياق البشارة على النحو التالي:

□ يعترف يحيى ويقر بصدق كلام الله والإيمان بكتابه. ولا يتردد في الجهر بكل ما يأتيه من عند الله بلا خوف أو وجل. وفي مقدمتها تصديقه بعيسى واعترافه به نبياً ومرسلاً.

□ يتحلى يحيى بفضائل حميدة وأخلاق عالية رفيعة، ويتنزه عن نقيضها من النقائص والعيوب، تجعله أهلاً لأن يسوّده قومه ويقدمونه على أنفسهم، اعترافاً منهم برئاسته الدينية عليهم. ليتولى أمورهم، فيعمل على إصلاحهم في دنياهم وأخراهم.

□ لا يأتي النساء ولا يغشاهن كالمحجم أو الممنوع عنهن لا عن عيب ونقص، بل عن عفة واجتهاد في إزالة الشهوة، حيث كفاه الله عنهن فلا يقربهن أبداً مع القدرة عليهن، وكل أنبياء الله كانوا مستكملين القدرة على إتيان النساء، وميز الله يحيى بالامتناع عنهن إعلاماً لزكريا بانقطاع نسله لحكمة بليغة ستكشف عنها أحداث المستقبل.

□ يبعث الله تعالى يحيى بالنبوة والرسالة، ويساوق النبوة والرسالة الصلاح، فيؤدي لله ما افترض عليه وكلفه بإبلاغه، وفي سبيل ذلك يتحمل عظام الأمور وشدائدها، كما يتحمل في منفعة قومه من الأذى والألم ما يبتغي به وجه الله تعالى.

أجاب زكريا عليه السلام ربه كالمستفهم لا كالمنكر، وكالمتعجب تعجباً مشوباً بالشكر والعرفان، وكالمعترف في تعجبه بأن هبة الله وعطيته خارقة لعوائد الناس فقال:

﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾[1].

---

(١) سورة مريم: الآية ٨.

إن مجرد وعد الله لزكريا بالذرية الطيبة قد هيأه للحصول عليها، وبالتالي فلا معنى لاستفهامه وتعجبه إلا حصول الاطمئنان القلبي ومعرفة الكيفية التي تتحقق بها البشارة، لأن الحصول على الولد وبحكم العوائد الجارية والمسايرة للعقل وأحكامه مستبعد تماماً، وليس في كل الأحوال شكاً في قدرة الله ولا في صدق وعده، ولأجل ذلك تضمنت إجابته وصف لواقع حي يعيش فيه، وهو عقر امرأته وعقمها. وبلوغه هو نفسه في السن العالية مرحلة هي أخص من الكبر، جف فيها ماؤه ونحلت عظامه، وتصلبت مفاصله، فصار شبيهاً بالعود اليابس، وتلك حالة لا علاج لها ولا مداواة. فضلاً عن إصلاحها وتقويمها.

وتضمن رد الله على ما أصاب زكريا من انفعال عند استعظام أمر الغلام، إبطال استفهامه وتعجبه معاً فقال له:

﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[1].

وكما هو بين بنفسه فإن الله يفعل ما يشاء من الأفاعيل العجيبة الخارقة للعادات، بل إن كل فعل قل اعتياد الناس له هو سهل الإيجاد يسير الحدوث. مثل خلق الولد من شيخ هرم لم يسبق له الإنجاب، وامرأة طاعنة في السن وعاقر، فهو تعالى لا يعجزه شيء ولا يتعاظم عنده أمر.

ثم نبه الله تعالى زكريا على شيء أعجب مما تعجب منه، وهو خلقه له قبل خلق الغلام بعد عدم ومن عدم، فكما لا عجب ولا استعظام في خلق الغلام في الأحوال المألوفة والعادية، كذلك لا عجب ولا استعظام في خلق الغلام في الأحوال النادرة والظروف الشاذة. أو تلك الخارقة لمألوف العادات.

لم تحدد بشارة الله لزكريا زمناً بعينه على وقوع الحمل بالغلام، فسعى زكريا زيادة في اطمئنان القلب وسكون النفس أن يتم الله نعمته عليه بأن

---

(١) سورة مريم: الآية ٩.

يجعل له علامة عن طريقها يستدل على ابتداء حمل زوجه وعلى وجود ولد منه فسأل ربه قائلاً:

﴿رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾[1].

فأجابه ربه مستجيباً لطلبه قائلاً:

﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾[2].

أما رواية إنجيل لوقا فتصور استجابة الله لزكريا كما لو كانت عقوبة من الله لتردده في صحة وصدق ما أخبره به ملاك الله، جاء فيها:

«أنا جبريل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته»[3].

وعلى أي حال فعلامة الله تعالى وآيته التي يعرف بها زكريا حمل زوجه هي منعه من الكلام فلا يطيقه ولا يقدر عليه، أي يحبس لسانه عن تكليم الناس خاصة، ولكنه من الناحية الخلقية سليم الجوارح ليس به خرس ولا بكم، ومن غير علة ولا مرض، وفي الوقت نفسه قادر على ذكر الله وتسبيحه طوال أيام عجزه، وفي أوقات الذكر والتسبيح من زوال الشمس إلى مغيبها، ومن طلوع الفجر إلى وقت الضحى. فإذا أراد كلام الناس فعليه استخدام الإشارة، أو يوحي إليهم بالحاجب أو اليد أو الرأس، وكل معنى يريد إيصاله إليهم بالحركة والرسم وغيرها. ولمدة ثلاثة أيام بلياليها.

ومثلما بشرت ملائكة الله زكريا عليه السلام بغلام وعرّفه له بالاسم والصفات والأحوال، بشرت أيضاً مكفولته مريم بغلام سينفرد هو الآخر بما انفرد به يحيى فقالت مخبرة لها:

---

(١)(٢) سورة آل عمران: الآية ٤١.

(٣) إنجيل لوقا ١، ١٩ ـ ٢٠.

﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾[١].

فصلت بشارة الله لمريم خصائص ابنها المرتقب ومميزاته، ومآله حالاً ومستقبلاً في الآتي:

أولها: إن وجوده وولادته ستكون بكلمة خاصة من الله هي كلمة كن فيكون، أي يخلق في رحمها بكلمة التكوين كن، فيتعلق خلقه بالقدرة الإلهية مباشرة، ثم يتكون تدريجياً بطريقة مخالفة للمعتاد والمتبع. وعلى نحو مغاير للمألوف في خلق الأجنة وتكوينها في بطون الأمهات.

ثانيها: سيسميه الله تعالى بنفسه المسيح عيسى ابن مريم. فالمسيح لقبه وعيسى اسمه، وينسب بالبنوَّة إلى أمه لأنه يولد من غير أب فلا ينسب لسواها، ويعرف ويشتهر بتلك النسبة إعلاماً وتمييزاً، فهو سيلقب أو يوصف بالمسيح ومعناه المبارك أو الصديق.

ولقب المسيح من الألقاب المألوفة والمعروفة عند بني إسرائيل. ويطلق على كل من يتولى أمر القيادة الدينية والروحية. ويعود في أصله اللغوي إلى المسح أو الدلك بدهن المسحة، وهو الزيت المعطر الذي أمر الله موسى عليه السلام أن يتخذه ليسكبه على رأس أخيه هارون حين نصبه كاهناً وقائداً دينياً وروحياً للأمة من بعده. ومن ثم أصبح تقليداً متوارثاً لهم يلقب به كل من يملك عليهم سلطة دينية أو دنيوية.

أما عيسى فاسم علم معرب من: يشوع ـ اللفظ العبري عيساو ـ.

وبمجموع الثلاثة أعني اللقب والاسم والنسبة يعرف ابنها وبهما يميز، وعن طريقهما يشتهر بين الناس، حتى تستحيل في حقه وبتقادم العهد وكثرة ترددها على ألسنة الخلق وذيوعها بينهم إلى اسم وعلامة يعرف بها عن غيره.

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٤٥ ـ ٤٦.

ثالثها: يخصه الله بالوجاهة والمكانة العالية الرفيعة بين قومه في الدنيا بما يوحي إليه ربه من وحي. وينزله عليه من كتاب، أي بالنبوة. فيتقدم عليهم ويسودهم، وفي الآخرة يمنحه الله حق الشفاعة فيمن يأذن له فيه من أتباعه. فيتقبل منه إسوة بإخوانه من الأنبياء والرسل، وتعلو درجته ومنزلته كغيره من الأنبياء والرسل، وعند انقضاء نبوته وانتهاء دوره الرسالي يجعله الله من المقربين إليه حظوة ومنزلة.

رابعها: يشرفه الله بتكليم الناس في حالتين، حالة لا يزال فيها على المهد مضجعاً لحفظه من السقوط. أي يكلمهم في أول أيام عمره وهو لا يزال رضيعاً. ويكلمهم وهو في حالة الكبر ما بين الثلاثين والخمسين من عمره، وذلك حين يوحي إليه الله تعالى بإبلاغهم رسالته.

وخصه الله تعالى في الحالتين، لأن تكليمه للناس وهو في مضجع الرضع المواليد من خوارق العادة وإرهاصاً لنبوته في الكبر، وتكليمه في الكبر هو دعوته لهم على اتباع منهج الله، والالتزام بشريعته، والمراد من الحالتين أنه «يكلم الناس كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ الأنبياء»[1].

خامسها: لا يفارقه الصلاح في قوله وعمله، ولا تنفك عنه صفة الاستقامة وطهارة النفس والتجرد التام من الفساد والعيوب، فهو دوماً على علم صحيح وعمل صالح.

توجهت مريم بالخطاب إلى ربها مستفهمة ومتعجبة عن الكيفية التي سيأتي بها الولد قائلة:

﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾[2].

إن استفهام مريم في حقيقة أمره هو للإنكار من جهة وللتعجب من جهة أخرى، فكيف يكون منها الولد وهي ليست بذات بعل وليست بغية،

---

(١) تفسير الزمخشري جـ (١) ص ٣٦٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٧.

ولا نية لها ولا على عزم على اتخاذ البعل في الوقت الحاضر. والعادة الجارية أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سفاح، ومريم في إنكارها وتعجبها واستغرابها لم تستبعد من قدرة الله شيئاً كهذا، ولكنها أرادت اطمئناناً لقلبها وسكوناً لنفسها معرفة كيفية إيجاد الولد أمن قبل زوج في حاضر الزمان ومستقبله، أم يخلقه تعالى هكذا ابتداء بلا واسطة ولا سبب، فأجابها ربها على استفهامها وتعجبها جوابين:

قال في الأول منها:

﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾(١).

وذلك لإزالة إنكارها وجحودها بل وجهلها معاً.

وقال في الثاني:

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٢).

وذلك لإزالة تعجبها وقلة اعتيادها على إيجاد ولد من غير أب.

وفي الجوابين معاً عبّر تعالى عن تكون ولدها بالخلق لا الفعل كما في حالة زكريا عليه السلام، لأن إيجاده سيكون بغير الأسباب المعتادة والمألوفة لإيجاد مثله، وممن لا يعجزه شيء، ولا يستحيل عليه خلق أو إعدام بل يخلق عقيب الأمر بالخلق بلا مهلة. إذ هو خلق لا يخضع للعادة الجارية في الإيجاد.

أدى تدخل مريم واعتراضها على إيجاد ولد منها من غير أب إلى مقاطعة الملائكة في إتمام نص البشارة التي أمروا بنقلها، وبعد زوال ما أدى إلى تدخلها ومقاطعتها أكمل الملائكة بشارة الله إليها قائلين:

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم

---

(١)(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٧.

مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾[١].

وباقي البشارة وكما هو واضح وجلي يتضمن عدة حقائق عن ابنها تكمل الأخرى وتزيد عليها وهي.

□ يتولى الله تعليمه الكتابة كأداة للعلم والمعرفة. وكيفية ضم الحروف بعضها إلى بعض لفظاً وتوثيقاً ليتمكن من دراسة الكتاب الموحى به من عند الله وعلى وجه أخص التوراة وما سوف ينزّل عليه من كتاب كالإنجيل، إضافة إلى ذلك يعلمه تعالى الحكمة وهي المعرفة بحقائق الموجودات والإصابة في الرأي، ووضع الأشياء في مواضعها المناسبة واللائقة. بلا إفراط كأن يستخدمها فيما لا ينبغي وعلى وجه لا ينبغي، وبلا تفريط وهو تعطيلها كلية والامتناع حتى عن اكتساب المعارف. والمعنى برمته يرجع إلى العلم، ولكن ليس العلم المجرد كما يتبادر لأول وهلة، بل العلم مع زيادة ومبالغة فيه. أو للعلم والعمل معاً.

□ يجعله الله تعالى رسولاً إلى قومه من بني إسرائيل، وأداة إلى هنا قد وضعت حداً لنهاية البعثة والرسالة وذلك بتعيينها وتخصيصها فقط عليهم. فكأنها بتحديدها هذا قد نصبت حاجزاً، وأقامت فاصلاً بينهم وبين غيرهم. وبالنص على بني إسرائيل بالاسم أشارت ضمناً إلى أقصى حد يمكن لدعوة ولدها بلوغه، وذلك كي يقف الاسم مانعاً له وفي الوقت نفسه صارفاً عنه غيرهم من الناس.

أما الآيات الدالة على مجيئه من عند الله بالنبوة والرسالة وعلى وجه المعجزة وخوارق العادة، وحجة مؤيدة له في رسالته ودالة هي الأخرى على صدقه فمنها:

□ يصور لهم من الطين صورة كصورة الطير فينفخ فيه الروح بفمه، أي في ذلك الطين المماثل والمشابه لشكل الطير فيكون في التو واللحظة

(١) سورة آل عمران: الآيات ٤٨ ـ ٥٠.

طائراً حياً كسائر الطيور. ولكن بإذن الله تعالى ومشيئته دفعاً منه ورفعاً لتوهم مشاركة أحد غير الله في الخلق والإيجاد.

□ يرد البصر إلى من ولد أعمى.

□ يشفي كل مصاب بداء البرص، وهو مرض جلدي من أعراضه ظهور بقع بيضاء تعتري الجلد.

□ يحيي من فارقت الروح بدنه وتحول جسده إلى جثة هامدة.

وغيرها مما يعد في حكم المستحيلات، وكلها تجري على يديه بإذن الله تعالى دفعاً ونفياً لمن يتوهم فيه الألوهية والربوبية.

□ يخبر قومه بأحوال خاصة لا يطلع عليها سوى صاحبها، ولا يعرفها لخصوصيتها الشديدة غيره، منها على سبيل المثال إخبارهم بما يأكلون في بيوتهم خفية وبعيداً عن أعين الناس. وما هو مدخر ومخبأ في حرز حريز لوقت الحاجة أو للمستقبل.

□ سيحكم ابنها على التوراة المتقدمة عليه بالزمان، والموجودة الآن بين الأيدي وجوداً مشهدياً ومن الناحية اللغوية واللفظية بالثبوت والإثبات. فكأنها لم تسبقه بزمن طويل، وثبوته وإثباته يتضمن بالضرورة الإقرار والاعتراف بها كوحي أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام من قبله، أي الإيمان بها كما أُنزلت، ويكون بإقراره واعترافه قد صدق بها تصديقاً يبلغ حد اليقين، والتصديق إذا بلغ حد اليقين فذلك تمام معنى الاعتقاد. أما من الناحية العملية فإن مهمته تنحصر في إحياء بعض ما اندرس منها، وتغيير بعض أحكامها، وتحليل بعض ما حرمه الله تعالى على قومه من الأطعمة وغيرها في أزمنة تالية على نزولها. ومن هنا استحق صفة النبوة واسم الرسول.

ولما بلغت مريم الرابعة عشر من عمرها تشاور الكهنة والأحبار فيما بينهم حول وضعها كنذيرة أدركت من العمر حداً لا يجوز لها البقاء في بيت الله بمفردها، ومن ثم قرروا بالإجماع البحث عن خطيب لها يحق له

بموجب الخطبة رعايتها والاهتمام بشؤونها، ويمكنه فيما بعد الزواج بها أسوة بمن هن في مثل سنها.

وكانت العادة السائدة بين اليهود في ذلك الزمان تفرض بما يشبه القانون الإلزامي على كل فتاة بلغت الرابعة أو الثالثة عشرة من عمرها أن تخطب إلى شاب لفترة زمنية محددة وكافية يقيمان فيها معاً ويتعاشران خلالها دون اتصال زوجي. ليتعرف كل منهما على أخلاق وعادات وطبائع شريك حياته. فإذا رضي بها ورضيت به واقتنع كل منهما بأهلية الآخر لتحمل أعباء الحياة الزوجية ومسئولياتها يعقد القران ويتعاشرا معاشرة الأزواج، وإذا لم يتفقا وأحس أحد الطرفين بنفور تجاه صاحبه فسخت الخطبة وانقطعت المعاشرة وافترق كل منهما لحال سبيله.

بيد أن خصوصية حالة مريم وتربيتها في بيت الله كنذيرة له دفع بالكهان والأحبار إلى اختيار خطيب وعشير لها بأنفسهم. فوقع اختيارهم في البداية على اثني عشر شاباً من الأتقياء المشهود لهم بالورع وحسن الخلق وطيب المعشر. وكما جرت عوائدهم في مثل هذه الحالات التي لا يستبين الحق فيها، فقد استقر رأيهم حسماً للخلاف ودرءاً للخصام للاقتراع فيما بينهم، فأيهم ترجح سهمه كان هو المؤهل لمعاشرتها والمحافظة عليها، أما الاقتراع نفسه فوردت فيه روايتين:

الأولى وردت في المصادر الإسلامية على النحو التالي:

«قال زكريا عليه السلام لبني إسرائيل:

- يا بني إسرائيل تعلمون إني والله لقد كبرت وضعفت عن حمل ابنة عمران فأيكم يكفلها بعدي.

فقالوا:

- والله لقد جهدنا وأصبنا من الجهد ما ترى.

فتدافعوها بينهم ثم لا يجدون من يحملها، فتقارعوا عليها بالأقلام،

فخرج السهم على رجل صالح نجار من بني إسرائيل يقال له يوسف فحملها»[1].

والثانية وردت في المصادر المسيحية كما يلي:

«أخذ الكهنة والأحبار عصيهم وأدخلوها إلى الهيكل، فأتت حمامة ووقفت على عصا يوسف النجار، فعلموا أن هذا الأمر من الرب، لأن يوسف كان صديقاً باراً، فتسلمها وظلت عنده إلى أن أتى إليها الملاك جبريل»[2].

وهكذا وقع الاختيار على يوسف من عشيرة مريم لخطبتها. وكان يوسف بالفعل باراً وتقياً مداوماً على الصلاة والصيام، واتخذ من النجارة مهنة له، ومصدراً لرزقه وقوت يومه. وكان نجاراً ماهراً صادقاً في عمله ومخلصاً له، فأكسبه ذلك احترام ومحبة وتقدير كل من تعامل معه، ومن عمل يديه بدأ يوسف في الإعداد لبيته ولوازم عرسه.

إن خطبة يوسف لمريم تعني من الناحية النظرية رفع كفالة زكريا عنها. وذلك إيذاناً ببلوغها من العمر حداً يمكنه معه الاستقلال بأمور نفسها. وتعني من الناحية العملية انتقال كفالتها لمن سيكون يوماً ما زوجها. وحتى ذلك الوقت له الحق في رعايتها والمحافظة عليها وتلبية كافة احتياجاتها، سواء كان ذلك مؤقتاً في محرابها وأثناء عكوفها على خدمة البيت أو مستقبلاً كزوجة له. وبذلك يكون يوسف قد حل عملياً محل زكريا، ولكن باسم جديد وصفة جديدة تتفق مع سن مريم وتنسجم مع وظيفتها النبوية ودورها الرسالي.

وفي أحد تلك الأيام التي أعقبت خطبة مريم وانفراد يوسف النجار بكفالتها، دخل زكريا عليه السلام محراب هيكل سليمان وبيت الله المقدس كعادته حافي القدمين مرتدياً لباس الكهنوت الأبيض وبرفقته خادمان، يحمل

---

(١) قصص الأنبياء ـ النيسابوري ص٣٧٧.

(٢) يوحنا المعمدان ـ السقا ص٣١.

أحدهما مبخرة والآخر مجمرة، فأطلقا البخور داخل المحراب، ثم غادرا المكان المقدس ببطء ووقار، تاركين زكريا محاطاً بعبق البخور تتخلله أشعة الشمس فتطفى على تلك اللحظات جمالاً وسحراً.

وكانت جموع المصلين والمرتلين تقف في الخارج وأصواتهم تشق عنان السماء. في هذه اللحظات أوحى الله تعالى لزكريا بحمل زوجته منه بيحيى كما بشره من قبل، وتلقائياً فقد زكريا مقدرته على الكلام إيفاء بنذره. فبقي ساكناً داخل المحراب لفترة طالت عن معدلها المألوف، وعما تعوده منه المصلين في مثل هذه الحالات التي يؤمهم فيها بالصلاة. مما أثار تعجبهم وحيرتهم من إبطائه داخل المحراب كل هذا الوقت.

ولما خرج عليهم لم يستطع أن يكلمهم أو يخطب فيهم كالعادة المتبعة، بل أومى إليهم إيماءً بسيطاً وظل صامتاً. ففهموا على الفور أنه رأى رؤية داخل المحراب تسببت في إبطائه، وفي عزوفه عن الكلام. وهي التي أرخ إليها القرآن بقوله:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾[1].

إن إشارة زكريا لقومه تفيد في المعنى ما من شأنه أن يفاد بالكلام والقول. ومتضمنة وعلى نحو سريع وخفيف الأمر لهم بالتسبيح، أو بعبارة أخرى كاشفة لهم عن رغبته لهم وطلبه منهم مواصلة عبادتهم المعتادة وفي مواقيتها المحددة باليوم والليلة دون تقليده في صمته أو الاقتداء به في نذره. وذلك لئلا يفسر عدم كلامه وصمته كعبادة ملزمة لهم ومفروضة عليهم. فيشتركون معه في نذر له صلة الخصوصية. وهو في خصوصيته تلك أشبه بالعقوبة منه بالعبادة.

أما مريم مكفولة زكريا فإن بشارة الله لها بكلمة منه اسمه المسيح عيسى فقد حان أوانها وبلغت أجلها بعد ستة أشهر بالتمام من حمل خالتها بيحيى، وضمن الدائرة الضيقة التي اعتادت التنقل فيها كخطيبة ليوسف

---

(١) سورة مريم، الآية: ١١.

النجار، ما بين بيت الله عاكفة على خدمته ما دامت طاهرة. وبيت زكريا في زمن حيضها، وخروجها من هذا وذاك لحاجة ضرورية من ضروريات الحياة كاستقاء ماء أو شراء وتحصيل غذاء، وتحديداً عند أول حيضة حاضتها عقب تلك الأشهر الستة من حمل خالتها، والقرآن وحده الذي أرخ لتلك البداية حيث قال تعالى:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾[1].

ينبىء سياق رواية القرآن بأن مريم قد اعتادت عقب كل حيضة الابتعاد عمن يكون معها في هذا الوقت. وفي مكان يقع بالتحديد إلى جهة الشرق من محل إقامتها، وهناك قعدت للاغتسال والتطهر من الحيض. مستترة ومتوارية بما يحجبها عنهم فلا تراهم ولا يرونها. وفي الدقائق التي أعقبت اغتسالها وطهرها، وهي على حالتها تلك من الانفراد والوحدة. أرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام في شكل وصورة من تعهده وتألفه من شباب زمانها. وضيء الوجه، قصير شعر الرأس، مستوي الخلقة، لا عيب فيه ولا شذوذ، جمع في شكله الذي رأته عليه بين كمال الحقيقة الإنسانية، وكمال الصورة البشرية. وذلك كي تستأنس بكلامه ولا تنفر عنه نفورها من كل من لا يشاكلها ولا يماثلها في الإنسية. ولو ظهر لها في صورته الحقيقية لنفرت منه وتباعدت عنه، بل ولما أطاقت النظر إليه فضلاً عن الاستماع لكلامه.

وبطبيعة الحال فإن الدخول المفاجىء لجبريل عليه السلام وعلى تلك الصورة الجميلة والفائقة الحسن قد شل تفكيرها وعطل قدرتها وإرادتها على الفعل والحركة، وظلت لبرهة قصيرة مشدودة إليه لا تعي من أمر نفسها شيئاً، فبادرها جبريل بالكلام قاصداً إزالة وحشة اللقاء الأول والتخفيف من هول المفاجأة، وإعادة تفكيرها إلى مجراه العادي، حتى تتماسك قواها وتتمكن من فهم واستيعاب ما سوف يلقيه عليها فقال لها:

---

(١) سورة مريم: الآيتان ١٦ ـ ١٧.

«سلام لك أيتها المنعم عليها، ليكن الله معك يا مريم، مباركة أنت في النساء»[1].

وعلى الرغم من محاولة جبريل عليه السلام تهدئة مريم، إلا أن وجوده قائماً بين يديها ومن غير سابق إنذار قد أحدث ارتياعاً شديداً في نفسها. واضطراباً بالغ التأثير على مجمل قواها. واتجه تفكيرها وتركز فيما حسبته بشراً اختبأ ليراودها عن نفسها. فبادرته هي الأخرى بالإنكار على ما توهمته من مراده وقصده المألوف من أمثاله في مثل خلوتها وحالتها بعيداً عن الأعين والرقباء فقالت له:

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾[2].

أرادت مريم بمبادرتها تلك أن تجعل الله تعالى ملجأ لها مما ظنته أو توهمته من سوء يقصدها، واختارت من صفات الله التي اتجهت إليها بالدعاء صفة الرحمٰن كي يرحمها الله بدفع من حسبته داعراً يريدها لنفسه، وهي موعظة له لتختم قولها بتذكيره أن يتقي الله ربه فيها، فقد علمت أن كل تقي ينتهي عن فعل المنكرات، إن كان بالفعل تقياً، قاصدة بالتشكيك في تقواه إلى تهييج خشيته من الله وحثه على العمل بتقواه. فكأنها أرادت القول:

- إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به، فإني عائذة وملتجئة بالله منك.

رد عليها جبريل نافياً كونه بشراً كما كانت تتصور، ومزيلاً في الوقت نفسه خوفها وخشيتها على نفسها مما كانت تظن به فقال:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[3].

وصف جبريل عليه السلام نفسه بأنه رسول من استعاذت به منه، ثم

---

(١) إنجيل لوقا ١ ـ ٢٨.

(٢) سورة مريم: الآية ١٨.

(٣) سورة مريم: الآية ١٩.

أسند هبة الله لها لنفسه، وجعلها من قبله، إذ الإعلام والإخبار بها جاء من قبله، فيكون بذلك سبباً في عطية الله، وهو في هذا وذاك وسيط ومأمور من الله ليكون سبباً في إنجاب غلام منزهاً من الخطايا والذنوب، وصالحاً يفيض خيراً وفضلاً.

ويكاد نص رد جبريل في القرآن لمريم يتطابق في مجمله مع رواية برنابا، حيث جاء فيه:

«لا تخافي يا مريم لأنك نلت نعمة من لدن الله الذي اختارك لتكوني أم نبي يبعثه إلى شعب إسرائيل ليسلكوا في شرائعه بإخلاص»[١].

عندئذ تيقنت مريم من أن محدثها مرسل من عند الله، ولكنها تعجبت من كلامه فقالت له مستفهمة:

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾[٢].

إن استفهام مريم لجبريل هو من قبيل المراجعة لربها في أمر يخرج عن حدود قدرتها وفوق طاقتها، ولكنها لم تستبعد من قدرة الله شيئاً كهذا، فقد أرادت الاطلاع على الكيفية التي يكون بها هذا الغلام، والصفة التي يوجد بها، أهو من قبل زوج في حاضر الزمان ومستقبله، أم يخلقه الله تعالى خلقاً بلا أسباب ومسببات، في ردها هذا كانت كالمتشائمة والمتبرئة من حدوثه، وعولت في تشاؤمها وتبرئها على أمرين:

الأول: أنها لم تعرف النكاح الحلال وبالتالي لم يبن بها زوج، بل هي مخطوبة ليوسف النجار، فإذا حملت اتهمها خطيبها وأهلها والناس أجمعين بالزنا.

الثاني: أنها ليست فاجرة ممن يبتغون الرجال في الحرام، لا في لحظة

---

(١) إنجيل برنابا ص٤.

(٢) سورة مريم: الآية ٢٠.

حديثها مع جبريل ولا فيما مضى، فلا ترضى لنفسها أن ترمى بالبغاء في مستقبل الزمان.

اقتصر جبريل عليه السلام في رده عليها بتهوين شأن خلق مثل هذا الغلام على الله فقال مجيباً على استفهامها وتعجبها:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾(١).

اكتفى جبريل عليه السلام في رده المقتضب تسهيل الأمر عليها من ناحيتين:

- من ناحية قدرة الله على إيجاد الغلام منها وإن لم يكن لها زوج، ولا تصدر منها فاحشة أو فجور.

- ومن ناحية أن ما اشتكت منه من توقع ضرر وأذى يلحق بها في حال إيجاده والطعن في شرفها، ليس بالأمر الجليل والعظيم إزاء ما أراده الله من هداية الناس به. والله تعالى لا يصرفه على إنفاذ أمره مما يمكن أن يعرض من ضر وأذى في سبيله لبعض عباده. لأن المصالح العامة للجميع مقدمة عنده على مراعاة المصالح الشخصية الخاصة.

وتعليل ذلك كله أن الله سيجعله دلالة وعلامة للناس على كمال قدرة الله وعظمته، فهو الذي خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى حاشا هذا الغلام فإنه سيخلقه من أنثى بلا ذكر رحمة من الله ونبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله وإلى صلاح الناس في دينهم ودنياهم.

ثم ختم جبريل عليه السلام كلامه بعبارة قاطعة لتلك المحاورة، ولأي مراجعة بعدها فقال:

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾(٢).

---

(١) سورة مريم: الآية ٢١.

(٢) سورة مريم: الآية ٢١.

أي ذلك هو ما قدره الله وسطره في اللوح المحفوظ ولا راد لقدره وقضائه. عندئذ أجابته مريم بكل خشوع وإذعان:

«أنا عالمة أن الله قدير وعظيم فليكن تقديره وقضاءه كما يشاء»[1].

عندئذ دنا منها جبريل وأخذ جيب قميصها ونفخ فيه من روح الله. فنزلت النفخة الإلهية سالكة طريقها إلى فرجها وولجت فيه حيث استقرت هنالك. وفيما جبريل يفعل ذلك والنفخة تشق طريقها إلى الرحم بمشيئة الله كان يقول لها:

«كوني حاملاً بالنبي الذي ستدعينه عيسى، فامنعيه الخمر والمسكر وكل لحم نجس، لأن الطفل قدوس الله»[2].

ويكاد قول جبريل السابق يكون تلخيصاً لما حكاه الله تعالى عند نزول القرآن على محمد ﷺ مبيناً الكيفية التي نفخت فيها الروح من رحم مريم، ومخبراً عن الطريقة التي خلق بها من رحمها، فيقول تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[3].

وعلى هذا فخلق عيسى وإيجاده قد تم بكلمة كن، أي أنه وجد بكلمة الله وأمره ألقاها على مريم، وحصلها فيها، وإطلاق الكلمة هنا على التكوين مجاز، فليس هو بكلمة ولكنه بالقدرة الإلهية. فيكون حدوثه متعلقاً بالقدرة لا بالكلمة، وفي الوقت نفسه روحاً من الله، وذلك لأن خلق من غير واسطة أب ولا نطفة، أو بمعنى أدق هو ذو روح وجد من غير جزء من ذي روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحي، بل اخترع اختراعاً، وبهذا امتاز عن بقية الخلق إذ أضيفت روحه لله تعالى، وذلك لأن تكوينه مخلوقاً حياً سوياً من رحمها كان يخالف الأسباب المعتادة في تكوين الأجنة.

---

(١) إنجيل برنابا ص٤.

(٢) إنجيل برنابا ص٤.

(٣) سورة النساء: الآية ١٧١.

ولما أحست مريم باستقرار النفخة الإلهية في رحمها، انحنت أمام جبريل لله تعالى بكل خضوع وتواضع وانكسار وهي تقول:

«ها أنا ذا أمة الله فليكن وفقاً لكلمتك»[١].

غادر جبريل عليه السلام المكان بنفس الطريقة التي دخل بها، وترك مريم وحيدة كما كانت، وفي رحمها نفخة من روح الله، فاتجهت في خلوتها ووحدتها لله تعالى ومصطفيها من بين نساء العالمين شاكرة وممجدة له ومقرة بفضله وما أسدى إليها من نعمة فقالت كالمناجية له:

«اعرفي يا نفسي عظمة الله، وافخري يا روحي بالله مخلصي، لأنه رمق ضعة أمته، وستدعوني الأمم مباركة، لأن القدير صيرني عظيمة، فليتبارك اسمه القدوس لأن رحمته تمتد من جيل إلى جيل للذين يتقونه، ولقد جعل يده قوية فبدد المتكبر المعجب بنفسه، وأنزل الأعزاء من على كراسيهم، ورفع المتصنعين، أشبع الجائع بالطيبات، وصرف الغني صفر اليدين، لأنه يذكر الوعود التي وعد بها إبراهيم وابنه إلى الأبد»[٢].

إن أكثر ما كانت تخشاه مريم وتتوجس منه خيفة هو ألا يلاقي حملها بعيسى قبولاً من أهلها ومن الناس أياً كانت حججها ومسوغاتها، فتردد حولها الشائعات والأقاويل، وترمى في النهاية بأقذع الصفات، كارتكاب الفاحشة والحمل سفاحاً من أحد الغرباء أو من خطيبها يوسف النجار الأمر الذي دفعها لمكاشفة يوسف أقرب الناس إليها بحملها، وساقت له الحجج والمسوغات المعارضة للعقل وأحكامه والمناهضة لعوائد الناس وأعرافهم، فعقد العزم على ألا يشهر بها بين الناس، ولكن استقر رأيه على التخلي عنها ومفارقتها بلا توان.

وفي الليلة التي عزم فيها على وضع حد نهائي وخاتمة سريعة في

---

(١) إنجيل برنابا ص٤.

(٢) إنجيل برنابا ص٤ ـ ٥.

علاقته بمريم، وبينما كان نائماً إذ بملاك الله يظهر له في الحلم ويوبخه على عزمه ورأيه قائلاً:

«لماذا عزمت على إبعاد امرأتك، فاعلم أن ما كون فيها إنما كون بمشيئة الله، فستلد العذراء ابناً، وستدعونه عيسى، وتمنع عنه الخمر والمسكر وكل لحم نجس، لأنه قدوس الله من رحم أمه، فإنه نبي من الله أرسل إلى شعب إسرائيل ليحول يهوذا إلى قلبه، ويسلك إسرائيل في شريعة الرب كما هو مكتوب في ناموس موسى، وسيجيء بقوة عظيمة يمنحها له الله، وسيأتي بآيات عظيمة تفضي إلى خلاص كثيرين»[1].

ويعقب برنابا وغيره من كتّاب سيرة عيسى من الحواريين على ما فعله يوسف صباح اليوم التالي مباشرة فيقول:

«ولما استيقظ يوسف من النوم شكر الله وفعل كما أمره ملاك الرب حيث أقام مع مريم كل حياته خادماً لله بكل إخلاص»[2].

أما وقائع إنكار يوسف لحمل مريم وعزمه على مفارقتها والانفصال عنها، ثم عدوله عن عزمه وقراره وملازمته لها بصرف النظر عما سوف يترتب عليه من تأكيد للأقاويل والأراجيف في حقه وحقها، فقد اتخذت في المصادر الإسلامية صورة مخالفة لرواية برنابا. ولكنها تتفق معها في الهدف والغاية، فيقول النيسابوري ملخصاً المعروف عنها من عدة روايات:

«فلما رأى يوسف من مريم الذي بها استعظمه واستفظعه، ولم يدر ماذا يصنع من أمرها. وكلما أراد أن يتهمها تذكر صلاحها وعبادتها وبراءتها وأنها لم تغب عنه ساعة واحدة، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل، فلما اشتد ذلك عليه كلمها فكان أول كلامه لها أن قال:

- لقد وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت أن أكتمه فغلبني ذلك ورأيت أن الكلام فيه أشفى لصدري.

(١) إنجيل برنابا ص٥.

(٢) إنجيل برنابا ص٥.

فقالت له:

- قل قولاً جميلاً.

قال لها:

- أخبريني يا مريم هل نبت زرع بغير زرع.

قالت:

- نعم.

قال:

- فهل نبتت شجرة بغير غيث؟

قالت:

- نعم.

قال:

- فهل يكون ولد من غير ذكر؟

قالت:

- ألم تعلم أن الله عز وجل أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، والبذر إنما يكون من الزرع الذي أنبته من غير بذر، ألم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث، وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعدما خلق الله كل واحد منهما على حدة. أو تقول أن الله لا يقدر أن ينبت الشجر حتى استعان بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباته.

قال يوسف لها:

- لا أقول هذا ولكني أقدر أن أقول أن الله يقدر على ما يشاء، يقول لشيء كن فيكون.

فقالت له مريم:

- ألم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى.

قال:

- بلى.

فلما قالت ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من أمر الله وأنه لا يسعه أن يسألها عنه وذلك لما رأى من كتمانها لذلك، ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل تعمل فيه لما رأى من رقة جسمها واصفرار بدنها وكلف وجهها وضعف قوتها»[١].

وبطبيعة الحال فإن حمل مريم بعيسى قد وضع نهاية ليس فحسب لمرحلة من عمرها قضتها كنذيرة لله في بيت المقدس، بل أيضاً لخدمتها وإشرافها عليه، فغادرت هي وخطيبها يوسف القدس إلى الناصرة مسقط رأسها، تصحبها الشائعات والأقاويل حول حملها المفاجيء سفاحاً من أحد الغرباء، أو من أحد الجنود الرومان الذين تعج بهم البلاد، ومن يشفق عليها ويحاول التلطيف من هول الاتهام وقوته ينسب الحمل إلى خطيبها، وهي أكثر الروايات شيوعاً، وفي الناصرة استقر بهما المقام في بيت والدها القديم، حيث واصل يوسف عمله كنجار ينفق منه على مريم وعلى نفسه، واعتكفت هي في البيت كالمعتزلة تعنى بشؤون نفسها ويوسف. اتقاء لألسنة الناس وتخفيفاً من نظراتهم الوقحة وضحكاتهم الساخرة التي تسري في بدنها كالسم الزعاف.

وبعد ثلاثة أشهر من مجيء جبريل لمريم، وفي اليوم الثلاثين من شهر بؤونة المبارك[٢]، وضعت أليصابات طفلها المبشر به ووليدها المرتقب. ومنذ اللحظة الأولى التي وقعت عينا زكريا عليه رآه وليداً «حسن الصورة، قليل الشعر، قصير الأصابع، مقرون الحاجب دقيق الصوت»[٣].

---

(١) قصص الأنبياء - النيسابوري ص ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٢) يوحنا المعمدان - السقا ص٥٣.

(٣) الكامل في التاريخ - ج (١) - ابن الأثير ص٣٠.

وسمع جيرانهم وأقاربهم بهبة الله لنبيهم فقدموا للتهنئة والمشاركة في الفرحة. وفي اليوم الثامن ووفقاً للعادة الجارية والسنة المتبعة اجتمع الأهل والأقارب لحضور مراسم الاختتان واختيار اسم للمولود، فاختتن، أما الاسم فقد اختاروا له اسم أبيه زكريا تيمناً وتبركاً وتخليداً لذكرى الشيخ الكبير، ولكن أمه اعترضت عليه قائلة:

«لا بل يسمى يوحنا (يهوحانان)»[1].

استغرب الجميع وتحيروا من اختيارها لهذا الاسم العجيب والذي لم يسبق إطلاقه على أحد، بل ليس هو من الأسماء الشائعة والمتداولة بينهم، فقالوا لها محاولين صرفها عن اختيارها وإثنائها عن عزمها:

«ليس أحد من عشيرتك تسمى بهذا الاسم»[2].

والاسم مكون من مقطعين يهو وهو اسم الله في اللغة العبرية، وحانان بمعنى يحن وحن وتحنن، فيفيد في مجموعه رحمة الله أو بركة الله، أو رزق الله، ولما خضع لقواعد اللغة العربية وطرق نطقها عرب فصار (يحيى)، ليحتفظ في نطقه باللسان العربي باسم العلم من جهة وبالأعجمية من جهة أخرى ككل الأسماء المعربة، وذلك لأن الياء حرف أصيل فيه، فإذا أضيفت إليه الحروف التي تضاف لأسماء الأعلام زالت علميته، وإذا بقيت كما هي عليه بقيت الاسمية موجودة فيه ومتضمنة للمعنى المراد منه.

ولعل تركيب الاسم من مقطعين وبهذه الكيفية الغريبة، ونسبة الوليد الفعلية لله تعالى حقيقة لا مجازاً هي التي أثارت عجب القوم وحيرتهم، فتناقلوه وشاع بينهم، وكثر تردده على الأفواه والألسنة ككل شيء غريب بخوف ووجل ولسان حالهم يقول:

«أترى ماذا يكون هذا الصبي»[3].

---

(١) إنجيل لوقا ١: ٦١.

(٢) إنجيل لوقا ١: ٦٢.

(٣) إنجيل لوقا ١: ٦٦.

أما زكريا عليه السلام فقد توجه يوم ميلاد يحيى لواهبه عز وجل شاكراً وداعياً بهذه العبارات:

«مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه. وأقام لنا قرن خلاص في بيت داود فتاه، كما تكلم بفم أنبيائه القديسين الذين هم من الدهر خلاص من أعدائنا، ومن أيدي جميع مبغضينا ليضع رحمة مع آبائنا ويذكر عهده المقدس، القسم الذي حلف لإبراهيم أبينا أن يعطينا أننا بلا خوف منقذين من أيدي أعدائنا، نعبده بقداسة وبر قدامه جميع أيام حياتنا. وأنت أيها الصبي نبي العلى تدعى، تتقدم أمام وجه الرب لتعد طرقه. لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم بإحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المشرق من العلاء، ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام»[1].

وبعد خمسة أو ستة أشهر من ميلاد يحيى على وجه التقريب أصدر القيصر الروماني أغسطس مرسوماً إمبراطورياً ينص على إجراء إحصاء عام للسكان، وكلّف الأمراء والملوك الخاضعين لسلطاته على تنفيذ المرسوم والقيام بالإحصاء، على ألا يتم كما جرت العادة وفقاً لمحل إقامة المواطنين، بل إلى حيث ينتمي المواطن أصلاً وأعطيت للجميع مهلة كافية للتواجد وقت الإحصاء كل في مسقط أو محل انتمائه القبلي والعشائري.

وتنفيذاً لهذا الشرط تحرك يوسف ومريم في شهر ديسمبر من الناصرة قاصدين بيت لحم في منطقة اليهودية حيث كان هيرودتس ملكاً عليها. وذلك لأن يوسف كان ينتمي إلى عشيرة داود، ورافقته مريم وهي في أيام حملها الأخيرة لكونها هي الأخرى من سبط داود. وكان الوقت عندما تحركا شتاء والبرودة قارصة، وما بين الفينة والأخرى تتساقط الثلوج فترفع من حدة البرودة، وتجعل الحركة شاقة وعسيرة.

استغرقت رحلتهما من الناصرة إلى بيت المقدس وفي هذا الشتاء وقتاً

---

(١) إنجيل لوقا ١: ٦٨ ـ ٧٩.

ليس بالقصير. ومن القدس سلكوا الطريق المؤدي إلى بيت لحم والذي يمر من أمام قصر هيرودتس الضخم، فألقيا عليه نظرة عابرة، وتابعا سيرهما إلى أن وصلا مكاناً يسمى بيت هاكرم حيث حطا رحالهما لفترة طلباً للراحة والاستجمام، ثم تابعا السير إلى بيت لحم. وعند وصولهما إلى حافة القمة والتي منها ينحدر الطريق مباشرة إلى المدينة، شاهدا على البعد بيت لحم كمدينة صغيرة وبسيطة محاطة بسور حجري فوق هضبة صغيرة مرتفعة، ومن حولها أودية سحيقة، وفوق السور الحجري يرتفع نحو السماء برجان للحراسة والمراقبة واحد من الجهة الشرقية والآخر من الجهة الغربية.

وفي بيت لحم بدأ يوسف في البحث عن مأوى ينزلان فيه لحين الاكتتاب، ولكن المدينة الصغيرة كانت تعج بالغرباء أمثالهم ممن اضطرهم شرط الإحصاء للإقامة المؤقتة فيها. وكان الخان الوحيد ممتلئاً بالقادمين الجدد، فلم يعثرا فيه على محل يأويهما. ونظراً لفقرهم لم يجدا من يقبلهما أو يضيفهما في بيته من سكان المدينة، فاضطرا لمغادرة المدينة قاصدين ضواحيها، وفي نزل صغير أُعد كمأوى لضيافة الرعاة الفقراء الذي يتجولون بأغنامهم بين مدن اليهودية وجدا مكاناً لا في داخل النزل نفسه، فقد كان هو الآخر ممتلئاً بالغرباء والرعاة. وإنما في واحد من الاصطبلات المعدة خصيصاً لدواب النزلاء.

يحتوي الإصطبل الذي آوى إليه يوسف ومريم على أغلب مستلزمات المواشي والدواب في حظائرها، كالمعلف وأواني شرب متفرقة هنا وهناك، ويتناثر على الأرضية روث البهائم والحشائش والأعشاب الجافة والمبتلة، وعلى الجدران علقت الحبال والأقمشة القديمة والسيور الجلدية وقطع الحديد بغير نظام ولا ترتيب. وفي جانب قصي من الإصطبل يعد بالقياس إلى غيره نظيفاً ويتوفر فيه قدر كبير من الدفء انتصب ساق نخلة يابسة كلها سعفها وجريدها وكرانيفها. وإلى جوار هذه النخلة افترشت مريم الأرض وهي تعاني من رطوبة المكان وبرودة الطقس. واستمرت هي ويوسف على هذه الحالة بضعة أيام.

وفي منتصف ليلة الأحد ٢٥ ديسمبر والذي يوافق ليلة ثلاثة عشرة مضين من ذي القعدة. اجتاحت مريم الآلام الطلق وأحست بحركة الجنين في بطنها. فاضطرت من شدة الوجع إلى التعلق والاستناد إلى ساق النخلة في محاولة منها للاعتماد عليها عند الولادة وبينما يديها ناشبة وقابضة بقوة على أصول قضبان ساق النخلة من شدة الآلام، والعرق يتصبب غزيراً من جسمها خرج عيسى للحياة. فانقطعت بخروجه الآمها وسكنت أوجاعها.

إن الآلام والأوجاع التي تعرضت لها مريم، وولادة عيسى بعيداً عن الأهل والوطن أوصلتها إلى حالة من الغم وخشونة النفس والكآبة تمنت معها الموت، بل رأت أن الموت أهون عليها مما هي فيه فقالت:

﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[1].

أرادت مريم بقولها قبل هذا الحمل لا الولادة نفسها، وذلك حتى لا يتطرق أحد إلى عرضها بطعن، ولا تجر على أهلها معرة، ولم تكن ترجو أو تتمنى الموت فقط بعد الحمل، لأن الموت حينئذ لا يدفع عنها الطعن في عرضها ولا المعرة على أهلها، بل تمنت لو كانت شيئاً حقيراً وتافهاً، لا يعرف ولا يذكر ولا يؤبه له، شيئاً من شأنه أن ينسى أو يطرح ولا يتألم أحد لفقده. ولا يلتفت إلى ما حل به تماماً كسقط المتاع، أي هي تمنت الموت وانقطاع الذكر بين أهلها قبل وصولها إلى هذه الحالة النفسية السيئة.

وأثناء تلك المعاناة القاسية من الحزن والكرب نادى عيسى أمه، وقيد القرآن الكريم تلك المناداة بقوله:

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾[2].

أي بادرها بالكلام وهي في وضع أعلى منه، وهو أسفل منها أو تحتها مباشرة، وذلك بعد قولها السابق، وقبل أن تستوي واقفة للعناية به وتنظيفه، فقال لها:

---

(١) سورة مريم: الآية ٢٣.

(٢) سورة مريم: الآية ٢٣.

﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾[1].

رسم عيسى لأمه وهي على تلك الحالة من المعاناة النفسية ومن الضعف والوهن ما يجب عليها عمله بلا إبطاء، تسكيناً لقلبها وتسلية لها وبشارة من الله تعالى، وآية ومعجزة، وتذكيراً لها بمعية الله لها دائماً وأبداً، فلا تأسى على ما مضى ولا تحزن مما هي فيه، فإن الله قد أجرى لك نهراً صغيراً شبيهاً بالجدول من ماء عذب للشراب، وفاتراً ما بين البارد والحار للاستخدامات الأخرى، وحركي ساق النخلة بقوة وشدة تطرح عليك فوراً بلحاً ناضجاً وغضاً طرياً، قد طاب وصلح للقطف. فكلي منه، واشربي من ماء النهر الجاري، وطيبي نفساً بما أنت فيه فلا تنزعجي ولا تضطربي، ومهما رأيت أحداً من البشر فقولي إنك قد نذرت لله صوماً عن الأكل والشراب، فلن تكلمي اليوم أحداً، فإن ابنها سيكفيها الكلام وينوب عنها فيه ليبرىء ساحتها، وكراهة في مجادلة السفهاء والمتهمين لها بالفحشاء والمنكر.

وتقيدت مريم بحديث ابنها وهو في الدقائق الأولى من عمره، فحركت ساق النخلة بيديها فتساقط عليها الرطب ليناً طرياً، فأكلت منه حتى شبعت، وشربت من ماء النهر حتى ارتوت، فهدأ روعها وسكنت نفسها وانزاحت عنها خشونة النفس، ثم رفعت عيسى وضمته إلى صدرها، ثم وضعته بين ركبتيها لتزيل من جسمه ما علق به من دماء، ثم لفته بأقمطة. وبعد أن اطمأنت إلى سلامته وضعته في واحد من المعالف الموجود بقربها طلباً لمزيد من الدفء والوقاية من البرد القارص، وعمد يوسف إلى حطب ووضعه بالقرب منها ثم أشعل فيه النار لتصطلي بها.

فإذا كان كلام عيسى في مستهل حياته يحمل في طياته براءة لأمه

---

(١) سورة مريم: الآيات ٢٤ ـ ٢٦.

وبشارة لها وآية ومعجزة للجميع، فإن الإعلان عن ميلاده. والإعلام بولادته لخاصة قومه قد تكفل بها ملائكة الله، ففي الوقت الذي خرج فيه للحياة، وضمن حدود المنطقة التي شهدت تلك الأحداث، كان هناك مجموعة كبيرة من الرعاة يسهرون كعادتهم في حراسة أغنامهم، وإذا بنور باهر شديد اللمعان والضياء يغمر المكان، ويحيط بهم من كل ناحية، نور بلغ من شدة تألقه حداً شد أنظارهم وأثار دهشتهم وحيرتهم. وظلت أعينهم تدور فيه وتنتقل حوله بلا معنى، وفجأة خرج من خلاله ملاك، عندها ارتاع الرعاة ارتياعاً شديداً، وأوشكت قواهم النفسية والجسدية على التلاشي والسقوط. لو لم يبادرهم الملاك باللغة واللسان المتداول بينهم قائلاً:

«لا تخافوا. ها أناذا أبشركم بفرح عظيم، لأنه قد ولد في مدينة داود طفل نبي للرب الذي سيحرز لبيت إسرائيل خلاصاً عظيماً، وتجدون الطفل في المذود (المعلف) مع أمه التي تسبح لله»[١].

وما أن استقرت تلك الكلمات الملائكية في نفوسهم، ووعتها أذهانهم، وحفظتها ذاكرتهم حتى ظهر بغتة فريق عظيم من الملائكة يسبحون الله ويترنمون بترنيمات جميلة، ويبشرون الناس جميعاً لا خاصة قوم المولود بهذه البشارة، وهي وحدها التي تمكن الرعاة من حفظها ونقلها للناس ضمن تلك التسابيح والترنيمات:

«الحمد لله في الأعالي، وعلى الأرض الإسلام، وللناس أحمد»[٢].

ولما انصرف ملائكة الله وانطفأ النور الباهر، وعادت الظلمة تغمر المكان، دار حديث بين الرعاة حول هذا المولود، ليتمحور في النهاية حول ضرورة الذهاب إلى بيت لحم للتحقق من إعلان الملائكة ورؤية الطفل وأمه. وبالفعل حضر إلى اصطبل النزل مجموعة من الرعاة، فوجدوا الطفل كما وصف لهم مضجعاً في المعلف، وأخبروا أمه بكل ما سمعوه والكلام

---

(١) إنجيل برنابا ص٧.

(٢) الإنجيل والصليب ـ عبدالأحد داود ص٤٩.

الذي قيل فيه، وبشارة الملائكة للناس أجمعين.

وظلت مريم طوال الوقت صامتة تتابع كلام الرعاة بانتباه وفرح وسرور، وأسرت ما سمعت ورأت واحتفظت به لنفسها، وعاد الرعاة إلى حظائر قطعانهم، وهم يخبرون كل من صادفهم في طريقهم في هذه الليلة أو في الأيام التالية بحقيقة ما رأوا وسمعوا. فانتشر الخبر بسرعة البرق ليعم الناس وعلى امتداد مقاطعة اليهودية. وليقف كل منهم متسائلاً:

«يا ترى ما سيكون عليه هذا الطفل»[1].

أمضت مريم سبعة أيام بكاملها في ذلك الاصطبل. استقرت فيها أحوالها وزال قلقها واطمأنت خلالها إلى آيات ربها، وتيقنت من أن الله سيبرىء ساحتها ويكشف عذرها. ومع إشراقة شمس اليوم الثامن واتباعاً لأمر أبيهم إبراهيم، ووفقاً لسنة موسى وشريعة التوراة خرجت هي وابنها بصحبة يوسف النجار قاصدين بيت المقدس لاختتان الطفل، مؤجلين مشاركتهم في الإحصاء العام لحين عودتهم، وذلك يعني عودتها إلى أهلها وقومها وموطنها الثاني، وهي العودة التي أرخ لها القرآن بقوله:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾[2].

فلما رآها قومها وأهلها قادمة إليهم وهي تحمل طفلاً حديث عهد بالولادة حزنوا وأعظموا أمرها، كيف لا وهم أهل تقوى وصلاح وبعد عن الشبهات كبيرها وصغيرها، فقالوا لها منكرين ومستنكرين:

﴿يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[3].

بادر القوم مريم بمجرد رؤيتهم للطفل الرضيع بأنها أتتهم بأمر عظيم عجيب ونادر الحدوث، ويعد في سوئه وشناعته خارق لعوائدهم. وزيادة في

---

(١) إنجيل برنابا ص٧.

(٢) سورة مريم: الآية ٢٧.

(٣) سورة مريم: الآيتان ٢٧، ٢٨.

التوبيخ والإنكار خاطبوها بالإضافة إلى هارون عليه السلام، وشبهوها به في العبادة والصلاح ليمعنوا به في لومها وتأنيبها وتقريعها على ما أبدعته، ليثنوا من بعده على والديها معيدين على مسامعها قولهم السابق وهو إتيانها بفعل قبيح. وهي من بيت طيب وطاهر ومعروف بالصلاح والعبادة، فلم يكن أبيها مفسد، ولم تكن أمها فاجرة ولا مرتكبة للفواحش، فخالفت بفعلتها سيرتهم، فكانت امرأة سوء وبغياً ومبتكرة للفاحشة ومبدعة للمنكر، في حين كان يفترض منها الصلاح والتقوى مثل والديها.

التزمت مريم الصمت التام إزاء تقريع القوم وإنكارهم وتوبيخهم الجارح لكرامتها، واكتفت فقط بالإشارة إلى ابنها إشارة دالة على أنها تحيل إليه الكلام، وهو الذي يجيبهم إذا خاطبوه، ويرد عليهم إذا استنطقوه، فقالوا متهكمين بها وظانين أنها تزدري بهم وتسخر منهم وتستخف بعقولهم:

﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾[1].

استفهم القوم استفهام في معنى الإنكار، أي أنكروا عليها كلام من ليس من شأنه الكلام، كما أنكروا أيضاً إحالتها في الجواب على طفل لا يعقل الخطاب ولا يميز. فكيف يترقبون الجواب من وليد لا يزال في حجر أمه، ومتى كان عهد الناس بالكلام مع الأطفال الرضع قبل ابنها وفي سالف الزمان حتى يكلم هذا كلام البالغين.

وعندما أذن الله تعالى لعيسى بالكلام اعتدل في حضن أُمه متخذاً بين يديها وضعاً طولياً، ثم أشار إليهم بسبابته اليمنى قائلاً:

﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾[2].

اعترف عيسى في مفتتح حديثه وبداية نطقه وعلى الملأ من قومه

---

(١) سورة مريم: الآية ٢٩.

(٢) سورة مريم: الآيات ٣٠ ـ ٣٣.

بعبوديته لله تعالى. وبناء على تلك العبودية أورد ما قدره الله وقضاه له منذ الأزل وفي حاضر الزمان ومستقبله، حيث أنزل عليه كتاباً متضمناً شريعته لقومه، وأقامه لهم نبياً ورسولاً يدعو إلى عبادة الله وحده، وجعل البركة والنفع مقرونة على الدوام بأعماله وأحواله، حتى صار حلوله في أي مكان مدعاة لخير الناس وهدايتهم وتوفيقهم، وإذا لقيه الجهلة والقساة والمرضى والمفسدون انقلبوا صالحين وانفتحت قلوبهم للإيمان وحين بلوغه سن التكليف فهو مأمور على جهة التأكيد والديمومة بأداء وظيفة العبد المكلَّف كالصلاة والإحسان إلى الخلق بالزكاة مدة حياته بلا توقف أو انقطاع.

وإذا كان الله تعالى قدر له طاعة والدته والإحسان إليها والوفاء بحقوقها عليه، فلم يجعله متعظماً ومتكبراً، ولا فظاً غليظ القلب، ولا مقطوع الرجاء في عمل الخير، بل لا يصدر منه عمل أو قول ينافي أمر الله فيكون من الخاسرين في الدنيا والآخرة. ثم ختم كلامه منوهاً بكرامته عند الله وثنائه عليه مستخدماً عبارة السلام مبالغة منه في تعلق السلم والسلامة به من الله في الأحوال الثلاثة، حياً في الدنيا، وميتاً في القبر، ومبعوثاً في الآخرة.

انبهر القوم بنطق عيسى وهو في حضن أمه، وخرست ألسنتهم على الرد والكلام. وأذعنوا مكرهين للآية والمعجزة الربانية الخارقة للعادة، وأيقنوا بصدق مريم وبراءة ساحتها، واصطفاء الله تعالى لها، ومن ثم ذهبت ظنونهم وشكوكهم بل وإنكارهم وتهكمهم أدراج الرياح، مما أتاح لها إجراء الختان على ابنها بلا عقبات أو مضايقات، فقدمت وكما تقضي التوراة ذبيحة من الطيور، وسمت ابنها عيسى كما أمر الله تعالى.

وبينما مريم ويوسف يقومان بتلك الإجراءات داخل الهيكل دخل عليهما رجل من ذوي البر والتقوى اسمه سمعان، فحمل الطفل على ذراعيه وتوجه لله تعالى بالخطاب قائلاً:

«الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام. لأن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب نور إعلان للأمم ومجداً

لشعبك إسرائيل»[1].

تعجبت مريم من دخول الرجل المفاجىء عليهم وكأنه على معرفة سابقة بهم، ومن قوله في ابنها، فقال لها:

«ها إن هذا قد وضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تقاوم، وأنت أيضاً يجوز في نفسك سيف، لتلعن أفكار في قلوب كثيرة»[2].

قضت مريم ويوسف وعيسى ليلتهما تلك في بيت المقدس وفي صبيحة اليوم التالي توجهوا إلى مقر إقامتهم في نزل الرعاة، استعداداً ليوم الإحصاء والاكتتاب.

ومهما يكن من أمر فإن حركة انتقال عيسى إلى بيت المقدس وعودته مرة أخرى إلى بيت لحم لم تكن لها أي أهمية في محيطه الاجتماعي تعادل أهميتها في فارس ولدى علماء المجوس على بعد ألوف الأميال، إذ كان المجوس يتوقعون وبعد رحيل نبيهم زرادشت ظهور نبي يبعثه الله إعداداً لمبعث الرسول الخاتم، كما أخبرهم نبيهم، وقد حدد لهم كعلامة لميلاده ظهور نجم مضيء ومتألق، ولذلك كان علماؤهم يرصدون حركة النجوم في السماء ترقباً لظهور هذا النجم.

وفي الليلة التي ولد فيها عيسى ظهر النجم ورآه في بلدة سابا الفارسية ثلاثة من علماء المجوس هم بلداسار وجسبار وملكيور. وبمجرد وصول الخبر إلى السلطة الدينية في فارس، استقر الرأي على إرسال بعثة تحمل هدايا وقرابين للوليد. وتكونت البعثة من هؤلاء الثلاثة، فحمل الأول منهم صرة من لبان، والثاني صرة من مر، والثالث صرة من ذهب، ثم اتجهوا غرباً صوب فلسطين يهديهم في حلهم وترحالهم ذلك النجم.

وفي الليلة التي قضاها عيسى في بيت المقدس تبدى لهم النجم فوق المدينة، فدخلوها نهار اليوم الذي غادرها فيه إلى مسقط رأسه، وكانت أزياؤهم وغرابة ملامحهم من أكثر الأشياء التي لفتت إليهم الأنظار وأثارت

---

(١)(٢) إنجيل لوقا ٢: ٢٩ ـ ٣٥.

الانتباه. وبلا مقدمات بادروا من صادفهم من سكان المدينة وكأن الأمر من البديهيات المسلم بها بين القوم متسائلين:

- أين ولد ملك اليهود، فإننا رأينا نجمه في المشرق.

فاستغرب الناس من هؤلاء الأغراب الذي يسألون عن شيء يعد من صميم عقيدتهم، ويكشفون عن فكرة وأمل ظل الجميع وعلى مدى الأجيال يتشوقون إليها، فسرى الخبر سريان النار في الهشيم، محدثاً اضطراباً هائلاً في المدينة، وبلغ ما يشاع إلى هيرودتس. فاضطرب هو الآخر وانزعج وذعر وعلى جناح السرعة جمع رؤساء الكهنة والكتبة وكل عارف وعالم بمبعث مخلص لليهود ومنقذ لهم، حيث سألهم قائلاً:

- أين يولد المسيح المخلص.

فأجابوه إجابتهم عن سؤال يعد من مسلمات دينهم وعقيدتهم:

«أنه يولد في بيت لحم لأنه مكتوب في النبي هكذا. وأنت يا بيت لحم لست صغيرة بين رؤساء يهوذا لأنه سيخرج منك مدبر يرعى شعب إسرائيل»[١].

عندئذ أمر هيرودتس باستدعاء المجوس الثلاث، وحقق معهم بنفسه عن مغزى مقدمهم من تلك البلاد البعيدة، ومعنى سؤالهم، وعن الوقت الذي ظهر لهم فيه النجم، فأجابوه عن أسئلته بتجرد وصدق، ودون أن يخفوا عنه شيئاً، حتى أنه عندما سألهم كالمستدرك عن هداياهم، ولماذا وقع اختيارهم على الذهب والمر واللبان دون غيرها أجابوه بلا تردد قائلين:

«تلك الهدايا أمثاله، لأن الذهب سيد المتاع كله وكذلك هذا النبي سيد أهل زمانه، ولأن المر يجبر به الكسر والجرح وكذلك هذا النبي يشفي الله به كل سقيم ومريض. ولأن اللبان دخانه يدخل السماء ولا يدخلها دخان غيره، وكذلك هذا النبي يرفعه الله إلى السماء ولا يرفع في

---

(١) إنجيل برنابا ص٨.

زمانه أحد غيره»[1].

أشاع رد المجوس المخاوف في نفس هيرودتس، وارتاع وذعر أكثر من ارتياعه وذعره لدى سماعه ما كان يتناقله الناس فخل سبيلهم، ولكنه أضمر ليس فقط أن يتخذهم وسيلة ترشده وتقوده إلى موضع الطفل، بل أيضاً أضمر شراً لمن يريد تبوأ مركز القيادة ويحل محله، فقال لهم بنبرة تنطوي على المكر والخداع:

«اذهبوا إلى بيت لحم وابحثوا بتدقيق عن الصبي. ومتى وجدتموه تعالوا وأخبروني لأني أنا أيضاً أريد أن أسجد له»[2].

ولما كانت حركة المجوس في بحثهم عن عيسى مقيدة بالنجم المتألق في السماء، فقد انتظروا حتى حلَّ عليهم الليل، وإذا بالنجم يظهر لهم منحرفاً قليلاً جهة الجنوب، وبإزاء بيت لحم تماماً. فامتلأوا بالبشر والفرح. ومن ثم ارتحلوا في ليلتهم تلك تجاه المدينة، والنجم كالعادة هاديهم وقائدهم إلى أن توقف فوق الموضع الذي ولد فيه عيسى. فدخلوا عليه حيث وجدوه راقداً بجوار أمه، فانحنوا وسجدوا له، ثم قدم كل منهم هديته. وأثناء جلوسهم القصير قصوا على مريم الدافع الذي حدا بهم إلى قطع كل هذه المسافة لرؤية ابنها، وما جرى لهم مع هيرودتس.

أقام المجوس بقية الليلة بجوار عيسى، وأثناء نومهم ظهر لهم الطفل في رؤيا وهو يحذرهم ويخوفهم من الذهاب إلى هيرودتس إيفاء بوعدهم له، أو المرور على بيت المقدس في عودتهم، ومع إشراقة شمس اليوم التالي تجنبوا في سيرهم طريق القدس، وساروا على طريق بيت ساحور، وهو أبعد نسبياً عن طريق قدومهم وأقل وعورة من سواه. وهناك - أي في بيت ساحور - اختبأوا في مغارة تبعد بضعة كيلومترات شرقي بيت ساحور على الطريق الروماني القديم الذي يربط بيت لحم

(١) قصص الأنبياء - النيسابوري ص٣٧٦.

(٢) إنجيل برنابا ص٨.

بنهر الأردن، ومنها يمموا وجههم شرقاً نحو بلادهم.

ظن هيرودتس وكنتيجة طبيعية لتأخر المجوس، وتوارد الأخبار بعودتهم إلى بلادهم أنهم عثروا على الطفل وتعمدوا لأسباب يجهلها التستر عليه وكتمان أمره، سخرية به واستهزاء منه، فعقد النية على قتل كل الأطفال حديثي عهد بالولادة، سواء في بيت لحم أو في غيرها من المدن والقرى المحيطة ببيت لحم ممن هم دون العامين في العمر. وبدون تفريق أو تمييز، وأداً للفكرة والحلم الإسرائيلي في مهده، ولكن الله تعالى قدر شيئاً آخر. فبينما كان يوسف النجار غارقاً في نومه ذات ليلة ظهر له ملاك الله في حلم يأمره قائلاً:

«انهض عاجلاً وخذ الطفل وأمه واذهب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودتس يريد أن يقتله»[1].

امتثل يوسف لأمر الملاك فنهض في ليلته تلك خائفاً، وبلا تردد أو تلكؤ أخذ مريم وابنها وتسللوا خارج الاصطبل والنزل وبيت لحم كلها دون أن يحس أو يشعر بهم أحداً. وفي الوقت الذي كانوا يغذون السير صوب مصر، أرسل هيرودتس جنوده لقتل كل الأطفال الذكور المولودين حديثاً في بيت لحم، فاندفع الجنود القساة على البيوت يقتلون بلا شفقة ولا رحمة كل طفل. بحيث قتل من جراء همجيتهم وهواجس هيرودتس ومخاوفه كل الأطفال الذكور الذي تصادف ميلادهم مع ميلاد عيسى.

وسمعت أم يحيى بعمليات القتل الوحشية الجارية في بيت لحم، فخافت من امتدادها إلى القدس. ولذلك خرجت متسللة من المدينة دون أن تخبر زوجها زكريا لاجئة إلى الجبال. وعندما أرسل هيرودتس إلى زكريا يطالبه بتسليم الغلام الذي ذاع أمره بين الناس وجد أن زكريا لا علم له بمكانه، ولا يدري شيئاً عن الوجهة التي قصدتها زوجته، وكان صادقاً في قوله، ولكن هيرودتس لم يصدقه، فأمر بقتله في الحال. فقتل في محرابه

---

(١) إنجيل برنابا ص٩.

وداخل بيت الله. ومنذ ذلك الوقت اتخذ يحيى وأمه الجبال والأودية مأوى وسكناً لهم. وبعد ستة أعوام ماتت الأم. وعاش ابن الأعوام الستة وحيداً ويتيماً في البرية حتى يوم مبعثه.

أما عيسى وأمه ويوسف فقد أقاموا في الديار المصرية فترة من الزمان تقدر بنحو سبعة أعوام، لم تتخللها أي أحداث جديرة بالرصد والتاريخ. أو يحدثوا هم من جهتهم شيئاً يلفت النظر والانتباه إليهم، والوقائع البسيطة التي وردت في المصادر الإسلامية موضوعة ومفتعلة، وتعد من خوارق العادات، ويسودها التكلف، وتغلب عليها الصنعة لتنسجم مع الوقائع التي جرت إبان فترة نبوته وظهور الخوارق منه، من بينها الرواية التالية:

«استأجر يوسف داراً من أحد التجار أو حاكم إحدى المقاطعات. وكان داره معدة أصلاً كمأوى للفقراء والمساكين، ولا يسكنها سوى الضعفاء والمحاويج. وذات يوم افتقد صاحب الدار مالاً من خزانته، ولم يدر من أخذه كما لم يتهم أحداً من السكان والمستأجرين، فحزنت مريم لمصيبته، وشق على الناس وعلى صاحب الدار وأعياهم الأمر. فلما رأى عيسى حزن أمه قال لها:

- أتحبين أن أدله على ماله؟

قالت:

- نعم يا بني.

قال لها:

- قولي له يجمع المساكين في داره.

فقالت مريم لصاحب الدار ذلك، فجمع له المساكين، فلما اجتمعوا عمد إلى رجلين منهم أحدهما أعمى والآخر مقعد، فقال للأعمى:

- احمل هذا المقعد وانهض به.

فقال الأعمى:

- أنا ضعيف ولا أستطيع ذلك.

فقال له عيسى:

- بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما هذا المال من كوة الخزانة.

فلما سمعوه يقول ذلك ضربوا الأعمى حتى قام. فقال عيسى لصاحب الدار:

- هكذا احتالا على مالك البارحة، لأن الأعمى استعان بقوته والمقعد بعينيه.

فقال الأعمى والمقعد:

- صدق والله.

فردا عليه ماله كله فأخذه ووضعه في خزانته.

ثم لم يلبث صاحب الدار أن أعرس لابن له، فعمل ضيافة للناس وأطعمهم وسقاهم. فلما انقضى العرس زاره قوم من أهل الشام. ولم يعلم حتى نزلوا به وليس عنده شراب ولم يجد في جراره شيئاً فشق عليه. فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتاً من بيوته فيه صفان من جرار، فجعل يمشي على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها، فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شراباً من خيار الشراب حتى أتى على آخرها، فتعجب الناس من ذلك جداً وعظموه»[١].

ولما بلغ عيسى السابعة من عمره مات هيرودتس، وإذا بملاك الله الذي ظهر ليوسف في بيت لحم منذراً ومحذراً، يظهر له هذه المرة مبشراً، فقال له:

«قم وخذ الصبي وأمه وعد إلى أرض إسرائيل لأنه مات الذي كان يريد موت الصبي»[٢].

---

(١) قصص الأنبياء ـ ابن كثير ص٤٥٧ ـ ٤٥٨، وقصص الأنبياء ـ النيسابوري ص٣٨٠.

(٢) إنجيل متى ٢: ٢٠.

وكالعادة امتثل يوسف لأمر الله وحمل عيسى وأمه على حمار حتى جاء بهما إلى القدس. حيث علم أن أرخيلاوس بن هيرودتس قد نصبه الرومان حاكماً على اليهودية خلفاً لوالده. فتوجس خيفة من جراء هذا الانتقال الوراثي للحكم من منطقة شهدت عمليات قتل واسعة النطاق للأطفال من أجل السلطة، وشعر بقلق لبقائهم في اليهودية. ولأجل ذلك ذهب إلى منطقة الجليل متخذاً من الناصرة مسقط رأس مريم سكناً لهم جميعاً.

تقع المنطقة التي لجأ إليها يوسف وأسرته ـ كما بينا ـ بين سهل البحر الفسيح ووادي الأردن العميق وتنقسم جغرافياً إلى قسمين يفصلهما سهل يزرعيل. القسم الجنوبي منها يتكون أغلبه من التلال الكلسية، وهي أرض اليهودية. والقسم الشمالي هو أرض الجليل، وفي وسط هذه التلال جرف يفضي إلى مدخل واد صغير يؤدي إلى ممر ضيق عميق ينفرج يميناً إلى منبسط أرضه حوالي ربع ميل مقسم إلى حقول صغيرة وحدائق مسورة، ثم ينفرج المنبسط رويداً رويداً حيث ينتهي إلى مدرج طبيعي من التلال يعلوه تل مرتفع تنتشر على قمته الشوارع الضيقة والسطوح المنبسطة لمدينة صغيرة هي الناصرة.

والناصرة تقوم أصلاً على جبل مرتفع تطل قمته على جبل حرمون من الشمال، وجبل الكرمل من الغرب وجبل طابور من الشرق، كما تطل على مرج ابن عامر، وتبعد الناصرة أربعة عشر ميلاً إلى الغرب من بحر الجليل (بحيرة طبرية) وتسعة عشر ميلاً شرقي عكا، وستة وثمانين ميلاً إلى الشمال من القدس.

استقرت مريم وأسرتها على الأرجح في منزل والديها، وهو أحد المنازل العادية والشبيه في بنائه وشكله بسائر منازل الناصرة، وفيه عاشت حياة بسيطة، وكانت مثلها مثل سائر النساء تضطلع بالأعمال المنزلية كالغزل وإعداد الطعام وشراء مستلزمات الأسرة وضرورياتها وجلب الماء من النبع الوحيد، حاملة جرتها الخزفية على كتفها أو رأسها. أما يوسف فكان يشتغل

بالنجارة في حانوت، يساعده عيسى ويتعلم منه، وبجانب ذلك كان يتردد أسوة بغيره من الأطفال على كتاب الناصرة ليتعلم القراءة والكتابة.

وعلى أي حال فقد عاش عيسى وتربى في الناصرة كما يتربى ويعيش أمثاله من أطفال اليهود، ولكن وكنتيجة طبيعية لاصطفاء الله له واختياره نبياً ورسولاً فقد أظهر في طفولته ما يدل على امتيازه وتفرده على أقرانه في الصفات والأحوال والخصائص، حتى تحول بينهم إلى نسيج وحده، واشتهر في محيطه الاجتماعي كنموذج حي فريد على الكمال الخلقي والسمو الروحاني والبعد التام عن القبائح والتنزه المطلق عما يشين، وعلى كثرة احتكاكه بالناس من حوله واختلاطه بهم ليل نهار لم يجد فيه أحد عيب أو نقص يلصقه أو يصفه به، اللهم إلا كونه ولد من غير أب، أو لا يعرف له أحد أب على وجه التحديد فوسم بابن البغية وتداول اليهود الاسم بينهم حتى غدا كالعلم عليه وهو الذي ذكره الله تعالى كفرية مختلقة من افتراءاتهم على أمه الطاهرة البتول، فقال تعالى:

﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾[١].

قضى عيسى في الناصرة زهاء ثلاث وعشرون عاماً لم يغادرها أو يخرج منها إلا للذهاب إلى بيت المقدس ومرة واحدة كل عام برفقة أمه ويوسف للمشاركة في عيد الفصح والحج معاً. وظلت هذه الحقبة الطويلة والتي نمى فيها طفلاً وشاباً ورجلاً مجهولة تماماً في تاريخه وسيرته الذاتية، وأضربت عن الإشارة إليها المصادر الإسلامية والمسيحية إضراباً شاملاً، وكأنها ليست من عمره. وأعرضت عن ذكرها إعراضاً ينبيء بعدم وجود أي ذكر لها على الإطلاق في أي مصدر تاريخي معروف أو مجهول، والنذر اليسير الذي أرِّخ له يغطي فترات قصيرة جداً من عمره، إما إبان تلقيه العلم في الكتاب، أو لدى مشاركته لأقرانه اللعب في شوارع الناصرة، وصيغت وقائعها ـ كما قلنا من قبل ـ في قالب يطغى عليه عنصر الصنعة والافتعال،

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٧.

والرواية الوحيدة الخالية من الصنعة، وبعيدة عن التكلف، ومقبولة عقلاً وراجحة إمكاناً وفعلاً جرت وقائعها وكان له من العمر اثنتي عشرة سنة، ووردت في المصادر المسيحية على النحو التالي:

«لما بلغ عيسى اثنتي عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف إلى بيت المقدس ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى، ولما أكملوا صلواتهم انصرفوا بعد أن فقدوا عيسى لأنهم ظنوا أنه عاد إلى الوطن مع أقربائهم، وعندما لم يجداه في الناصرة عادا إلى بيت المقدس يطلبانه وينشدانه بين الأقرباء والجيران، وبعد ثلاثة أيام من البحث وجدوا الصبي في الهيكل جالساً وسط العلماء يسألهم ويحاجهم في أمر الوحي. وأعجب كل واحد منهم بفهمه وأسئلته قائلاً:

ـ كيف أوتي مثل هذا العلم وهو حدث لم يتعلم القراءة.

فعنفته مريم قائلة:

ـ يا بني ماذا فعلت بنا فقد نشدتك وأبوك ثلاثة أيام ونحن حزينان.

فأجاب عيسى:

ـ ألا تعلمين أن خدمة الله يجب أن تقدم على الأب والأم.

ثم نزل مع مريم ويوسف إلى الناصرة. وكان خاضعاً مطيعاً لهما بتواضع واحترام، وكانت مريم تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها، وأما عيسى فكان يتقدم في الحكمة والقامة عند الله والناس»[١].

وعندما بلغ عيسى الثامنة عشر من عمره توفى الله يوسف فأصبح هو العائل الوحيد لأمه، مما حتم عليه مواصلة العمل في حانوت يوسف المتواضع. وفي مهنة النجارة التي تعلمها وأتقنها. وهكذا ظل يكدح بالمنشار والمسحاة من شروق الشمس إلى غروبها. وإذا جاء الليل أو حل يوم العطلة (السبت) ذهب إلى معبد الناصرة يطالع الشريعة الموسوية

---

(١) إنجيل برنابا ص١٠ وأيضاً إنجيل لوقا ٢: ٤١ ـ ٥٣.

بنفسه أو على يد الأحبار والكهنة.

وعلى رأس الثلاثين من عمره ذاعت نبوة يحيى عليه السلام ورسالته لقومه للتقيد بالشريعة الموسوية، وبلغت شهرته أقصاها كحجة في أحكام التوراة، ومرجع لا يبارى لكل من يستفتيه فيها، وكان يدعو الناس إلى التوبة، وقد جعل الغسل (التعميد) في نهر الأردن كرمز وعلامة للتطهير من الخطايا والذنوب، ونهاية لماض وبداية جديدة لحياة تقوم على منهج الله تعالى، فتقاطر الناس عليه من كل حدب وصوب. معترفين له بذنوبهم عاقدين العزم على التوبة. فعمدهم جميعاً.

كان يحيى عليه السلام رجلاً مهيباً شجاعاً لا يخشى في الله لومة لائم، لباسه من وبر الإبل، وطعامه من الجراد والعسل البري. يذم الكهنة ذوي الثراء الواسع على تهافتهم على الدنيا. ويحث الفقراء والضعفاء على التوبة للنجاة من الضيق والذل. وينصح الجنود وجامعي الضرائب إلى الالتزام الصارم بالعدل في تعاملهم مع الناس. ويحذرهم من مغبة الظلم وخيانة الأمانة، وفي خطبة مأثورة له ألقاها في جمع من الفريسيين والصدوقيين الذين أتوا إلى معموديته قال فيها:

«يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي، فاصنعوا ثماراً تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم، والآن وقد وضعت الفأس في الرأس على أصل الشجرة فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار، أنا أعمدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه هو سيعمدكم بالروح القدس ونار الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ»[1].

ولأجل هذا جاء عيسى خصيصاً من الناصرة إلى المغطس على الضفة

---

(١) إنجيل متى ٣: ٧ ـ ١٢.

الغربية لنهر الأردن ضمن الكثيرين من قاصديه ليعتمد على يديه تصديقاً له وإيماناً بدعوته ورسالته، ولكن يحيى منعه قائلاً:

«أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى إليّ»[1].

فرد عليه عيسى بقوله:

«اسمع الآن، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر»[2].

عندئذ نزل معه النهر وأغطسه فيه. وبينما هما يسيران خارج النهر إلى الشاطىء رأى يحيى وكأن السماء قد انشقت ونزلت منها بهيئة جسمية مثل الحمامة حطت على عيسى، وفي اليوم التالي على التعميد وحين كان عيسى مقبلاً شهد يحيى لتلاميذه بهذه الواقعة قائلاً:

«إني قد رأيت الروح نازلاً مثل حمامة من السماء فاستقر عليه، وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك الذي قال لي الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا الذي يعمد بالروح القدس»[3].

والشيء الوحيد الذي تجاهله المؤرخون وأغفله كتاب سيرته ممن عاصره وعاش في زمانه أو بعد زمانه بفترة هو توثيق صورة وصفية حية ومعاصرة لملامح وجهه وهيئته وشكله، وأقدم صورة رويت وكشفت عن ملامح وجهه لم تظهر إلا بعد اعتراف الرومان بدينه، أي بعد رفعه إلى السماء بحوالي أربعة قرون. مما يجعلها رواية بعيدة عن المعاصرة ومقطوعة الصلة بالرواية العيانية، ومستقاة في مجملها من الأناجيل المؤرخة لسيرته أو من الأقوال الشفوية التي تناقلتها الأجيال دون تمحيص وتدقيق، جاء فيها.

«كان للرجل هيئة نبيل، وقوام بين الاعتدال، يفيض وجهه بالحنان والهيبة معاً. فيحبه من يراه ويخشاه. شعره كلون الخمر غير مصقول، ولكن من جانب الأذن أجعد لماع، وجبينه واسع وناعم، وليس في وجهه شية،

---

(١) إنجيل متى ٣: ١٣.
(٢) إنجيل متى ٣: ١٦.
(٣) إنجيل يوحنا ١: ٢٣ ـ ٢٤.

غير أنه مشرب بنضرة متوردة، وسيماه كله صدق ورحمة. وليس في أنفه ولا فمه ما يعاب، وعيناه زرقاوان تلمعان، مخيف إذا لام أو أنب، وديع محبوب إذا دعا وعلم، لم يره أحد يضحك، ورآه الكثيرون يبكي، وهو طويل، له يدان جميلتان مستقيمتان، وكلامه متزن رصين لا يميل إلى الإطناب، وملاحته في مرآه تفوق المعهود في أكثر الرجال»[1].

أما الصورة الوصفية لملامح عيسى وهيئته وتحظى بالقبول المطلق والمبنية أصلاً على المشاهدة فهي التي رسمها له الرسول ﷺ، وذلك من خلال مشاهدته الحية له وفي ثلاث مواضع متفرقة.

الأولى: رأى فيها عيسى في رؤيا منامية فوصفه بقوله:

«أراني الليلة عند الكعبة في المنام، فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال تضرب لمته بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماء، واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت فقلت من هذا؟ فقالوا: هذا المسيح ابن مريم»[2].

وفي رواية أخرى:

«بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر يهادى بين رجلين ينطف رأسه ماء، أو يهراق رأسه ماء، فقلت من هذا قالوا: ابن مريم»[3].

والثانية: حين التقى به في ليلة الإسراء فنعته قائلاً:

«ربعة أحمر جعد عريض الصدر كأنما خرج من ديماس (حمام)[4].

وفي رواية ابن عساكر:

«أحمر بين القصير والطويل، سبط الشعر، كثير خيلان الوجه كأنما

---

(١) عبقرية المسيح ـ العقاد ص٩٤.

(٢)(٣) صحيح البخاري مجلد (٥) ج ١٦ ص ٣٣، ٣٤.

(٤) صحيح البخاري مجلد (٥) ج ١٦ ص ٣٢.

خرج من ديماس تخال رأسه يقطر ماء وما به شيء أشبه من رأيت عروة بن مسعود»[1].

والثالثة: عند نزوله في آخر الزمان فقال عنه:

«أنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل»[2].

إن الرسول ﷺ وصف عيسى كشاب مكتمل الشباب، جميل الصورة والصوت حسن الوجه، لونه أبيض مشرب بحمرة أقرب في الوصف إلى السمرة منها إلى الحمرة الشديدة أو البياض المجرد. شعر رأسه أسود شديد السواد مسترسل يتجاوز شحمة أذنه، يجمع بين نعومة الملمس وبين الالتواء والانكماش، عريض الصدر، مربوع القامة أو وسط القامة معتدل لا هو بالقصير ولا هو بالطويل.



(١) سيرة المسيح ـ ابن عساكر ص٥٣.

(٢) سيرة المسيح ـ ابن عساكر ص٥٧.

الفصل الثاني
العام الأول للبعثة

قد لا يشكل المكان الذي أنزل فيه الله تعالى الوحي على أنبيائه ورسله أي أهمية تذكر في البعثة، ولا يتدخل بالضرورة في مجريات الدعوة سلباً أو إيجاباً. ولكنه ينظر إليه دوماً بوصفه نقطة البداية في تاريخ الدعوة، لكونه الموضع الذي حظي باستقبال خبر السماء، وعليه تلقى النبي والرسول الأمر بإبلاغ الوحي، فينال باختيار الله له دون سائر البقاع شرفاً وامتيازاً، ومن ثم يرتبط في الأذهان كمنطلق للدعوة والرسالة والرسول.

وفي تاريخ البعثة العيسوية حظي جبل الزيتون أو جبل الطور كما يسمى اليوم بمنزلة رفيعة وسامية باعتباره المكان الذي تلقى فيه عيسى الوحي من الله. وفيه أنزل الإنجيل ومنه انتشر في بقاع الأرض. ويقع جبل الزيتون شرق المسجد الأقصى. ويفصله عن أسوار الحرم وادي قدرون المنحدر. وللجبل ثلاث قمم علو قمته الوسطى حوالي **٢٦٤٣** قدماً فوق سطح البحر و **٣٨٤** قدماً فوق الوادي.

ولا يزال جبل الزيتون ومن الناحية التاريخية البحتة، وعند النصارى على وجه أخص من أهم الجبال المحيطة بالمقدس. لارتباطه الشديد ليس فقط بوصفه المكان الذي نبىء فيه عيسى بل أيضاً لوقوع معظم الأحداث الكبرى في تاريخ الدعوة على قمته.

وكما تروي المصنفات المؤرخة لسيرة عيسى وأحداث بعثته ووقائعها

الكبرى، فإن عيسى عند بلوغه الثلاثين من عمره قدم لزيارة بيت المقدس كعادته، وبعد انتهاء الزيارة صعد برفقة أمه إلى جبل الزيتون بغرض جني زيتوناً. وبقيا على قمة الجبل حتى انحرفت الشمس عن نقطة الزوال، وآن أوان صلاة الظهيرة (الظهر). عندئذ شرع عيسى في غسل يديه استعداداً وتهيئة للوقوف بين يدي ربه، ثم اتجه نحو بيت المقدس لأداء الصلاة، وبينما هو منهمك فيها ركوعاً وسجوداً وقراءة ما تيسر له. ووصل في قراءته عند هذه الكلمات:

«يا رب برحمة...»[1].

إذ فجأة انبثق نور قوي باهر شديد أحاط به. وجمهرة عظيمة من الملائكة يملأون المكان وهم يسبحون لله حمداً وتعظيماً وإجلالاً. ثم تقدم على أثرهم جبريل عليه السلام نحو عيسى وهو واقفاً في مصلاه، وقدم له كتاباً كأنه مرآة براقة، أو كأنه نور يتلألأ، نزل على قلبه واستقر فيه. وهذا الكتاب هو الإنجيل الذي منه عرف عيسى كلام الله وما يريده الله وأخبار الأنبياء السابقين واليوم الآخر، وهدف البعثة وغايتها. حتى أن كل شيء بدأ له لحظة استقرار الإنجيل في قلبه وثباته فيه كما لو كان عرياناً ومكشوفاً، وأرخت المصادر الإسلامية لنزول الإنجيل على قلب عيسى باليوم الثامن عشر من شهر رمضان، وبعد الزبور بألف وخمسين عاماً[2].

وبعد فترة على هذه الواقعة حدَّث عيسى حوارييه برنابا بخصوص كتابه قائلاً:

«صدق يا برنابا أني أعرف كل نبي وكل نبوة، وكل ما أقوله إنما قد جاء من ذلك الكتاب»[3].

وعلى الفور أدرك عيسى أنه نبي مرسل من عند الله إلى خاصة قومه،

---

(١) إنجيل برنابا ص١١.

(٢) سيرة المسيح ـ ابن عساكر ص٧٥.

(٣) إنجيل برنابا ص١١.

فكاشف أمه وهما على قمة جبل الزيتون بما يجب عليه احتماله من أذى واضطهاد في سبيل الدعوة. كما أنه من جهة أخرى لا يستطيع بعد الآن الإقامة معها وملازمتها كما تعود في السنوات الماضية، بل عليه مفارقتها والابتعاد عنها منقطعاً ومتفرغاً للدعوة والرسالة، وكل وقته سيقضيه بعيداً عنها متنقلاً بين المدن والقرى داعياً قومه إلى دين الله، ولما سمعت مريم قوله هذا أجابته قائلة:

«يا بني إني نبئت بكل ذلك قبل أن تولد، فليتمجد اسم الله القدوس»[1].

نزل عيسى من جبل الزيتون فور تلقيه أمر الدعوة قاصداً بيت المقدس وعلى وجه أخص إلى الهيكل لإبلاغ قومه ما نبىء به، وفي طريقه مر برجل أبرص ألهمه الله تعالى وألقى في روعه أن عيسى مرسل من عند الله، ومؤيد في رسالته بالمعجزات الخارقة، فاعترض طريقه وهو يخاطبه باكياً ومتضرعاً:

ـ يا عيسى بن داود ارحمني.

توقف عيسى عند توسل الرجل وإلحاحه ثم رد عليه قائلاً:

ـ ماذا تريد أيها الأخ أن أفعل لك؟

انحصرت إجابة الرجل فيما يمكن لعيسى أن يحققه له من شفاء وإعادة جسمه إلى حالته الطبيعية سليماً معافى فقال له بلا إبطاء وتردد:

ـ أعطني صحة.

بدأت إجابة الرجل لعيسى وكأنه يضعه مع الله تعالى على قدم المساواة في المنزلة والقدرة على شفاء الأمراض والأوجاع، ويعتقد فيه اعتقاده في الله، فانتهره بحدة مؤنباً له وموبخاً على اعتقاده ذلك قائلاً:

ـ إنك لجاهل وقليل الفطنة، وقد خفيت عليك أمور كثيرة، فأنا رجل

---

(١) إنجيل برنابا ص١٠.

مثلك، ابتهل إلى الله الذي خلقك وخلقني، وهو القادر وحده على منحك الصحة والعافية.

فرد عليه الأبرص:

- أعلم يا سيدي أنك إنسان، ولكنك نبي الله الطاهر المنزه عن كل نقص والمبرأ من كل عيب، فاضرع إليّ كي يهبني الصحة والعافية.

عندها أطلق عيسى تنهيدة طويلة وتوجه إلى الله بالدعاء قائلاً:

- أيها الرب الإله القدير لأجل محبة أنبيائك الأطهار أبرىء هذا العليل.

ثم مد يده ولمس الأبرص بيديه وهو يقول:

- باسم الله أيها الأخ ابرأ.

وفي الوقت الذي كان فيه عيسى يردد تلك الكلمات، ذهب البرص عن الرجل وطهر جسمه من الداء حتى أصبح في خلوصه وصفائه مثل جسم الطفل. عندئذ أمره عيسى قائلاً:

- انظر لا تقل لأحد شيئاً مما فعلت، بل اذهب وأر نفسك للكاهن وقدم عن خلاصك من البرص القربان الذي أمر به موسى شهادة لهم ولك.

غير أن الرجل من شدة فرحته بشفائه ضرب بأمر الله عرض الحائط وصاح بأعلى صوت له.

- تعالى إلى هنا يا إسرائيل وتقبل النبي الذي بعثه الله إليك.

فرجاه عيسى أن يكف عن صراخه قائلاً:

- أيها الأخ اصمت ولا تقل شيئاً.

ولكن لم يزده رجاءه إلا عناداً، وصراخاً، فأخذ ينادي ويذيع بين الناس خبر ظهور عيسى نبياً ورسولاً ومؤيداً بالمعجزات الخارقة قائلاً:

- ها هو ذا النبي، ها هو ذا قدوس الله.

إن معظم الذين سمعوا صيحات الرجل الأبرص ممن غادروا بيت المقدس وأولئك الذين كانوا في طريقهم إلى المدينة أسرعوا بدخولها مع عيسى، وقصوا على الناس فعلة الله تعالى في الأبرص بواسطته. فأشاعوا جواً من الاضطراب في الشارع اليهودي تقاطر من جرائه الجميع على الهيكل للتحقق بأنفسهم من صدق ما يشاع ولرؤية هذا النبي الجديد الذي دخل الهيكل مع الداخلين حتى ضاق المكان على سعته. فتقدم منه أحد الكهنة قائلاً:

- إن هذا الشعب يحب أن يراك ويسمعك فارتق إذا الدكة، وإذا أعطاك الله حقيقة كلمته من عنده، فتكلم بها باسم الله.

ارتقى عيسى الدكة التي اعتاد منها الكهنة والكتبة وغيرهم مخاطبة الناس. وأشار بيده للالتزام بالصمت، ثم خطب فيهم خطبة تعد في تاريخ البعثة بمثابة الإعلام عن نبوته ورسالته نجتزىء منها قوله:

«تبارك اسم الله القدوس الذي من وجوده ورحمته أراد فخلق خلائقه ليمجدوه، تبارك اسم الله القدوس الذي خلق نور جميع القديسيين والأنبياء قبل كل الأشياء لخلاص العالم كما تكلم بواسطة عبده داود قائلاً: قبل كوكب الصبح في ضياء القديسيين خلقتك، تبارك اسم الله القدوس الذي خلق الملائكة ليعبدوه، وتبارك الله الذي قاص وخذل الشيطان وأتباعه الذين لم يسجدوا لمن أحب الله أن يُسجد له، تبارك اسم الله القدوس الذي طرد الإنسان من الفردوس لأنه عصا أوامره الطاهرة. تبارك اسم الله القدوس الذي برحمته نظر بإشفاق إلى دموع آدم وحواء أبوي الجنس البشري، تبارك اسم الله القدوس الذي قاص بعدل قابيل قاتل أخيه وأرسل الطوفان على الأرض وأحرق ثلاث مدن شريرة، وأغرق فرعون في البحر وبدد شمل أعداء شعبه وأدب الكفرة وقاص غير التائبين، تبارك اسم الله القدوس الذي برحمته أشفق على خلائقه فأرسل إليهم أنبياءه ليسيروا في الحق والبر أمامه، الذي أنقذ عبيده من كل شر وأعطاهم هذه الأرض كما وعد أبانا إبراهيم وابنه، ثم أعطانا ناموسه الطاهر على يد عبده موسى لكي لا يغشنا الشيطان

ورفعنا فوق جميع الشعوب»[1].

أما بقية الخطبة فهي توبيخ وتأنيب قاس ومر لكافة الناس على نسيانهم وغفلتهم عن كلام الله، وتنكبهم الطريق السوي المستقيم وإعراضهم عن منهج الله وشريعته، وانخداعهم بأعراض الدنيا وزخارفها الزائلة. كما أنب كهان الهيكل على إهمالهم أمور الدين وانشغالهم بهمومهم الشخصية ومصالحهم الضيقة. واتخاذ مناصبهم الدينية مطية للاستحواذ على المال وحرصهم المقيت على جمعه وبكل الوسائل المتاحة، ووجه الاتهام صريحاً إلى الكتبة الذين طرحوا جانباً شريعة الله، وعكفوا على تعليم الناس تعاليماً باطلة وزائفة، فضلوا وأضلوا، وخص بنقده أيضاً العلماء الذين أبطلوا الشريعة بابتداعهم ما ليس فيها.

ولعل عيسى عليه السلام أردف خطبته تلك بإظهار المعجزة وخوارق العادات، أو ربما أخذ البعض ممن تعد بعثته تقويضاً لمصالحهم يتعنتون عليه. وطالبوه بخلق طائر تأييداً وتأكيداً على أنه نبي مرسل من عند الله، فأخذ عيسى طيناً وشكل منه على هيئة الطير ثم نفخ فيه فكان طيراً بإذن الله تعالى، وطار أمام أعين الجميع في سماء الهيكل، وعلى ذلك تكون تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله.

وتكاد المصادر الإسلامية تجمع[2] ـ إذ لم ترد هذه الواقعة في المصادر المسيحية المؤرخة لسيرته عليه السلام ـ على أنه لم يخلق لعيسى غير الخفاش، وخص الخفاش وحده لأنه أكمل الطير خلقاً وأعجب من سائر الطيور. فيكون ذلك أبلغ في القدرة، إذ هو من لحم ودم، ويطير بغير ريش، ويلد كما يلد الحيوان، ولا يبيض كما تبيض سائر الطيور، وله ثدياً يخرج منه اللبن، وأسناناً يأكل بها، ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل، ويضحك كما يضحك الإنسان، ويحيض كما تحيض المرأة.

---

(١) إنجيل برنابا ص١٣.

(٢) تفسير القرطبي جـ (٤) ص٩٤.

وعلى أي حال فقد أثر كلام عيسى في جموع المستمعين إلى حد انخرط أغلبهم في البكاء والنواح على ما اقترفوه من ذنوب وآثام، ضارعين إليه كي يصلي من أجلهم ويستغفر لهم ربه، حاشا الكهنة والكتبة والعلماء الذين أضمروا له العداء والكراهية لتهجمه عليهم وتأنيبه لهم، ثم اتهامه لهم هكذا جهاراً غير هياب ولا وجل، وأحسوا فيما بينهم بخطر شديد من دعوته ومن قوة حجته وبلاغته وقدرته الفائقة على اجتذاب الجماهير. فصمموا على التخلص منه. ولكنهم ساعتئذ لم ينبسوا بكلمة خوفاً من الناس الذين قبلوه نبياً ورسولاً من عند الله.

وتلبية لتوسلات جموع الناس رفع عيسى يديه إلى السماء وصلى داعياً للجميع بالتوبة والمغفرة والتجاوز عن السيئات والذنوب. فبكى الناس وهم يؤمنون على دعائه. ولما انتهت الصلاة والدعاء نزل من منصة الخطابة ومن الهيكل. وفي نفس اليوم غادر بيت المقدس، فأتاح خروجه للكهنة والكتبة والعلماء مجالاً للتداول بحرية تامة فيما يجب اتخاذه من خطوات عملية تئد الدعوة والداعية في مهدهما.

وبعد مضي بضعة أيام على تلك الخطبة الإعلامية ألهم الله تعالى عبده ورسوله برغبة الكهنة ومن يشايعهم على إلحاق الأذى به. الأمر الذي قاده للصعود إلى جبل الزيتون وحيداً ليقضي الليل كله في الصلاة والذكر، وفي الصباح عند صلاة السحر (الفجر) دعا ربه قائلاً:

«يا رب إني عالم أن الكتبة يبغضونني والكهنة مصممون على قتلي أنا عبدك. لذلك أيها الرب الإله الرحيم القدير، اسمع برحمة صلوات عبدك، وأنقذني من حبائلهم لأنك أنت خلاصي، وأنت العالم يا رب إني عبدك إياك أطلب، وبكلمتك أتكلم لأن كلمتك حق وتدوم إلى الأبد»[1].

ولما أتم عيسى دعاءه إذا بجبريل عليه السلام يقف أمامه قائلاً:

ـ لا تخف يا عيسى لأن ألف من الذين يسكنون فوق السماء يحرسون

(١) إنجيل برنابا ص١٥.

ثيابك، ولن تموت حتى يبلغ كل شيء ويمسي العالم على وشك النهاية.

فخر عيسى لدى سماعه ذلك الوعد إلى الأرض ساجداً وهو يخاطب ربه بقوله:

- أيها الرب الإله العظيم، ما أعظم رحمتك، وماذا أقدم لك يا رب مقابل ما تفضلت به عليّ.

فأجابه جبريل على الفور:

- انهض يا عيسى واذكر إبراهيم الذي كان يريد أن يقدم ابنه الوحيد إسماعيل ذبيحة لله وفقاً لأمر الله، فلما لم تقو المدية على ذبح ابنه قدم عوضاً عنه كبشاً، فعليك أن تفعل ذلك يا عيسى عبدالله.

كانت إجابة عيسى لجبريل على الأمر بالسمع والطاعة، ولكن أين يجد الكبش على سطح الجبل المقفر، وهو من جهته لا يحمل نقوداً. ولا يجوز منه السرقة والاعتداء على ممتلكات الآخرين. عندئذ دله جبريل على كبش، فقدمه عيسى قرباناً وتقرباً لله تعالى. حامداً فضله وشاكراً على ما أولاه من عناية ورعاية وحفظ.

نزل عيسى من جبل الزيتون ووجهته الجانب الأقصى من نهر الأردن، حيث قطع تلك المسافة وحده ليلاً. وهناك عكف صائماً لمدة أربعين يوماً وليلة، لم يتناول خلالها شيئاً من الأكل ليلاً ونهاراً، متضرعاً فيها إلى الله لخلاص أمته ونجاتها، وبانقضاء أيام الصوم جاع، حينئذ ظهر له إبليس ليجربه ويمتحنه وهو على تلك الحالة من الضعف البدني وصفاء الروح بأقوال ومواقف كثيرة نختار منها.

قوله له:

- إن كنت بالفعل نبي الله وعبده فقل لهذه الأحجار أن تتحول إلى خبز.

فأجابه عليه السلام إجابة بعيدة عن مقصده حيث قال له:

- مكتوب في الكتاب، ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة من الله.

ولما لم يفلح إبليس في النيل منه بالقول، وجوبه في أول ما جوبه به بتعويله عليه السلام على الوحي، انتقل إلى المواقف العملية، فأخذه إلى جبل عال جداً، وأراه في لحظة خاطفة من الزمان جميع ممالك الأرض ثم قال له:

- جميع هذه الممالك بكل ما تحتويه من قوة وعز وسلطان هي لي. وأنا أعطيها لمن أريد، فإذا أنت خررت أمامي ساجداً تكون لك كلها.

فرد عليه عيسى الرد السابق نفسه مستنداً على كلام الله تعالى، فقال له:

- اذهب يا شيطان، لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد.

عندها لجأ إبليس في اختباره إلى جنس ما كان يعول عليه عيسى في ردوده. فأخذه إلى بيت المقدس، وأوقفه على جناح الهيكل ثم قال له:

- إن كنت نبي الله وعبده فارمي بنفسك من هنا أسفل، لأنه مكتوب أيضاً أن الله أوصى ملائكته لكي يحفظوك، وعلى أياديهم يحملونك حتى لا تصدم حجر برجلك.

فرد عليه عيسى قائلاً:

- مكتوب أيضاً، لا تجرب الرب إلهك.

ولما أكمل إبليس معه كل تجربة وامتحان، ويئس تماماً منه، فارقه معتذراً، عندها أنزل الله تعالى ملائكته يحملون له كل احتياجاته من الأكل والشرب، وبعد هذا الانقطاع الطويل عن الناس عاد إلى نواحي بيت المقدس حيث استقبله الجميع بفرح عظيم راجين منه هذه المرة البقاء معهم، لأن كلماته ومواعظه ليس ككلمات ومواعظ الكتبة والكهنة وغيرهم

من الدعاة، إذ هي كلمات صادرة من القلب وتنفذ إلى القلب بيسر وسهولة، ولا تمل من سماعها الآذان، وتبقى في القلب نوراً وضياءً.

وخلال الأيام التي قضاها عيسى بعيداً عن الناس أو بعدها بقليل قبض على يحيى عليه السلام وأودع الحبس. وسبب ذلك: أن أرخلاوس بن هيرودتس كان يضرب به المثل في معاقرة الخمر والاستهتار بالقيم الخلقية، وكان لشقيقه فيليب زوجة جميلة ولعوب اسمها هيرودويا ولها ابنة مثلها بارعة الجمال وماجنة، فالتقيا وتعاشقا في السر والعلن. وشاع خبرهما بين الناس، فدبر العاشق خطة للاستيلاء على ملك أخيه بمعاونة هيرودويا، بل وساعدت المهاجمين وسهلت لهم القبض على زوجها واعتقاله حيث ألقي في السجن، وبذلك أصبح أرخلاوس رئيساً للإقليمين ثم فكرا في إضفاء الشرعية على علاقتهما، ولكن الزوج لا يزال حياً يرزق. وزواج كهذا لا يقره عقل ومحرم شرعاً.

وانتهض يحيى عليه السلام لأداء دوره المفروض إزاء ذلك الاستهتار البالغ بقيم السماء والسقوط الشنيع في مهاوي الفجور والرذيلة، فقام بعدة زيارات إلى العشيق في قصره يدعوه إلى التوبة والتطهر من الأوحال الغارق فيها حتى أذنيه، كما واجهه بعدم أحقيته لهذه المرأة طالما زوجها على قيد الحياة، وفي كل مرة يخرج فيها يحيى من قصره كان يتركه وراءه يغلي بنيران الغضب والانتقام والثأر، ويترك هيرودويا وأحلامها قد أوشكت على الزوال، وهي التي ألحت عليه وأسرفت في الإلحاح على قتل يحيى، وشاطرها هو من جهته الرأي. ولكنه أوجس خيفة من مغبة قتله. فالتجأ إلى أخف الضررين، وهو الحيلولة بينه وبين الناس حتى لا تتسع دائرة المعارضة لزواجهما، فأصدر أوامره باعتقاله. وجيء به مكبلاً بالقيود إلى السجن، وبقي في الحبس إلى يوم مقتله نحراً.

وعلى أي حال فقد أدرك عيسى من حرارة استقبال الناس له، وفرحتهم بلقائه، وتلهفهم على سماع كلام أن الأمة في طريقها لاتباع شريعة موسى والانقياد لأحكام التوراة، فصعد كعادته للجبل للمبيت والخلو بنفسه،

ولما طلع عليه النهار نزل لينتخب من أبناء الأمة من يؤازره ويساعده في نشر الدعوة وإبلاغ رسالة الله لهم، أما كيفية اختياره لهؤلاء الأنصار، والطريقة التي اتبعها في انتخابهم فتبدو في المصادر المسيحية وكأنها جاءت مصادفة بلا تخطيط مسبق.

فمما رواه متى في إنجيله على سبيل المثال: أن عيسى كان ماشياً على ضفة بحر الجليل فإذا به:

«أبصر الأخوين سمعان الذي يقال له بطرس وإندراوس أخاه يلقيان شبكة في البحر، فإنهما كانا صيادين. فقال لهم هلم ورائي فأجعلكما صيادي الناس، فللوقت تركا شباكهما وتبعاه، ثم اجتاز من هناك فرأى أخوين آخرين، يعقوب بن زبدى ويوحنا أخاه في السفينة مع زبدى أبيهما يصلحان شباكهما فدعاهما. فللوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه»(١).

وتسير رواية يوحنا على النمط السابق فيقول متحدثاً عن الكيفية التي اختار بها عيسى آخرين منهم:

«وفي الغد أراد يسوع أن يخرج من الجليل. فوجد فيلبس فقال له: اتبعني وكان فيلبس من بيت صيدا من مدينة إندراوس وبطرس، فيلبس وجد نثنائيل وقال له وجدنا الذي كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة، فقال له نثنائيل أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح، فقال له فيلبس تعال وانظر(٢)».

أما رواية القرآن الكريم فقد أفصحت عن الكيفية التي اختار بها عيسى مناصريه ما لم تفصح عنه روايات الأناجيل، وأجملت ما فصلت فيه تلك الروايات، فيقول تعالى حاكياً عنها:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾(٣).

---

(١) إنجيل متى ٤: ١٨ ـ ٢١.

(٢) إنجيل يوحنا ١: ٤٧ ـ ٥١.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١١.

والمقصود أن الله تعالى هو الذي اختار له من يناصره ويؤازره في الدعوة وذلك بأن ألقى في قلوبهم الإيمان به والتصديق برسوله إلهاماً ووحياً، أي أنهم وفور تلقيهم الدعوة والرسالة آمنوا وصدقوا بلا تردد، وذلك لعيسى من قبيل الامتنان عليه بأن اختار له أصحاباً وأنصاراً.

ثم قالوا هم مخاطبين الله تعالى ورسوله:

﴿ءَامَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[1].

وشهادتهم لله تعالى هنا بالإيمان له، وبالإيمان والإسلام معاً لله تعالى ولعيسى، وذلك لأنهم بإيمانهم قد صدقوا تصديقاً راسخاً ارتفعوا به عن مرتبة عامة من آمن وسيؤمن بعيسى، فكانوا مماثلين لإيمان عيسى، وهو إيمان الأنبياء والصديقين.

إذن فالحق عز وجل هو الذي انتخب لعيسى عليه السلام في مفتتح دعوته اثني عشر رجلاً سماهم كما يحكي عنه برنابا رسلاً وعرفوا في المصطلح القرآني باسم الحواريين، وأسماءهم أوردها في إنجليه على النحو التالي:

«إندراوس وأخوه بطرس الصياد، وبرنابا الذي كتب هذا، مع متى العشار الذي كان يجلس للجباية، يوحنا ويعقوب ابنا زبدى، تداوس ويهوذا، برتو لوماوس وفيليبس، يعقوب ويهوذا الاسخريوطي الخائن، فهؤلاء كاشفهم على الدوام بالأسرار الإلهية. أما يهوذا الأسخريوطي فأقامه وكيلاً على ما كان يعطى للصدقات فكان يختلس العشر من كل شيء»[2].

وقبل مغادرة عيسى ومن وقع عليهم الاختيار لمؤازرة الدعوة ونصرتها منطقة الجليل، وبالتحديد في اليوم الثالث من وصوله عليه السلام إليها. وصلتهم دعوة من أحد أغنياء مدينة قانا، على بعد ثمانية أميال شمالي الناصرة، وكانت مريم عليها السلام موجودة وقتها بالمدينة فدعاها معهم. وبينما الجميع

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١١.

(٢) إنجيل برنابا ص١٦.

جالسون على المأدبة، والخدم غادون ورائحون بين المدعويين، فرغت دنان الخمر لكثرة الناس وشدة الطلب عليها، فتحير الخدم وترددوا في إخبار صاحب الدعوة، ولكن مريم تداركت الأمر بقولها لابنها:

ـ ليس معهم خمر.

فهم عيسى على الفور مغزى إخبار أمه عن أمر لا يعنيه. فتساءل كالمداعب لها:

ـ وما شأني في ذلك يا أماه.

ولدى سماع مريم نبرة المداعبة في رده أوصت الخدم بإطاعة ابنها فيما يأمرهم به.

كانت هناك حوالي ستة أجران فارغة للماء توضع عادة في مثل هذه المناسبات للغسل وللوضوء، فأمر عيسى الخدم بأن يملأوها ماءاً ففعلوا عندها قال لهم:

ـ باسم الله اسقوا المدعوين.

وبهذا أمكن للخدم مواصلة تقديم الخمر للضيوف بادئين بمدبر الحفلة الذي ما أن ذاق طعمها الجيد حتى وبخهم بقوله.

ـ أيها الخدم الأخساء لماذا أبقيتم الخمر الجيدة حتى الآن.

فرد عليه أحدهم قائلاً:

ـ يوجد هنا رجل مصطفى من عندالله لأنه جعل من الماء خمراً.

ظن مدبر الحفلة لأول وهلة أن الخدم سكارى، وذلك لأن العادة الجارية تقضي بتقديم الخمر الجيدة أولاً، ثم تأتي بعدها الأقل منها جودة وهكذا، ولا يبقي صاحب العرس الخمر الجيدة إلى نهاية الوليمة أبداً. ولكن الذين كانوا جالسين بجوار عيسى تكشفت لهم الحقيقة. فنهضوا من المائدة للاحتفاء به وتكريمه على ما قدمه لهم قائلين:

ـ حقاً إنك مصطفى الله ونبي صادق مرسل إلينا من الله.

لقد أعادت تلك الآية الكبرى الكثير من المحتفلين إلى رشدهم ونبهتهم من غفلتهم، وذكرتهم بقدرة الله تعالى ومعجزاته، وألسنتهم تلهج بالقول:

- الحمد لله الذي أظهر رحمة لبني إسرائيل، وافتقد يهوذا بمحبته، تبارك اسم الله الأقدس.

وذات يوم جمع عليه السلام حوارييه الاثني عشر وصعد بهم إلى الجبل وهناك وتحت ظل أشجار الزيتون المتناثرة على السطح جلس والتفوا هم من حوله، ليلقي عليهم أول خطبة وأول موعظة احتوت جملة من التعاليم الموجهة لهم في مستهل حياتهم، جاء فيها:

«عظيمة هي النعم التي أنعم بها الله علينا، ومن ثم فيجب أن نعبده بإخلاص، وكما أن الخمر الجديدة توضع في أوعية جديدة هكذا يترتب عليكم أن تكونوا رجالاً جدداً إذا أردتم أن تعوا التعاليم الجديدة التي ستخرج من فمي، الحق أقول لكم لا يتأتى للإنسان أن ينظر بعينيه إلى السماء والأرض معاً في وقت واحد. فكذلك يستحيل عليه أن يحب الله والعالم معاً وفي وقت واحد.

احترزوا من أن تتصدقوا قدام الناس لكي ينظرون إليكم، وإلا فليس لكم أجر عند الله، فمتى تصدقتم فلا تصوتوا بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع وفي الأزقة لكي يحمدوا من الناس، الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى تصدقت فيجب ألا تعرف شمالك ما أعطت يمينك.

ومتى صليتم فلا تكونوا كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس. الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل لله في الخفاء، وحينما تصلون فلا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم السابقة، فإنهم يظنون إنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم.

ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين الذين يغيرون وجوههم كي

يظهروا للناس صائمين، الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنتم فمتى صحتم فادهنوا رؤوسكم واغسلوا وجوهكم كي لا تظهروا للناس صائمين بل لله تعالى فالله الذي يرى في الخفاء يجازيكم علانية.

لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون، بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون لأنه حيث يكون هناك كنزك يكون قلبك أيضاً، سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً.

لا يقدر رجل أبداً أن يخدم سيدين أحدهما عدو للآخر، لأنه إذا أحبك أحدهما أبغضك الآخر، أو تبغض أنت أحدهما وتحب الآخر، فكذلك أقول لكم لا تقدرون أن تخدموا الله والدنيا، لأن الدنيا محل النفاق والجشع والخبث، ولذا لا تجدون راحة فيها، بل تجدون بدلاً عنها اضطهاداً وخسارة. فاعبدوا الله واحتقروا الدنيا، ومتى تجدون راحة لنفوسكم، أصيغوا السمع لكلامي لأني أنطق بالحق.

طوبى للذين ينوحون على هذه الحياة الدنيا لأنهم يتعزون، طوبى للمساكين الذين يعرضون عن ملاذ الدنيا لأنهم سينعمون بملاذ الجنة، طوبى للذين يأكلون على مائدة الله لأن الملائكة تقوم بخدمتهم. طوبى للرحماء لأنهم يرحمون، طوبى لأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله، طوبى للمطرودين من أجل الصدق لأن لهم الجنة، طوبى لكم أنتم إذا عيركم الناس وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين، في ذلك اليوم افرحوا لأن أجركم عظيم عند الله، فإن آباءهم كانوا يفعلون هكذا بالأنبياء، أنتم ملح الأرض، ولكن إذا فسد الملح فبماذا يملح. لا يصلح بعد ذلك شيء إلا أن يطرح خارجاً ويداس بالأقدام، أنتم نور العالم، لا يمكن أن تخفى مدينة مبنية على جبل، ولا يوقد سراجاً ويوضع تحت المكيال، بل على المنارة فيضيء نوركم هذا لكل الناس كي يروا أعمالكم الحسنة.

لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس (الوحي) أو الأنبياء والرسل، ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الوحي. فمن نقض أحد الوصايا وعلّم هكذا يدعى أصغر يوم القيامة، وأما من علّم وعمل فهذا يدعى عظيماً، فإني أقول لكم إن لم يزد برّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا الجنة.

أنتم مسافرون كسياح، أيتخذ السائح لنفسه على الطريق قصوراً وحقولاً وغيرها من حطام الدنيا؟ كلا ثم كلا، بل يحمل أشياء خفيفة ذات فائدة وقيمة في الطريق، فليكن هذا مثلاً لكم، وإذا أحببتم مثلاً آخر فإني سأضربه لكم لكي تفعلوا كل ما أقوله لكم.

لا تثقلوا قلوبكم بالرغائب الدنيوية قائلين من يكسونا ومن يطعمنا ويسقينا، بل انظروا إلى الطيور في السماء، إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع في مخازن، والله تعالى هو الذي يقوتها ويغذيها، لستم أنتم أفضل منها، ومن منكم إذا اهتم يقدر على زيادة قامته ذراعاً واحدة، ولماذا تهتمون باللباس، تأملون زنابق الحقل كيف تنموا، ولا تتعب ولا تغزل، إنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها.

إن الله الذي خلقكم ودعاكم إلى عبادته وخدمته قادر على إطعامكم وكسوتكم، فهو الذي أنزل المن والسلوى من السماء على بني إسرائيل في البرية أربعين سنة، وحفظ أثوابهم وأرديتهم من أن تعتق أو تبلى، وقد كانوا ست مئة وأربعين ألف رجل خلا النساء والأطفال.

الحق أقول لكم إن السماء والأرض تهنان ولكن رحمته تعالى لا تهن أبداً لأولئك الذين يتقونه ويخدمونه، أغنياء الدنيا على رخائهم جياع وسيهلكون، أضرب لكم مثلاً:

كان هناك غني ازدادت ثروته وتراكمت، فحدّث نفسه ذات يوم قائلاً: ماذا أفعل يا نفسي أني أهدم حظائري لأنها صغيرة وأبني أخرى جديدة أكبر منها فتظفرين بمناك يا نفسي.

إنه بلا شك خاسر لأنه في تلك الليلة توفي، وكان يجب عليه العطف على المساكين، أو يجعل لنفسه أصدقاء من صدقات أمواله، لأنها تأتي يوم القيامة بكنوز، قولوا لي من فضلكم: إذا وضعتم أموالكم في مصرف عشار فأعطاكم عشرة أضعاف وعشرين ضعفاً أفلا تعطون رجلاً كهذا كل مالكم. ولكن الحق أقول لكم إنكم مهما أعطيتم وتركتم لأجل رضا الله ومحبته فستستردونه مئة ضعف مع حياة خالدة فانظروا كم يجب عليكم أن تكونوا فرحين ومسرورين في خدمة الله»[1].

ولما كانت العبارة الأخيرة وما سبقها جاءت على شكل وصايا وفي صيغة أوامر، فقد أجابه الحواري فيليبس على لسان بقية الحواريين مستفسراً:

ـ إننا لراغبون في خدمة الله وعبادته ولكنا حريصون أيضاً على معرفة الله، لأن أشعيا النبي يقول: حقاً أنت إله محتجب يا إله إسرائيل. وقال الله لموسى عبده ورسوله: أنا الذي هو أنا.

رد عليه عيسى مقتصراً الحديث في هذا الجزء من الموعظة عن الله تعالى فقال لهم:

«يا فيليبس إن الله تعالى صلاح بدونه لا صلاح، إن الله موجود بدونه لا وجود، إن الله حياة بدونه لا أحياء، إن الله عظيم حتى أنه يملأ الجميع، وهو في كل مكان، هو وحده لا ند له ولا بداية ولا نهاية له. ولكنه جعل لكل شيء بداية وسيجعل لكل شيء نهاية. لا أب له ولا أم ولا أبناء له ولا إخوة ولا عشراء. ولما كان ليس لله جسم فهو لا يأكل ولا ينام ولا يموت ولا يتحرك. ولكنه يدوم إلى الأبد، لأنه غير ذي جسد وغير مادي، وبسيط بل أبسط البسائط وهو جواد كريم لا يحب إلا الجود والكرم، وهو مقسط وعادل حتى إذا قاص أو صفح فلا مرد لحكمه. وبالجملة أقول لك يا فيليبس إنه لا يمكنك أن تراه وتعرفه على الأرض تمام المعرفة، ولكنك

---

(١) إنجيل برنابا ص١٨ ـ ٢٠ وإنجيل متى ٥: ٨ و ١٦ ـ ٢٣ و ٦: ١ ـ ٣٠.

ستراه يوم القيامة، حيث يكون هو قوام سعادتنا وسرورنا ومجدنا»[1].

عندئذ سأله فيليبس قائلاً:

- ماذا تقول يا سيد فيما كتب أشعيا: إنك أنت أبونا، فكيف لا يكون له بنون؟

أجابه عيسى بقوله:

- لقد حوت كتب الأنبياء أمثلة كثيرة ومتعددة لا يجب نأخذها حرفياً بل بالمعنى، لأن كل الأنبياء البالغ عددهم مئة وأربعة وأربعين ألفاً الذين أرسلهم الله إلى خلقه تكلموا بالمعميات والعموميات، وسيأتي فيما بعد بهاء كل الأنبياء، وجمال كل الأطهار، فيشرق نوراً على سائر ما قال الأنبياء، لأنه رسول الله.

توقف عيسى عقب نطقه بعبارة رسول الله، وتنهد قليلاً ثم دعا ربه قائلاً:

- أيها الرب الإله ارأف ببني إسرائيل وانظر بشفقة إلى إبراهيم وذريته لكي يعبدونك بقلب مخلص.

أمن الحواريون على دعائه واستعطافه قائلين:

- ليكن كذلك أيها الرب الإله.

ثم استطرد عيسى قائلاً:

«الحق أقول لكم أن الكتبة والعلماء قد أبطلوا شريعة الله بنبواتهم الكاذبة المخالفة لنبوات أنبياء الله الصادقين، لذلك غضب الله على بيت إسرائيل وعلى هذا الجيل قليل الإيمان».

فبكى الحواريون لهذه الكلمات الحزينة وهم يدعون الله قائلين:

- ارحمنا يا الله وارأف بالهيكل وبالمدينة المقدسة ولا تدفعها إلى احتقار الأمم حتى لا يحتقروا عهدك.

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٠، ٢١.

وأمن عيسى بدوره على دعائهم بقوله:

- وليكن كذلك أيها الرب إله آبائنا وأجدادنا.

ومرة أخرى عاد عيسى لمواصلة ما انقطع من تعاليمه فقال لحوارييه:

«لستم أنتم الذين اخترتموني بل الله تعالى هو الذي اختاركم لتكونوا حواريين، فإذا أبغضكم الناس تكونون حقاً حواريين، لأن الناس كانوا دوماً أعداء لعباد الله، تذكروا الأنبياء الأطهار الذين قتلوهم، فقد حدث في أيام إيليا أن قتلت إيزابل عشرة آلاف نبي حتى بعد جهد جهيد نجا منها إيليا المسكين وسبعة آلاف من أبناء الأنبياء الذين خبأهم رئيس جيش أخاب، أواه أيها العالم الفاجر الذي لا يعرف الله ولا يخافه.

لا تخافوا أنتم لأن شعور رؤوسكم محصاة كي لا تهلك، انظروا إلى العصفور الدوري والطيور الأخرى التي لا تسقط منها ريشة بدون إرادة الله ومشيئته، أيعتني الله بالطيور أكثر من اعتنائه بالإنسان الذي لأجله خلق كل شيء، هل يوجد إنسان أكثر اعتناء بحذائه منه بابنه، كلا ثم كلا، فلا يجب عليكم أولاً أن تعتقدوا بأن الله لا يهملكم وهو المعتني بالطيور، ولماذا أتكلم عن الطيور، بل لا تسقط ورقة شجرة بدون إرادة الله ومشيئته.

صدقوني لأني أقول لكم الحق، إن الخلق يرهبكم إذا حفظتم كلامي، لأنه لو لم يخشى فضيحة فجوره لما أبغضكم، ولكنه يخشى فضيحته ولذلك يبغضكم ويضهدكم فإذا رأيتموهم يستهينون بكلامي فلا تحزنوا، بل تأملوا كيف أن الله وحده وهو أعظم قد استهان به الخلق حتى حُسبت حكمته جهالة، وحكمه ظلماً، فإذا كان الله يحتمل الخلق بصبر فلماذا تحزنوا أنتم يا تراب وطين الأرض، فبصبركم تملكون أنفسكم.

لقد سمعتم ما قيل لكم، ولكني أقول لكم أيها السامعون أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، فإذا لطمكم أحد على خد فحولوا له الآخر ليلطمه، لا تجازوا شراً

بشر، لأن ذلك ما تفعله شر الحيوانات كلها، ولكن جازوا الشر بالخير، النار لا تطفأ بالنار بل بالماء لذلك أقول لكم لا تغلبوا الشر بالشر بل بالخير.

من أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك، ومن سألك فأعطه، ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه، وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم بهم هكذا. وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأي فضل لكم، فإن الخطأة أيضاً يفعلون ذلك، وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأي فضل لكم، فإن الخطاة أيضاً يقرضون الخطأة ليستردوا منهم المثل، أحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئاً ليكون أجركم عظيماً.

اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم، اغفروا يغفر لكم، لأن كل من يسأل يأخذ ومن يطلب يجد. ومن يقرع يفتح له، ومن يغفر يُغفر له، أم أن أي إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجراً، وإن سأله سمكة يعطيه حية، لا تدينوا لكي لا تدانوا، وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم، وكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم بهم أيضاً.

أضرب لكم مثلاً: هل يقدر أعمى أن يقود أعمى مثله، ألا يسقطان الاثنان في حفرة، لماذا تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك، وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها، أو كيف تقول لأخيك دعني أخرج القذى من عينك، وأنت لا ترى الخشبة التي في عينك، أخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ ترى جيداً وتقدر على إخراج القذى من عين أخيك. ما من شجرة جيدة تثمر ثمراً ردياً، ولا شجرة ردية تثمر ثمراً جيداً، لأن كل شجرة تعرف من ثمرها. فلا يجني الناس من الشوك تيناً، ولا يقطفون من العليق عنباً، الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح، والإنسان الشرير من كنز قلبه يخرج الشر.

لقد جعل الله شمسه تطلع على الصالحين والطالحين، ومطره ينزل على المؤمنين والكافرين. فيجب عليكم أن تفعلوا خيراً مع الجميع لأنه هكذا مكتوب في الوحي كونوا قديسين وأطهار لأني أنا إلهكم قدوس

وطاهر. كونوا أنقياء لأني أنا نقي، كونوا كاملين لأني أنا كامل، إن الخادم الذي يحاول إرضاء سيده لا يلبس ثوباً ينفر منه سيده، وأثوابكم هي إرادتكم ومحبتكم، احذروا إذاً أن تريدوا أو تحبوا شيئاً غير مرضي عند الله ربنا. أيقنوا جيداً من بغض الله لبهرجة الدنيا وشهواتها لذلك أبغضوا أنتم الدنيا ببهرجتها وشهواتها»[1].

ولما سكت عيسى إيذاناً بانتهاء موعظته بادره الحواري بطرس بالسؤال:

- يا معلم لقد تركنا كل شيء لنتبعك فما مصيرنا؟

فأجابه معلمه على الفور:

- إنكم لتجلسون يوم القيامة بجانبي لتشهدوا على أسباط إسرائيل الاثني عشر.

ثم تنهد عقب بشارته لهم وكأن هناك شيئاً ينقص عليه اكتمال فرحته بصحبة حوارييه يوم القيامة، فقال كالمتحسر:

- يا رب ما هذا، إني قد اخترت اثني عشر فكان واحد منهم شيطان.

ارتبك الحواريون من هذه الكلمات الحزينة، وظن كل واحد بنفسه الظنون، وتوهم البعض منهم بأنهم هم وحدهم المعنيون بها، ولكنهم احترموا رغبة معلمهم في كتمان أمره وعدم البوح باسمه، أو تحديد شخصه أمامهم، ما عدا برنابا الذي دنا منه وأسر إليه في أذنه بهذا السؤال والدموع تنحدر من عينيه:

- يا سيد أيخدعني الشيطان، وهل أكون منبوذاً؟

فطمأنه عيسى بقوله:

- لا تأسف يا برنابا لأن الذين اختارهم الله قبل خلق العالم لا

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٣ ـ ٢٤ وإنجيل لوقا ٦: ٣٧ ـ ٤٥.

يهلكون، تهلل لأن اسمك مكتوب في سفر الحياة.

أما باقي الحواريون الذين كانوا يتابعون بخوف وتوجس ما أسر به معلمهم لبرنابا فقد اغتموا وركبهم الهم والقلق، ولكن عيسى طيب نفوسهم وأثلج صدورهم، وأزال همهم وغمهم بقوله معزياً ومسلياً:

- لا تخافوا لأن الذي سيبغضني لا يحزن لكلامي، إذ ليس فيه الشعور الإلهي.

ومن المحتمل أن الحواريين بعد اطمئنانهم لعدم انطباق كلام عيسى عليهم. وخلوهم التام مما وصف به ذلك الحواري سألوه آية من الله خاصة بهم لزيادة اطمئنان قلوبهم بالإيمان، أي آية تنقلهم من الدليل العقلي المجرد إلى الدليل المادي المحسوس الذي تأنس به النفوس فقالوا له كما روى عنهم القرآن:

﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾(١).

إن الطريقة التي خاطب بها الحواريون نبيهم ومعلمهم وسألوه أن ينزل عليهم ربه طعاماً من السماء تنطوي على معنى إتاحة مجالاً للعذر والاعتذار لله تعالى إن لم يجبهم على مطلوبهم، فكأنهم سألوه سؤال من لا يحب أن يكلف المسؤول ما يشق عليه، وهكذا جرى العرف في العرض والطلب من الأدنى إلى الأعلى. وفي شيء يعلم أنه مستطاع على المسؤول، وهو تكلفاً في العرض، وتأدباً في الطلب والسؤال، وليس بأي حال من الأحوال شكاً وارتياباً وعدم ثقة في قدرة الله.

فأجابهم عيسى إلى طلبهم بقوله:

﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٢.

تضمنت إجابة عيسى الأمر لهم بملازمة التقوى والثبات على الإيمان خوفاً من أن يكون قد نشأ لهم شك في صدقه، وفي الوقت نفسه منعاً لهم من أن يسألوا آية ومعجزة قد تنقلب فتنة لا يدرون ما يحل بهم من جرائها. فقد حصل لهم من الاصطفاء والإيمان ما يغنيهم عن المعجزات والآيات، فردوا على أمره ونهيه بقولهم:

﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1].

لم يرد الحواريون تلك المائدة لضعف إيمانهم أو شكاً في قدرة الله تعالى، بل أرادوا التيمن بأكل طعام ينزله الله تعالى من عنده إكراماً وتشريفاً، لا دفعاً لجوع أو شهوة لطعام غير الطعام الدنيوي المألوف، به تطمئن قلوبهم إلى اختيار الله تعالى لهم وإجابتهم إلى ما سألوا، وبذلك يعلموا علم ضرورة لا علم استدلال بصدق رسولهم ويكونوا شهوداً على رؤية المعجزة فيبلغونها لمن لم يشهدها.

عندئذ اتجه عيسى إلى ربه داعياً:

﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[2].

اشتمل دعاء عيسى على أمرين:

- أن يكون يوم نزولها عليهم عيداً يتكرر لمن هم في زمان نزولها ولمن يأتي بعدهم.
- وأن تكون دليلاً من الله على نفاذ قدرته وحجة على إجابته لدعوة عيسى.

فأجابه الله إلى دعاءه قائلاً:

﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١٤.

(٣) سورة المائدة: الآية ١١٥.

إن رد الله تعالى على عيسى ليس وعداً ولا تحقيقاً لوعد، بل هو استجابة فورية على أنه منزلها عليهم الآن، ولأجل ذلك فرّع عن رده لهم بتحذيرهم تحذيراً شديداً من الكفر بعد الإيمان، فجعل جزاء إجابته إياهم ألا يعودوا إلى الكفر، فإن عادوا عذبهم عذاباً أشد من عذاب سائر الكفار، وذلك لأنهم قد تعاضدت عندهم أدلة العقل والحس معاً، ولم يبق لهم عذر.

وفي هذه الليلة والتي صادفت ليلة الأحد أقبلت الملائكة من السماء وهم يحملون مائدة، والحواريون ينظرون إليهم وهم يقتربون منهم رويداً رويداً، وكلما دنوا منهم كان عيسى يردد هذا الدعاء:

- اللهم اجعلني من الشاكرين، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة.

حتى استقر الملائكة على الأرض، ووضعوا المائدة بين أيديهم وهي مغطاة، فقام عيسى وكشف عنها الغطاء وهو يقول:

- بسم الله خير الرازقين.

فإذا بالمائدة عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة، فأكل منها الحواريون في ليلتهم تلك أكلاً لم يذقوا مثله من قبل، وتخليداً لهذه الليلة جعل من اعتنق المسيحية كدين من غير اليهود يوم الأحد عيداً، يحتفلون به كل أسبوع مرة واحدة، أي جعلوه يوم سرورهم وفرحهم وراحتهم.

قضى عيسى وحوارييه عقب تلك الخطبة الوافية والليلة البهيجة بضعة أيام في العبادة، نزلوا بعدها من الجبل في واحدة من جولاتهم لإبلاغ الدعوة، فاجتازوا وسط السامرة والجليل، وفيما هم داخلون على إحدى قرى المنطقة استقبلهم عشرة رجال برص فوقفوا من بعيد ورفعوا أصواتهم صائحين:

- يا عيسى بن داود، يا معلم ارحمنا..

توقف عيسى وحوارييه على أثر أصواتهم العالية، ودعاهم إلى

الاقتراب منه، ثم خاطبهم بنبرته المحببة للنفوس:

- ماذا تريدون مني أيها الإخوة.

فصاحوا جميعاً وبصوت واحد وكأنهم على اتفاق مسبق بالرد الجماعي:

- أعطنا صحة.

أزعج ذلك الطلب عيسى لاشتماله على المعاني نفسها التي أزعجته من الرجل الأبرص، فأجابهم إجابته للرجل الأبرص بلا تغيير يذكر:

- أيها الأغبياء أفقدتم عقولكم حتى تقولوا أعطنا صحة، ألا ترون أني إنسان نظيركم، ادعو إلهنا الذي خلقكم وهو القدير الرحيم يشفكم.

حينئذ تبين للرجال مبلغ خطأهم وتسرعهم، فاستدركوا قائلين بصوت واحد وعيون دامعة:

- إننا نعلم أنك إنسان نظيرنا ولكنك قدوس الله ونبي الرب فصل لله ليشفينا.

بدا للحواريين من حدة إجابة عيسى وارتفاع صوته أنه عازف عن الاستجابة لمطلبهم. غير أن عبارة البرص والمتضمنة قدراً كبيراً من الاعتذار عن خطأهم. ورغبتهم الصادقة في جعل عيسى ليكون شفيعهم والواسطة بينهم وبين الله هي التي دفعتهم للتضرع إليه قائلين:

- يا معلم ارحمهم.

عندئذ أنّ عيسى وتأوه أنيناً وتأوهاً مشوباً بالحزن والألم من جراء اعتقاد الناس فيه وفي قدرته وحده على الشفاء، ثم اتجه إلى الله تعالى وصلى داعياً لهم بالشفاء. قائلاً:

- أيها الرب الإله القدير الرحيم، ارحم وأصغ السمع إلى كلمات عبدك، ارحم هؤلاء الرجال، وامنحهم الصحة لأجل محبة إبراهيم أبينا وعهدك المقدس.

تحول بعدها وخاطب البرص بقوله:

- اذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة وقدموا قربان التطهير من البرص طبقاً لشريعة الله.

انصرف البرص كما أمرهم عيسى. وفيما هم منطلقون برئوا على الطريق. وطهرت أجسامهم من أعراض البرص المؤذية، واحد منهم لما رأى بأم عينيه شفاءه وعودة جسمه إلى حالته الطبيعية، وكان الرجل عربياً وعلى دين إسماعيل عليه السلام. كر راجعاً من حيث أتى ولسانه يلهج بحمد الله وشكره، وهو ينشد عيسى. وعندما عثر عليه انحنى احتراماً له وهو يقول:

- إنك لقدوس الله.

ثم توسل إليه بعظيم الشكر والامتنان على أن يقبله خادماً له، ولكن عيسى أعرض بادئ ذي بدء عن توسله متسائلاً:

- قد برىء عشرة فأين التسعة، ألا يوجد من يرجع ليحمد الله ويمجده غير هذا الغريب.

التفت بعدها إلى العربي الإسماعيلي وقال له:

- إني ما أتيت لأُخدم بل لأخدم، فاذهب إذاً إلى بيتك واذكر عظم ما فعل الله بك، لكي يعلم الجميع أن الوعود الموعود بها إبراهيم وابنه آخذة في الاقتراب.

ومن تلك القرية استقر رأي عيسى على السفر لزيارة الناصرة. وعبر بحر الجليل لاقتصار المسافة وتجنب وعورة الطريق البري. فصعد هو وحوارييه إلى أول مركب متحرك، وفي وسط البحر هبت عليهم ريح عاتية وفي الاتجاه المعاكس لخط سير المركب، فاضطرب البحر بشدة وعج عجيجاً يكاد صوته يصم الآذان، وتدفقت مياهه بغزارة على المركب وأحس الجميع بخطر الموت يحيط بهم من كل ناحية. وكان عيسى وقتها نائماً في مقدم المركب، فدنا منه الحواريون وأيقظوه قائلين:

- يا سيد خلِّص نفسك فإنا هالكون.

نهض عيسى ورفع عينيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً:

- يا لوهيم الصباؤت ارحم عبادك.

وعلى الفور سكنت حركت الريح، وهدأ البحر، واعتدل المركب في سيره برفق وتؤدة، فجزع النوتية جزعاً شديداً من هذا التحول غير المألوف، وزاد من اضطرابهم طاعة الريح ومياه البحر لعيسى وعلى نحو خارق لعوائد ما خبروه عن البحر، فقال بعضهم لبعض:

- من هو هذا حتى أن البحر والريح يطيعانه.

ولما دخل عيسى موطنه الناصرة أذاع النوتية ما فعله ابن مدينتهم في البحر والريح، وفي يوم السبت دخل المجمع، ولما آن أوان القراءة دفع إليه الخادم سفر أشعيا، ففتحه وبدأ يقرأ بصوت جميل إلى أن ختم قراءته بالآيات التالية:

«روح الرب عليّ لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي منكسري القلوب، لأنادي المأسورين بالإطلاق، وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية وأكرز بسنة الرب المقبولة»[١].

ثم طوى السفر وسلمه للخادم، وكانت عيون جميع من في المجمع شاخصة إليه تعجباً من نغمة الكلمات الخارجة من فمه وكأنهم يسمعونها لأول مرة. وبينهم وبين أنفسهم يقولون:

- أليس هذا ابن يوسف النجار.

وبينما الجميع يتهامسون بتلك الكلمات تقدم نحوه جماعة قليلة من الكتبة والعلماء، وبعضاً ممن لم يصدق خبر النوتية وسألوه:

- لقد سمعنا ما فعلت في البحر واليهودية فأتنا إذاً بآية من الآيات هنا في وطنك.

---

(١) إنجيل لوقا ٤: ١٨ ـ ١٩.

فرد عليهم قائلاً:

يطلب هذا الجيل عديم الإيمان آية، ولكن لن تعطى له آية من الآيات لأنه لا يقبل نبي في وطنه، لقد كان في زمن إيليا أرامل كثيرات كن في اليهود، وذلك حين انقطع المطر مدة ثلاث سنين وستة أشهر وعمت المجاعة الأرض كلها. ولكنه لم يرسل ليقات إلا عند أرملة صيدا، وكان البرص في زمن أليشع كثيرين ولكن لم يبرأ منهم إلا نعمان السرياني.

إن صراحة عيسى عليه السلام في رده عليهم لا تعكس عزوفه عن هداية القوم، ولا امتناعه من البرهنة على صدق نبوته، ولكنها واجهتهم بالحقيقة المرة التي ظلوا يتجاهلونها عن عمد، وهي أنه لم يرسل إليهم بوصفهم قوم لا صلة لهم بالوحي الإلهي أو النبوة، بل أرسل إلى قوم يفترض فيهم الإيمان بالله وكتبه ورسله، ليأتي هو ليتم ويكمل الناقص ويذكر بما نسي وأغفل منه، وهم بسؤالهم هذا قد كشفوا باستهتار مقيت عن عدم إيمانهم وبالتالي لا تزيدهم الآية والمعجزة إيماناً على إيمانهم، إذ هم أصلاً بلا إيمان، وهذا ما آثار حنقهم وغضبهم فتألبوا عليه واحتملوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل الذي كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه إلى أسفل. ولكن الله تعالى خلصه منهم، إذ شق طريقه بينهم ومضى دون أن يجرؤ أحد منهم على المساس به.

وغادر عيسى عليه السلام وحوارييه موطنه على الحالة التي تؤكد مقولة: لا كرامة لنبي في وطنه. قاصداً هذه المرة كفرناحوم على بحر الجليل، ولدى وصولهم إلى كورة الجدريين أو الجرمسيين خرج عليهم من المقابر رجل هائج قد تغمصته الشياطين منذ زمن طويل، وكان لا يرتدي ثوباً ولا يقيم تحت سقف بيت، بل اتخذ القبور سكناً له. وسبق للسكان من قبل ربطه بالسلاسل والقيود. وذلك لما كان يلحقه بهم من ضرر كبير، حتى جاء عليهم وقت لم يكن أحد منهم يقدر على اجتياز الطريق. إذ كان في كل مرة يقطع السلاسل والقيود وينطلق في ثورة جامحة، ولما رأى

الرجل عيسى صرخ بأعلى صوته وخر على الأرض. وبفمه قالت الشياطين مخاطبة عيسى:

- يا قدوس الله لماذا جئت قبل الوقت المحدد لنا لتزعجنا.

لم يجب عيسى على سؤالهم وإنما سألهم عن عددهم، فأجابوه:

- ستة آلاف وست مئة وستة وستون.

ولما سمع الحواريون هذا العدد الهائل من الشياطين يسكن بدن رجل واحد من بني آدم ارتاعوا ارتياعاً شديداً. وطلبوا منه بوجل وخوف أن ينصرف بهم عن هذا المكان، ولكنه رد عليهم بقوله:

- أين إيمانكم يجب على الشيطان أن ينصرف لا أنا.

وعندما رأى الشياطين إصرار عيسى على إخراجهم وتحديه لهم لم يجدوا مفراً من الرضوخ والاستسلام ولكن بشرط واحد فقط ضمنوه في قولهم له:

- إننا سنخرج، ولكن اسمح لنا بالدخول في تلك الخنازير.

وكان هناك بالفعل قطيع من الخنازير يرعى على قمم الجبال يقدر عدده بنحو عشرة آلاف خنزير مملوكة للكنعانيين، فخرجت الشياطين دفعة واحدة وبصوت كهدير السيل وزئير الأسود. ودخلت مباشرة في أجسام القطيع. الشيء الذي دفع بالخنازير تلقائياً ونتيجة لتلبس الشياطين بها إلى التخلص منهم. فتدفقت جموعهم على الجرف المطل على البحيرة ومن الجرف إلى البحيرة مباشرة، حيث نفقت بأجمعها مختنقة.

أما الرعاة الذين شاهدوا القطيع يقدم على الانتحار الجماعي وبوعي وتمييز شديدين، فقد هربوا لإخبار سكان كفرناحوم بالواقعة العجيبة، وقصوا عليهم قصة الرجل مع عيسى. فخرج جماعة منهم ليروا الحقيقة بأنفسهم، وبالفعل وجدوا الرجل جالساً عند قدمي عيسى بكامل قواه العقلية، فلم يصدقوا أعينهم، وخافوا خوفاً شديداً أداهم من قوته وشدة وقعه على نفوسهم إلى التضرع إليه طالبين منه الانصراف عن تخومهم. أما الرجل

فطلب من عيسى أن يجعله في معيته ويضمه إلى حوارييه، ولكن عيسى بكل لطف وكياسة صرفه قائلاً:

- ارجع إلى بيتك وحدّث الناس بما صنع الله بك.

دفعت رغبة أهالي كفرناحوم بعدم السماح لعيسى وحوارييه من دخول مدينتهم إلى الانصراف عنها سالكين الطريق الرابط بينها وبين مدينتي صور وصيدا، وذلك يعني عملياً خروجهم من الجليل وتوغلهم في قلب الأراضي الكنعانية، وطبيعياً ألا تكون لعيسى الرغبة في التعليم أو الدعوة. بل كانت نيته معقودة على الاعتزال لمدة بعيداً عن الناس. غير أنهم فوجئوا وهم على تخوم هاتين المدينتين بامرأة فينيقية سورية مع ابنيها خارجة من تلك التخوم وجاءت خصيصاً لمقابلة عيسى، ولما رأته مقبلاً اعترضت طريقه صائحة:

- يا عيسى بن داود ارحم ابنتي التي يعذبها الشيطان.

تجاهل عيسى المرأة تماماً، ولم يرد عليها بكلمة واحدة، وذلك التزاماً منه بهدف الدعوة، ولعلمه التام بأن بعثته قاصرة على بني إسرائيل ومقصورة عليهم وحدهم. وبالتالي فهو ليس معنياً بهؤلاء وأمثالهم من الأنجاس الذين لا يعرفون الشرائع المطهرة لنجاسة النفس، ولو أقلها كشريعة الختان، بيد أن الحواريين الذين غابت عنهم أغراض معلمهم، وتجاهله للمرأة. قالوا له من قبيل الرأفة والرحمة بها:

- يا معلم اعطف عليها، وانظر ما أشد صراخهم وعويلهم.

حينها لفت عيسى انتباه حوارييه إلى الحقيقة التي غفلوا عنها تحت وطأة تعاطفهم مع المرأة وسوء حالتها، ومن ثم ذكرهم بها قائلاً:

- إني لم أرسل إلا إلى شعب إسرائيل.

أما المرأة فلم تكترث أو تأبه لما قيل بل تقدمت بجرأة فائقة نحوه وهي تبكي وتولول قائلة:

- يا عيسى ابن داود ارحمني.

ولما رأى عيسى عدم فهم المرأة وإدراكها لمراده، وزادها رده الشافي على حوارييه إلحاحاً في السؤال والطلب كشف لها عن هدف بعثته بمقارنة حسية بسيطة تضعها هي وغيرها في مكانهم الطبيعي من دعوته فقال لها:

ـ لا يحسن أن يؤخذ الخبز من أيدي الأطفال ويطرح للكلاب.

وكأن المرأة كانت على علم تام ويقين كامل بمكانتها هي ومن هم على شاكلتها في الاعتقاد وفي ميزان الوحي الإلهي. فردت عليه بصراحة شديدة وبلا مواربة:

ـ يا سيد إن الكلاب تأكل الفتات الذي يسقط من مائدة أصحابها.

انجذب عيسى عليه السلام بشدة إلى بلاغة المرأة وحسن كلامها وقوة إيمانها وعمق إدراكها لواقعها وحقيقة حالها فقال:

ـ أيتها المرأة إن إيمانك عظيم.

ثم رفع يديه إلى السماء وصلى لله داعياً لابنتها بالشفاء قال بعدها للمرأة:

ـ أيتها المرأة قد حررت ابنتك فاذهبي في طريقك بسلام.

ومع انصراف الكنعانية أتيحت لعيسى وحوارييه الفرصة للابتعاد عن الناس والانفراد في جو لا يعكر صفوه أحد، مما أتاح لحوارييه وفي نهار هذا اليوم إلى سؤاله عن شيء أثار حيرتهم في حواره مع المرأة قائلين:

ـ يا معلم لماذا أجبت المرأة بهذا الجواب: إنهم كلاب.

تكمن حيرة الحواريين واستغرابهم في أن هذه هي المرة الأولى التي يستخدم فيها معلمهم كلمة الكلب كوصف لأناس لا صلة لهم بوحي الله وشريعته، إذ شبه نجاسة نفوسهم وأبدانهم بنجاسة الكلب وقذارته فأجابهم:

ـ الحق أقول لكم أن الكلب أفضل من رجل غير مختون.

وفي الوقت الذي أزالت إجابة عيسى جزء من حيرتهم واستغرابهم، أثارت في نفوسهم الحزن، فعلقوا عليها قائلين:

- إن هذا الكلام لثقيل ومن يقوى على قبوله.

أما عيسى فقد اكتفى في تشبيه حال الكافر بالكلب الذي لا يكاد يفرق بين من يحسن ومن يسيء إليه، ويفتقر بالكامل إلى الإدراك السليم في الحكم على الأشياء حكماً يتفق مع الحق وينسجم مع الوحي والعقل فقال لهم:

- إذا لاحظتم أيها الجهال ما يفعل الكلب الذي لا عقل له لخدمة صاحبه علمتم أن كلامي صادق، قولوا لي أيحرس الكلب بيت صاحبه ويعرض نفسه للص؟ نعم، ولكن ما جزاؤه، ضرب كثير وأذى، مع قليل من الخبز، وهو مع هذا يظهر لصاحبه وجهاً مسروراً، أصحيح هذا؟

أجابه الحواريون على سؤاله الأخير قائلين:

- نعم إنه صحيح يا معلم.

حينئذ ارتقى بهم إلى واقعة تاريخية معلومة لديهم تعضيداً لمقارنته السابقة بين الكافر والكلب فقال:

- اذكروا ما قاله داود لشاول ملك إسرائيل ضد جليات ملك الفلسطينيين. قال داود: يا سيد بينما كان عبدك يرعى قطيعه جاء ذئب ودب وأسد، وانقضت على غنم عبدك، فجاء عبدك وقتلها، وأنقذ الغنم، وما هذا الأغلف إلا كواحد منها، لذلك ذهب عبدك باسم الرب إله إسرائيل ويقتل هذا النجس الذي يجدف على الشعب.

رضي الحواريون بقبول كلام معلمهم بوصفه تصويراً دقيقاً عن منزلة الكافر وتدهور قيمة وجوده وحياته إلى حد مقارنته بأخس الحيوانات، ولمسوا في مقابل تلك المقارنة دور الإيمان والشريعة الربانية في تطهير الإنسان وتنقيته من أدران الشرك ونجاسة الكفر. وهنا استدركوا سائلين معلمهم:

- قل لنا يا معلم لأي سبب يجب على الإنسان الختان.

أجابهم عيسى إجابة مجملة وسريعة:

- يكفيكم أن الله أمر به قائلاً: يا إبراهيم اقطع غرلتك وغرلة كل بيتك لأن هذا عهد بيني وبينك إلى الأبد.

جرت المحاورة السابقة وفيما يبدو من تتبع برنابا لحركة عيسى وهم في طريقهم للبحث عن موقع مريح على مقربة من الجبل الذي يشرفون عليه للاسترواح قليلاً من وعثاء السفر، وعند الموضع الملائم جلس عليه السلام وتبعه حوارييه ليصغوا إلى تفصيل ما أجمله لهم قبل قليل عن أصل الختان فقال لهم:

«لما أكل آدم الإنسان الأول الطعام الذي نهاه الله عنه في الجنة مخدوعاً من الشيطان عصى عضوه التناسلي الروح، فأقسم قائلاً: تالله لأقطعنك. فكسر شظية من صخر وأمسك ذكره ليقطعه، فوبخه الملاك جبريل على ذلك، فأجابه:

- لقد أقسمت بالله أن أقطعه فلا أكون حانثاً.

حينئذ أراه الملاك القطعة الزائدة في عضوه فقطعها، وبما أن جسد كل إنسان من جسد آدم وجب عليه أن يراعي كل أحد عهد أقسم آدم ليقومن به، وحافظ آدم على فعل ذلك في أولاده، فتسلسلت سنة الختان من جيل إلى جيل، إلا أنه لم يكن في زمن إبراهيم سوى النزر القليل من المختونين على الأرض. لأن عبادة الأوثان تكاثرت على الأرض، وعليه فقد أخبر الله إبراهيم بحقيقة الختان، وأثبته في هذا العهد قائلاً:

- النفس التي لا تختن جسدها إياها أبدد ما بين شعبي إلى الأبد»[١].

ولما وصل عيسى في كلامه إلى تكاثر عبادة الأوثان، وقلة الأطهار في الأرض، وكثرة الأنجاس تغيرت نبرته الهادئة إلى نبرة غاضبة محتدمة ارتعد

---

(١) إنجيل برنابا ص٣٠، ٣١.

الحواريون من قوة وقعها في نفوسهم، وعندها قطع عليهم حبل أفكارهم ليقول لهم:

- دعوا الخوف للذي لم يقطع غرلته لأنه محروم من الجنة.

عاد بعد ذلك ليسترسل معهم في الحديث حيث قال:

«إن الروح عند الكثيرين نشطة في عبادة الله أما الجسد فضعيف متكاسل، فيجب على من يخاف الله أن يتأمل ماهية الجسد وأين كان أصله وما مصيره، من طين الأرض خلق الله الجسد، وفيه نفخة نسمة الحياة، فمتى اعترض الجسد على عبادة الله، يجب أن يمتهن ويداس كالطين، لأن من يبغض نفسه في هذا العالم يجدها في الحياة الأبدية، أما ماهية الجسد الآن فواضح من رغبائه وميله الدائم إلى الخطيئة أنه العدو الألد لكل خير وصلاح.

أيجب على الإنسان لمرضاة أحد أعدائه أن يترك مرضاة الله خالقه، تأملوا هذا: إن كل أولياء الله وأنبياءه عادوا أجسادهم لعبادة الله، لذلك سيقوا بطيب خاطر إلى حتفهم، لكيلا يتعدوا شريعة الله المعطاة لموسى عبده، ويعبدوا الآلهة الباطلة الكاذبة.

اذكروا إيليا الذي هرب جائباً قفار الجبال مقتاتاً بالعشب ومرتدياً جلد الماعز، أواه كم مر عليه من يوم لم يأكل فيه، أواه ما أشد البرد الذي احتمله، أواه كم وابل من المطر بلله، ولمدة سبع سنين ظل يعاني من شظف اضطهاد تلك المرأة النجسة إيزابل، واذكروا أيضاً اليشع الذي أكل خبز الشعير ولبس أخشن الأثواب.

الحق أقول لكم أنهم إذ لم يخشوا أن يمتهنوا الجسد لما روعوا الملوك والرؤساء. وكفى بهذا امتهاناً للجسد، وإذا نظرتم إلى القبور تعلمون ما هو الجسد.

الويل للذين هم في خدمة أجسادهم، لأنهم حقاً لا ينالون خيراً في الحياة الأخرى بل عذاباً لخطاياهم، أقول لكم لقد كان هناك غني يلبس

الأرجوان ولم يكن يهمه سوى الأكل والإفراط فيه إلى حد الشره، وكان كل يوم يولم وليمة عظيمة، وكان يقف على بابه فقير ممتلىء قروحاً يدعى لعازر ويشتهي أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة النهم، ولكن لم يعطه أحد إياه. بل سخر منه الجميع، ولم يعطف عليه إلا الكلاب التي كانت تلحس قروحه.

ومات الفقير وحملته الملائكة إلى حضن أبينا إبراهيم، ومات الغني أيضاً وحملته الشياطين إلى حضن إبليس حيث عانى أشد العذاب، فرفع عينيه ورأى لعازر من بعيد بين ذراعي إبراهيم. فنادى إبراهيم قائلاً:

- يا أبتاه ارحمني وابعث لعازر ليبل طرف بنانه بقطرة ماء تبّرد لساني الذي يعذب في هذا اللهيب.

فقال له إبراهيم:

- يا بني اذكر أنك استوفيت طيباتك في حياتك وللعازر البلايا، والآن أنت في الشقاء وهو في العزاء، وفوق هذا كله فبيننا وبينكم هوة عظيمة قد أقيمت حتى أن الذين يريدون العبور من هنا إليكم لا يقدرون، ولا الذين من هناك يجتازون إلينا.

فرد الغني قائلاً:

- أسألك إذن يا أبت أن ترسله إلى بيت أبي، لأن لي ثلاثة أخوة ليخبرهم بما أعانيه لكي يتوبوا ولا يأتوا إلى موضع العذاب هذا.

فقال له إبراهيم:

- عندهم موسى والأنبياء فليصغوا إليهم ويسمعوا منهم.

فقال الغني:

- كلا يا أبي إبراهيم، بل إذا قام واحد من الأموات ومضى إليهم يصدقون ويتوبون.

فأجابه إبراهيم.

- إن من لا يصدق موسى والأنبياء لا يصدق الأموات ولو قاموا»[1].

وختم عيسى القصة أو المثال بقوله:

- انظروا أليس الفقراء الصابرون مباركين يشتهون ما هو ضروري فقط كارهين للجسد. ما أشقى الذين يحملون الآخرين للدفن ليعطوا أجسادهم طعاماً للدود ولا يتعلمون الحق، بل هم بعيدون عن ذلك بعداً عظيماً حتى أنهم يعيشون هنا كأنهم خالدون، لأنهم يبنون بيوتاً كبيرة، ويشترون أملاكاً كثيرة ويعيشون في الكبرياء.

عقّب برنابا على الموعظة كلها متسائلاً:

- يا معلم إن كلامك لحق ولذلك تركنا كل شيء لنتبعك، فقل لنا كيف يجب علينا أن نبغض جسدنا، الانتحار غير جائز. ولما كنا أحياء وجب علينا إطعامه.

رد عليه معلمه قائلاً:

- احفظ جسدك كفرس تعش في أمن، لأن القوت يعطى للفرس بالمكيال والشغل بلا قياس، ويوضع اللجام في فمه ليسير بحسب إرادتك، ويقيد كي لا يزعج أحداً، ويحبس في مكان حقير، ويضرب إذا عصى، فهكذا افعل أنت يا برنابا تعش دوماً في معية الله، ولا يغيظنك كلامي، لأن داود فعل الشيء نفسه، كما يعترف قائلاً: إني كفرس عندك وإني دائماً معك.

ألا قل لي يا برنابا، أيهما أفقر الذي يقنع بالقليل أم الذي يشتهي الكثير، الحق أقول لكم لو كان للعالم عقل سليم لم يجمع شيئاً لنفسه، بل كان كل شيء شركة، ولكن بهذا يعلم جنونه، أنه كلما جمع زاد رغبة في الجمع والتكديس، وما يجمعه إنما يجمعه لراحة الآخرين الجسدية.

ثم توجه للآخرين قائلاً:

---

(١) إنجيل برنابا ص٣١ ـ ٣٣.

- فليكفكم إذاً ثوب واحد، ارموا كيسكم، لا تحملوا مزوداً ولا حذاء في أرجلكم، ولا تفكروا قائلين: ماذا يحدث لنا، بل فكروا أن تفعلوا ما يريده الله وهو يقدم لكم حاجتكم حتى لا تكونوا في حاجة إلى شيء، الحق أقول لكم أن من يجمع مالاً كثيراً في الدنيا يكون شهادة أكيدة له على أنه لا نصيب له في الجنة منه، لأن من كانت القدس وطناً له لا يبني بيوتاً في السامرة. إذ لا توجد عداوة بين المدينتين، أتفقهون؟

أجابوه قائلين:

- بلى.

وتدعيماً لمجمل حديثه ساق لهم المثال التالي:

- كان رجل على سفر، وبينما كان سائراً وجد كنزاً في حقل معروض للبيع بخمس قطع من النقود، فلما علم الرجل ذلك ذهب تواً وباع رداءه ليشتري الحقل، فهل يصدق ذلك.

أجابوه:

- إن من لا يصدق هذا فهو مجنون.

أكمل بعدها قائلاً:

- إنكم تكونون مجانين إذا كنتم لا تعطون حواسكم لله لتشتروا نفسكم حيث يستقر كنز المحبة، لأن المحبة كنز لا نظير له، لأن من يحب الله كان الله له، ومن كان الله له كان له كل شيء.

ووقف الحواري بطرس متأملاً عند عبارة (محبة الله) ليسأل معلمه:

- قل لنا يا معلم كيف يجب على الإنسان أن يحب الله محبة خالصة.

فأجاب:

- الحق أقول لكم إن من لا يبغض أباه وأمه وحياته وأولاده وامرأته لأجل محبة الله، فمثل هذا ليس أهلاً لأن يحب الله.

غير أن بطرس بدا له كلام معلمه عن حقيقة المحبة كما لو لم يكن مفهوماً لوجود نصوص في توراة موسى تعارضه، فقال له:

يا معلم لقد كُتب في كتاب موسى: أكرم أباك لتعيش طويلاً على الأرض، ثم يقول: ليكن ملعوناً الابن الذي لا يطيع أباه وأمه. ولذلك أمر الله أن يرجم الابن العاق أمام باب المدينة، فكيف تأمرنا أن نبغض أبانا وأمنا.

رد عليه عيسى بقوله:

كل كلمة من كلماتي صادقة، لأنها ليست مني بل من الله الذي أرسلني إلى بيت إسرائيل، لذلك أقول لكم أن كل ما عندكم قد أنعم الله به عليكم، فأي الأمرين أعظم قيمة العطية أم المعطي، فمتى كان أبوك وأمك أو غيرهما عثرة لك في عبادة الله فانبذهم كأنهم أعداء، ألم يقل الله لإبراهيم: اخرج من بيت أبيك وأهلك وتعال اسكن في الأرض التي أعطيها لك ولنسلك، ولماذا قال الله ذلك: أليس لأن أبا إبراهيم كان صانع تماثيل ويعبد آلهة كاذبة، لذلك بلغ العداء بينهما حداً أراد معه الأب أن يحرق ابنه.

سلّم بطرس ورفقاؤه بالحديث الذي ساقه لهم بوصفه وحياً من عند الله، فقال بطرس:

- إن كلماتك صادقة.

ثم وضمن سياق واحد سأله عن موضوع جديد يختلف كلية عما كان محور اهتمامهم، فقال:

- إني أضرع إليك أن تقص علينا كيف سخر إبراهيم من أبيه.

وبالفعل استجاب عيسى لطلب بطرس وقص عليهم حكاية إبراهيم مع أبيه آزر على النحو التالي:

«لما ابتدأ إبراهيم يسأل عن الله كان ابن سبع سنين، فقال ذات يوم لأبيه:

ـ يا أبتاه من صنع الإنسان.

أجاب الوالد:

ـ الإنسان، لأني أنا صنعتك وأبي صنعني.

فعلق إبراهيم قائلاً:

ـ يا أبي ليس الأمر كذلك، لأني سمعت شيخاً ينتحب وهو يقول: يا إلهي لماذا لم تعطني أولاداً.

رد أبوه:

ـ حقاً يا بني فإن الله يساعد الإنسان ليصنع إنساناً ولكنه لا يضع يده فيه، فيلزم الإنسان أن يتقدم ويتضرع إلى إلهه ويقدم له حملاناً وغنماً فيساعده إلهه.

فتساءل إبراهيم:

ـ كم إلهاً هنالك يا أبي.

فرد الشيخ بقوله:

ـ لا عدد لهم يا بني.

حينئذ قال إبراهيم.

ـ ماذا أفعل يا أبي إذا خدمت إلهاً وأراد بي الآخر شراً لأني لا أخدمه، ومهما يكن من الأمر فإنه قد يحصل بينهما شقاق أو يقع بينهما خصام، ولكن إذا قتل الإله الذي يريد بي شراً إلهي فماذا أفعل، من المؤكد أنه يقتلني أنا أيضاً.

ضحك الشيخ وقال:

ـ لا تخف يا بني لأنه لا يخاصم إله إلهاً، كلا فإن في الهيكل الكبير ألوفاً من الألهة مع الإله الكبير بعل، وقد بلغت الآن سبعين سنة من العمر ومع ذلك فإني لم أر قط إلهاً ضرب إلهاً آخر، ومن

المؤكد أن الناس كلهم لا يعبدون إلهاً واحداً، بل يعبد واحد إلهاً وآخر آخر.

فقال إبراهيم متعجباً:

- فإذاً يوجد وفاق بينهم.

أجاب أبوه:

- نعم يوجد.

وعند هذا الحد انتقل إبراهيم إلى موضوع آخر فسأل والده:

- يا أبي أي شيء تشبه الآلهة.

فأجابه مستهزئاً:

- يا غبي إني كل يوم أصنع إلهاً أبيعه لآخرين لأشتري خبزاً وأنت لا تعلم كيف تكون الآلهة.

وكان آزر وقت رده على ابنه يصنع تمثالاً فرفعه قليلاً وهو يقول:

- هذا من خشب النخل، وذاك من الزيتون. وذلك التمثال الصغير من العاج، انظر ما أجمله، ألا يظهر كأنه حي، حقاً لا يعوزه إلا النفس.

لم تزد إبراهيم إجابات والده وردوده إلا استمراراً في الأسئلة المحيرة، فسأله هذا المرة:

- إذاً يا أبي ليس للآلهة نفس. فكيف يهبون الأنفاس، ولما لم تكن لهم حياة فكيف يعطون إذاً الحياة، فمن المؤكد يا أبي أن هؤلاء ليسوا هم الله؟

عندها اشتد غضب آزر فصاح في إبراهيم:

- لو كنت بالغاً من العمر ما تتمكن معه من الإدراك لشجبت رأسك بهذا الفأس، ولكن اصمت إذ ليس لك إدراك.

وازداد إبراهيم إصراراً لمعرفة حقيقة هذه الآلهة المصنوعة فسأل كعادته مستفهماً:

- يا أبي إن كانت الآلهة تساعد على صنع الإنسان فكيف يتأتى للإنسان أن يصنع آلهة، وإذا كانت الآلهة مصنوعة من خشب فإن إحراق الخشب خطيئة كبرى، ولكن قل لي يا أبت كيف وأنت قد صنعت آلهة هذا عددها، لِمَ لم تساعدك الآلهة لتصنع أولاداً كثيرين فتصير أقوى رجل في العالم.

توقف إبراهيم قليلاً في الاسترسال لما رأى إمارات السخط على ملامح والده، ورغم ذلك أكمل قائلاً:

- يا أبت هل وجد العالم حيناً من الدهور بدون بشر.

فرد عليه آزر:

- نعم ولماذا؟

فقال إبراهيم:

- لأني أحب أن أعرف من صنع الإله الأول.

وعندما رأى آزر أن المحاورة مع إبراهيم وصلت إلى مدى قد يشغله عن أعماله صرفه قائلاً:

- انصرف الآن من بيتي ودعني أصنع هذا الإله سريعاً ولا تكلمني كلاماً بعد الآن، فمتى كنت جائعاً فإنك تشتهي خبزاً لا كلاماً.

نظر إبراهيم إلى التمثال الذي بين يدي والده وقال كالمستهزىء به:

- إنه لإله عظيم فإنك تقطعه كما يريد وهو لا يدافع عن نفسه.

فثارت ثائرة الشيخ من جرأة ابنه في السخرية والاستهزاء من الآلهة فقال له والشرر يتطاير من عينيه:

- إن العالم بأسره يقول أنه إله وأنت أيها الغلام الغبي تقول كلا، فوآلهتي لو كنت رجلاً لقتلتك»[١].

ضحك الحواريون من حماقة الشيخ وجهله بأبسط أمور الدين. وانبهروا في الوقت نفسه بفطنة إبراهيم وحدة ذكاءه، وسعة علمه على صغره، ولكن عيسى لامهم وأنبهم على حسن نواياهم قائلاً:

- لقد نسيتم كلام النبي القائل: (الضحك العاجل نذير البكاء الآجل) وأيضاً: (لا تذهب إلى حيث الضحك بل اجلس حيث ينوحون. لأن هذه الحياة تنقضي في الشقاء) ألا تعلمون أن الله في زمن موسى مسخ ناساً كثيرين في مصر حيوانات مخيفة، لأنهم ضحكوا واستهزأوا بالآخرين، احذروا من أن تضحكوا من أحد ما لأنكم تبكون بسببه.

لم يكن أمام الحواريون إزاء هذه النصيحة الغالية إلا بيان المسوغ الذي قادهم إلى هذا الموقف الداعي إلى الاعتذار فقالوا:

- إننا ضحكنا من حماقة الشيخ.

أما الحواري فيليبس فرغب أن يكمل لهم عيسى قصة إبراهيم مع أبيه لأجل ذلك تساءل:

- يا معلم كيف حدث أن أبا إبراهيم أحب أن يحرق ابنه.

فأكمل لهم عيسى باقي القصة قائلاً:

«لما بلغ إبراهيم اثنتي عشرة سنة من العمر قال له أبوه يوماً ما:

- غداً عيد كل الآلهة، فلذلك سنذهب إلى الهيكل الكبير ونحمل هدية لإلهي بعل العظيم، وأنت تنتخب لنفسك إلهاً، لأنك بلغت سناً يحق لك معه اتخاذ إله.

---

(١) إنجيل برنابا ص٣٦ ـ ٣٨.

رد عليه إبراهيم بمكر:

ـ سمعاً وطاعة يا أبي.

وفي صباح يوم العيد بكرا بالذهاب إلى الهيكل قبل الناس، وكان إبراهيم يحمل تحت ملابسه فأساً، فلما دخلا الهيكل وازداد الجمع وقل التحفظ اختبأ وراء صنم في ناحية مظلمة من الهيكل، وبعد أداء الطقوس وخروج الناس من المعبد، انصرف أبوه ظاناً أن إبراهيم قد سبقه إلى البيت، ولذلك لم يمكث للبحث عنه.

ولما خلا الهيكل من الناس ولم يبق فيه أحد، أقفل الكهنة أبوابه وانصرفوا، فأخذ إبراهيم الفأس وعكف على قطع قوائم جميع الأصنام إلا الإله الكبير بعل الذي وضع الفأس عند قوائمه بين جذاذات التماثيل التي تساقطت قطعاً أثناء ضربات الفأس.

ولدى خروجه من الهيكل رآه جماعة من الناس فظنوا في البداية أنه دخل ليسرق شيئاً من الهيكل فأمسكوه، ثم قادوه إلى داخل الهيكل للتحقق والتأكد من ظنهم، ولكنهم فوجئوا بآلهتهم محطمة إلى قطع، عدا الإله الكبير بعل، فصاحوا بصوت واحد وبكاءهم يتردد صداه داخل المعبد:

ـ أسرعوا يا قوم لنقتل الذي قتل آلهتنا.

فهرع نحوهم قرابة عشرة آلاف رجل من الكهنة وسألوا عن السبب الذي دعاه لتحطيم آلهتهم، فأنكر إبراهيم قائلاً:

ـ إنكم لأغبياء أيقتل الإنسان الله، إن الذي قتلها هو الإله الكبير، ألا ترون فأسه عند قدميه، إنه لا يحب ولا يبتغي له أنداداً.

في هذا الوقت جاء آزر مسرعاً واستمع إلى جانب من حديث ابنه، ولما نظر إلى الفأس عرف أنها فأسه، فصاح في الجمع الحاشد:

ـ إنما قتل آلهتنا ابني الخائن، لأن هذه الفأس فأسي.

وأراد القوم نصرة آلهتهم والانتصار لها ممن أساء إليها، فجمعوا

مقداراً كبيراً من الحطب، وربطوا يدي إبراهيم ورجله، ووضعوه على الحطب ثم أشعلوا النار تحته، ولكن الله أمر النار بواسطة ملاكه جبريل ألا تحرق عبده إبراهيم، فاضطربت النار باحتدام حتى أنها أحرقت نحو ألفي رجل من الذين حكموا على إبراهيم بالموت، أما إبراهيم فقد وجد نفسه مطلق السراح إذ حمله ملاك الله إلى مقربة من بيت أبيه دون أن يرى من حمله، وهكذا نجا إبراهيم من الموت[١].

هنا توقف عيسى لبرهة وجيزة أتاحت للحواري فيليبس مجالاً للتعليق على نجاة إبراهيم وللتساءل معاً فقال:

- ما أعظم رحمة الله للذين يحبونه، ولكن قل لنا يا معلم كيف توصل إبراهيم إلى معرفة الله؟

فقال عيسى مسترسلاً في الحديث:

وعندما بلغ إبراهيم جوار بيت أبيه تردد في الدخول، فسار إلى مسافة بعيدة عن البيت، وجلس تحت شجرة نخل منفرداً حيث قال:

- لا بد من وجود إله ذى حياة وقوة أكثر من الإنسان لأنه يخلق الإنسان، والإنسان بدونه لا يقدر على صنع الإنسان.

قال هذا ثم التفت حوله وأجال نظره في النجوم والقمر والشمس فظن أنها هي الله، ولكن بعد استقصاء النظر إلى تغيراتها وحركاتها قال:

- يجب ألا تطرأ على الله الحركة ولا تحجبه الغيوم وإلا هلك الناس.

وبينما هو في حيرته تلك سمع من يناديه قائلاً:

- يا إبراهيم.

التفت إلى مصدر الصوت فلم ير أحداً عندئذ قال في نفسه:

- إني قد سمعت يا إبراهيم.

---

(١) إنجيل برنابا ص٣٩ ـ ٤١.

سمع بعدها من يناديه مرتين أخريين، عندئذ صاح:

- من يناديني.

فسمع قائلاً يقول:

- إنه أنا ملاك الله جبريل.

وبطبيعة الحال فقد خاف إبراهيم وانزعج، ولكن جبريل سكّن من روعه قائلاً:

- لا تخف يا إبراهيم لأنك خليل الله، فإنك لما حطمت آلهة الناس تحطيماً اصطفاك إله الملائكة والأنبياء حتى إنك كتبت في سفر الحياة.

فسأله إبراهيم:

- ماذا يجب عليّ أن أفعل لأعبد إله الملائكة والأنبياء الأطهار.

أجاب جبريل:

- اذهب إلى ذلك الينبوع واغتسل لأن الله يريد أن يكلمك.

فسأله إبراهيم:

- وكيف اغتسل.

حينئذ تمثل له جبريل في هيئة غلام جميل الوجه، اغتسل أمامه من الينبوع قائلاً:

- افعل كذلك بنفسك يا إبراهيم.

ولما اغتسل إبراهيم قال له جبريل:

- ارتق ذلك الجبل لأن الله يريد أن يكلمك هناك.

ارتقى إبراهيم الجبل كما قال له جبريل، وعلى قمته جثا على ركبتيه وهو يقول لنفسه:

- متى يا ترى يكلمني إله الملائكة.

فسمع صوتاً لطيفاً يناديه:

- يا إبراهيم.

فأجاب على الفور:

- من يناديني.

رد عليه الصوت:

- أنا إلهك يا إبراهيم.

خاف إبراهيم خوفاً شديداً وعفر وجهه في الأرض وهو يقول:

- كيف يصغي عبدك إليك وهو تراب ورماد.

فقال الله تعالى:

- لا تخف بل انهض لأني اصطفيتك عبداً لي وإني أريد أن أباركك وأجعلك شعباً عظيماً، فاخرج من بيت أبيك وأهلك وتعال اسكن في الأرض التي أعطيكها أنت ونسلك.

رد عليه إبراهيم:

- إني لفاعل كل ذلك يا رب ولكن احرسني لكيلا يضرني إله آخر.

فقال له تعالى مطمئناً:

- أنا الله ولا إله غيري، أضرب وأشفي، أميت وأحي، أُنزل الجحيم وأُخرج منه، ولا يقدر أحد أن ينقذ نفسه من يدي.

ثم أعطاه الله عهد الختان، وهكذا عرف الله أبونا إبراهيم»[1].

ولما اقترب عيد المظال غادر عيسى وحوارييه أرض كنعان إلى بيت المقدس للاحتفال به مع بقية الأمة، وشاع خبر وصوله بين الناس بمجرد

---

(١) إنجيل برنابا ص٤١ ـ ٤٣.

دخوله المدينة، فتشاور من تصدى لهم في أول خطبة له بالنقد والتوبيخ، كالكتبة والكهنة والفريسيين وغيرهم من الطوائف الدينية التي تعتبر المدينة مركزهم الروحي ليتسقطوه ويتتبعوا أخطاءه، وذلك لمجابهة دعوته والحد من انتشارها، وإظهاره هو بمظهر المدعي والمتنبي، فجاءه أحد الفقهاء (الناموسيين) ليسأله عن أعظم وصية في الوحي قائلاً:

- يا معلم ماذا يجب عليّ أن أفعل لأحصل على الحياة الأبدية؟

أجاب عيسى على سؤاله بسؤال يدرك سهولة وبداهة الإجابة عليه عنده فقال:

- ما هو المكتوب في الناموس وكيف تقرأه؟

فقال الفقيه:

- مكتوب: تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك وعقلك، هذه هي الوصية الأولى والعظمى، والثانية مثلها: تحب قريبك حبك لنفسك، بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله.

أبدى عيسى استحسانه على إجابة الفقيه فقال:

- أجبت بالصواب، وإني أقول لك اذهب وافعل هكذا تكن لك الحياة الأبدية.

أدت تلك الإجابة بالفقيه إلى إيجاد مخرج من الموقف الذي دفعه إليه، فانتقل قاصداً إحراجه بأمر لا وجود لذكر له في النص السابق، فسأله:

- ومن هو قريبي.

فرد عليه عيسى بالمثال التالي:

- كان رجل نازلاً من القدس ليذهب إلى أريحا المدينة التي أعيد بناؤها تحت اللعنة، فأمسك به اللصوص على الطريق وعروه وجرحوه ومضوا تاركينه خلفهم مشرفاً على الموت، فاتفق أن مر كاهن بذلك الموضع، فلما رأى الجريح سار دون أن يحييه، ومر

مثله لاوي دون أن يقول كلمة، واتفق أن مر أيضاً سامري، فعطف عليه وأخذه وضمد جراحاته وصب عليه زيتاً وخمراً، ثم عزاه وأركبه على دابته، ولما بلغ في المساء النزل سلمه إلى عناية صاحبه، وفي الغد نهض مبكراً وقال لصاحب النزل: اعتني بهذا الرجل وأنا أدفع لك كل شيء، وبعد أن قدم أربع قطع من الذهب للجريح لدفع أجرة المبيت وغيرها قال له: تعز لأني سأعود سريعاً وأمضي بك إلى بيتي، فأي الثلاثة ترى صار قريباً للذي وقع بين اللصوص.

أجابه الفقيه بلا تردد:

- الذي أظهر الرحمة.

حينئذ قال له عيسى:

- قد أجبت بالصواب فاذهب أنت وافعل هكذا.

فانصرف الفقيه يجر أذيال الخيبة والخسران، أما الفريسيون ويشاركهم مجموعة من الموالين لابن هيردوتس فسعوا إلى وضعه في مواجهة مع السلطات الرومانية، فسألوه وكأنهم يضيقون عليه الخناق:

- يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله الحق، ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، فقل لنا، أيجوز أن تعطى الجزية لقيصر؟

وكالعادة لم يفاجأ عيسى بالمعنى الباطن في السؤال والإجابة عليه معاً، فالتفت إلى يهوذا الأسخريوطي المسؤول عن مالية الجماعة وطلب منه تسليمه أي قطعة نقدية، فقدم له يهوذا فلساً، أخذ عيسى الفلس بيده ثم بادرهم بالسؤال:

- إن على هذا الفلس صورة وكتابة، فقولوا لي لمن هذه الصورة والكتابة.

فانساقوا بلا وعي من المعنى الكامن في السؤال للإجابة قائلين:

- الصورة والكتابة لقيصر.

عندئذ قال لهم وبكل بساطة:

- أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

وعاد الفريسيون مدفوعين من الهيرودتسيين أو متواطئين معهم دون تحقيق أملهم أو نيل مطلوبهم.

ولا تكاد محاولة الصدوقيين لإحراجه، وهم أبعد الطوائف عن شريعة موسى تخرج عما اشترك الجميع في التخطيط له، ولكن هؤلاء أرادوا جره إلى قضايا لا تشغل أحد من المتآمرين ومعارضة لاعتقادهم، فسألوه سؤال من يستعلم عن شيء يجهله.

- يا معلم قال موسى إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته وينجب نسلاً لأخيه، فكان عندنا سبعة إخوة تزوج الأول ولم ينجب، فترك امرأته لأخيه، وكذلك الثاني والثالث حتى السابع، ومع السابع ماتت المرأة أيضاً، ففي يوم القيامة من من السبعة تكون المرأة زوجة له، فإنها كانت للجميع.

رد عليهم عيسى بقوله:

- ألا تعلمون أن العباد يوم القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون، بل يكونون كالملائكة في السماء.

هنا فقط بهت الجميع من سداد إجابته ولطف تخلصه وسعة علمه بالوحي الإلهي. كما انبهروا من ناحية أخرى من قوة حجته وسلامة آراءه. وغدت أي محاولة بعدها للمناقشة عديمة الجدوى، فامتنع باقي ممثلي الطوائف تلقائياً من الإدلاء بأسئلتهم التعجيزية، وذلك مؤذن ليس فقط بفشلهم في التغلب عليه، بل أيضاً بانتهاء الغرض من اجتماعهم ككل. ولما بدأوا في التفرق وذهاب كل منهم إلى حال سبيله اقترب من عيسى ضابط روماني طاعن في السن برتبة (سنتورين) قائد مائة، من سكان القدس، وبادره بالقول:

- يا سيدي إن ابني مطروح في البيت مفلوجاً ويعاني أشد العذاب، فارحم شيخوختي.

فرد عليه عيسى:

- ليرحمك الرب إله إسرائيل.

اكتفى الضابط الروماني من عيسى بهذا الدعاء، وعند انصرافه ناداه عيسى بقوله:

- انتظرني لأني آت إلى بيتك لأصلي على ابنك.

وبكل تواضع وانكسار قال الروماني:

- يا سيدي إني لست أهلاً وأنت نبي أن تأتي إلى بيتي تكفيني كلمتك التي تكلمت بها لشفاء ابني، فلقد جعلك الله سيداً على كل مرض كما قال لي ملاكه في المنام، ولأني أيضاً إنسان لي سلطان ولي جند تحت يدي، أقول لهذا اذهب فيذهب، ولآخر آت فيأتي، ولعبدي افعل فيفعل.

تعجب عيسى من ثقة الروماني في الله، ومن قوة إيمانه به كنبي مرسل ومؤيد بالمعجزات الخارقة فاستدار لمن حوله وقال:

- انظروا إلى هذا الأجنبي لأن فيه إيماناً لم أجد ولا في إسرائيل إيماناً يضاهيه ويماثله.

ثم مال إلى قائد المائة وقال له:

- اذهب إلى بيتك بسلام لأن الله منح ابنك الصحة لأجل الإيمان العظيم الذي أعطاكه.

فمضى الضابط الروماني، وفي طريقه إلى منزله التقى بخدامه الذين أخبروه بأن ابنه قد برىء، فاستخبرهم عن الوقت الذي تعافى فيه قائلاً:

- في أية ساعة تركته الحمى؟

فقالوا:

- أمس في الساعة السادسة انصرفت عنه الحمى.

عندئذ علم أنه في اللحظة التي قال فيها عيسى: «ليرحمك الرب إله إسرائيل» استرد ابنه صحته، لأجل ذلك آمن الرجل بالله، ولما دخل بيته حطم كل آلهته تحطيماً وهو يقول لأهل بيته:

- ليس الإله الحقيقي سوى إله إسرائيل، فلا يأكل خبزي أحد لم يعبد إله إسرائيل.

وعلى أي حال فقد جوبهت دعوة عيسى وبعد مضي ما يزيد عن نصف العام بعناد الطوائف اليهودية الكبرى لبني إسرائيل، وبمحاولاتهم الدؤوبة لحصارها والحد من انتشارها والقضاء عليها، وسلاحهم الوحيد كما بينا من قبل هو جره إلى مواقف معدة مسبقاً تكشف عن بطلان دعوته، وعن ادعائه للنبوة، ومن ثم يظهر للناسِ بصورة لا تتفق وتليق بالنبي المرسل من عند الله، والواقعة التالية تنصب في هذا المجرى وتسير على الطريق نفسه:

ففي ذات يوم تلقى عليه السلام دعوة من أحد المتضلعين في الشريعة للعشاء في منزله، لا ليتعلم منه بل ليجربه ويختبره، فقبل الدعوة، وجاء في الليلة المحددة هو وحواريوه، وكان في انتظاره على المائدة لفيف من الكتبة والفقهاء والفريسيين وغيرهم. فجلس الحواريون على المائدة دون أن يغسلوا أيديهم. فانتهز الكتبة هذه البادرة ودنوا من عيسى قائلين:

- لماذا يتعدى حوارييك تقاليد شيوخنا ولا يحافظون عليها بعدم غسل أيديهم قبل أن يأكلوا خبزاً.

لقد سألوا هذا السؤال لعلمهم بأن الفريسيين ككل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون استمساكاً منهم بما كان عليه أسلافهم ومشائخهم، وحتى ولو كانوا في السوق إن لم يغسلوا أيديهم لا يقربون طعاماً، وأشياء أخرى كثيرة تلقوها وتمسكوا بها حرفياً مثل غسل الكؤوس والأباريق والأواني النحاس وغيرها، لذلك سألوها من قبيل الإنكار والإفحام عن العلة في عدم سلوك حوارييه حسب تقليد الشيوخ بأكلهم الخبز بأيد غير مغسولة.

ورداً على استفسارهم خطب فيهم خطبة طويلة جاء فيها:

حسناً تنبأ أشيعا عنكم قائلاً: هذا الشعب يقترب إليّ بفمه ويكرمني بشفتيه أما قلبه فبعيد عني. يعبدني باطلاً لأنهم أبطلوا شريعتي التي أعطاهم لها عبدي موسى ويتبعون تقليد الشيوخ، فإن الله أوصى موسى قائلاً: أكرم أباك وأمك، ومن يشتم أباً وأماً فليمت موتاً، وأما أنتم فتقولون إن قال إنسان لأبيه وأمه، أي هدية هي التي تنتفع بها مني، فلا تدعونه فيما بعد يفعل شيئاً لأبيه وأمه مبطلين كلام الله بتقليدكم الذي تسلتموه.

وأنا أسألكم لأي سبب أبطلتم شريعة الله لتحفظوا تقاليدكم تقولون لأولاد الآباء الفقراء: قدموا وأنذروا نذوراً للهيكل، وهم إنما يجعلون نذوراً من النذر الذي يجب أن يعولوا به آباءهم، وإذا أحب آباؤهم أن يأخذوا نقوداً يصيح الأبناء إن هذه النقود نذر الله، فيصيب الآباء بسبب ذلك ضيقاً.

أيها الكتبة الكذابون المراؤون أيستعمل الله هذه النقود، كلا ثم كلا، لأن الله لا يأكل كما يقول بواسطة عبده داود النبي: هل آكل الثيران وأشرب دم الغنم، أعطني ذبيحة الحمد وقدم لي نذورك، لأني إن جعت لا أطلب منك شيئاً، لأن كل الأشياء في يدي وعندي.

أما أنتم أيها الفريسيون فتنقون خارج الكأس والقصعة، وأما باطنكم فمملؤ خبثاً ونجاسة، يا أغبياء أليس الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضاً، بل اعطوا ما عندكم صدقة فبهذا كل شيء يكون نقياً، ولكن الويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تعشرون النعنع والسذاب وكل بقل وتتجاوزون عن الحق ومحبة الله، كان ينبغي أن تعملوا هذا ولا تتركوا ذاك، ويل لكم أيها الفريسيون لأن لكم المجلس الأول في المجامع والتحيات في الأسواق، وما أشقاكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تظهرون للآخرين أشد الطرق وضوحاً ولا تسيرون عليها.

وعند العبارة الأخيرة قاطعه أحد الفقهاء (الناموسيين) معترضاً:

- يا معلم حين تقول هذا تشتمنا نحن أيضاً.

فقال موجهاً الحديث هذا المرة للفقهاء وحدهم:

وويل لكم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الآخرين أحمالاً عسيرة الحمل لا يطاق حملها، وأنتم لا تمسون الأحمال بإحدى أصابعكم، ويل لكم لأنكم تبنون قبور الأنبياء وأباؤكم قتلوهم، فأنتم إذن تشهدون وترضون بأعمال أبائكم، لأنهم هم قتلوهم وأنتم تبنون قبورهم، ولذلك قال الله: إني أرسل إليهم أنبياء ورسلاً فيقتلون فريقاً ويطردون فريقاً. إن هذا الجيل مطالب بدم جميع الأنبياء المهرق منذ إنشاء العالم من دم هابيل إلى دم زكريا الذي أُهلك بين المذبح والبيت، نعم أقول لكم إنه يطلب من هذا الجيل، ويلكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة وما دخلتم ومنعتم الآخرين من الدخول.

إن كل شر إنما دخل العالم بواسطة الشيوخ، قولوا لي من أدخل عبادة الأصنام في العالم إلا طريقة الشيوخ، فقد كان هناك ملك أحب أباه كثيراً، وكان اسمه بعلاً، فلما مات الأب أمر ابنه بصنع تمثال شبيه بأبيه تعزية لنفسه ونصبه في سوق المدينة، وأمر بأن يكون كل من اقترب من ذلك التمثال إلى مسافة خمسة عشر ذراعاً في مأمن لا يلحق أحد به أذى على الإطلاق وعليه أخذ الأشرار بسبب الفوائد التي جنوها من التمثال يقدمون له ورداً وزهوراً، ثم تحولت هذه الهدايا في زمن قصير إلى نقود وطعام حتى سموه إلهاً تكريماً له. وهذا الشيء تحول من عادة إلى شريعة حتى أن الصنم بعلاً انتشر في العالم كله.

الحق أقول لكم أن أكل الخبز بأيد غير نظيفة لا ينجس إنساناً لأن ما يدخل الإنسان لا ينجس الإنسان، بل الذي يخرج من الإنسان ينجس الإنسان.

توقف عيسى في حديثه عند هذا الحد، وبه ختم رده ومناقشته للمدعويين، فتقدم منه بعض الحواريين. الذين كانوا على المائدة وقت كان معلمهم واقفاً يخطب. وأعينهم ترصد ردود فعل الفريسيين ومبلغ تأثرهم بحديثه قائلين:

- أتعلم أن الفريسيين لما سمعوا قولك الأخير نفروا وازوروا.

فرد عليهم.

- كل غرس لم يغرسه الله يقلع، اتركوهم هم عميان قادة عميان، وإذا كان الأعمى يقود أعمى فكلاهما يسقط في الحفرة.

ولما كان المثال لا يتفق مع نفور الفريسيين وإعراضهم فقد سأله بطرس.

- يا معلم فسر لنا هذا المثل.

فقال لهم جميعاً:

- ألم تفهمون بعد، أن كل ما يدخل الفم يمضي إلى الجوف ويندفع إلى المخرج وذلك يطهر كل الأطعمة، وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر، وذاك ينجس الإنسان، لأن من القلب تخرج الأفكار الشريرة كالزنى وشهادة الزور والتجديف، والسرقة والطمع، هذه هي التي تخرج من الداخل وتنجس الإنسان، وأما الأكل بأيد غير مغسولة فلا ينجس الإنسان.

عندئذ سأله أحد الكتبة:

- إن أكلت لحم خنزير أو لحوماً أخرى نجسة أفلا تنجس هذه ضميري.

أجابه عيسى إجابة تغنيه إذا وعى جيداً شرحه للمثال فقال:

- إن العصيان لا يدخل الإنسان بل يخرج من قلبه، ولذلك يكون نجساً متى أكل طعاماً محرماً.

أما الفقهاء فقد بادر أحدهم بإخراج الجميع من هذا الموضوع الذي جوبهوا فيه بمتانة أفكاره عليه السلام وقوة حجته، وتعرضت معتقداتهم إلى نقد عنيف ودقيق يكاد يأتي عليها من جذورها إلى موضوع آخر أمل به أن يجعل عيسى في مواجهة الأمة بأسرها فقال له:

- يا معلم لقد تكلمت كثيراً عن عبادة الأصنام. كأن عند شعب إسرائيل أصناماً، وعليه فقد أسأت لنا.

رد عليه عيسى بهدوء وبلا انفعال:

- أعلم جيداً أنه لا توجد اليوم تماثيل من خشب في إسرائيل ولكن توجد تماثيل من جسد.

هنا ثارت ثائرة الكتبة واشتد غضبهم وصرخوا بصوت واحد:

- أنحن أذن عبدة أصنام.

وبكل ما عرف به عيسى من رزانة وتعقل ولطف من الخطاب وجمال في التعبير رد على ثورتهم بقوله:

- الحق أقول لكم لا تقول الشريعة أعبد بل أحب الرب إلهك بكل نفسك وبكل قلبك وبكل عقلك. أن كل ما يحبه الإنسان ويترك لأجله كل شيء سواه فهو إلهه، فإن صنم الزاني هي الزانية، وصنم النهم والسكير جسده، وصنم الطماع الذهب والفضة، وقس عليه كل خاطىء آخر.

ولأول مرة يتدخل صاحب المأدبة مشاركاً في محاولتهم المتكررة لإفحامه وإحراجه فقال له كالمتسائل:

- يا معلم ما هي أعظم خطيئة؟

أجابه عيسى على سؤاله بسؤال مثله:

- أي الخراب أعظم في البيت.

فسكت صاحب الدعوة، وبسكوته سكت جميع المدعويين، أما عيسى فقد أشار بإصبعه إلى أساس وقال:

- إذا تزعزع أساس البيت سقط البيت خراباً، فيلزم إذ ذاك أن يبني بناءً جديداً، ولكن إذا تداعى أي جزء سواه يمكن ترميمه ولذلك أقول لكم إن عبادة الأصنام هي أعظم خطيئة لأنها تجرد الإنسان

بالمرة من الإيمان، فتجرده من الله بحيث لا تكون له محبة روحية، وكل خطيئة أخرى تترك للإنسان أمل نيل الرحمة. ولذلك أقول أن عبادة الأصنام أعظم خطيئة.

بهت الجميع من بساطة قوله الناطق بالحق والحقيقة، فلم يرد عليه أو يناقشه فيه أحد لعلمهم باستحالة الرد عليه. مما مكن عيسى من مواصلة حديثه بلا تدخل فقال لهم:

- تذكروا ما تكلم الله به، وما كتبه موسى ويشوع في الناموس، فتعلموا ما أعظم هذه الخطيئة. قال الله مخاطباً إسرائيل: لا تصنع لك تمثالاً مما في الأرض ولا مما تحت السماء، ولا تصنعه مما فوق الأرض ولا مما تحت الأرض، ولا مما فوق الماء ولا مما تحت الماء إني أنا إلهك قوي وغيور، ينتقم لهذه الخطيئة من الآباء حتى الجيل الرابع، فاذكروا كيف لما صنع آباؤنا العجل وعبدوه أخذ يشوع وسبط لاوي السيف بأمر الله، وقتلوا مئة ألف وعشرين ألفاً من أولئك الذين لم يطلبوا رحمة الله. ما أشد حساب الله على عبدة الأوثان.

تقترن دعوة عيسى كما هو معروف بالمعجزة الخارقة للعوائد. وترتبط فيها الموعظة بالدليل والبرهان، لإزالة كل شك أو تردد في نفوس مستمعيه ولإفحام خصومه ودحض حججهم، وقد ظهر ذلك جلياً عقب هذه الخطبة الطويلة. فبعد أن أحس بتأثير موعظته في قلوب المدعويين وانهيار دعاوي ومزاعم معارضيه ومجادليه، نادى على رجل مشلول اليد لا يستطيع لها حراكاً، وعاجز عن العمل والكسب وممن يترددون على منازل الأثرياء وموائدهم ليحظى بقليل من الفتات يتعيش به، ولما مثل الرجل أمام المدعويين توجه عليه السلام بالصلاة والدعاء إلى الله. ثم قال مخاطباً الجميع:

- لتعلموا أن كلماتي حق أقول: باسم الله امدد يا رجل يدك المريضة.

فمد الرجل يده سليمة كأن لم تصبها علة. أو تكن بها آفة، ولزم الجميع السكون بعد أن جردتهم المعجزة الخارقة من كل حجة لهم، وأفرغت ما في جعبتهم من آراء، وانشغل كل واحد منهم بالطعام وفي قلبه وجل وخوف. لأن من يملك تلك القدرة على الشفاء لا يعجزه فعل شيء، وبعد مضي دقائق قليلة قال لهم:

- الحق أقول لكم إن إحراق مدينة لأفضل من أن يترك فيها عادة رديئة. وذلك لأن لمثل هذا يغضب الله على رؤساء وملوك الأرض الذين أعطاهم الله قوة لإزالة الآثام.

اذكر دوماً ألا تضع نفسك في الموضع الأعلى، حتى إذا جاء صاحب صديق لصاحب البيت أعظم منك لا يقول لك، قم واجلس أسفل، فيكون باعثاً لك على الخجل. بل اذهب واجلس في أحقر موضع ليجيء الذي دعاك ويقول: قم يا صديق واجلس هنا في الأعلى، فيكون لك فخر عظيم، لأن من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع.

إن الشيطان لم يخذل إلا بخطيئة العظمة والتكبر والتجبر كما يقول النبي أشعيا موبخاً إياه بهذه الكلمات: كيف سقطت من السماء يا كوكب الصباح، يا من كنت طاووس الملائكة وجمال الملائكة، وأشرقت كالفجر، حقاً أن تكبرك قد جرك إلى السقوط إلى الأرض.

الحق أقول لكم إذا عرف الإنسان شقاءه، فإنه يبكي هنا على الأرض دائماً، ويحسب نفسه أحقر من كل شيء آخر، ولأجل هذا استمر الإنسان الأول وامرأته يبكيان مئة سنة بلا انقطاع طالبين رحمة من الله، لأنهما علما يقيناً أين سقطا بكبريائهما.

وذاع بين سكان بيت المقدس خبر ومضمون الخطبة البليغة والمفعمة بالمعاني الروحية التي ألقاها على جمهرة من علية القوم وعقلائهم والآية التي فعلها على مرأى منهم، فعامة الناس توجهوا لله بالشكر والعرفان أن فيهم رسولاً، أما خواصم من الكهنة والكتبة فقد آثار حفيظتهم بتنديده المتكرر بتقاليد شيوخهم، وما وجدوا عليه آباءهم ولكنهم لاذوا بالتريث

والتمهل في انتظار اللحظة المناسبة والفرصة المواتية للنيل منه والقضاء على دعوته.

غادر عيسى وحواريوه مدينة القدس بعد تلك الوليمة في طريقهم إلى برية ما وراء نهر الأردن للعبادة والذكر من ناحية، ولمواصلة تعليم حوارييه من ناحية أخرى، بعيداً عن ضوضاء المدينة، وفي جو يسوده الهدوء والسكينة، وفي أول جلسة لهم في تلك البرية التف الحواريون حول معلمهم لمواصلة ما انقطع من كلامه حول سقطة الشيطان، فسأله أحدهم مزيداً من الإيضاح عن حقيقة ودوافع وملابسات تلك السقطة الشنيعة قائلاً:

- يا معلم قل لنا كيف سقط الشيطان بتكبره وعظمته وكبريائه، لأننا كنا نعلم أنه سقط بسبب المعصية، وكان دائماً يغري الإنسان بالوقوع في المعاصي.

أجابهم:

- لما خلق الله كتلة من التراب وتركها خمساً وعشرين ألف سنة بدون أن يفعل شيئاً آخر علم الشيطان الذي كان وقتها رئيساً للملائكة ويمتاز بالإدراك الواسع أن الله سيأخذ من تلك الكتلة الطينية مئة وأربعة وأربعين ألفاً كلهم موسومين بسمة النبوة، وبسمة رسول الله (محمد ﷺ) الذي خلق روحه قبل كل شيء آخر بستين ألف سنة. ولذلك غضب الشيطان، وأغرى الملائكة الآخرين قائلاً:

- انظروا سيأمرنا الله يوماً ما بالسجود لهذا التراب، وعليه فتبصروا وتأملوا جيداً، فنحن روح ولا يليق أن نسجد للطين.

وحدث بالفعل ما تنبأ به الشيطان فقد جمع الله الملائكة كلهم وقال لهم:

- ليسجد تواً كل من اتخذني إلهاً ورباً لهذا التراب.

فسجد الملائكة الذين أحبوا الله، أما الشيطان والذين كانوا على شاكلته فقالوا:

- يا رب إننا روح وليس من العدل أن نسجد لهذه الطينة.

وعقب قوله ذلك تحول الشيطان إلى مخلوق هائل الحجم مخيف المنظر، وأصبح كل من تبعه على شاكلته في القبح والدمامة، لأن الله تعالى أزال بعصيانهم الجمال الذي جملهم به عند خلقه لهم، ولما رفع الملائكة الأطهار الذين استجابوا لأمر الله وسجدوا رؤوسهم ورأوا شدة القبح التي تحول إليها الشيطان وأتباعه، خروا من جديد على وجوههم إلى الأرض خائفين. أما الشيطان فقال لله تعالى:

- يا رب إنك جعلتني قبيحاً ظلماً. ولكنني راض بذلك لأني أريد أن أبطل كل ما فعلت.

وقال الشياطين الآخرون.

- لا تسميه رباً يا كوكب الصبح لأنك أنت الرب.

حينئذ قال الله لأتباع الشيطان:

- توبوا واعترفوا بأنني أنا الله خالقكم.

أجابوه:

- إننا نتوب من سجودنا لك لأنك غير عادل، أما الشيطان فعادل وبريء وهو ربنا.

فرد الله عليهم جميعاً:

- انصرفوا عني أيها الملاعين لأنه ليس عندي رحمة لكم.

وأثناء انصرافهم بصق كبيرهم الشيطان على كتلة التراب.

الحق أقول لكم أن من لا يصلي فهو شر من الشيطان، وسيحل عليه عذاب أعظم، لأن الشيطان لم يكن له قبل سقوطه عبرة ولا يعرف الخوف، ولم يرسل الله إليه رسولاً يدعوه إلى التوبة، ولكن الإنسان يعيش بإهمال بدون أدنى خوف كأنه لا يوجد إله مع أن له أمثلة لا عداد لها على عدل الله، فعن مثل هؤلاء قال داود النبي: قال الجاهل في قلبه ليس إله،

لذلك كانوا فاسدين وأمسوا رجساً دون أن يكون فيهم واحد يفعل صلاحاً.

صلوا بدون انقطاع يا تلاميذي لتعطوا، لأن من يطلب يجد ومن يقرع يفتح له، ومن يسأل يعط، ولا تنظروا في صلاتكم إلى كثرة الكلام، لأن الله ينظر إلى القلب كما قال سليمان: يا عبدي أعطني قلبك، الحق أقول لكم لعمر الله إن المرائين يصلون كثيراً في كل أنحاء المدينة لينظر إليهم الناس. ويعدون قديسين، ولكن قلوبهم ممتلئة شراً، فهم ليسوا على جد فيما يطلبون فمن الضروري أن تكون مخلصاً في صلاتك إن أردت أن يقبلها الله، فقولوا لي: من يذهب ليكلم الحاكم الروماني أو هيرودتس ولا يكون قصده موجهاً إلى ما هو ذاهب إليه، وإلى ما هو عازم أن يطلبه منه؟ لا أحد مطلقاً، فإذا كان الإنسان يفعل كذلك ليكلم رجلاً فماذا على الإنسان أن يفعل ليكلم الله، ويطلب منه المغفرة على خطاياه، شاكراً إياه على كل ما أعطاه.

إن الذين يقيمون الصلاة قليلون، ولذلك كان للشيطان تسلط عليهم، لأن الله لا يحب أولئك الذين يكرمونه بشفاههم الذين يطلبون في الهيكل رحمة بشفاههم، ولكن قلوبهم تستصرخ العدل، إن الذي يذهب ليصلي بدون تدبر يستهزىء بالله، من يذهب ليكلم هيرودتس ويوليه ظهره، ويمدح أمامه بيلاطس الذي يكرهه كراهية الموت، لا أحد مطلقاً، ولكن الإنسان الذي يذهب ليصلي ولا يعدّ نفسه لا يكون فعله دون هذا، فإنه يولي الله ظهره والشيطان في وجهه، لأن في قلبه محبة الإثم التي لم يتب عنها.

فإذا أساء إليك أحد وقال لك بشفتيه (اغفر لي) وضربك ضربة بيديه، فكيف تغفر له، هكذا يرحم الله الذين يقولون بشفاههم يا رب ارحمنا ويحبون بقلوبهم الإثم، ويهمون بخطايا جديدة.

كان لوقع هذه الموعظة في نفوس الحواريين بالغ الأثر إلى حد انخرطوا باكين على ما فاتهم من خير عميم، وتضرعوا إليه قائلين:

- يا سيد علمنا كيف نصلي.

فأجابهم:

- تأملوا ماذا تفعلون إذا ألقى القبض عليكم الحاكم الروماني ليعدمكم، فصلوا إذن صلاة مودع، ولتكن صلاتكم على النحو التالي:

«أيها الرب إلهنا ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك فينا، لتنفذ مشيئتك دائماً، وكما هي نافذة في السماء لتكن نافذة كذلك على الأرض، أعطنا الخبز كل يوم واغفر لنا خطايانا، كما نغفر نحن لمن يخطئون إلينا، ولا تسمح بدخولنا في التجارب، ولكن نجنا من الشرير، لأنك أنت وحدك إلهنا الذي يجب له المجد والإكرام إلى الأبد»(١).

أما الحواري يوحنا فقد قال مقولة بدأت لعيسى وكأنه يريد منه مثلما علمهم كيف يصلون أن يعلمهم أيضاً كيف يغتسلون للصلاة:

- يا معلم لنغتسل كما أمر الله على لسان موسى.

عندها كشف لهم وهكذا مباشرة عن طبيعة بعثته ورسالته قائلاً:

- أتظنون أني جئت لأبطل الشريعة والأنبياء، لعمر الله إني لم آت لأبطلها ولكن لأحفظها. لأن كل نبي حفظ شريعة الله، وكل ما تكلم الله به على لسان الأنبياء الآخرين، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لا يمكن أن يكون مرضياً لله من يخالف أقل وصاياه ولكنه يكون الأصغر يوم القيامة، بل لا يكون له نصيب هناك، وأقول لكم أيضاً أنه لا يمكن مخالفة واحد من شريعة الله إلا باجتراح أكبر الآثام، ولكن أحب أن تفقهوا أنه ضروري أن تحافظوا على هذه الكلمات التي قالها الله على لسان أشعيا النبي: اغتسلوا وكونوا أنقياء، أبعدوا أفكاركم عن عيني.

الحق أقول لكم إن ماء البحر كله لا يغسل ما يحب الآثام بقلبه وأقول لكم أيضاً لا يقدم أحد صلاة مرضية لله إن لم يغتسل، ولكنه يحمل نفسه خطيئة شبيهة بعبادة الأوثان، صدقوني أنه إذا صلى إنسان لله كما يجب ينال

---

(١) إنجيل برنابا ص٥٦.

كل ما يطلب، اذكروا موسى عبدالله الذي ضرب بصلاته مصر وشق البحر وأغرق هناك فرعون وجيشه، اذكروا يشوع الذي أوقف الشمس، وصموئيل الذي أوقع الرعب في جيش الفلسطينيين الذي لا يحصى، وإيليا الذي أمطر ناراً من السماء، وأقام اليشع ميتاً، وكثيرون غيرهم من الأنبياء الأطهار الذين بواسطة الصلاة نالوا كل ما طلبوا، ولكن هؤلاء الأنبياء لم يطلبوا في الحقيقة شيئاً لأنفسهم، بل إنما طلبوا لله وعظمته وجلاله.

وفي اللحظة التي توقف فيها عند هذا الحد في شرحه عن أهمية الصلاة طلب يوحنا من معلمه كي يواصل حديثه عن خطأ الإنسان الأول قائلاً:

- حسناً تكلمت يا معلم ولكن ينقصنا أن نعرف كيف أخطأ الإنسان؟

فأجاب بقوله:

- لما طرد الله الشيطان، وطهر الملاك جبريل تلك الكتلة من التراب التي بصق عليها الشيطان، خلق الله كل شيء حي من الحيوانات التي تطير ومن التي تدب وتسبح، وزين العالم بكل ما فيه، فاقترب الشيطان يوماً ما من أبواب الجنة، فلما رأى الخيل تأكل العشب أخبرها أنه إذا صار لتلك الكتلة من التراب نفس أصابها ضنك شديد، ولذلك فإن مصلحتها أن تدوس تلك القطعة من التراب بطريقة لا تصلح بعدها لشيء. فثارت الخيل وأخذت تعدو بشدة على تلك القطعة من التراب، فنفخ الله في ذلك الجزء النجس من التراب الذي وقع عليه بصاق الشيطان الذي أخذه جبريل من الكتلة وخلق الكلب الذي أخذ ينبح فروّع الخيل فهربت، ثم أعطى الله نفسه للإنسان، وكانت كلها تترنم بهذه الترنيمة؛

اللهم ربنا تبارك اسمك القدوس.

فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها:

- لا إله إلا الله ومحمد رسول الله.

ففتح آدم فاه وقال:

- أشكرك أيها الرب إلهي لأنك تفضلت فخلقتني، ولكن أضرع إليك أن تنبأني ما معنى هذه الكلمات:

محمد رسول الله.

فأجاب الله:

- مرحباً بك يا عبدي آدم، وإني أقول لك أنك أول إنسان خلقت، وهذا الذي رأيته إنما هو ابنك الذي سيأتي إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة. وسيكون رسولي الذي لأجله خلقت كل الأشياء. الذي متى جاء سيعطي نوراً للعالم، الذي كانت نفسه موضوعة في بهاء سماوي ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئاً.

ثم تضرع آدم إلى الله قائلاً:

- يا رب هبني هذه الكتابة على أظفار يدي.

فمنح الله تعالى الإنسان تلك الكتابة على إبهاميه، على ظفر إبهام اليد اليمنى ما نصه لا إله إلا الله، وعلى ظفر إبهام اليد اليسرى ما نصه: محمد رسول الله، فقبّل الإنسان بحنو أبوي هذه الكلمات ومسح عينيه وقال:

- بورك ذلك اليوم الذي ستأتي فيه للعالم.

فلما رأى الله الإنسان وحده قال:

- ليس حسناً أن يكون وحده، فلذلك نوّمه وأخذ ضلعاً من القلب، وملأ الموضع لحماً، فخلق من ذلك الضلع حواء، وجعلها امرأة لآدم، وأقام الزوجين في الجنة وقال لهما:

- انظروا إني أعطيكما كل ثمر لتأكلا منه خلا التفاح والحنطة، احذرا أن تأكلا شيئاً من هذه الأثمار، لأنكما تصيران نجسين. فلا أسمح لكما بالبقاء هنا، بل أطردكما ويحل بكما شقاء عظيم.

واغتاظ الشيطان لما علم بذلك، فاقترب من باب الجنة حيث كان الحارس حية مخوفة لها قوائم كجمل وأظافر أقدامها حادة من الجانبين كالموس فقال لها العدو:

- اسمحي لي بأن أدخل الجنة.

أجابت الحية:

- وكيف أسمح لك بالدخول وقد أمرني الله بأن أطردك.

فقال لها الشيطان:

- ألا ترين كم يحبك الله إذ أقامك خارج الجنة لتحرسي كتلة من الطين وهي الإنسان. فإذا أدخلتني الجنة أجعلك رهيبة حتى أن كل أحد يهرب منك، فتذهبين وتقيمين كما تشاءين.

فسألت الحية:

- وكيف أُدخلك.

أجاب الشيطان:

- إنك كبيرة فافتحي فمك فأدخل في بطنك، فمتى دخلت الجنة ضعيني بجانب هاتين الكتلتين من الطين اللتين تمشيان حديثاً على الأرض.

وفعلت الحية ما أراد الشيطان فحملته ووضعته بجانب حواء، إذ كان آدم وقتها نائماً فتمثل لها الشيطان ملاكاً جميلاً وقال لها:

- لماذا لا تأكلان من هذا التفاح وهذه الحنطة.

أجابته حواء قائلة:

- قال لنا الله إنا إذا أكلنا صرنا نجسين ولذلك يطردنا من الجنة.

رد عليها الشيطان.

- إنما قال لك ذلك لكيلا تصيران ندين له، ولكن إذا كنت وعشيرك

تعملان بنصيحتي فإنكما تأكلان من هذه الثمار كما تأكلان من غيرها، ولا تلبثا خاضعين لآخرين، بل تعرفان الخير والشر مثل الله، وتفعلان ما تريدان، حينئذ تصيران ندين لله.

أخذت حواء الثمار وأكلت منها، وحينما استيقظ زوجها أخبرته بكل ما قاله الشيطان. فتناول هو الآخر منها ما قدمته له وأكل، وبينما كان الطعام نازلاً تذكر كلام الله، فأراد أن يوقف الطعام فوضع يده في حلقه، ولأجل ذلك كان لكل إنسان علامة في حلقه.

في هذه اللحظة علم كلاهما أنهما كانا عاريين، فاستحيا وأخذا أوراق التين وصنعا منها ثوباً لسوأتيهما، فلما مالت الظهيرة نادى الله تعالى على آدم قائلاً:

- يا آدم أين أنت.

فأجابه آدم:

- يا رب تخبأت من حضرتك لأني وامرأتي عاريان ونستحي أن نظهر أمامك.

فقال الله:

- ومن اغتصب منكما براءتكما إلا أن تكونا أكلتما من الثمر فصرتما بسببه نجسين، ولا يمكنكما بعد الآن أن تمكثا في الجنة.

فقال آدم:

- يا رب إن الزوجة التي أعطيتني هي التي طلبت مني أن آكل فأكلت منه.

وقال الله لحواء:

- لماذا أعطيت طعاماً كهذا لزوجك.

أجابت حواء:

- إن الشيطان خدعني فأكلت.

قال الله:

- كيف دخل ذلك الرجيم إلى هنا.

أجابت حواء:

- أن الحية التي تقف على الباب الشمالي من الجنة أحضرته إلى جانبي.

فقال الله لآدم:

- لتكن الأرض ملعونة بعملك لأنك أصغيت لصوت امرأتك وأكلت الثمار، لتنبت لك حسكاً وشوكاً، ولتأكل الخبز بعرق جبينك، واذكر أنك من تراب وإلى التراب تعود.

وكلم حواء قائلاً:

- وأنت أصغيت للشيطان وأعطيت زوجك الطعام تلبثين تحت الرجل الذي يعاملك كأمة. وتحملين الأولاد بالألم.

ودعا الله الملاك ميخائيل الذي يحمل سيف الله وقال له:

- اطرد أولاً من الجنة الحية الخبيثة، ومتى صارت خارجاً فاقطع قوائمها، فإذا أرادت أن تمشي يجب أن تزحف.

ثم نادى الله بعد ذلك الشيطان الذي أتى ضاحكاً فقال له:

- لأنك أيها الرجيم خدعت هذين وصيرتهما نجسين أريد أن تدخل في فمك كل نجاسة فيهما، وفي كل أولادهما متى تابوا عنها وعبدوني حقاً. فتخرج منهم فتصير مكتظاً بالنجاسة.

فجأر الشيطان بعد سماعه ذلك الكلام جأراً مخوفاً وقال:

- لما كنت تريد أن تصيرني أردأ مما أنا عليه فإني سأجعل من نفسي كما أقدر أن أكون.

فقال له الله:

- انصرف أيها اللعين.

فانصرف الشيطان، ثم قال الله لآدم وحواء اللذين كانا ينتحبان:

- اخرجا من الجنة، وجاهدا أبدانكما ولا يضعف وجاؤكما لأني أرسل ابنكما على كيفية يمكن بها لذريتكما أن ترفع سلطة الشيطان عن الجنس البشري، لأني سأعطي رسولي الذي سيأتي كل شيء.

ومن ثم احتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس فلما التفت آدم وراءه رأى مكتوباً فوق الباب.

- لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فبكى آدم عند ذلك وقال:

- أيها الابن عسى الله أن يريد أن تأتي سريعاً وتخلصنا من هذا الشقاء.

وهكذا أخطأ الشيطان وآدم بسبب الكبرياء، أما أحدهما فلأنه احتقر الإنسان، وأما الآخر فلأنه أراد أن يجعل نفسه نداً لله»[١].

أتاحت الأيام التي قضاها عيسى في صحراء الأردن لمعظم كهنة الطوائف اليهودية فترة كافية للنظر برفق وتؤدة في غاية البعثة وهدفها. تبين لهم خلالها كما لو كان النقد والتفنيد لاعتقاداتهم جزء لا يتجزأ منها. والمجاهرة بالطعن في مسلكهم لازمة من لوازمها، ورغم كل ذلك فقد فشلوا في العثور على مأخذ واحد يؤاخذونه عليه، ولم يبق لهم سوى تتبعه بدقة وإحصاء حركاته وسكناته علهم يعثروا على ثغرة ينفذون منها إليه. وها هم الآن وقد أوشك العام الأول للدعوة على الانتهاء، قد وجدوا بالفعل فكرة أو قضية يمكن أن تكون قاصمة الظهر له ولبعثته.

ولم ينتظروا حتى يعود إليهم بل سعوا للبحث والتفتيش عنه إلى أن ظفروا به حيث حط رحاله، ثم أرسلوا إليه وفداً يتكون معظمه من اللاويين

---

(١) إنجيل برنابا ص٥٨ ـ ٦٣.

وبعض الكتبة ليطرحوا عليه سؤالاً واحداً ومحدداً وهو:

- من أنت؟

إن الموفدين يريدون أن يحدد لهم صفته النبوية والرسالية بين أنبياء الله ورسله، وعلى أوجه أخص هل هو النبي الذي بشّرهم به أنبياؤهم وأخذوا عليهم العهود والمواثيق على الإيمان به عند ظهوره، فأجابهم عيسى عن مقصودهم وكأنه يقرأ ما في دواخلهم مقراً إقراراً هو أقرب إلى الاعتراف، وبما يناقض مقصودهم تماماً فقال:

- الحق أني لست مسيّا (رسول الله).

إن اعتراف عيسى ينبىء عن إدراكه العميق بأنه ليس هو النبي والرسول المنتظر، الشيء الذي أداهم تلقائياً لسؤاله عن أنبياء آخرين يتوقع ظهور أرواحهم في أنبياء جدد فقالوا.

- أأنت إيليا أو أرميا أو أحد الأنبياء.

فرد عليهم بالنفي نفياً مطلقاً أغلق في وجوههم كل أبواب الاستخبار عن معلوم أو مجهول فقال:

- كلا.

وعلى الرغم مما في إجابته من معنى الردع والكف عن المحاولة إلا أن الموفدين أصروا ألا يرجعوا إلا بعد سماعهم منه شفاهة تحديداً دقيقاً لحقيقة نبوته وجوهر رسالته، طالما قد اعترف وأقر بانتفاء صلته بالمسيا رسول الله وغيره من الأنبياء فقالوا له:

- من أنت قل لنشهد للذين أرسلونا.

أيقن عيسى عندئذ أن القوم يسعون فقط لمعرفة ماهية نبوته ورسالته لينقلوها كشهادة منه بلا زيادة ولا نقصان، وهنا فقط صرح لهم بما سبق واعترف به لحوارييه قائلاً:

- أنا صوت صارخ في اليهودية كلها يصرخ أعدوا طريق رسول الله

كما هو مكتوب في أشعيا.

فماهية نبوته وجوهر رسالته إذن يكمن في كونه قد نبىء وأرسل خصيصاً للبشارة بمبعث محمد رسول الله، في إشارة واضحة وصريحة إلى أن مبعثه يعني في واقع الأمر قفل باب النبوة لخاصة القوم، ومبشراً في الوقت نفسه بخاتم الأنبياء والمرسلين وللناس كافة تبشيراً هو في هدفه وغايته أشبه بإصلاح حال الناس وتهيئتهم وإعدادهم لمبعثه الميمون.

شعر الموفدون بخيبة أمل شديدة لفشلهم في العثور على إجابة محددة ودقيقة تحسب له أو عليه، بل بدأت إجاباته كما لو كانت تهرباً من مواجهتهم بحقيقة الصفة التي يدعيها لنفسه، فسألوه في خاتمة أمرهم سؤالاً يعكس تأففهم وضجرهم من مجمل إجاباته قائلين:

- إذ لم تكن المسيح ولا إيليا أو نبياً، فلماذا تبشر بتعليم جديد وتجعل نفسك أعظم شأناً من مسيا.

رد عليهم عيسى رداً بمثابة تقرير أجمل فيه حقيقة بعثته ومكانته إذا وضعت في مقارنة مع من ينتظرون مبعثه فقال:

- إن الآيات التي يفعلها الله على يدي تُظهر أني أتكلم بما يريد الله. ولست أحسب نفسي نظير الذي تقولون، لأني لست أهلاً أن أحل سيور حذاء رسول الله تسمونه مسيا. والذي خلق قبلي وسيأتي بعدي، وسيأتي بكلام الحق، ولا يكون لدينه نهاية.

أيقن عيسى من إثارة فكرة المسيا المنتظر بأن اتجاه المعركة بينه وبين الطوائف اليهودية يسير نحو نتيجة أصبحت تفرض نفسها فرضاً. إذ أعطاهم ولأول مرة سلاحاً يستخدمونه ضده، ومن ثم فإن تأليب الأمة ضده غدا له مسوغاته المعقولة، فهو وباعترافه الشخصي ليس الرسول المنتظر، ولا أحداً ممن يتوقع ظهورهم من الأنبياء، أي هو مدع للنبوة مثله في ذلك مثل سائر المتنبئين الذين عرفهم الناس، ولأجل هذا كشف لحوارييه عقب انصراف الوفد عما يتوقعه من أذى واضطهاد قائلاً:

- الحق أقول لكم أن روساء وشيوخ شعبنا يتربصون بي الدوائر.

ليست هذه هي المرة الأولى التي يكشف فيها لحوارييه عن مخاوفه، ولكنها المرة الأولى التي يشعرهم فيها بخطورة المخطط له، وعلى نحو ينبىء فعلاً بأن أمور البعثة لن تمضي بعد الآن كما عهدوها طوال الأشهر الماضية. مما دفع بالحواري بطرس للإشفاق عليه من كيد القوم ومكرهم، فقال له ناصحاً ومحذراً:

- لا تذهب فيما بعد إلى القدس.

ولكن عيسى طمأنه قائلاً:

- إنك لا تفقه ما تقول، فإن عليّ أن احتمل اضطهادات كثيرة، لأنه هكذا احتمل جميع الأنبياء وأطهار الله، ولكن لا تخف لأنه يوجد قوم معنا وقوم ضدنا.

وبعد ستة أو ثمانية أيام على هذه الواقعة عاد عيسى وحواريوه إلى اليهودية ومنها صعدوا إلى الجبل، وبسبب لم تفصح عنه الأناجيل أخذ معه بطرس ويعقوب وأخوه يوحنا وبرنابا تاركاً الباقين في أسفل الجبل، وفي قمة الجبل أشرق عليهم نور قوي تغيرت على أثره هيئة عيسى وصارت ثيابه بيضاء كالثلج، وأضاء وجهه ولمع كنور الشمس، وإذا بموسى وإيليا (إلياس) عليهما السلام قد ظهروا على مرأى من الحواريين الأربعة، وهما يكلمانه عليه السلام بكلام تركز أغلبه وكما لخصه برنابا حول:

«ما سيحل بشعبنا وبالمدينة المقدسة»[1].

ولما خلصوا من حديثهم قال بطرس مخاطباً عيسى:

- يا سيد حسن أن نكون هنا، فإذا أردت أن نصنع ثلاث مظال لك واحدة ولموسى واحدة والأخرى لإيليا.

وبينما كان بطرس يردد تلك الكلمات غشيتهم سحابة بيضاء أظلتهم

---

(١) إنجيل برنابا ص٦٥.

جميعاً، ومنها سمعوا صوتاً لم تألفه آذانهم من قبل يقول:

- هذا هو عبدي الذي به سررت فاسمعوا له.

فخاف الحواريون خوفاً أفقدهم القدرة على الوقوف فسقطوا على وجوههم إلى الأرض كأنهم صرعى أو أمواتاً من شدة وقع الصوت الملائكي عليهم فانحنى عيسى وأقامهم واحداً تلو الآخر، وعندما استردوا وعيهم وفتحوا أعينهم لم يروا أحداً سوى عيسى، وهو يقول لهم مهدئاً:

- لا تخافوا لأن الله يحبكم وقد فعل هذا لكي تؤمنوا بي.

وفيما هم نازلون من الجبل وقد زالت مخاوفهم وهدأت نفوسهم سألوه قائلين:

- يا معلم لماذا يقول الكتبة أن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً.

ويعود سؤالهم هذا إلى أن اليهود كانوا يتوقعون عودة نبي بروح إيليا قبل مجيء ومبعث عيسى، وها هو إيليا قد جاء بالفعل وذهب، فرد عليهم قائلاً:

- إن إيليا يأتي أولاً ويرد كل شيء، ولكني أقول لكم أن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا.

عندئذ فهم الحواريون أن عيسى كان يقصد بكلامه يحيى بن زكريا الذي جاءهم بالفعل بروح إيليا ليرد الجميع إلى شريعة الله الغراء، ولكن لم يتبعه أحد منهم، بل أودعوه الحبس ثم قتلوه، وبذلك حسمت إجابته وبصورة نهائية ما كان يتردد ويشاع آنئذ بينهم، وقضت بالتالي على واحدة من آمالهم العريضة بعودة نبي بروح أحد الأنبياء قبل مبعث المسيا.

وفي أسفل الجبل وجدوا بانتظارهم إخوانهم الثمانية وبرفقتهم رجل وابنه، وقص عليهم الأربعة بالتفصيل ما رأوه. فزال ساعتئذ من قلوبهم كل شك وارتياب في عيسى ودعوته، حاشا يهوذا الاسخريوطي الذي لم يؤثر فيه ما سمع اليوم، ناهيك ما سمعه وشاهده في سائر الأيام الماضية. ولما أفرغ الحواريون الأربعة ما في جعبتهم من العجائب الربانية تقدم الرجل نحو

عيسى وقال له في نبرة تشي بالألم والتفجع:

- يا سيد ارحم ابني الوحيد فإنه مصروع ويتألم ألماً شديداً، وكثيراً ما يصرخ بغتة ويقع مزبداً حيث انتابته نوبة الصرع سواء في الماء أو النار، وبعد جهد جهيد يزول عنه ويتركه مرضرضاً، وأحضرته إلى تلاميذك فلم يقدروا على شفائه.

فسأل عيسى أباه:

- منذ متى وهو يعاني من الصرع.

فأجابه:

- منذ صباه.

وكما روى كل من متى ولوقا[1] قال عيسى:

- أيها الجيل غير المؤمن والملتوي إلى متى أكون معكم، إلى متى احتملكم، قدم ابنك إلى هنا.

وبينما الرجل يخطو بابنه نحو عيسى صرعه الشيطان حتى وقع على الأرض وأخذ يتمرغ ويزبد، فانتهر عيسى الروح النجس، وخرج منه الشيطان، فشفي الصبي حالاً.

ولدى انصراف الرجل وابنه جلس عيسى وحواريوه على سفح الجبل، وأكلوا ما طاب لهم من الثمار البرية لعدم وجود طعام في أمتعتهم، وبينما هم منهمكون في الأكل، انتهز الحواري إندراوس تلك الجلسة من جلسات العلم والتعلم وسأل معلمه مزيداً من المعرفة بالمسيا وبحقيقة المسيا حيث قال:

- لقد حدثتنا بأشياء كثيرة عن المسيا، فتكرّم بالتصريح لنا بكل شيء.

أجابه معلمه بلا تردد وكأنه أعد العدة مسبقاً لمثل هذا السؤال:

---

(١) إنجيل متى ١٧: ١٣ ـ ١٨ وإنجيل لوقا ٩: ٣٧ ـ ٤١.

- كل من يعمل فإنما يعمل لغاية يجد فيها الغنى، لذلك أقول لكم إن الله لما كان بالحقيقة كاملاً لم يكن له حاجة إلى الغنى، لأن غناه بذاته، وهكذا لما أراد أن يخلق خلق قبل كل شيء نفس رسوله الذي لأجله قصد خلق الكل، لكي تجد المخلوقات فرحاً وبركة بالله، ويسر رسوله بكل خلائقه التي قدر أن تكون عبيداً، ولماذا، وهل كان هذا هكذا إلا لأن الله أراد ذلك.

الحق أقول لكم إن كل نبي متى جاء إنما يرسل لأمة واحدة فقط علامة على رحمة الله، ولذلك لم يتجاوز كلامهم الشعب الذي أرسلوا إليه. ولكن رسول الله متى جاء يعطيه الله ما هو بمثابة خاتم يده، فيحمل خلاصاً ورحمة لأمم الأرض الذين يقبلون تعاليمه، وسيأتي بقوة على الظالمين ويبيد عبادة الأصنام بحيث يخزي الشيطان، لأنه هكذا وعد الله إبراهيم قائلاً: فإني بنسلك أبارك كل قبائل الأرض، كما حطمت يا إبراهيم الأصنام تحطيماً هكذا يفعل نسلك.

ألقى كلام عيسى الماضي مزيداً من الضوء على شخصية المسيا وكشف بالفعل عن أشياء كانت مجهولة عنه، غير أنهم فجأهم بحقيقة مناقضة للمدروس من علمهم وهي أنه هو المقصود بوعد الله لإبراهيم، وهنا سأله يعقوب:

- يا معلم قل لنا بمن خص هذا العهد، فإن اليهود يقولون بإسحاق والعرب يقولون بإسماعيل.

إن إدراك عيسى لعمق اعتقاد القوم في نسبة الوعد لإسحاق وذريته دون إسماعيل وذريته هو الذي أداه إلى تجنب الرد المباشر الذي قد يحسم الخلاف، ولكنه لا يأتي بالنتائج المرجوة، ومن هنا سعى إلى تصحيح الفكرة من جذورها تاركاً لهم المجال لاكتشاف الحقيقة بأنفسهم، فسألهم:

- ابن من كان داود ومن أي ذرية.

فرد عليه يعقوب:

- من إسحاق لأن إسحاق كان أب يعقوب ويعقوب كان ابن يهوذا الذي من ذريته داود.

وسأل عيسى من جديد:

- ومتى جاء رسول الله فمن نسل من يكون؟

فأجابوه هذه المرة مجتمعين لبداهة الأمر في نظرهم:

- من داود.

عندئذ تبين لعيسى أن موروث حوارييه العلمي يكاد يغطي على حقائق بديهية، فتحدث إليهم حديثاً مباشراً يدحض فكرة كون إسحاق هو الموعود بالبركة والنماء فقال:

- لا تغشوا أنفسكم لأن داود يدعوه رباً وسيداً في عالم الغيب قائلاً: قال الله لسيدي اجلس عن يميني حتى اجعل أعداءك موطئاً لقدميك، يرسل الله قضيبك الذي سيكون ذا سلطان في وسط أعداءك. فإذا كان رسول الله الذي تسمونه مسيا ابن داود فكيف يسميه داود رباً وسيداً. صدقوني لأني أقول الحق إن الوعد صنع بإسماعيل لا بإسحاق.

وللمرة الثانية جوبه الحواريون بما يناقض المكتوب في توراة موسى وفي أسفار أنبياءهم، فعلقوا على حديثه لا منكرين عليه بيانه حقيقة هو أدرى بها منهم، بل مقرين بالمكتوب والموثق بين أيديهم فقالوا:

- يا معلم هكذا كتب في كتاب موسى إن الوعد خص به إسحاق.

تألم عيسى من تعليق الحواريين، لأن ما ساقوه له هو تحريف محض في وعد الله تعالى لإبراهيم، وتكذيب صريح لله في خبره وإخباره، فأجابهم متأوهاً تأوهاً يكاد ينقلب إلى شكوى وتفجع:

- هذا هو المكتوب ولكن موسى لم يكتبه ولا يشوع بل أحبارنا الذين لا يخافون الله، الحق أقول لكم إنكم إذا أعملتم النظر في كلام

جبريل تعلمون خبث كتبتنا وفقهائنا، لأن الملاك قال: يا إبراهيم سيعلم العالم كله كيف يحبك الله، ولكن كيف يعلم محبتك لله، حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله، أجاب إبراهيم: ها هو ذا عبدالله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله.

فكلم الله إبراهيم قائلاً: خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة.

فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين.

حينئذ أدرك الحواريون الحقيقة التي كانت خافية ومكتومة عنهم، وفداحة السوء الذي أراده بهم أحبارهم وكهانهم من حيث لا يعلمون، فسألوه مزيداً من الشرح والتفصيل قائلين:

- إن خداع الفقهاء لجلي، لذلك قل لنا أنت الحق لأننا نعلم أنك مرسل من الله.

فأجابهم قاطعاً كل شك يمكن أن يخطر ببالهم عن شخصية الرسول الموعود بالبركة:

- الحق أقول لكم إن الشيطان يحاول دائماً إبطال شريعة الله. فذلك قد نجس هو وأتباعه والمراؤون وصانعو الشر كل شيء اليوم، الأولون بالتعليم الكاذب، والآخرون بمعيشة الخلاعة، حتى لا يكاد يوجد الحق تقريباً، ويل للمرائين لأن مدح هذا العالم سينقلب عليهم إهانة وعذاباً في الجحيم.

لذلك أقول لكم إن رسول الله بهاء يفرح له كل من خلق الله لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة، روح الحكمة والقوة، روح الخوف والمحبة، روح التبصر والاعتدال، مزدان بروح المحبة والرحمة، روح العدل والتقوى، روح اللطف والصبر التي أخذ منها من الله ثلاثة أضعاف ما أعطى لسائر خلقه.

ما أسعد الزمن الذي سيأتي فيه إلى العالم، صدقوني إني رأيته وقدمت

له الاحترام كما رآه كل نبي، لأن الله يعطيهم روحه نبوة، ولما رأيته امتلأت عزاء قائلاً:

- يا محمد ليكن الله معك وليجعلني أهلاً أن أحل سيور حذائك، لأني إذا نلت هذا صرت نبياً عظيماً وقدوس الله.

وعندما نزل جبريل عليه السلام في مكان ما قد يكون حيث استقر هو وحواريوه على سفح هذا الجبل، أو غيره من الأماكن حاملاً إليه توجيهاً ربانياً بالذهاب إلى القدس، كانت الفترة الزمانية بين المناسبتين طويلة نسبياً. وكالعادة أغفلتها المصادر المسيحية وأضربت عنها، واستجاب عيسى لأمر الله وغادر مستقره صاعداً نحو المدينة المقدسة، وفي يوم السبت دخل الهيكل، وما أن شاع خبر ظهوره مجدداً حتى تقاطرت عليه جموع الناس يصحبهم قيافا رئيس الكهنة والكهنة الكبار، وهؤلاء هم وحدهم الذين أقلقهم ظهوره المفاجىء، حيث نحوا به جانباً قائلين:

- يا معلم قيل لنا أنك تقول فينا سوء، فاحذر أن يحل بك سوء.

أوجزت كلمات الكهنة على قلتها اتهام عيسى التقليدي للكهنة، ولخصت وبتركيز شديد حملته عليهم، وتكاد تشرح الداء الذي أصابهم والفساد الذي نخر فيهم، حتى أهملوا رسالتهم كقادة روحيين للأمة، ولكنهم أضمروا عيبهم وفساد سلوكهم ولم يسموه باسمه الحقيقي، أما عيسى فقد صرح به في وجوههم بلا مواربة ولا وجل حيث قال:

- الحق أقول لكم إني أقول سوءاً عن المرائين فإذا كنتم مرائين فإني أتكلم عنكم.

تضمن رد عيسى كما هو بين براءته من قول السوء فيهم، إذ هو يحكم بالسوء فيمن ظاهره على خلاف باطنه. وفيمن يتظاهر بغير ما يبطن، ولا يستقيم ظاهره وباطنه على هدى موسى والأنبياء. وبذلك يكون عليه السلام قد رفع عنهم تهمة النفاق والتظاهر ورمى بها آخرون ولأجل هذا التضمين الجميل سألوه مستعلمين عن حقيقة المرائي ليقيسوا على ضوئها

اتهاماته السابقة لهم، وليتبين لهم ومن خلالها من المعنى والمقصود هم أم غيرهم فقالوا:

- قل لنا بصراحة من هو المرائي؟

فقال لهم:

- إن كل من فعل فعلاً حسناً لكي يراه الناس فهو مرائي، لأن عمله لا ينفذ إلى القلب الذي لا يراه الناس، فيترك فيه كل فكر نجس وكل شهوة قذرة، أتعلمون من هو المرائي هو الذي يعبد الله بلسانه، ويعبد بقلبه الناس، لأن داود يقول في هذا الموضوع: لا تثقوا بالرؤساء ولا بأبناء الناس الذين ليس بهم خلاص، لأنه عند الموت تهلك أفكارهم. بل قبل الموت يرون أنفسهم محرومين من الجزاء، لأن الإنسان كما قال أيوب نبي الله غير ثابت فلا يستقر على حال، فإذا مدحك اليوم ذمك غداً، وإذا أراد أن يجزيك اليوم سلبك غداً.

ويل إذاً للمرائين لأن جزاءهم باطل، لعمر الله الذي أقف في حضرته إن المرائي لص، ويرتكب التجديف لأنه يتذرع بالشريعة ليظهر صالحاً، ويختلس مجد الله الذي له وحده الحمد والمجد إلى الأبد.

ثم أقول لكم أيضاً إنه ليس للمرائي إيمان، لأنه لو آمن بأن الله يرى كل شيء، وأنه يقاص الإثم بدينونة مخوفة لكان ينقي قلبه الذي يبقيه ممتلئاً بالإثم لأنه لا إيمان له، الحق أقول لكم إن المرائي كقبر أبيض من الخارج، ولكنه مملوء فساداً وديداناً، فإذا كنتم أيها الكهنة تعبدون الله، لأن الله خلقكم ويطلب ذلك منكم، فلا أندد بكم لأنكم عباد الله، ولكن إذا كنتم تفعلون كل شيء لأجل الربح وتبيعون وتشترون في الهيكل كما في السوق غير عابئين بأن هيكل الله هو بيت للصلاة لا للتجارة وأنتم تحولونه إلى مغارة لصوص، وإذا كنتم تفعلون كل شيء لترضوا الناس، وأخرجتم الله من عقولكم، فإني أصيح بكم إنكم أبناء الشيطان لا أبناء إبراهيم الذي ترك بيت أبيه حباً في الله، وكان راضياً أن يذبح ابنه، ويل

لكم أيها الكهنة والفقهاء إذا كنتم هكذا لأن الله يأخذ منكم الكهنوت.

إن الحوار الذي دار بين عيسى والكهنة بحضور رئيسهم يدخل ضمن مناقشاته العديدة والتي كان يسعى دوماً من خلالها إلى تأكيد ما يقوله عنهم في الملأ من الناس، حيث واجههم هذه المرة بالحالة التي تردت فيها وظائفهم الدينية حتى وصلت حداً تساوت فيه بالعمل التجاري المحض، ليرتقي بعدها مباشرة المنصة لمخاطبة الجمهور العريض الذي جاء خصيصاً للاستماع إلى مواعظه وتعاليمه، وبلا مقدمات أو تمهيد دخل في صلب الموضوع حيث قال:

اضرب لكم مثلاً، غرس رب بيت كرماً، وأحاطه بسياج كي لا تدوسه الحيوانات، وبنى في وسطه معصرة للخمر، وشيد فيه برجاً للحراسة، وأجره للكرامين، ولما حان وقت قطف الثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ ثماره، فأخذ الكرامون عبيده، جلدوا بعضاً، ورجموا بعضاً وقتلوا بعضاً، ثم أرسل عبيداً آخرين أكثر من الأولين، ففعلوا بهم فعلتهم في الأولين، ثم عاد وأرسل آخرين فكان مصيرهم مصير من سبقوهم، فقولوا لي ماذا يفعل صاحب الكرم بالكرامين.

فهتفوا جميعاً وبصوت واحد:

- ليهلكهم شر هلكة ويسلم الكرم لكرامين آخرين.

ولما استقر المثال في النفوس واستوعبته الأفهام شرحه لهم بقوله:

- ألا تعلمون أن الكرم هو بيت إسرائيل، والكرامين شعب يهوذا والقدس، ويل لكم لأن الله غاضب عليكم،لأنكم بقرتم كثيرين من أنبياء الله حتى إنه لم يوجد في زمن أخاب واحد يدفن أنبياء الله.

أدرك الكهنة من الصورة الذهنية التي رسمها للأمة في تعاملها مع أنبياء الله ورسله مغزى المثال وغايته. كما أدرك العامة هدف عيسى ومراده، وذلك لأن الأنبياء الذين لا يحظون بالقبول من الكهنة لا يجدون ما يستندون عليه في دعوتهم، وبالتالي يكونون عرضة للأذى والاضطهاد المفضي في

النهاية إلى القتل. ولكنهم كديدنهم لاذوا بالصمت خوفاً من العامة الذي استطاع أن يشخص لهم أصلاً الداء فقدروه حق قدره، وأمنوا به نبياً ورسولاً.

وعقب هذه الخطبة القصيرة والموجزة رأى عيسى امرأة منحنية الرأس نحو الأرض منذ ميلادها، ولا تقدر على السير منتصبة القامة ألبتة، فأراد الإيعاز للجميع بأن قوله السابق هو من عند الله ودليله عليه ما سوف يرونه الآن وفوراً، عندئذ رفع يديه على المرأة وقال لها:

- ارفعي رأسك أيتها المرأة باسم إلهنا ليعرف هؤلاء أني أقول الحق، ويريد الله أن أذيعه.

وفي الحال اعتدلت المرأة، وانتصب جسمها آخذاً استقامته الطبيعية، هنا صاح الكهنة محتجين ومغتاظين:

- ليس هذا الإنسان مرسلاً من عند الله، لأنه لا يحفظ السبت إذ قد برأ اليوم مريضاً.

أراد الكهنة بإعلاء أصواتهم شد الانتباه إلى مخالفة عيسى وعصيانه لأمر من أوامر الله ينص على أن هناك أيام ستة العمل فيها مباح، وفي يوم السبت يحرم كل عمل ولو كان من مصالح الناس حيوية. وهو بمخالفته تلك قد دل على عدم مراعاته وتقيده بأوامر الله واحترامه لتعاليمه، وبالتالي قد سقطت عنه صفة النبوة والرسالة، فرد عليهم كدأبه رداً ردهم على أعقابهم يجرون أذيال الخيبة والخسران فقال:

- قولوا لي ألا يحل التكلم في يوم السبت وتقديم الصلاة لخلاص الآخرين، ومن منكم إذا سقط حماره يوم السبت في حفرة لا ينتشله منها يوم السبت، لا أحد مطلقاً، فهل أكون قد نقضت يوم السبت بإبراء ابنة من بني إسرائيل، حقاً إنه قد علم هنا رياءكم، كم من حاضر هنا ممن يحذرون أن تصيب عين غيرهم قذى. والجذع يوشك أن يشج رؤوسهم، ما أكثر الذين يخشون النملة ولكنهم لا يبالون بالفيل.

وما أن شارف العام الأول للبعثة على النهاية وأوشكت شمسه على الأفول حتى فرض دين عيسى نفسه كبديل طبيعي للماضي بكل عيوبه وأمراضه التي أفسدت الحياة الدينية والدنيوية، يواجهه تيار قوي يقوده رؤساء الطوائف اليهودية تحول بكم الواقع إلى معارضة هي أقرب إلى العداء الصريح، مدعوم برافد جارف من الموروث القديم والذي تحول بعامل الزمان إلى تقاليد مقطوعة الصلة بأصول الدين الحقة.

بيد أن المعجزات المؤيدة للدين الجديد قد جابهت بكل حدة وضراوة المعارضة والمناهضة، وألجأت المعارضين والمناهضين إلى اتخاذ مواقف دفاعية صرفة، أما القبول الذي حظي به عيسى بين الجمهرة العظمى من الشعب، فقد كبح جماح من بيدهم مقاليد الأمور، وحال بينهم وبين التعرض إليه أو التحرش به، تعرضاً وتحرشاً يفضي إلى التآمر والإيذاء والقتل.



الفصل الثالث
العام الثاني للبعثة

توجه عيسى عليه السلام يصحبه كالعادة حوارييه ومع إطلالة العام الثاني للدعوة، ولأول مرة منذ نزول الوحي إلى مدينة نايين ضمن جولاتهم المعتادة، وصادف اقترابهم من أبواب المدينة خروج جمع من الأهالي يحملون إلى المقابر ابناً وحيداً لأم أرملة، وكان المرافقون والمرافقات للنعش يبكون عليه بحرقة وصياح يقطع نياط القلب، ولما وقعت أعينهم على عيسى قادماً في مقدمة حوارييه عرفه البعض منهم، ولذلك تقدموا إليه وأصوات البكاء والنواح تملأ المكان حزناً وأسى. متضرعين إليه لإحياء وحيد الأرملة المكلومة لكونه نبياً قادراً على خوارق العادات، وأيدهم الحواريون في طلبهم وآزروهم فيه عند معلمهم.

انزعج عيسى من تضرع الأهالي إلى حد الخوف والفزع، واضطرب من مقصودهم إلى حد الضجر، وارتبك من سوء ظنهم فيه واعتقادهم في قدرته الذاتية على الإحياء وما يترتب على هذا الاعتقاد من تأليهه دون الله إلى حد الاختلال، وهو الذي أفضى به بين حيرة الأهالي وذهول حوارييه إلى التوجه لله تعالى من هول وفداحة ما سمع داعياً بقوله:

- خذني من العالم يا رب، لأن العالم قد جنوا وكادوا يدعونني إلهاً.

ثم انخرط في بكاء حار حزناً وتفجعاً، في هذه اللحظة الإلهية نزل عليه جبريل واعداً ومواسياً بقوله:

- لا تخف يا عيسى لأن الله أعطاك قوة على كل مرض حتى إن ما تمنحه باسم الله يتم برمته.

أزالت كلمات جبريل عليه السلام كل ما تراكم على نفسه وقلبه من مخاوف وأحزان. وانقشعت من أمام ناظريه هموم الحاضر والمستقبل. فقال على مسمع من الحاضرين قولاً كأنه ينفس به عما كان يجيش ويعتمل في داخله:

- لتنفذ مشيئتك أيها الإله القدير الرحيم.

اقترب بعد ذلك من الأرملة أم الميت وقال لها:

- لا تبكي أيتها المرأة.

ثم انحنى على الجثمان المسجى آخذاً بيت الميت وهو يقول:

- أقول لك أيها الشاب باسم الله قم سليماً.

وعلى الفور انتشرت الروح في الميت، وانتعش جسمه بالحياة، حتى جلس على نعشه وكلم أمه، والجمع من الأهالي في حالة من الخوف الشديد والارتياع، ولسانهم يردد بنبرة يكاد الفزع يخفي مقصودهم.

- لقد أقام الله فينا نبياً عظيماً، وافتقد الله شعبه.

تركزت معجزات عيسى في العام المنصرم من الدعوة على معالجة الأمراض المستعصية والتي قنط الناس من الأمل في شفائها والبرء منها، حتى عدت في حكم الميؤوس منها، ورغم كل هذا يبقى زوالها ومعالجتها في حدود الإمكان وضمن دائرة الاحتمال، أما إحياء الميت، أو عودة الميت إلى الحياة من جديد. فلا يؤخذ عادة بوصفه تعديلاً يجري على البدن ليعود إلى طبيعته، بل هو انتقال من العدم إلى الوجود، أي هو انتقال من حالة خرجت فيها الروح من البدن وتلاشت الحياة ومقوماتها، وحل محلها الموت، إلى حالة عادت فيها الروح والحياة إلى البدن، ومغادرة الروح للبدن من الأمور الاعتيادية. ولكن إعادتها ثانية وبفعل فاعل ليست من الأمور الميسورة ولا المألوفة عند الناس، ولا يدخل تحت حيز الإمكان

والاحتمال بأي حال من الأحوال، بل هو المستحيل بعينه.

ومن هنا انطلق خبر إحياء عيسى بإذن الله للميت المتوفى بسرعة محدثاً دوياً هائلاً في طول المنطقة وعرضها، وغطى بانتشاره على شفاء الأمراض المزمنة والمستعصية على العلاج، ونظر إليه كل سامع على أنه معجزة خارقة للعادة، حتى بالنسبة إلى أولئك الذين لا يعينهم كثيراً ما يدور في أوساط اليهود. كالرومان الوثنيين، فهم وحدهم الذين ما فتئوا يوبخون اليهود ويلومونهم قائلين:

- لقد زاركم أحد إلهتكم وأنتم لا تكترثون به، حقاً لو زارتنا آلهتنا لأعطيناهم كل مالنا، وأنتم تعرفون كم نخشى آلهتنا لأننا نعطي تماثيلهم أفضل ما عندنا.

وذلك لأن الرومان كانوا يؤلهون كل من أحدث شيئاً جديداً أو خارقاً للمألوف يعم نفعه وفائدته على الجميع. أو على أقل تقدير يدعونه إلهاً.

وبالفعل راجت مزاعم الرومان بين عوام الناس وخواصهم عقب نزول عيسى مدينة نايين، ودارت على أثرها مناقشات مستفيضة حول حقيقة عيسى وقدرته الفائقة على إحياء الموتى وإبراء الأبرص والمرضى من ذوي العاهات، وبلغ الخلاف والشقاق في الآراء مبلغاً خطيراً نجم عنه حدوث شرخ عميق في اعتقاد القوم تمثل في الآتي:

- منهم من يذهب مقتدياً بزعم الرومان إلى أن من زارهم هو إلههم.
- ومنهم من يقول: إن الله لا يرى، فلم يره حتى ولا موسى عبده، فليس هو الله، بل هو بالحري ابن الله.
- ومنهم من يرى أنه ليس الله ولا ابن الله، لأنه ليس لله جسد فيلد بل هو نبي عظيم من عند الله.

وأياً ما كان مبلغ الخطورة في الأحداث التي تلت إحياء عيسى لوحيد الأرملة، فلم تكن تشكل إلا شغباً محدوداً، انحصر جله في مدينة نايين حيث جرت الواقعة، ولكنه وبالنظر إلى تاريخ البعثة ككل يعد إرهاصاً

يتوقف عليه مصير البعثة والمبعوث، ولأجل هذا قضى عيسى في المدينة فترة قصيرة للغاية، انتقل بعدها مباشرة إلى كفرناحوم، ولدى سماع الأهالي بوجوده بين ظهرانيهم جمعوا كل مرضاهم ووضعوهم في رواق مقام في مقدمة البيت الذي نزل فيه، ثم دخلوا عليه متضرعين ومتوسلين لشفائهم وإعادة الصحة إلى أجسادهم العليلة، وبالفعل خرج عليه السلام وألقى يده على كل واحد منهم، وهو يدعو على رأس كل فرد فيهم قائلاً:

ـ يا إله إسرائيل باسمك القدوس امنح هذا العليل الصحة والعافية.

وفي يوم السبت حيث يجتمع سكان كفرناحوم للصلاة والاستماع للموعظة الإسبوعية، دخل عيسى وحواريوه المعبد. وكان بانتظاره جموع غفيرة من الناس، وكالعادة قرأ الكتبة قبيل الخطبة ما تيسر من أسفار الأنبياء، حيث قرأوا في هذا اليوم مزمور من مزامير داود الذي يقول فيه:

ـ متى وجدت وقتاً أقضي بالعدل.

وبعد القراءة انتصب عيسى واقفاً على قدميه أمام الملأ من المصلين، وأشار بكلتا يديه إشارة دالة على التزام السكوت، فاستجاب الكل لمراده، وساد الصمت والسكون جو المعبد، ثم خطب فيهم خطبة تكاد تكون تفسيراً لمقولة داود السابقة، جاء فيها:

«أيها الإخوة لقد سمعتم الكلام الذي تكلم به النبي داود أبونا أنه متى وجد وقتاً قضى بالعدل، إني أقول لكم حقاً إن كثيرين يقضون فيخطئون، وإنما يخطئون فيما لا يوافق أهواءهم، وأما ما يوافقها فيقضون به قبل وقته، كذلك ينادينا إله آبائنا على لسان نبيه داود قائلاً:

ـ اقضوا بالعدل يا أبناء الناس.

فما أشقى أولئك الذين يجلسون على منعطفات الشوارع ولا عمل لهم إلا الحكم على المارة قائلين:

ـ ذلك جميل وهذا قبيح، ذلك حسن وهذا ردئ.

ويل لهم لأنهم يرفعون قضيب الدينونة من يد الله الذي يقول:

- إني شاهد وقاض ولا أعطي مجدي لأحد.

الحق أقول لكم إن هؤلاء يشهدون بما لم يروا ولم يسمعوا قط، ويقضون دون أن ينصبوا قضاة، وإنهم لذلك مكروهون على الأرض وأمام الله، الذي سيحاسبهم حساباً عسيراً في اليوم الآخر، ويل لكم ويل لكم أنتم الذين تمدحون الشر وتدعون الشر خيراً، لأنكم تحكمون على الله بأنه أثيم وهو منشيء الصلاح، وتبررون الشيطان كأنه صالح وهو منشأ كل شر، فتأملوا أي قصاص يحلُّ بكم، وأن الوقوع في حساب الله مخوف وستحل حينئذ على أولئك الذين يبررون الإثيم لأجل النقود، ولا يقضون في دعوى اليتامى والأرامل.

الحق أقول لكم إن الشياطين سيقشعرون من حساب هؤلاء لأنه سيكون رهيباً جداً، أيها الإنسان المنصوب قاضياً لا تنظر إلى شيء آخر، لا إلى الأقرباء ولا إلى الأصدقاء، ولا إلى الشرف ولا إلى الربح، بل انظر فقط بخوف إلى الله الحق الذي يجب عليك أن تطلبه باجتهاد أعظم، لأنه يقيك دينونة الله، ولكني أنذرك أن من يدين بدون رحمة يدان بدون رحمة.

قل لي أيها الإنسان الذي تدين غيرك، ألا تعلم أن منشأ كل البشر من طينة واحدة، ألا تعلم أنه لا يوجد أحد صالح إلا الله وحده، لذلك كان كل إنسان كاذباً وخاطئاً، صدقني أيها الإنسان إنك إذا كنت تدين غيرك على ذنب فإن في قلبك منه ما تدان به، ما أشد القضاء خطراً، ما أكثر الذين هلكوا بقضائهم الجائر، فالشيطان حكم على الإنسان بأنه أنجس منه لذلك عصى الله خالقه، تلك المعصية التي لم يتب عنها فإن لي علماً بذلك من محادثتي إياه.

وقد حكم أبوانا الأولان بحسن حديث الشيطان، فطردا لذلك من الجنة، وقضيا على كل نسلهما، الحق أقول لكم لعمر الله الذي أقف في حضرته إن الحكم الباطل هو أبو كل الخطايا، لأنه لا أحد يخطىء بدون إرادة، ولا أحد يريد ما لا يعرف. ويل إذاً للخاطىء الذي يحكم في قضائه بأن الخطيئة صالحة، والصلاح فساد، والذي يرفض لذلك السبب الصلاح

ويختار الخطيئة، إنه سيحل به قصاص لا يطاق متى جاء الله ليدين العالم.

ما أكثر الذين هلكوا بسبب القضاء الجائر، وما أكثر الذين أوشكوا أن يهلكوا، قضى فرعون على موسى وشعب إسرائيل بالكفر، وقضى شاوول على داود بأنه مستحق للموت، وقضى أخاب على إيليا، ونبوخذنصر على الغلمان الثلاثة الذين لم يعبدوا، آلهتهم الكاذبة، وقضى الشيخان على سوسنة، وقضى كل الرؤساء عبدة الأصنام على الأنبياء، ما أرهب قضاء الله، يهلك القاضي وينجو المقضي عليه.

ولماذا هذا أيها الإنسان إن لم يكن لأنهم يحكمون على البريء ظلماً بالطيش، ما كان أشد قرب الصالحين من الهلاك لأنهم حكموا باطلاً، يتبين ذلك في قصة أخوة يوسف الذين باعوه إلى المصريين، ومن هارون ومريم أخت موسى اللذين حكما على أخيهما، وثلاثة من أصدقاء أيوب حكموا على خليل الله البريء أيوب، وداود قضى على مغيبوشت وأوريا، وكثيرون آخرون أشرفوا على الهلاك بسبب هذا، ولذلك أقول لكم لا تدينوا فلا تدانوا»[1].

كان لخطبة عيسى في مجمع كفرناحوم مثلها مثل سائر خطبه وقعها المؤثر في النفوس، والذي دفع بالكثيرين إلى البكاء والنواح نادمين على ما اقترفوا من ذنوب وخطايا، وعاقدين العزم على التوبة والاستقامة على مراد الله. وود كل واحد منهم لو ترك كل شيء وتبع نبي الله في حله وترحاله، يعيش معيشته البسيطة زاهداً في الدنيا ومتاعها الزائل، ولكن عيسى نصحهم نصيحته التي تعود إلقائها على مسامع المتحمسين لدعوته مبيناً لهم طبيعة دعوته ورسالته فقال:

- ابقوا في بيوتكم، واتركوا الخطيئة، واعبدوا الله بخوف فبهذا تخلصون، لأني لم آت لأُخدم بل لأَخدم.

عقب ذلك خرج من المجمع والمدينة متوجهاً نحو البرية ليخلو قليلاً

---

(١) إنجيل برنابا ص٧٦ ـ ٧٨.

بنفسه، واحترم حواريوه رغبته في الانفراد ليعبد الله في هدوء وسكينة. ولما انتهى من عبادته لحقوا به لعلمهم بأن اعتزال الناس يعني كما عودهم تجدد اللقاء لمواصلة الدرس والتعليم، ولذلك سألوه عما لفت انتباههم في خطبته من اجتماعه بالشيطان ومحادثته له وجهاً لوجه، فقالوا له:

- يا معلم نحب أن نعرف شيئين أحدهما كيف كلمت الشيطان وأنت تقول عنه مع ذلك أنه غير تائب، والآخر كيف يأتي الله ليحاسب الناس يوم القيامة.

فأجابهم:

«الحق أقول لكم أني عطفت على الشيطان لما علمت بسقوطه وأشفقت على الجنس البشري الذي يفتنه ليخطىء، لذلك صليت وصمت لإلهنا الذي كلمني بواسطة ملاكه جبريل:

- ماذا تطلب يا عيسى وما سؤلك.

أجبت:

- يا رب أنت تعلم أي شر كان الشيطان سببه، وإنه بواسطة فتنته يهلك كثيرون، وهو خليقتك يا رب الذي خلقت، فارحمه يا رب.

فقال الله:

- يا عيسى، انظر إني أصفح عنه، فاحمله فقط على أن يقول: أيها الرب إلهي لقد اخطأت فارحمني، فاصفح عنه وأعيده إلى حالته الأولى.

ولما سمعت هذا سررت جداً موقناً أني قد فعلت هذا الصلح لذلك دعوت الشيطان فأتى قائلاً:

- ماذا يجب أن أفعل لك.

قلت:

- إنك تفعل لنفسك أيها الشيطان، لأني لا أحب خدمتك، وإنما دعوتك لما فيّه صلاحك.

فقال:

- إذا كنت لا تود خدمتي فإني لا أود خدمتك لأني أشرف منك. فأنت لست أهلاً لأن تخدمني، أنت يا من هو طين أما أنا فروح.

فقلت:

- لنترك هذا وقل لي أليس حسناً أن تعود إلى جمالك الأول وحالتك الأولى، وأنت تعلم أن الملاك ميخائيل سيضربك يوم القيامة بسيف الله مئة ألف ضربة، وسينالك من كل ضربة عذاب عشر جحيمات.

أجاب الشيطان:

- سنرى في ذلك اليوم أينا أكثر فعلاً، فإنه سيكون لي أنصار وأتباع كثيرون من الملائكة، ومن أشد عبدة الأوثان قوة الذين يزعجون الله، أي غلطة عظيمة ارتكبت بطردي من أجل طينة نجسة.

حينئذ قلت:

- أيها الشيطان إنك سخيف العقل فلا تعلم ما أنت قائل.

فهز الشيطان رأسه ساخراً وقال:

- تعال الآن ولنتم هذه المصالحة بيني وبين الله، وقل أنت يا عيسى ما يجب فعله لأنك أنت سليم العقل.

أجبت:

- يجب أن تنطق بكلمتين فقط.

فسأل الشيطان:

- وما هما.

قلت:

- اخطأت فارحمني.

فقال الشيطان:

- إني أقبل بفرح هذه المصالحة إذا قال الله لي هاتين الكلمتين.

فقلت:

- انصرف عني أيها اللعين، لأنك الأثيم المنشىء لكل ظلم وخطيئة. ولكن الله عادل منزه عن العيوب.

فانصرف الشيطان مولولاً وهو يقول:

- إن الأمر ليس كذلك يا عيسى ولكنك تكذب لترضي الله[1].

ولما انتهى عيسى من بيان دوافع لقائه بالشيطان، أراد أيضاً أن يوجز لهم العبرة والعظة في طرده تعالى له من رحمته وجنته فقال:

- انظر الآن أنى يجد رحمة.

فعلق الحواريون على قوله:

- أبداً يا سيد لأنه غير تائب، أما الآن فأخبرنا عن حساب الله.

فأجابهم على ما سألوا:

«الحق أقول لكم أن يوم حساب الله سيكون رهيباً بحيث أن المنبوذين يفضلون عشر جحيمات على أن يذهبوا ليسمعوا الله يكلمهم بغضب شديد، الذين ستشهد عليهم كل المخلوقات، الحق أقول لكم ليس المنبوذين هم الذين يخشون فقط، بل أولياء وأصفياء الله كذلك، حتى إن إبراهيم لا يثق ببره ولا يكون لأيوب ثقة من براءته، وماذا، بل إن رسول الله سيخاف لأن الله إظهاراً لجلاله سيجرد رسوله من الذاكرة. حتى لا يذكر كيف أن الله أعطاه كل شيء.

الحق أقول لكم متكلماً من القلب إني أقشعر لأن العالم سيدعونني إلهاً، وعلى أن أقدم لأجل هذا حساباً، لعمر الله الذي نفسي واقفة في

---

(١) إنجيل برنابا ص٧٩ ـ ٨١.

حضرته، إني رجل فان كسائر الناس، على أني وإن أقامني الله نبياً على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء وإصلاح الخطاة عبد الله، وأنتم شهداء على هذا كيف أني أنكر على هؤلاء الأشرار الذين بعد انصرافي من العالم سيبطلون حق إنجيلي بعمل الشيطان، ولكني سأعود قبيل النهاية، وسيأتي أخنوخ وإيليا ويشهدوا على الأشرار الذين ستكون آخرتهم ملعونة»[1].

سكت عيسى عند جملته الأخيرة حزناً وأسى. ووجد صعوبة في استرسال القول، بل تعذر عليه الكلام تماماً، ورأى الحواريون من حوله الدموع تتدفق من عينيه، فبكوا لأحزان معلمهم، ومن هول الجرم الشنيع الذي يرتكب في حقه، ثم رفعوا أيديهم إلى السماء داعين:

ـ اصفح أيها الرب الإله وارحم عبدك البريء.

فأمن عيسى على دعائهم بقوله:

ـ آمين آمين.

وبعد أن انزاحت عن القلوب الأحزان، وذهبت العبرات، وهدأت النفوس أكمل عيسى حديثه قائلاً:

«قبل أن يأتي ذلك اليوم سيحل بالعالم خراب عظيم، وستنشب حرب فتاكة طاحنة، فيقتل الأب ابنه، ويقتل الابن أباه بسبب أحزاب الشعوب، ولذلك تنقرض المدن وتصير البلاد قفراً، وتقع أوبئة فتاكة حتى لا يعود يوجد من يحمل الموتى للمقابر، بل تترك طعاماً للحيوانات وسيرسل الله مجاعة على الذين يبقون في الأرض فيصير الخبز أعظم قيمة من الذهب، فيأكلون كل أنواع الأشياء النجسة.

يالشقاء ذلك الجيل الذي لا يكاد يسمع فيه أحد يقول: أخطأت فارحمني يا الله. يجدفون بأصوات مخوفة على المجيد المبارك إلى الأبد، وبعد هذا متى أخذ ذلك اليوم في الاقتراب تأتي كل يوم علامة مخوفة على

---

(١) إنجيل برنابا ص٨١ ـ ٨٢.

سكان الأرض مدة خمسة عشر يوماً.

□ ففي اليوم الأول تسير الشمس في مدارها في السماء بدون نور، بل تكون سوداء كصبغ الثوب، وستئن كما يئن أب على ابن مشرف على الموت.

□ وفي اليوم الثاني يتحول القمر إلى دم، ويتساقط دمه على الأرض كالندى.

□ وفي اليوم الثالث تشاهد النجوم آخذة في الاقتتال كجيش من الأعداء.

□ وفي اليوم الرابع تتصادم الحجارة والصخور كأعداء ألداء.

□ وفي اليوم الخامس يبكي كل نبات وعشب دماً.

□ وفي اليوم السادس يطغى البحر دون أن يتجاوز محله إلى علو مئة متر وخمسين ذراعاً، ويقف النهار كله كجدار.

□ وفي اليوم السابع ينعكس الأمر فيغور حتى لا يكاد يرى.

□ وفي اليوم الثامن تتجمع الطيور وحيوانات البحر والبر ولها خوار وصراخ.

□ وفي اليوم التاسع ينزل صيب من البرد مخوف بحيث إنه يفتك فتكاً لا يكاد ينجو منه عشر الأحياء.

□ وفي اليوم العاشر يأتي برق ورعد مخوفان فينشق وتحترق ثلث الجبال.

□ وفي اليوم الحادي عشر يجري كل نهر إلى الوراء، ويجري دماً لا ماء.

□ وفي اليوم الثاني عشر يئن ويصرخ كل مخلوق.

□ وفي اليوم الثالث عشر تطوى السماء كطي الدرج وتمطر ناراً حتى يموت كل حي.

□ وفي اليوم الرابع عشر يحدث زلزال مخوف حتى أن قمم الجبال تتطاير في الهواء كالطيور، وتصير الأرض كلها سهلاً.

□ وفي يوم الخامس عشر تموت الملائكة الأطهار، ولا يبقى حياً إلا الله وحده الذي له الجلال والإكرام.

فمتى مرت هذه العلامات تغشى العالم ظلمة أربعين سنة ليس فيها من حي إلا الله وحده الذي له الجلال والإكرام إلى الأبد، ومتى مرت الأربعون سنة يحيي الله رسوله محمد ﷺ الذي سيطلع كالشمس بيد أنه متألق كألف شمس، فيجلس ولا يتكلم، وسيقيم الله أيضاً الملائكة الأربعة المقربين الذين ينشدون رسول الله، فمتى وجدوه قاموا على الجوانب الأربعة للمحل حراساً له. ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الملائكة الذين يأتون كالنحل ويحيطون برسول الله، ثم يحيي الله بعد ذلك سائر أنبيائه الذين سيأتون جميعهم تابعين لآدم، فيقبلون يد رسول الله واضعين أنفسهم في كنف حمايته، ثم يحيي الله بعد ذلك سائر الأصفياء الذين يصيحون:

- اذكرنا يا محمد.

فتتحرك الرحمة في رسول الله لصياحهم، وينظر فيما يجب فعله خائفاً لأجل خلاصهم، ثم يحيي الله بعد ذلك كل مخلوق فيعود إلى وجوده الأول، وسيكون لكل منه قوة النطق، ثم يحيي الله بعد ذلك المنبوذين كلهم الذين عند قيامهم يخاف سائر خلق الله بسبب قبح منظرهم، وهم يصرخون:

- أيها الرب إلٰهنا لا تدعنا من رحمتك.

وبعد هذا يقيم الله الشيطان الذي سيصير كل مخلوق عند النظر إليه كميت خوفاً من هيئة منظره المريع.

وأرجو الله ألا أرى هذه الهولة في ذلك اليوم، إن رسول الله هو وحده الذي لا يتهيب هذه المناظر لأنه لا يخاف إلا الله وحده.

عندئذ ينفخ الملاك في الصور مرة أخرى فيقدم الجميع لصوته قائلاً:

- تعالوا للحساب أيها الخلق لأن خالقكم يريد أن يحاسبكم، فينظر حينئذ في وسط السماء فوق وادي يهوشافاط عرش متألق تظلله غمامة بيضاء.

- عندها تترنم الملائكة قائلة:

- تبارك إلٰهنا، أنت الذي خلقتنا وأنقذتنا من سقوط الشيطان.

عند ذلك يخاف رسول الله ﷺ لأنه لا يدرك إلّا أحد أحب الله كما يجب لأن من يأخذ بالصرافة قطعة ذهب يجب أن يكون معه ستون فلساً، فإذا كان عنده فلس واحد فلا يقدر أن يصرفه، ولكن إذا خاف رسول فماذا يفعل الفجار المملؤون شراً.

ويذهب رسول الله ليجمع كل الأنبياء الذين يكلمهم راغباً إليهم أن يذهبوا معه ليتضرعوا إلى الله من أجل المؤمنين، فيعتذر كل واحد خوفاً. ولعمر الله إني أنا لا أذهب إلى هناك لأني أعرف ما أعرف، وعندما يرى الله ذلك يذكر رسوله كيف أنه خلق كل الأشياء محبة له، فيذهب خوفه ويتقدم إلى العرش بمحبة واحترام والملائكة تترنم:

- تبارك اسمك يا الله إلٰهنا.

ومتى سار على مقربة من العرش يفتح الله لرسوله كخليل لخليله بعد طول الأمد على اللقاء، ويبدأ رسول الله بالكلام أولاً فيقول:

- إني عبدك وأحبك يا إلهي وأشكرك من كل قلبي ونفسي لأنك أردت فخلقتني لأكون عبدك، وخلقت كل شيء حباً فيّ لأحبك لأجل كل شيء وفي كل شيء وفوق كل شيء، فليحمدك كل خلائقك يا إلهي.

حينئذ تقول كل مخلوقات الله:

- نشكرك يا رب وتبارك اسمك القدوس.

الحق أقول لكم إن الشياطين والمنبوذين يبكون لحظتئذ حتى أنه ليجري الماء في عين الواحد منهم أكثر مما في نهر الأردن، ومع هذا فلا

يرون الله، ويكلم الله رسوله محمد قائلاً:

ـ مرحباً بك يا عبدي الأمين، فاطلب ما تريد تنل كل شيء.

فيجيب رسول الله:

ـ يا رب أذكر أنك لما خلقتني قلت أنك أردت أن تخلق العالم والجنة والملائكة والناس حباً فيّ ليمجدوك بي أنا عبدك، لذلك أتضرع إليك أيها الرب الإله الرحيم العادل أن تذكر وعدك لعبدك.

فيجيب الله كخليل يمازح خليله فيقول:

ـ أعندك شهود على هذا يا خليلي محمد.

فيقول محمد باحترام:

ـ نعم يا رب.

فيقول الله:

ـ اذهب وادعهم يا جبريل.

فيأتي جبريل إلى رسول الله ويقول:

ـ من هم شهدوك أيها السيد.

فيجيب رسول الله:

ـ هم آدم وإبراهيم وإسماعيل وموسى وداود وعيسى ابن مريم.

فينصرف الملائكة وينادي الشهود المذكورين الذين يحضرون إلى هناك خائفين، فمتى حضروا يقول لهم الله:

ـ أتذكرون ما أثبته رسولي.

فيجيبون:

ـ أي شيء يا رب.

فيقول الله:

- أني خلقت كل شيء حباً فيه ليحمدني كل الخلائق به.

فيجيب كل منهم:

- عندنا ثلاثة شهود أفضل منا يا رب.

فيسأل الله.

- ومن هم هؤلاء الثلاثة.

فيقول موسى:

- الأول الكتاب الذي أعطيتنيه.

ويقول داود:

- الثاني الكتاب الذي أعطيتنيه.

ويقول الذي يكلمكم:

- يا رب إن العالم كله أغواه الشيطان فقال إني كنت ابنك وشريكك، ولكن الكتاب الذي أعطيتنيه قال حقاً إني عبدك، ويعترف ذلك الكتاب بما أثبته رسولك.

فيتكلم حينئذ رسول الله ويقول:

- هكذا يقول الكتاب الذي أعطيتنيه يا رب.

وعندما يقول رسول الله هذا، يتكلم الله قائلاً:

- إن ما فعلت الآن إنما فعلته ليعلم كل أحد مبلغ حبي لك.

وبعد هذا يعطي الله لرسوله كتاباً مكتوباً فيه أسماء كل مختاري الله، ولأجل ذلك يسجد كل مخلوق لله قائلاً:

- لك وحدك اللهم الحمد والإكرام لأنك وهبتنا لرسولك.

ويفتح الله الكتاب الذي في يد رسوله، فيقرأ رسوله فيه وينادي كل

الملائكة والأنبياء وكل المختارين، ويكون مكتوباً على جبهة كل واحد علامة رسول الله، ويكتب في الكتاب الخلود في الجنة.

فيمر حينئذ كل أحد إلى يمين الله الذي يكون بالقرب منه رسول الله، ويجلس الأنبياء بجانب ويجلس الأولياء بجانب الأنبياء، والمباركون بجانب الأولياء فينفخ الملاك في الصور ويدعو الشيطان للحساب.

فيأتي ذلك الشقي ويشكوه كل مخلوق بامتهان شديد، حينئذ ينادي الملاك ميخائيل فيضربه بسيف الله مئة ألف ضربة، وتكون كل ضربة يضرب بها الشيطان بثقل عشرة جحيمات، ويكون هو الأول الذي يقذف به في الهاوية، ثم ينادي الملاك أتباعه فيهانون ويشكون مثله، وعند ذلك يضرب الملاك ميخائيل بأمر الله بعضاً مئة ضربة، وبعضاً خمسين، وبعضاً عشرين، وبعضاً عشراً، وبعضاً خمساً، ثم يهبطون الهاوية، لأن الله يقول لهم:

ـ إن الجحيم مثواكم أيها الملاعين.

ثم يدعى بعد ذلك إلى الحساب كل الكافرين والمنبوذين، فيقدم أولاً كل الخلائق التي هي أدنى من الإنسان شاهدة أمام الله كيف خدمت هؤلاء الناس، وكيف أن هؤلاء أجرموا مع الله وخلقه، ويقوم كل واحد من الأنبياء شاهداً عليهم، فيقضي الله عليهم بلهب الجحيم.

الحق أقول لكم أنه لا كلمة أو لا فكر من الباطل لا يجازي عليها الله في ذلك اليوم الرهيب، أن قميص الشعر سيشرق كالشمس. وكل قملة كانت على إنسان حباً في الله تتحول إلى لؤلؤة، المساكين الذين قد عبدوا الله بمسكنة حقيقية من القلب لمباركون ثلاثة وأربعة أضعاف، لأنهم يكونون خالين في هذا العالم من المشاغل الدنيوية، فتمحى عنهم خطايا كثيرة، ولا يضطرون في ذلك اليوم إلى أن يقدموا حساباً كيف صرفوا الغنى الدنيوي، بل يجزون لصبرهم ومسكنتهم، ولو علم الناس هذا لفضل قيمص الشعر على الأرجوان، والقمل على الذهب، والصوم على الولائم.

ومتى انتهى حسابُ الجميع يقول الله لرسوله:

- انظر يا خليلي ما كان أعظم شرهم، فإني أنا خالقكم سخرت كل المخلوقات لخدمتهم، فامتهنوني في كل شيء، فالعدل كل العدل إذاً ألا أرحمهم.

فيقول رسول الله:

- حقاً أيها الرب إلهنا المجيد أنه لا يقدر أحد من أخلائك وعبيدك أن يسألك رحمة بهم، وإني أنا عبدك أطلب قبل الجميع العدل فيهم.

وبعد أن يقول هذا الكلام تصرخ ضدهم الملائكة والأنبياء مع كل من أنعم الله عليهم، بل لماذا أقول المنعم عليهم، لأني أقول الحق لكم أن الرتيلاوات والذباب والحجارة والرمل لتصرخ من الفجار وتطالب بإقامة العدل فيهم.

حينئذ يعيد الله إلى التراب كل نفس حية أدنى من الإنسان، ويرسل إلى الجحيم الفجار الذين يرون مرة أخرى في أثناء سيرهم ذلك التراب الذي يعود إليه الكلاب والخيل وغيرها من الحيوانات النجسة فحينئذ يقولون:

- أيها الرب الإله أعدنا نحن أيضاً إلى هذا التراب، ولكن لا يعطون سؤلهم»[1].

أثارت أهوال يوم القيامة كما صورها عيسى في نفوس حوارييه ليس فقط مشاعر الخوف والرهبة وإطلاق العبرات والزفرات مصحوبة بالبكاء والدمع، بل ولدت أيضاً في نفوسهم الحزينة العطف والشفقة والرأفة على أولئك الذين كتب عليهم الخلود بين لهيب جهنم ونيرانها، حتى إن الحواري يوحنا سأله قائلاً:

- يا معلم نحب أن نعرف أمرين:

---

(١) إنجيل برنابا ص٨٢ ـ ٩٠.

□ أحدهما كيف يمكن لرسول الله وهو مملوء رحمة ألا يشفق على هؤلاء المنبوذين في ذلك اليوم، وهو في نفس الطين الذي هم منه.

□ والآخر ما المراد من كون سيف ميخائيل كعشر جحيمات.

فقال موجهاً الكلام إليهم جميعاً:

- أما سمعتم ما يقول داود النبي كيف يضحك البار من هلاك الخطأة فيستهزىء بالخاطىء قائلاً:

- رأيت الإنسان الذي اتكل على قوته وغناه ونسي الله.

فالحق أقول لكم إن إبراهيم سيتهزىء بأبيه، وآدم بالمنبوذين كلهم، وإنما يقول هذا لأن المنعم عليهم سيقومون كاملين ومتحدين بالله، حتى أنه لا يخالج عقولهم أدنى فكر ضد عدله، ولذلك سيطلب كل منهم إقامة العدل ولا سيما رسول الله. لعمر الله الذي أقف في حضرته مع أني الآن أبكي شفقة على الجنس البشري لأطلبن في ذلك اليوم عدلاً بدون رحمة لهؤلاء الذين يحتقرون كلامي، ولا سيما أولئك الذين ينجسون إنجيلي.

يا تلاميذي إن الجحيم واحدة وفيها يعذب الملعونون إلى الأبد، إلا أن لها سبع طبقات أو دركات أشد، ومع ذلك فإن كلامي صادق في سيف الملاك ميخائيل، لأن من لا يرتكب إلا خطيئة واحدة يستحق جحيماً. ومن يرتكب خطيئتين يستحق جحيمين، فلذلك يشعر المنبوذون وهم في جحيم واحد بقصاص كأنهم به في عشر جحيمات، أو في مئة أو في ألف. والله القادر على كل شيء سيجعل بقوته وعدله الشيطان يكابد عذاباً كأنه في ألف ألف جحيم والباقين كلاً على قدر إثمه.

ولما بدأت تظهر على ملامح عيسى ونبرات صوته ما تجيش به نفسه من انفعالات مثقلة بالحزن والأسى، أحس حواريوه بحاجته الشديدة للاسترخاء والاستجمام، فآثروا راحته على كل شيء، عندئذ بادره بطرس مقترحاً عليه التوقف عن الدرس قائلاً:

- يا معلم حقاً إن عدل الله عظيم، ولقد جعلك اليوم هذا الخطاب

حزيناً، لذلك نتضرع إليك أن تستريح وغداً أخبرنا أي شيء يشبه الجحيم.

وأراد عيسى كعادته أن يجعل من رجاء بطرس لحظ من حظوظ الدنيا الزائلة مدخلاً لموعظة أخرى يكشف فيها عن الفرق بين الراحة الزائلة والراحة الباقية، فقال موجهاً الخطاب لبطرس وسائر الحواريين:

ـ يا بطرس إنك تقول لي استرح وأنت لا تدري يا بطرس ما أنت قائل وإلا لما تكلمت به، إن الراحة في هذه الدنيا إنما هي سم التقوى، والنار التي تأكل كل صالح، أنسيتم كيف أن سليمان نبي الله وسائر النبيين قد نددوا بالكسل، وكما يقال:

ـ الكسلان لا يحرث خوفاً من البرد.

فهو لذلك يتسول في الصيف، لأجل ذلك قال:

ـ كل ما تقدر يدك على فعله فافعله بدون راحة.

وماذا يقول يعقوب أبر أخلاء الله:

ـ كما أن الطير مولود للطيران، فالإنسان مولود للعمل.

الحق أقول لكم أني أعاف الراحة أكثر من كل شيء.

وبلا انقطاع في السرد انتقل عليه السلام لبيان أي شيء يشبه الجحيم فقال:

ـ الجحيم واحدة وهي ضد الجنة، كما أن الشتاء ضد الصيف، والبرد ضد الحر، فلذلك يجب على من يصف شقاء الجحيم أن يكون رأي جنة النعيم، يا له من مكان ملعون بعدل الله لأجل لعنة الكافرين والمنبوذين الذين قال عنهم أيوب خليل الله:

ـ ليس من نظام هناك، بل خوف أبدي.

ويقول أشعيا النبي في المنبوذين:

ـ إن لهيبهم لا ينطفىء ودودهم لا يموت.

وقال داود أبونا باكياً:

- حينئذ يمطر عليهم برقاً وصواعق وكبريتاً وعاصفة شديدة.

تباً لهم من خطأة تعساء ما أشد كراهتهم حينئذ للحوم الطيبة والثياب الثمينة والأرائك الوثيرة وألحان الغناء الرخيمة، وما أشد ما يسقمهم الجوع واللهب اللذاعة والحجر المحرق والعذاب الأليم مع البكاء المر الشديد.

حقاً خير لهم لو لم يكونوا من أن يعانوا هذا العذاب الأليم، تصوروا رجلاً يعاني في كل جارحة من جسده وليس من يرثى له بل الجميع يستهزئون به، أخبروني ألا يكون هذا ألماً مبرحاً.

إن هذا لنعيم الجحيم، لأني أقول لكم بالحق أنه لو وضع الله في كفة كل الآلام التي عاناها في هذه الدنيا والتي سيعانونها حتى يوم الدين، وفي الكفة الأخرى ساعة واحدة من ألم الجحيم لاختار المنبوذون بلا ريب المحن الدنيوية، لأن الدنيوية تأتي على يد الإنسان أما الأخرى فعلى يد الشياطين الذين لا شفقة لهم على الإطلاق، فما أشد الحر الذي سيصلونه الخطاة الأشقياء، وما أشد البرد القارس الذي لا يخفف لهبهم وما أشد صرير الأسنان والبكاء والعويل، لأن ماء الأردن أقل من الدموع التي ستجري كل دقيقة من عيونهم.

ولما انحرفت الشمس عن نقطة الزوال ميمِّمة وجهها صوب الغرب، توقف عيسى عن الكلام إيذاناً بالاستعداد للصلاة، وبعد أن توضأوا صلوا صلاة نصف النهار، وعند انتهاء الصلاة لاحظ الحواريون معلمهم وعلى غير العادة كئيباً منكسر النفس من شدة الحزن والهم، فلم يكلموه بقية اليوم. واختلى كل واحد منهم بنفسه ومشاعر الحزن والخوف تشغله عن التفكير فيما سواه.

بقوا على هذه الحالة من الوجوم والعزوف عن الكلام حتى أدوا صلاة العشاء، حينها قطع عليهم عيسى خلوتهم النفسية وحدثهم بحديث استقى موضوعه من حالة الغم والاكتئاب التي تكتنف الإنسان بين الفينة والأخرى، فقال لهم:

«أي أب أسرة ينام وقد عرف أن لصاً عزم على نقب بيته: لا أحد البتة بل يسهر ويقف متأهباً لقتل اللص، أفلا تعلمون إذا أن الشيطان أسد زائر يجول طالباً من يفترسه، فهو يحاول أن يوقع الإنسان في الخطيئة. الحق أقول لكم إن الإنسان إذا تحدى التاجر لا يخاف في ذلك اليوم، لأنه يكون متأهباً جيداً.

كان هناك رجل أعطى جيرانه نقوداً ليتاجروا بها ويقسم الربح على نسبة عادلة، فأحسن بعضهم التجارة حتى أنهم ضاعفوا النقود، ولكن بعضهم استعمل النقود في خدمة عدو من أعطاهم النقود وتكلموا عنه بالسوء، فقولوا لي كيف تكون الحال متى حاسب المديونين؟ أنه لا ريب يجزي أولئك الذين أحسنوا التجارة، ولكنه يشفي غيظه من الآخرين بالتوبيخ، ثم يقتص منهم بحسب الشريعة.

لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته أن الجار هو الله الذي أعطى الإنسان كل ماله مع الحياة نفسها، حتى أنه إذا أحسن المعيشة في هذه الدنيا يكون لله مجد وللإنسان مجد الجنة، لأن الذين يحسنون المعيشة يضاعفون نقودهم بكونهم قدوة، لأنه متى رآهم الخطأة قدوة تحولوا إلى التوبة، ولذلك يجزي الذين يحسنون المعيشة جزءاً عظيماً. ولكن قولوا لي ماذا سيكون قصاص الخطاة الآثمين الذين بخطاياهم يصرفون حياتهم في خدمة الشيطان عدو الله مجدفين على الله ومسيئين إلى الآخرين؟

فقال الحواريون:

- إنه سيكون بغير حساب.

ثم استضطرد في الحديث حيث قال:

- من يرد أن يحسن المعيشة فعليه أن يحتذي مثال التاجر الذي يقفل حانوته ويحرسه ليلاً ونهاراً بجد عظيم، وهو إنما يبيع السلع التي اشتراها التماساً للربح، لأنه لو علم أنه يخسر في ذلك لما كان يبيع، فيجب عليكم أن تفعلوا هكذا لأن نفسكم إنما هي في الحقيقة تاجر والجسد هو الحانوت، فلذلك كان ما يتطرق إليها من

الخارج بواسطة الحواس يباع ويشترى، والنقود هي المحبة، انظروا إذاً ألا تبيعوا وتشتروا بمحبتكم أقل فكر لا تقدرون أن تصيبوا منه ربحاً، بل ليكن الفكر والكلام والعمل جميعاً لمحبة الله لأنكم بهذا تجدون أمناً في ذلك اليوم.

الحق أقول لكم أن كثيرين يغتسلون ويذهبون للصلاة، وكثيرون يصومون ويتصدقون، وكثيرون يطالعون ويبشرون الآخرين، وعاقبتهم ممقوتة عند الله، لأنهم يطهرون الجسد لا القلب ويصرخون بالفم لا بالقلب. يمتنعون عن اللحوم ويملؤن أنفسهم بالخطايا، يهبون الآخرين أشياء غير نافعة لهم ليظهروا بمظهر الصلاح، يطالعون ليعرفوا كيف يتكلمون لا ليعلموا، ينهون الآخرين عن الأشياء التي يفعلونها هم أنفسهم، وهكذا يدانون بألسنتهم، لعمر الله أن هؤلاء لا يعرفون الله بقلوبهم، لأنهم لو عرفوه لأحبوه، ولما كان كل ما للإنسان هبة من الله كان عليه أن يصرف كل شيء في محبة الله»[1].

قضى عيسى وحواريوه بعد تلك الموعظة عن مشاهد يوم القيامة عدة أيام اضطروا بعدها للعودة إلى منطقة اليهودية وذلك لاقتراب عيد الفصح، وأثناء اجتيازهم إقليم السامرة نفذ زادهم. فوطنوا النفس مكرهين على التزود من أول مدينة تصادفهم على الطريق، وعند مرورهم بجانب واحدة من مدن السامريين تجاهلت المصادر المسيحية ذكر اسمها، أرسل عيسى بعض حوارييه ليبتاع خبزاً، فذهبوا ولكن الأهالي وقفوا على باب مدينتهم رافضين السماح لهم بالدخول أياً كانت مسوغاتهم، وردوهم على أعقابهم، ولما أبلغوا معلمهم بطردهم وعدم التعامل معهم قال كل من يعقوب ويوحنا وبما يشبه الرد على سوء خلق القوم واجترائهم على نبي الله:

- يا معلم ألا تريد أن ندعو الله ليرسل ناراً من السماء على هؤلاء الناس فتفنيهم؟

---

(١) إنجيل برنابا ص٩٥ - ٩٦.

غير أن عيسى أجابهم إجابة قصدَ بها انتزاع الرغبة في الانتقام وحب التشفي من صدورهم، سواء كان لعارض من أعراض الدنيا، أو انتصاراً للنفس الأمارة بالسوء، فقال:

«إنكم لا تعلمون أي روح يدفعكم لتتكلموا هكذا، اذكروا أن الله عزم على إهلاك نينوى لأنه لم يجد أحداً يخاف الله في تلك المدينة التي بلغ من شرها أن دعا الله يونس النبي ليرسله إلى تلك المدينة. فحاول الهرب إلى طرسوس خوفاً من الشعب، فطرحه الله في البحر فابتلعته سمكة وقذفته على مقربة من نينوى، فلما بشر هناك تحول الشعب إلى التوبة، فرأف الله بهم.

ويل للذين يطلبون النقمة لأنها إنما تحل بهم، لأن كل إنسان يستحق نقمة الله، ألا فقولوا لي هل خلقتم هذه المدينة مع هذا الشعب، إنكم لمجانين؟ كلا ثم كلا، إذ لو اجتمعت الخلائق جميعاً لما أتيح لها أن تخلق ذبابة واحدة جديدة من لا شيء، وهذا هو المراد بالخلق، فإذا كان الله الذي خلق هذه المدينة يعولها فلماذا تودون هلاكها، لماذا لم تقل:

- أتريد يا معلم أن ندعو الرب إلهنا أن يتوجه هذا الشعب للتوبة.

حقاً إن هذا لهو العمل الجدير بحواري لي أن يدعو الله لأجل الذين يفعلون شراً، هكذا فعل هابيل لما قتله أخوه قابيل الملعون من الله، وهكذا فعل إبراهيم لفرعون الذي أخذ منه زوجته، فلذلك لم يقتله ملاك الرب بل ضربه بمرض، وهكذا فعل زكريا لما قتل في الهيكل بأمر الملك الفاجر، وهكذا فعل أرميا وأشعيا وحزقيال ودانيال وداود وجميع أخلاء الله والأنبياء الأطهار، قولوا لي إذا أصيب أخ أتقتلونه لأنه تكلم بسوء وضرب من دنا منه، حقاً إنكم لا تفعلون هكذا، بل بالحري تحاولون أن تعيدوا صحته بالأدوية الموافقة لمرضه.

لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إن الخاطىء لمريض العقل متى اضطهد إنساناً، فقولوا لي أيشج أحد رأسه لتمزيق رداء عدوه، فكيف يكون صحيح العقل من يفصل رأسه ليضر جسد عدوه.

قل لي أيها الإنسان من هو عدوك، إنما هو جسدك، وكل من

يمدحك. فلذلك لو كنت صحيح العقل لقبلت يد الذين يعيرونك، وقدمت هدايا للذين يضطهدونك ويوسعونك ضرباً، ذلك أيها الإنسان لأنك كلما عيرت واضطهدت في هذه الدنيا لأجل خطاياك قل ذلك عليك يوم الدين، ولكن قل لي أيها الإنسان إذا كان الخلق قد اضطهدوا الأولياء وأنبياء الله وهم أبرار فماذا يفعل بك أيها الخاطىء، وإذا كانوا قد احتملوا كل شيء بصبر مصلّين لأجل مضطهديهم، فماذا تفعل أنت أيها الإنسان الذي يستحق الجحيم!

قولوا لي يا تلاميذي، ألا تعلمون أن شمعاي لعن عبدالله داود النبي ورماه بالحجارة فماذا قال داود للذين ودوا أن يقتلوا شمعاي.

- ماذا يعنيك يا أيوب حتى أنك تود أن تقتل شمعاي، دعه يلعنني لأن هذا بإرادة الله الذي سيحول هذه اللعنة إلى بركة.

وهكذا كان لأن الله رأى صبر داود وأنقذه من اضطهاد ابنه أبشالوم.

حقاً لا تتحرك ورقة بدون إرادة الله. فإذا كنت في ضيق فلا تفكر في مقدار ما احتملت ولا فيمن أصابك بمكروه، بل تأمل كم تستحق أن يصيبك على يد الشياطين في الجحيم بسبب خطاياك، إنكم حانقون على هذه المدينة لأنها لم تقبلنا ولم تبع لنا خبزاً، قولوا لي أهؤلاء القوم عبيدكم أوهبتموهم هذه المدينة، أوهبتموهم حنطتهم، أو ساعدتموهم في حصادها، كلا ثم كلا، لأنكم غرباء في هذه البلاد وفقراء، فما هو إذاً هذا الشيء الذي تقولونه»[1].

ولم يكن أمام الحواريين يعقوب ويوحنا بعد هذا الشرح الوافي والبيان الضافي لسوء عواقب الانتقام وخطورة التسرع في التشفي، جهلاً بمشيئة الله في خلقه، وسنته في عباده مفراً من الاعتراف بخطأهما، وسوء تقديرهما للأمور، فردا عليه قائلين:

- يا سيد إننا أخطأنا فليرحمنا الله.

---

(١) إنجيل برنابا ص٩٧ ـ ٩٩.

ورد عليهم عيسى بدوره مؤمناً على دعائهما فقال:

- ليكن كذلك.

وفيما يبدو من خلال ما توحي به الأحداث البسيطة المصاحبة لمواعظ عيسى وتنقلاته المختلفة في أقاليم اليهود أن رأيهم قد استقر على دخول القدس مع عيد الفصح أو قبله بيوم أو اثنين، وذلك لأنهم وبعد اجتيازهم المدينة السامرية لم يتجهوا رأساً إلى القدس، بل ذهبوا إلى بركة على أبواب القدس تدعى بيت حسدا، وصادف دخولهم يوم السبت حيث تتعطل الأعمال وتخف الحركة.

كان هناك اعتقاد شائع بين الناس أن ملاك الله ينزل إلى البركة ويحرك الماء يومياً، ومن نزل أولاً بعد تحريك الماء واضطرابه يبرأ من كافة الأمراض التي تنهكِ في جسمه، وكان للبركة خمسة أروقة أعدت خصيصاً كاستراحة للمرضى والمترددين عليها.

وهناك رأى عيسى جمهور غفير من المرضى ممن يعانون مختلف أنواع العلل المزمنة والمستعصية كالعمى والصرع والعرج وغيرها يملأون الأروقة في انتظار اللحظة المناسبة للنزول في الماء بمجرد تحركه واضطرابه، وبإلهام من الله وقعت عينا عيسى على مقعد لبث بجوار البركة ثماني وثلاثين عاماً وهو يعاني من مرض عضال، فأخذته الشفقة بحالته وطول مكوثه بجوار الماء. ولذلك اقترب منه قائلاً:

- أتريد أن تبرأه؟

ظن المقعد لأول وهلة أن سؤاله له بقصد المساعدة لا غير. ولذلك أجابه شارحاً حالته كي تكون شفيعه إلى مد يد العون إليه فقال:

- يا سيد ليس لي أحد يضعني في الماء متى حركه الملاك، بل عندما أحاول جاهداً النزول ينزل قدامي آخر ويدخله.

وفي اللحظة التي أفرغ المقعد على مسامع عيسى معاناته المتكررة، وأبان له عن مشكلته الفعلية، رفع عليه السلام عينيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً:

ـ أيها الرب إلهنا وإله آبائنا ارحم هذا المُقعد.

ثم وجه كلامه للمريض قائلاً:

ـ باسم الله ابرأ أيها الأخ، قم واحمل فراشك.

وفي الحال نهض المُقعد قائماً وحمل فراشه على كتفيه وغادر البركة. فصاح فيه الذين رأوه يقوم بعمل في يوم يحرم فيه العمل والحركة قائلين:

ـ إنه يوم السبت فلا يحل لك أن تحمل فراشك.

فرد عليهم بلا اكتراث لاحتجاجهم قائلاً:

ـ الذي أبرأني قال لي ارفع فراشك واذهب في طريقك إلى بيتك.

فسألوه باستغراب:

ـ ومن هو؟

فأجاب:

ـ إني لا أعرف اسمه.

وفتحت إجابة الرجل الباب لمختلف التفسيرات والتأويلات عمن يقوم بعمل معجز كهذا، فمنهم من قال:

ـ لا بد أن يكون عيسى ابن مريم الناصري.

ومنهم من قال معترضاً:

ـ كلا، لأن عيسى نبي الله، أما الذي فعل هذا فهو آثم لأنه نقض السبت.

وعلى أي حال فرواية برنابا ومتابعته الشخصية لخط سيرهم من كفرناحوم حتى بركة جسدا توحي بأنهم دخلوا القدس صبيحة يوم الفصح، إذ انتقل برنابا في سرده للأحداث مباشرة بعد شفاء المقعد إلى القول بأن معلمهم:

«ذهب إلى الهيكل فدنا منه جم غفير ليسمعوا كلامه، فاضطرم الكهنة

لذلك حسداً»[1].

وهو الذي يجعلنا نرجح على أقل تقدير أن عيسى وحوارييه لبثوا مقيمين بجوار البركة في انتظار العيد، ومع إشراقة يومه دخلوا القدس مع الداخلين، ولما دنوا من الهيكل شاهدوا الجموع محتشدة ومبتهجة، وعلى أهبة الاستعداد لسماع الخطب والمواعظ الدينية، وبمجرد شيوع نبأ وصول عيسى ودخوله الهيكل تركوا كل شيء والتفوا حوله للاستماع إلى مواعظه البليغة والمفيدة، أما الكهنة الذين تعودوا أن يكونوا محط أنظار الناس في هذا اليوم، فأهملوا وهم يعانون مشاعر الإحباط والغضب الشديد حسداً من عند أنفسهم على المحبة والحفاوة التي استُقبل بها عيسى.

وما أورده برنابا بعد ذلك عن لقاءات عيسى وأحاديثه، فيظهر البعض منها كما لو كانت أحاديث جانبية يوجهها للقلائل من حوله، في حين يظهر البعض منها كما لو كانت خطبة يلقيها على الجمع الكبير، وبيان ذلك أن عيسى لحظة دخوله للهيكل دنا منه أحد صغار الكهنة وبإيعاز من رؤسائه ليسأله:

- أيها المعلم الصالح إنك تعلم حسناً وحقاً، لذلك قل لي ما هو الجزاء الذي يعطينا إياه الله في الجنة.

فأجابه عيسى بقوله:

- إنك تدعونني صالحاً، وأنت لا تعلم ألّا صالح إلا الله وحده، كما قال أيوب خليل الله:

- الطفل الذي عمره يوم ليس نقياً، بل إن الملائكة ليست منزهة عن الخطأ أمام الله.

وقال أيضاً:

- إن الجسد يجذب الخطيئة ويمتص الإثم كما تمتص الإسفنجة الماء.

---

(١) إنجيل برنابا ص١٠٠.

ولاذ الكاهن بالصمت ولزم السكون في دلالة واضحة على فشله في استدراجه لإجابة معدة مسبقاً، مما أدى بعيسى تلقائياً للقول، وكما لو كان يخاطب جمعاً من الناس.

- الحق أقول لكم لا شيء أشد خطراً من الكلام، لأنه هكذا قال سليمان:

- الحياة والموت هما تحت سلطة اللسان.

ثم التفت إلى حوارييه - والكاهن صاحب السؤال فيما يبدو واقفاً في مكانه لم يبرحه، وخصهم دون غيرهم بالكلام، فقال لهم ناصحاً ومرشداً:

«احذروا الذين يباركونكم لأنهم يخدعونكم، فباللسان بارك الشيطان أبوينا الأولين، ولكن كانت عاقبة كلامه الشقاء، هكذا أيضاً بارك حكماء مصر فرعون، هكذا بارك جليات الفلسطينيين، هكذا بارك أربع مئة نبي كاذب أخاب، ولكن لم يكن مدحهم إلا باطلاً، فهلك الممدوحون مع المادحين، لذلك لم يقل الله بلا سبب على لسان أشعيا النبي:

- يا شعبي إن الذين يباركونك يخدعونك.

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون، ويل لكم أيها الكهنة واللاويون، لأنكم أفسدتم ذبيحة الرب، حتى أن الذين جاءوا ليقدموا الذبائح يعتقدون أن الله يأكل لحماً مطبوخاً كالإنسان، لأنكم تقولون لهم: أحضروا من غنمكم وثيرانكم وحملانكم إلى هيكل إلهكم. ولا تأكلوا الجميع بل أعطوا نصيباً لإلهكم مما أعطاكم، ولكنكم لا تخبرونه عن أصل الذبيحة، إنها شهادة الحياة التي أنعم بها على ابن أبينا إبراهيم حتى لا ينسى إيمان وطاعة أبينا إبراهيم مع المواعيد الموثقة معه من الله والبركة الممنوحة له.

يقول الله على لسان حزقيال النبي:

- أبعدوا عني ذبائحكم هذه إن ضحاياكم مكروهة عندي.

لأنه يقترب الوقت الذي يتم فيه ما تكلم عنه إلهنا على لسان هوشع النبي قائلاً:

- إني أدعو الشعب غير المختار مختاراً.

وكما يقول حزقيال النبي:

- سيعمل الله ميثاقاً جديداً مع شعبه ليس نظير الميثاق الذي أعطاه لآبائكم فلم يفو به. وسيأخذ منهم قلباً من حجر ويعطيهم قلباً جديداً.

وسيكون كل هذا لأنكم لا تسيرون الآن بحسب شريعته، وعندكم المفتاح ولا تفتحون بل بالحري تسدون الطريق على الذين يسيرون فيه»[١].

ولما بدأت على حركة الكاهن إمارات الرغبة والعزم على الإنسلال منصرفاً ليخبر رئيسه الذي كان واقفاً وقت هذه المحادثة على مقربة من الهيكل بكل شيء سمعه، فاجأه عيسى بقوله:

- قف لأني أجيبك على سؤالك.

أما إجابته له فتبدو كما لو كانت خطبة عامة، وذلك لأنه في ثناياه يخص بالحديث ويوجه كلامه إلى طوائف بعينها يذكرهم بالاسم ويخاطبهم بياء النداء، في دلالة شديدة الوضوح على أنه يقف في مجمع من الناس، ولكن بداية الحديث موجه أصلاً للكاهن، جاء فيها:

«سألتني أن أخبرك ما يعطينا الله في الجنة، الحق أقول لكم إن الذين يهتمون بالآخرة لا يحبون صاحب العمل، فالراعي الذي عنده قطيع متى رأى الذئب مقبلاً يتهيأ للمحاماة عنه، وبالضد منه الأجير الذي متى رأى الذئب ترك الغنم وهرب. لعمر الله الذي أقف في حضرته لو كان إله آبائنا إلهكم لما خطر على بالكم أن تقولوا: ماذا يعطيني الله، بل كنتم تقولون كما قال داود نبيه:

- ماذا أعطي الله من أجل جزاء ما أعطاني.

أني أضرب لكم مثلاً:

---

(١) إنجيل برنابا ص١٠١ ـ ١٠٢.

كان هناك ملك قد عثر في الطريق على رجل جرده اللصوص وأثخنوه جراحاً حتى الموت. فتحنن عليه وأمر عبيده أن يحملوا الرجل إلى المدينة ويعتنوا به ففعلوا هكذا بكل جد، وأحب الملك الجريح حباً عظيماً حتى أنه زوجه من ابنته وجعله وريثه، فلا مراء في أن هذا الملك كان رؤوفاً جداً، ولكن الرجل ضرب العبيد واستهان بالأدوية وامتهن امرأته وتكلم بالسوء في الملك وحمل عماله على عصيانه، وكان إذا طلب الملك منه خدمة قال: ما هو الجزاء الذي يعطيني إياه الملك. فماذا يفعل الملك بمثل هذا الكنود عندما سمع هذا؟

وجاءت الإجابة من الجميع:

- ويل له لأن الملك نزع منه كل شيء ونكل به تنكيلاً.

ثم أكمل حديثه موجهاً الخطاب للطوائف الرئيسية في الهيكل:

- أيها الكهنة والكتبة والفريسيون، وأنت يا رئيس الكهنة الذي تسمع صوتي، إني أعلن لكم ما قال الله لكم على لسان نبيه أشعيا:

- ربيت عبيداً ورفعت شأنهم أما هم فامتهنوني.

إن الملك لهو إلٰهنا الذي أوجد إسرائيل في هذا العالم المفعم بالشقاء. فأعطى لعبيده يوسف وموسى وهارون الذين اعتنوا به، وأحبه إلٰهنا حباً شديداً حتى أنه لأجل شعب إسرائيل ضرب مصر وأغرق فرعون وهزم مئة وعشرين ملكاً من الكنعانيين والمدينيين، وأعطاه شرائعه جاعلاً إياه وارثاً لكل تلك البلاد التي يقيم فيها شعبنا.

ولكن كيف تصرف إسرائيل، كم قتل من الأنبياء، كم نجس من نبوة، كيف عصى شريعة الله، كم وكم تحول أناس عن الله لذلك السبب وذهبوا ليعبدوا الأوثان بذنبكم أيها الكتبة، فلكم تمتهنون الله بسلوككم والآن تسألونني ماذا يعطينا الله في الجنة، فكان يجب عليكم أن تسألونني، أي قصاص يعطيكم الله إياه في الجحيم، وماذا يجب عليكم فعله لأجل التوبة الصادقة ليرحمكم الله، فهذا ما أقوله لكم ولهذه الغاية أرسلت إليكم.

لعمر الله الذي أقف في حضرته إنكم لا تنالون مني تملقاً بل الحق، لذلك أقول لكم توبوا وارجعوا إلى الله كما فعل آباؤنا بعد ارتكاب الذنب، ولا تقسوا قلوبكم.

وهنا تدخل برنابا في الحديث كي يصف ردة فعل الكهنة وشدة غضبهم وغليانهم الداخلي من هذا الكلام القاسي، وليبين أيضاً ونتيجة طبيعية لخوفهم من ثورة الجماهير التزامهم التام بالصمت، ومراقبة ما يجري بأعينهم، ليعود مرة أخرى ليقرر استمرار عيسى في الكلام، قائلاً للجميع:

- أيها الفقهاء والكتبة والفريسيون، وأنتم أيها الكهنة قولوا لي إنكم لراغبون في الخيل كالفوارس ولكنكم لا ترغبون في المسير إلى الحرب. إنكم راغبون في الألبسة الجميلة كالنساء، ولكنكم لا ترغبون في الغزل وتربية الأطفال. إنكم لراغبون في ثمار الحقل ولكنكم لا ترغبون في حراثة الأرض، إنكم لراغبون في أسماك البحر ولكنكم ترغبون في صيدها، إنكم لراغبون في المجد كالجمهوريين ولكنكم لا ترغبون في عبء الجمهورية، وإنكم لراغبون في الأعشار كالكهنة ولكنكم لا ترغبون في خدمة الله بالحق، إذاً ماذا يفعل الله بكم وأنتم راغبون هنا في كل خير بدون أدنى شر، الحق أقول لكم إن الله ليعطينكم مكاناً يكون لكم فيه كل شر دون أدنى خير.

والخطبة السابقة كمثيلاتها من خطب عيسى لعامة الناس والتي كما أبنَّا من قبل وحي من عند الله، وتأتي المعجزة الخارقة مؤيدة لها وفي الغالب مساوقة لها، حتى ألف الناس منه هذه الطريقة في إبلاغ إنجيله ورسالته. وتعودوا عليها في لقاءاتهم به وأصبحت من كثرة تكرارها من لوازمها وموجباتها، ولأجل هذا انتهز جماعة منهم توقف عيسى عن الكلام وقدموا بين يديه مجنوناً. ومع جنونه المطبق يعاني من آفتي العمى والخرس. ويكفي في نظره عليه السلام مجرد المجيء به إليه دلالة على تصديقهم نبوته وإيماناً برسالته، ومن هنا رفَع عيسى كعادته عينيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً:

- أيها الرب إله آبائنا ارحم هذا المريض وأعطه صحة ليعلم هذا الشعب إنك أرسلتني.

ثم ركز عيسى عيناه على المريض آمراً وبصوت قوي الروح الشريرة الملتبسة به على الخروج والانصراف قائلاً:

- بقوة اسم الله ربنا أخرج أيها الشرير من الرجل.

وفي التو واللحظة استرد الرجل صفاء ذهنه واستعاد عقله وانطلق لسانه بالكلام، وأبصرت عيناه النور، فبهت القوم مأخوذين بالحجة الدامغة والمعجزة القاهرة، وخاف بعضهم وارتاع البعض الآخر من تلك القوة التي تفعل المستحيلات فقالوا على لسان واحد:

- لعل هذا ابن داود.

أما أولئك الذين حملوا لواء المعارضة والإنكار للدعوة فقد سعوا مكرهين لتلمس مخرج مقبول، ومسوغ معقول يفسرون به هذا الفعل الخارق للعادة، ويكفيهم في إنكارهم ومعارضتهم عن الرد المباشر، وفي الوقت نفسه يبعدون به عن أنفسهم تهمة الإنكار والعناد فقال جماعة من الكتبة والفريسيين:

- إنما هو يخرج الشياطين بقوة بلعز بول رئيس الشياطين.

فرد عليهم بلا انفعال ظاهر:

- كل مملكة منقسمة على نفسها تخرب، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت، فإذا كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف تثبت مملكته، وإذا كان أبناؤكم يخرجون الشيطان بالكتاب الذي أعطاهم إياه سليمان النبي فهم يشهدون أني أخرج الشيطان بقوة الله، لذلك هم يكونون قضاتكم، لعمر الله أن التجديف على الروح القدس لا مغفرة له في هذا العالم ولا في العالم الآخر، لأن الشرير ينبذ نفسه عالماً مختاراً.

ألقى عيسى تلك الكلمات على من يمعنون في اللجاجة والخصام بلا مسوغ معقول، ويبالغون في منازلته إلى حد العدوان، ولكن قبول الجموع

للمعجزة هو الذي وقف حائلاً بينهم وبين اتخاذهم موقف عدائي ضده، مما أفسح للحاضرين المجال لجلب كل المرضى الذين تمكنوا من العثور عليهم لشفائهم. ونزولاً عند رغبتهم، وتقديراً لمشاعر التكريم والإعزاز التي أولوها له صلى من أجلهم ومنحهم بإذن الله الصحة والعافية.

وفي أول سابقة منذ نزول الوحي أحدث العلاج الجماعي دوياً هائلاً بين الناس يعادل في سرعته إحياء ميت مدينة نايين، ومثلما جرى في تلك الحادثة فقد أخذ الجنود الرومان الذين لا تكاد تخلو منهم مدينة يثيرون وسط العامة تلك الفتنة الشيطانية قائلين:

- إن عيسى إله إسرائيل قد أتى ليفتقد شعبه.

وبعد العيد مباشرة غادر عيسى وحواريوه القدس للقيام بجولة تنقلوا فيها لفترة بين مدن وقرى منطقة اليهودية، ثم عبروا إقليم السامرة في طريقهم إلى الجليل حتى وصلوا إلى أقصى الشمال المتاخم للإقليم السوري، ثم عبروا نهر الأردن متوغلين في الأراضي السورية، وعند دخولهم حدود مدينة قيصرية فيليبس أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام ليخبره بما جرى بين العامة من شغب في القدس من جراء مزاعم الرومان حول ألوهيته، ومنذراً إياه بالعواقب الوخيمة الناجمة عن هذه الفرية الخطيرة، ولعل هذا هو السبب الذي دفعه لسؤال حوارييه قائلاً:

- ماذا يقول الناس عني؟

فأجابه الحواريون بما هو شائع بين الناس ولا يخفى على أحد:

- يقول البعض أنك إيليا وآخرون أرميا وآخرون أحد الأنبياء.

ثم سألهم مرة أخرى عن رأيهم الشخصي فيه:

- وما قولكم أنتم؟

وسكت الجميع وهم في حالة من التردد لا شكاً منهم في معلمهم، ولا جهلاً منهم بحقيقة شخصيته، ولكن خوفاً منهم بمجابهته برأي قد يحزنه

أو يغضبه، ويجر عليهم توبيخاً ولوماً هم في غنى عنه، عدا بطرس الذي فاجأهم بقوله:

- إنك أنت المسيح ابن الله.

وحدث ما توقعه الحواريون فقد ثار عيسى على بطرس ثورة عارمة لتطاوله عليه تطاولاً لا يغتفر. حتى تحولت ثورته إلى إرادة جازمة على طرده من جملة حوارييه فقال له بصوت مفعم بالغضب والغيظ:

- اذهب وانصرف عني لأنك أنت الشيطان وتحاول أن تسيء إلي.

ثم توجه بالحديث إلى باقي الحواريين وقال لهم منذراً ومتوعداً:

- ويل لكم إذا صدقتم هذا لأني ظفرت بلعنة كبيرة من الله على كل من يصدق هذا.

ولما هدأت نفسه وانزاحت عن صدره غيوم الغضب والغيظ، أراد بالفعل طرد بطرس وعزله من الحواريين، غير أن زملاءه توسطوا له مستشفعين فيه كي يتجاوز عنه زلته. فاستجاب لتدخلهم وعفا عنه قائلاً له على سبيل الزجر والعتاب.

- حذار أن تقول مثل هذا الكلام مرة أخرى لأن الله يلعنك.

فبكى بطرس بمرارة شديدة وقال لمعلمه:

- يا سيد لقد تكلمت بغباوة، فتضرع إلى الله أن يغفر لي.

وأرجأ عيسى الرد على طلب بطرس لبرهة وجيزة كي يعلق أولاً على هذا الاتهام الخطير والفرية الكبرى بقوله:

- إذا كان إلٰهنا لم يرد أن يظهر نفسه لموسى عبده ولا إيليا الذي أحبه كثيراً ولا لنبي ما، أتظنون أن الله يظهر نفسه لهذا الجيل الفاقد للإيمان، بل ألا تعلمون أن الله قد خلق بكلمة واحدة كل شيء من العدم. وإن منشأ البشر جميعاً من كتلة من طين، فكيف إذاً يكون الله شبيهاً بالإنسان، ويل للذين يدعون الشيطان يخدعهم.

اتجه بعدها عيسى مباشرة داعياً الله تعالى لبطرس بالمغفرة والتجاوز على ما اقترف من إثم في حقه، وبينما هو يدعو ربه انخرط الحواريون في بكاء طويل وهم يؤمنون على دعائه وتضرعه قائلين:

- ليكن كذلك أيها الرب المبارك إلٰهنا.

إن نزول جبريل عليه السلام ليطلع عيسى بالفتنة التي أثارها الجند الرومان في القدس وانتشارها وشيوعها بين تجمعات اليهود يوحي بما حظيت به فكرة ألوهيته أو بنوته لله تعالى من قبول ورضا ليتجاوز حد التعلق بها إلى درجة الاعتقاد فيها، الأمر الذي يتطلب منه تدخلاً سريعاً لوأد الفتنة في مهدها، وإخماد النار قبل أن يستطير شرها، ولأجل هذا كر عائداً من أقصى الشمال الشرقي شاقاً طريقه عبر الجليل حتى وصل الناصرة، ليبدأ من موطنه جولة جديدة لدحض الفكرة من جذورها، وإعادة العامة والخاصة إلى صوابهم، ولما دخل الناصرة وذاع خبر قدومه، تفقد كل واحد في المنطقة مرضاه، وبسرعة كبيرة أحضروهم إلى دار والدته.

كان الازدحام أمام الدار شديداً، والضوضاء تشق عنان السماء، حتى أن غنياً مصاباً بالشلل لم يتمكن مرافقوه من إدخاله عبر الباب، فحملوه إلى سطح البيت، وهناك أزالوا جزء من الآجر التي كانت تغطي السقف، ثم ربطوه جيداً وتعاونوا على إنزاله، فنزل أمام عيسى مباشرة، وعند رؤيته له مربوطاً في وسطه بملاية، تردد برهة مجيلاً الفكر بين إيمانهم الذي فتق في أذهانهم تلك الحيلة البارعة، وبين حرصهم الشديد على شفائه فقال له:

- لا تخف أيها الأخ لأن خطاياك قد غفرت لك.

استاء الكتبة والفريسيون الذي كانوا يتابعون ما يجري عند سماعهم عيسى وهو يردد تلك الكلمات، متوهمين أنه ينسب القدرة على مغفرة الذنوب لشخصه، ومعتبرين قوله هذا كفراً بنعمة الله وكلاماً بغير علم ولا هدى، فقالوا كالمحتجين:

- من هذا الذي يغفر الخطايا.

فرد عليهم:

- لعمر الله أني لست بقادر على غفران الخطايا ولا أحد آخر، ولكن الله وحده يغفر، ولكن كعبد أقدر أن أتوسل إليه لأجل خطايا الآخرين، لهذا توسلت إليه لأجل هذا المريض، وأني موقن بأن الله قد استجاب دعائي، ولكي تعلموا الحق أقول لهذا الإنسان باسم إله آبائنا إله إبراهيم وأبناءه قم معافى.

وبالفعل نهض المشلول متعافياً وهو يحمد الله على نعمة الشفاء.

إن التدخل السافر لمن هم في حكم أعداء عيسى ورسالته، ورده عليهم بإسناد الشفاء إلى الله قد أوعز لبعض مرافقي المرضى باحتمال عزوف عيسى عن الدعاء لمرضاهم، أو انصرافه عنهم، ولذلك تضرعوا إليه كي يتوسل لله من أجل مرضاهم الذين ينتظرون الآن بالخارج، واستجاب عيسى لرغبتهم فخرج على الجميع ثم رفع يديه داعياً بقوله:

- أيها الرب إله الجنود الإله الحي الحقيقي، الإله القدوس الذي لا يموت ألا فارحمهم.

فأجاب كل من سمعه:

- آمين.

ثم وضع يديه على أقرب المرضى إليه فنالوا جميعاً بإذن الله الصحة والعافية، ومن أفواههم تتدفق الكلمات حمداً لله على الإيمان والشفاء قائلين:

- لقد افتقدنا الله بنبيه، فإن الله أرسل لنا نبياً عظيماً.

ومع مغيب شمس هذا اليوم الحافل بالأحداث وحلول الظلام. مؤذناً بانقضاء يوم آخر من أيام الدعوة، اجتمع عليه السلام بحوارييه في جلسة خاصة ليطلعهم على سر ظل يكتمه عنهم انتظاراً للوقت المناسب وها هي أحداث الأيام الماضية تحتم عليه البوح به والكشف عنه، فقال لهم وهم جلوس في منزل والدته:

- الحق أقول لكم إن الشيطان يريد أن يغربلكم كالحنطة ولكني توسلت إلى الله لأجلكم فلا يهلك منكم إلا الذي يلقي الحبائل لي.

ولعل برنابا هو وحده الذي وعى بعمق مغزى عبارته فعلق عليها في إنجيله بقوله:

«وهو إنما قال هذا عن يهوذا لأن الملاك جبريل قال له كيف كانت ليهوذا يد مع الكهنة وأخبرهم بكل ما تكلم به يسوع»[١].

وبرنابا أيضاً هو وحده الذي كان يعلم نهاية عيسى وبعد محاولات للقبض عليه ومحاكمته، أما من الذي سيشترك في مؤامرة تسليمه فهو لا يدري عنه شيئاً، ولأجل ذلك اقترب منه وسأله وعيناه تترقرق بالدموع خوفاً على نفسه وإخواته.

- يا معلم قل لي من هو الذي يسلمك.

فرد عليه معلمه:

- يا برنابا ليست هذه الساعة هي التي تعرفه فيها، ولكن يعلن الشرير نفسه قريباً لأني سأنصرف عن العالم.

عندئذ بكى الحواريون بحرقة لمجرد تصورهم مفارقة معلمهم وما يترتب على الفراق من الآلام لا تطاق، فقالوا له:

- يا معلم لماذا تتركنا، لأن الأحرى بنا أن نموت من أن تتركنا.

فأجابهم عليه السلام:

- لا تضطرب قلوبكم ولا تخافوا لأني لست أنا خلقتكم بل الله الذي خلقكم يحميكم، أما من خصوصي فإني قد أتيت لأهيىء الطريق لرسول الله الذي سيأتي بخلاص للعالم، ولكن احذروا أن تُغَشوا

---

(١) إنجيل برنابا ص١٠٩ ـ ١١٠.

لأنه سيأتي أنبياء كذبة كثيرون يأخذون كلامي وينجسون إنجيلي.

إن عيسى بإجابته تلك قد وضع أمام حوارييه وبوضوح تام غاية بعثته ونبوته. وحصرها على نحو أدق في كونه قد بعث خصيصاً ليبشر برسول الله الذي سيأتي من بعده، أي أنه جاء أصلاً كي يمهد الطريق لمبعث الرسول الخاتم، ولأن الحواريين لهم خلفية واسعة وعريضة عن مبعث رسول الله فلم يعسر عليهم فهم كلامه أو يستغربونه، بل بادره الحواري إندراوس بالسؤال:

- يا معلم اذكر لنا علامة لنعرفه.

فرد عليه ببيان مختصر عن خصائص رسول الله وطبيعة بعثته قائلاً:

- إنه لا يأتي في زمنكم بل يأتي بعدكم بعدة سنين حينما يبطل إنجيلي، ولا يكاد يوجد ثلاثون مؤمناً. في ذلك الوقت يرحم الله العالم فيرسل رسوله الذي تستقر على رأسه غمامة بيضاء يعرفه كل مختاري الله، وهو سيظهره للعالم، وسيأتي بقوة عظيمة على الفجار ويبيد عبادة الأصنام من العالم، وأني أسر بذلك لأنه بواسطته سيعلن ويمجد الله ويظهر صدقي، وسينتقم من الذين سيقولون إني أكبر من إنسان. الحق أقول لكم إن القمر سيعطيه رقاداً في صباه ومتى كبر هو أخذه على كفيه. فليحذر العالم أن ينبذه لأنه سيفتك بعبدة الأصنام، فإن موسى عبدالله قتل أكثر من ذلك كثيراً، ولم يبق جوشوا على المدن التي أحرقوها وقتلوا الأطفال، لأن القرحة المزمنة يستعمل لها الكي.

وسيجيء بحق أجلي من سائر الأنبياء، وسيوبخ من لا يحسن السلوك في العالم وستحي طرباً أبراج مدينة آبائنا بعضها بعضاً، فمتى شوهد سقوط عبادة الأصنام إلى الأرض، واعترف بأني بشر كسائر البشر فالحق أقول لكم أن نبي الله حينئذ يأتي.

وإذا حاول الشيطان أن يعرف هل أنتم أخلاء الله وتمكن من بلوغ مأربه منكم فإنه يسمح لكم أن تسيروا بحسب أهوائكم إذ لا يهاجم أحد

مدنه، ولكن لما كان يعلم إنكم أعداؤه فسيستعمل كل عنف ليهلككم، ولكن لا تخافوا فإنه سيقاومكم ككلب مربوط لأن الله قد سمع صلاتي.

وعلى الرغم من أن هذه الجلسة ليست كسابقاتها، إذا أسرَّ فيها لحوارييه بأمر له علاقة مباشرة بمستقبل الدعوة والداعية، ولكنها ككل تلك الجلسات تحولت إلى حلقة تعليمية. فعندما أدرك الحواريون مكائد الشيطان ومحاولاته الدؤوبة للإيقاع بهم وفتنتهم عن دينهم ونبيهم سأل يوحنا معلمه عن الكيفية التي يوسوس بها الشيطان قائلاً:

- يا معلم كيف يقف الشيطان بالمرصاد للإنسان، ليس لأجلنا نحن فقط، بل لأجل الذين سيؤمنون بالإنجيل أيضاً.

أجاب عيسى على الفور:

«إن ذلك الشرير يجرب بأربع طرق:

- الأولى عندما يجرب هو نفسه بالأفكار.

- والثانية عندما يجرب بالكلام والأعمال بواسطة خدمه.

- والثالثة عندما يجرب بالتعليم الكاذب.

- والرابعة عندما يجرب بالتخييل الكاذب.

إذا يجب على البشر أن يحذروا ولا سيما لأن له عوناً من جسد الإنسان الذي يحب الخطيئة كما يحب المحموم الماء، وإذا خاف الإنسان الله انتصر على كل شيء كما يقول داود نبيه:

- سيسلمك الله إلى عناية ملائكته الذين يحفظون طرقك لكيلا يعثرك الشيطان، يسقط ألف على شمالك، وعشرة آلاف عن يمينك لكيلا يقربوك.

ووعد أيضاً إلٰهنا بمحبة عظيمة على لسان داود أن يحفظنا قائلاً:

- إني امنحك فهماً يثقفك وكيفما سلكت في طرقك اجعل عيني تقع عليك.

ولكن ماذا أقول، لقد قال على لسان أشعيا:

- أتنسى الأم طفل رحمها، ولكن أقول لك إن هي نسيت فإني لا أنساك.

إذا قولوا لي من يخاف الشيطان إذا كانت الملائكة حُراسه والله الحي حاميه، ومع ذلك فمن الضروري كما يقول النبي سليمان أن:

- تستعد أنت يا بني الذي صرت تخاف الله للتجارب.

الحق أقول لكم إنه على الإنسان أن يحتذي مثال الصيرفي الذي يتحرى النقود ممتحناً أفكاره لكيلا يخطىء إلى خالقه. كان ولا يزال في العالم قوم لا يبالون بالخطيئة وإنما هم على أعظم ضلال، قولوا لي كيف أخطأ الشيطان، إنه أخطأ لمجرد الفكر بأنه أعظم شأناً من الإنسان، وأخطأ سليمان لأنه فكر في أن يدعو كل خلائق الله لوليمة، فأصلحت خطأه سمكة إذ أكلت كل ما كان قد هيأه، لذلك لم يكن بلا باعث ما يقول داود أبونا:

- استعلاء الإنسان في نفسه يهبط به في وادي الدموع.

لذلك ينادي الله على لسان أشعيا نبيه قائلاً:

- ابعدوا أفكاركم الشريرة عن عيني.

ولأي غاية يرمي سليمان إذ يقول:

- احفظ قلبك كل الحفظ.

لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته ينال كل شيء في الأفكار الشريرة التي تكون باعثاً على ارتكاب الخطيئة، لأنه لا يمكن ارتكاب الخطيئة بدون فكر، ألا قولوا لي متى غرس الزارع الكرم؟ ألا يزرع النبات على عمق غائر؟ بل وهكذا يفعل الشيطان الذي إذا زرع الخطيئة لا يقف عند العين أو الأذن، بل يتعدى إلى القلب الذي هو مستقر الله، كما تكلم على لسان موسى عبده قائلاً:

- إني أسكن فيهم ليسّيروا على شريعتي.

ألا قولوا لي إذا عهد إليكم هيرودتس الملك لتحفظوا بيتاً ود سكانه أتبيحون لبلاطس عدوه أن يدخله أو يضع أمتعته فيه؟ كلا ثم كلا، فبالحري يجب عليكم ألا تبيحوا للشيطان أن يدخل قلوبكم أو يضع أفكاره فيها، لأن الله أعطاكم قلبكم لتحفظوه وهو مسكنه، لاحظوا إذاً كيف أن الصيرفي ينظر إلى النقود هل صورة قيصر صحيحة وهل الفضة صحيحة أم كاذبة، وهل هي من العيار المعهود، لذلك يقلبها كثيراً في يده.

أيها العالم المجنون ما أحكمك في شغلك حتى إنك في اليوم الأخير توبخ على عباد الله بالإهمال والتهاون لأن عبادك دون ريب أحكم من عباد الله، قولوا لي إذاً من يمتحن فكراً كما يمتحن الصيرفي قطعة نقود فضية، لا أحد مطلقاً»(١).

ولما كان السؤال الأخير هو آخر ما فاه به عيسى عن مخاطر وساوس الشيطان، بدا للحواريين غامضاً، إذ لا علاقة ولا مناسبة بالفكر كشيء معقول وبين الفضة كشيء مادي محسوس. فسأله يعقوب:

- يا معلم كيف يكون امتحان الفكر شبيهاً بامتحان قطعة نقود؟

فأجابه:

- إن الفضة الجيدة من الفكر إنما هي التقوى، لأن كل فكر عار من التقوى يأتي من الشيطان. والصورة الصحيحة إنما هي قدوة الأطهار والأنبياء التي يجب اتباعها، وزنة الفكر إنما هي محبة الله التي يجب أن يعمل بموجبها كل شيء.

أما برتولوماوس فبعد إيضاح معلمه عن أهمية أعمال العقل في اختيار وغربلة الأمور للفصل بين الحسن والقبيح. والطيب والخبيث، فقد أراد هو الآخر أن يعلمهم الكيفية التي تمكنهم من التفكير الصحيح والنظر السديد، فقال:

---

(١) إنجيل برنابا ص١١٢ ـ ١١٤.

- يا معلم كيف نفكر قليلاً حتى لا نقع في التجربة.

أجابه معلمه بلا إبطاء وكأنه على موعد مع هذا السؤال:

«يلزمكم شيئان:

الأول: أن تتمرنوا كثيراً.

والثاني: أن تتكلموا قليلاً.

لأن الكسل مرحاض يتجمع فيه كل منكر نجس، والإكثار من التكلم إسفنجة تلتقط الآثام، فيلزم ألا يكون عملكم قاصراً على تشغيل الجسد فقط، بل يجب أن تكون النفس أيضاً مشتغلة بالصلاة، لأنه يجب ألا تنقطع الصلاة أبداً، إني أضرب لكم مثلاً:

كان رجل سيىء الأداء فلذلك لم يقبل أحد من الذين يعرفونه أن يحرث حقوله. فقال قول الشرير: إني أذهب إلى السوق لأجد قوماً كسالى بطالين فيجيئون ليحرثوا كرمي، فخرج هذا الرجل من بيته ووجد كثيرين من الغرباء البطالين المفاليس، فكلم هؤلاء وقادهم إلى كرمه، أما الذين كانوا قد عرفوه واشتغلوا معه قليلاً، فلم يذهب منهم أحد إلى هناك.

فالذي يسيء الأداء هو الشيطان، لأنه يعطي شغلاً فيكون جزاء الإنسان في خدمته النيران الأبدية، فهو لذلك قد خرج من الجنة ويجول باحثاً عن فعلة، وهو إنما يأخذ لعمله الكسالى أياً كانوا وعلى الخصوص الذين لا يصرفونه ولا يكفي مطلقاً للهرب من الشر أن يعرفه الإنسان لينجو منه بل يجب فعل الصالحات للتغلب عليه.

إني أضرب لكم مثلاً آخر:

كان لرجل ثلاثة كروم أجرها لثلاثة كرامين، ولما لم يعرف الأول كيف يحرث الكرم لم يخرج سوى أوراق، أما الثاني فعلّم الثالث كيف يجب أن تحرث الكروم، فأصغى لكلماته وحرث كرمه كما أرشده فأتى كرم الثالث بثمر كثير، ولكن الثاني أهمل حراثة كرمه صارفاً وقته في التكلم فقط، فلما حان الوقت لدفع الأجرة لصاحب الكرم قال الأول يا سيد: إني

لا أعرف كيف يحرث كرمك لذلك لم يكن لي ثمر هذه السنة، فأجاب السيد: يا غبي هل تسكن العالم وحدك حتى إنك لم تستشر كرامي الثاني الذي يعرف جيداً كيف تحرث الأرض، فيحتِّم عليك أداء حقي.

ولما قال هذا حكم عليه بالاشتغال في السجن إلى أن يدفع لسيده الذي رحم غرارته فأطلقه قائلاً: انصرف فإني لا أريد أن تشتغل بعد في كرمي ويكفيك أن أعطيك دينك، وجاء الثاني الذي قال له السيد: مرحباً بكرامي، أين الثمار التي أنت مديون لي بها، ومن المؤكد أنك لما كنت تعلم جيداً كيف تهذب الكرم، فلا بد أن يكون الكرم الذي أجرتك إياه قد أتى بثمار كثيرة.

فأجاب الثاني:

يا سيد إن كرمك أخذ في الانحطاط لأني لم أشذب الشجر ولا حرثت الأرض. والكرم لم يأت بثمر فلذلك لا أقدر أن أدفع لك.

ثم دعا السيد الثالث وقال له مذهولاً:

لقد قلت لي أن هذا الرجل الذي أجرته الكرم الثاني قد أتم تعليمك في حراثة الكرم الذي أجرتك إياه فكيف يمكن ألا يأتي الكرم الذي أجرته إياه بثمر مع أن التربة واحدة.

أجاب الثالث:

يا سيد إن الكرم لا يحرث بالكلام فقط، بل على من يريد استئجاره أن ينضح منه كل يوم عرق قميص، وكيف يأتي أيها السيد كرم كرامك بثمر وهو لا يفعل سوى إضاعة الوقت بالكلام، ولا ريب أيها السيد في أنه لو عمل كما قال لأعطاك أجرة لخمس سنين، لأني أنا الذي أقدر على الكلام كثيراً أعطيتك أجرة سنتين.

فحنق السيد وقال للكرام بازدراء:

- إذاً أنت قد عملت عملاً عظيماً بعدم زبر الأشجار وتمهيد الكرم، فلك إذاً عليّ جزاء عظيم. ثم دعا خدمه وأمر بضربه بدون رحمة،

ثم وضعه في السجن تحت سيطرة خادم جاف كان يضربه كل يوم، ولم يرد مطلقاً أن يطلقه لأجل شفاعة أصدقائه، الحق أقول لكم إن كثيرين سيقولون لله يوم القيامة:

- يا رب لقد بشرنا وعلمنا بشريعتك.

ولكن الحجارة نفسها ستصرخ ضدهم قائلة:

- لما كنتم قد بشرتم الآخرين فبلسانكم قد أدنتم أنفسكم يا فاعلي الإثم.

لعمر الله إن من يعرف الحق ويفعل عكسه يعاقب عقاباً أليماً حتى تكاد الشياطين ترثي له، ألا قولوا لي للعلم أم للعمل أعطانا الله الشريعة؟ الحق أقول لكم إن غاية كل علم هي تلك الحكمة التي تفعل كل ما تعلم.

قولوا لي إذا كان أحد جالساً على المائدة ورأى بعينيه طعاماً شهياً ولكنه اختار بيديه أشياء قذرة فأكلها ألا يكون مجنوناً؟ نعم، فإذا إنك أشد جنوناً من كل المجانين أيها الإنسان الذي تعرف السماء بإدراكك وتختار الأرض بيديك، الذي تعرف الله بإدراكك وتشتهي الدنيا بهواك، الذي تعرف ملذات الجنة بإدراكك وتختار بأعمالك شقاء الجحيم، إنك لجندي باسل يا من تنبذ الحسام وتحمل الغمد لتحارب.

ألا تعلمون أن من يسير في الظلام يشتهي النور لا ليراه فقط، بل ليرى الصراط المستقيم فيسير آمناً إلى الفندق. ما أشقاك أيها العالم الذي يحب أن يحتقر ويمقت ألف مرة لأن إلهنا أراد دائماً أن يمنحه معرفة الصراط بواسطة أنبيائه الأطهار ليسير إلى وطنه وراحته، ولكنك أيها الشرير لم تمتنع عن الذهاب فقط بل فعلت ما هو شر من ذلك، احتقرت النور، لقد صح مثل الجهل أنه لا يرغب أن يشرب من الماء الصافي لأنه لا يريد أن ينظر إلى وجهه القبيح، هكذا يفعل الصالح الذي يفعل الشر، لأنه يكره النور لئلا تعرف أعماله، أما ومن يؤتى حكمة ولا يكتفي بأن يفعل حسناً بل يفعل شراً من ذلك بأن يستخدمها للشر فإنما يشبه من يستعمل الهبات أدوات لقتل الواهب.

الحق أقول لكم إن الله لم يشفق على سقوط الشيطان ومع ذلك فقد أشفق على سقوط آدم، وكفاكم أن تعرفوا سوء حال من يعرف الخير ويفعل الشر»[1].

وأما إندراوس فقد بدأ له من تعبير عيسى لسقوط ذوي الحجى والنهى في حبائل الشيطان، واقترافهم الذنوب والمعاصي عند إدراك ودراية كما لو كان العلم عديم النفع والفائدة، إذ لم يحول بينهم وبين التردي في المهالك، فسأل:

- يا معلم يحسن أن يُنبذ العلم خوفاً من السقوط في مثل هذه الحالة.

فرد عليه عيسى:

- إذا كان العالم حسناً بدون الشمس والإنسان بدون عينيين والنفس بدون إدراك يكون عدم المعرفة إذاً حسناً، الحق أقول لكم أن الخبز لا يفيد الحياة الزمنية كما يفيد العلم الحياة الأبدية؟ ألا تعلمون أن الله أمر بالعلم لأنه هكذا يقول الله:

- اسأل شيوخك يعلموك.

ويقول عن الشريعة:

- اجعل وصيتي أمام عينيك بها حين تجلس وحين تمشي، وفي كل حين، فيمكنكم أن تعملوا إذا كان عدم العلم حسناً، إن من يحتقر الحكمة لشقي لأن لا بد أن يخسر الحياة الأبدية.

فإذا كان العلم من شأنه أن يؤدي إلى الحكمة فيرفع بالتالي من قيمة الإنسان ويعلي منزلته بين الناس، فهو محصور في نطاق العلم الذي يلقن بالدرس والكتابة، ومن هنا تذكر يعقوب أن هناك من الأنبياء في حكم

---

(١) إنجيل برنابا ص١١٥ ـ ١١٩.

الأميين الجاهلون للقراءة والكتابة، ولكنهم علماء، عقولهم وقلوبهم عامرة بالحكمة وسداد الرأي، لأجل ذلك سأله مستفسراً:

- يا معلم نعلم أن أيوب لم يتعلم من معلم ولا إبراهيم ومع هذا فقد كانا طاهرين ونبيين.

فأجابه:

- الحق أقول أن ما كان من أهل العروس لا يدعى إلى العرس لأنه يسكن البيت الذي فيه العرس، بل يدعى البعيدون عن البيت، أفلا تعلمون أن أنبياء الله هم في بيت نعمة الله ورحمته، شريعة الله ظاهرة فيهم كما يقول داود أبونا في هذا الموضوع:

- إن شريعة إلهه في قلبه فلا يُحفر طريقه.

الحق أقول لكم أن إلٰهنا لما خلق الإنسان لم يخلقه باراً فقط بل وضع في قلبه نوراً يريه أنه خليق به عبادة الله، فلئن أظلم هذا النور بعد الخطيئة فهو لا ينطفىء، لأن لكل أمة هذه الرغبة في عبادة الله مع أنهم قد فقدوا الله وعبدوا آلهة باطلة وكاذبة لذلك وجب أن يعلم عن أنبياء الله لأن النور الذي يعلمهم طريق الذهاب إلى الجنة وطننا بعبادة الله واضح، كما يجب أن يقاد ويداوي من في عينيه رمد.

ولما تبين ليعقوب أن علم الأنبياء من نوع آخر لا يستفاد أو يؤخذ بالتعلم والدرس، وهو لغيرهم كالنور الذي يستضاء به من ظلمة الدنيا وأهواء النفس، عاد مرة أخرى ليسأله عن الكيفية التي ينتقل بها هذا النور بعد موتهم، وخاصة أولئك الذين لا سابق معرفة لهم بالأنبياء قائلاً:

- وكيف يعلمنا الأنبياء وهم أموات، وكيف يعلم من لا معرفة له بالأنبياء؟

رد عليه عيسى بقوله:

«إن تعليمهم مدون فتجب مطالعته لأن الكتابة بمثابة نبي لك، الحق أقول لك أن من يمتهن النبوة لا يمتهن النبي فقط، بل يمتهن الله الذي

أرسل النبي أيضاً، أما ما يختص بالأمم الذين لا يعرفون النبي فإني أقول لكم أنه إذا عاش في تلك الأقطار رجل يعيش كما يوحي إليه قلبه غير فاعل للآخرين ما لا يود أن يناله من الآخرين معطياً لقريبه ما يود أخذه من الآخرين فلا تتخلى رحمة الله عن مثل هذا الرجل، فلذلك يظهر له الله ويمنحه برحمته شريعته عند الموت إن لم يكن قبل ذلك.

ولعله يخطر في بالكم أن الله أعطى الشريعة حباً في الشريعة، حقاً إن هذا لباطل بل منح الله شريعته ليفعل الإنسان حسناً حباً في الله، فإذا وجد الله إنساناً يفعل حسناً حباً له، أفتظنون أنه يمتهنه، كلا ثم كلا، بل يحبه أكثر من الذين أعطاهم الشريعة، إني أضرب لكم مثلاً:

كان لرجل أملاك كثيرة، وكان من أملاكه أرض قاحلة لم تنبت إلا أشياء لا ثمر لها، وبينما كان سائراً ذات يوم وسط هذه الأرض القاحلة عثر بين النباتات غير المثمرة على نبات ذي ثمار شهية، فقال هذا الإنسان حينئذ:

- كيف تأتّى لهذا النبات أن يحمل هذه الثمار الشهية هنا، إني لا أريد أن يقطع ويوضع في النار مع البقية.

ثم دعا خدمه وأمرهم بقلعه ووضعه في بستانه، إني أقول لكم هكذا يحفظ إلهنا من لهب الجحيم من يفعلون خيراً وبراً أينما كانوا.

قولوا لي أسكن أيوب في غير أرض عوص بين عبدة الأصنام؟ وكيف يكتب موسى عن زمن الطوفان؟ قولوا لي أنه يقول:

- إن نوحاً وجد نعمة أمام الله.

كان لأبينا إبراهيم أب لا إيمان له لأنه كان يصنع ويعبد الأصنام الباطلة وسكن لوط بين شر ناس على الأرض، ولقد أخذ نبوخذنصر دانيال أسيراً وهو طفل مع حنينا وعزرا وميشائيل الذين لم يكن لهم سوى سنتين من العمر لما أسروا وربوا بين جمع من الخدم عبدة الأصنام.

لعمر الله إن النار كما تحرق الأشياء اليابسة وتحولها ناراً بدون تمييز

بين الزيتون والسرو والنخل هكذا يرحم إلهنا كل من يفعل براً غير مميز بين اليهودي والسكيثي واليوناني والعربي، ولكن لا يقف قلبك هناك يا يعقوب، لأنه حيث أرسل الله النبي ترتب عليك حتماً أن تنكر حكمك وتتبع النبي لا أن تقول:

- لماذا يقول هذه، لماذا يأمر وينهي.

بل قل هكذا يريد الله، وهكذا يأمر الله، ألا ماذا قال الله لموسى لما امتهن إسرائيل موسى:

- إنهم لم يمتهونك ولكنهم امتهنوني أنا.

الحق أقول لكم أنه لا يجب على الإنسان أن يصرف زمن حياته في تعلّم التكلم والقراءة، بل في تعلّم كيف يشتغل جيداً، ألا قولوا أي خادم لهيرودتس لا يحاول مرضاته بأن يخدمه بكل جد، ويل للعالم الذي يحاول أن يرضي جسداً ليس سوى طين وسرقين، ويحاول أن ينسى عبادة الله الذي خلق كل شيء، المجيد إلى الأبد.

قولوا لي أتحسب خطيئة عظيمة على الكتبة إذا أوقعوا على الأرض تابوت شهادة الله وهم يحملونه؟

ارتجف الحواريون لسماعهم هذا وذلك لأن الله قد قتل عُزّة للمسه تابوت الله خطأ، فقالوا بصوت واحد:

- إنها لخطيئة كبرى.

حينئذ قال لهم:

- لعمر الله إن نيسان كلمة الله التي بها خلق كل الأشياء والتي بها يقدم لك الحياة الأبدية لخطيئة كبرى.

عند هذا الحد توقف عيسى عن الدرس للصلاة، وبعد الصلاة أخبر حوارييه بما سوف يفعلونه صبيحة الغد قائلاً:

- لا يجب أن نعبر غداً إلى السامرة لأنه هكذا قال لي ملاك الله القدوس.

لا يقصد عيسى بقوله هذا ألا يعبروا السامرة فعلاً، لأنهم إذا كانت وجهتهم منطقة اليهودية فلا محالة من اجتيازهم بلاد السامرة. مما يدل على أن أمر الله له إنما هو من قبيل تحذيرهم من الاحتكاك المباشر وغير المباشر بالسامريين، ولأجل هذا نهضوا مبكرين في الصباح، ومروا بأقليم السامرة متجنبين قدر الإمكان عدم المرور على مناطقهم المألوهة بالسكان، ولما بلغوا مدينة سوخار كان السير المتواصل لعدة ساعات قد أنهك وهد قواهم، فلجأوا إلى ضيعة كان يعقوب قد وهبها لابنه يوسف، وكان بالضيعة بئر تعرف ببئر يعقوب، وهي التي جلس بجانبها عيسى من شدة التعب والإعياء. ثم أرسل حوارييه عدا برنابا إلى سوخار ليبتاعوا طعاماً.

وبينما هو جالس على حجر وإلى جواره برنابا، إذا بامرأة سامرية جاءت حاملة جرة كي تستقي ماء، فبادرها عليه السلام بالكلام قائلاً:

- أعطني لأشرب.

أدركت السامرية من سيماء عيسى وملامح وجهه أن الذي يكلمها يهودي، واليهود لا يتعاملون مع السامريين فقالت باستغراب:

- ألا تخجل وأنت عبراني أن تطلب مني شربة وأنا امرأة سامرية.

فرد عليها:

- أيتها المرأة لو كنت تعلمين من يطلب منك شربة ماء لطلبت أنت منه شربة.

فقالت له:

- وكيف تعطيني لأشرب ولا دلو معك ولا حبل لتجذب به الماء والبئر عميقة، ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر وشرب منها هو وبنوه ومواشيه.

فرد عليها:

- أيتها المرأة من يشرب من ماء هذه البئر يعاوده العطش أما من

يشرب من الماء الذي أعطيه فلا يعطش أبداً، بل يعطي العطاش ليشربوا، بحيث يصلون إلى الحياة الأبدية.

فطمعت المرأة السامرية في الارتواء من هذا الماء الذي يتحول الشرب منه إلى ينبوع لا ينضب، فقالت:

- يا سيد أعطني من مائك هذا كي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقي.

فقال لها:

- اذهبي وادعي زوجك وإياكما أعطي لتشربا معاً.

فأجابته السامرية:

- ليس لي زوج.

فقال لها عندئذ:

- حسناً قلت الحق ليس لي زوج، لأنه كان لك خمسة أزواج والذي معك الآن ليس هو زوجك.

فاضطربت المرأة لدى مكاشفتها بهذه الحقائق المكنونة، واختل توازنها حتى فقدت من هول المفاجأة قدرتها على التفكير، ولما استعادت وعيها وتماسكت قواها لم تشك لحظة في أن الذي يكلمها نبي يوحى إليه، فقالت بلا تردد:

- يا سيد أرى بهذا أنك نبي، لذلك أضرع إليك أن تخبرني: إن العبرانيين يصلون على جبل صهيون في الهيكل الذي بناه سليمان في أورشليم ويقولون إن نعمة الله ورحمته توجد هناك لا في موضع آخر، أما قومنا فإنهم يسجدون على هذه الجبال ويقولون إن السجود إنما يجب أن يكون على جبال السامرة فقط، فمن هم الساجدون الحقيقيون؟

تنهد عيسى حتى دمعت عيناه من سعة فهم المرأة وقوة إيمانها ومن تردي حالة قومه وتنكبهم طريق الحق، فقال وكأنه يفضفض عما يجيش في نفسه من آلام وأحزان لأحد ما يقف هناك مستمعاً إليه.

- ويل لك يا بلاد اليهودية لأنك تفخرين قائلة: هيكل الرب هيكل الرب، وتعيشين كأنه لا إله منغمسة في الملذات ومكاسب الدنيا، فإن هذه المرأة تحكم عليك بالجحيم في يوم الدين، لأن هذه المرأة تطلب أن تعرف كيف تجد نعمة ورحمة عند الله.

ثم التفت إلى السامرية مجيباً على سؤالها:

- أيتها المرأة إنكم السامريين تسجدون لما لا تعرفون أما نحن العبرانيين فنسجد لما نعرف، الحق أقول لك إن الله روح وحق ويجب أن يسجد له بالروح والحق لأن عهد الله إنما أخذ من أورشليم في هيكل سليمان لا في موضع آخر، ولكن صدقيني أنه يأتي وقت يعطي الله فيه رحمته في مدينة أخرى، ويمكن السجود له في كل مكان بالحق، ويقبل الله الصلاة الحقيقية في كل مكان برحمته.

وأياً ما كان وجه المقارنة بين الفريقين، فإن الجميع سيأتي عليهم وقت يتخلون فيه عن كل ما عهدوه، واتباع صاحب القبلة الجديدة والمدينة الجديدة، ومن هنا علقت المرأة على كلامه مسلمة له بانحراف الجميع عن جادة الحق، وانتظار الجميع لصاحب الدين الحق، حيث قالت:

- إننا ننتظر المسيا رسول الله، فمتى جاء يعلمنا ويخبرنا بكل شيء.

تعجب عيسى من تسليم المرأة ويقينها وإيمانها بمبعث رسول الله الذي سيكون على يديه الهداية والرشاد، فقال لها كالمستغرب:

- أتعلمين أيتها المرأة أن مسيا رسول الله لا بد أن يأتي؟

أجابته على سؤاله بثقة ويقين وثبات:

ـ نعم يا سيد.

عندئذ أشرق وجهه وتلألأ من إجابتها الدالة على اعتقاد راسخ لا يتزحزح، فقال لها:

ـ يلوح لي أيتها المرأة أنك مؤمنة، فاعلمي إذاً أنه بالإيمان برسول الله سيخلص كل مختاري الله، إذا وجب عليك أن تعرفي مجيء رسول الله.

فطنت المرأة إلى أن نصحه لها عن وجوب معرفتها بمجيء رسول الله فيه إيحاء بأن الذي يكلمها هو رسول الله، فسألته طامعة في إجابة شافية، ومشفقة من إجابة مخيبة لرجائها:

ـ لعلك أنت رسول الله أيها السيد.

فرد عليها رداً شافياً وضع فيه أمر المسيا المنتظر في محله الطبيعي حيث قال:

ـ إني حقاً أرسلت إلى بيت إسرائيل نبي خلاص، ولكن سيأتي مسيا المرسل من الله لكل العالم الذي لأجله خلق الله العالم، وحينئذ يسجد لله في كل العالم، وتنال رحمة حتى أن سنة اليوبيل التي تجيء الآن كل مئة سنة سيجعلها رسول الله كل سنة في كل مكان.

وعند ذلك جاء الحواريون ورأوا معلمهم مع المرأة وبرنابا، فتعجبوا، ولكنهم لم يتفوهوا بشيء، أما المرأة فبمجرد وصولهم تركت جرتها وأسرعت الخطى نحو المدينة، ولما اختلوا بمعلمهم دعوه للأكل قائلين:

ـ يا معلم تعال وكل.

لبث معلمهم في مكانه على الحجر بلا حراك ولكنه رد عليهم.

ـ يجب أن آكل طعاماً آخر.

ظن الحواريون لأول وهلة أن معلمهم ربما قد طلب من أحد المسافرين ليبتاع له طعاماً في غيبتهم، أو لعل أحد ما قد أتاه بشيء فأكله لذلك سألوا برنابا:

- هل كان هنا أحد كان يمكنه أن يحضر طعاماً للمعلم يا برنابا فأجابهم:

- لم يكن هنا أحد خلا المرأة التي رأيتموها أحضرت هذه الجرة الفارغة لتملأها ماء.

زاد تأكيد برنابا من حيرتهم وعدم اهتدائهم إلى أسباب مقنعة بهذا التغير المفاجيء الذي طرأ على معلمهم وعزوفه الغريب عن الأكل رغم تعبه وحاجته إليه، ولكنهم احترموا رغبته وآثروا تعبهم على راحته، حتى يكشف مكنون دواخله فتزيح عن نفوسهم التردد والحيرة، وكالعادة لم يخيب عيسى آمالهم، فسرعان ما أفضى إليهم بحقيقة الأمر كله قائلاً:

- إنكم لا تعلمون أن الطعام الحقيقي هو عمل مشيئة الله، لأنه ليس الخبز الذي يقيت الإنسان ويعطيه الحياة، بل بالحري كلمة الله بإرادته، فلهذا السبب لا تأكل الملائكة الأطهار، بل يعيشون ويتغذون بإرادة الله، وهكذا نحن وموسى وإيليا لبثنا أربعين يوماً وأربعين ليلة بدون شيء من الطعام.

توقف عيسى لبرهة وجيزة عن الحديث مجيلاً النظر هنا وهناك ثم سأل:

- متى يكون الحصاد.

استغرب الحواريون من انتقال معلمهم من موضوع إلى آخر بلا مناسبة تقتضيه ولكنهم أجابوه بلا تردد:

- بعد ثلاثة أشهر.

عندئذ أزال استغرابهم بقوله وهو يشير بأصبعه تجاه مدينة سوخار:

- انظروا الآن كيف أن الجبال بيضاء بالحبوب، الحق أقول لكم أنه يوجد اليوم حصاد عظيم يُجنى.

تحول الحواريون مع إشارة عيسى وكلامه تجاه المدينة فإذا بهم يرون جماً غفيراً من الناس يغلب على ملابسهم البياض قدموا من المدينة ليروه، لأن السامرية لما دخلت مسرعة أخبرت كل من صادفها بمبعث نبي جديد مرسل من عند الله إلى بيت إسرائيل، وقصت عليهم ما سمعته منه، فاشتاق الجميع إلى رؤية النبي المرسل والتبرك بلقياه، فلما تحقق لهم المأمول وتحدثوا إليه، رغبوا أن يمكث معهم، فاستجاب عيسى لرغبتهم ودخل المدينة في معيتهم حيث قضى يومين كاملين، شافياً كل المرضى ومعلماً الناس طبيعة دعوته ورسالته، ومبشراً بدين جديد ورسولاً جديداً، ومخلصاً يؤمنون به ويتوقعون ظهوره.

وفي الليلة الأولى التي قضاها عيسى في المدينة السامرية وبعد أداءهم لصلاة نصف الليل تحدث إلى حوارييه عن هذه الليلة بالذات دون غيرها من الليالي قائلاً:

- ستكون هذه الليلة في زمن مسيا رسول الله اليوبيل السنوي الذي يجيء الآن كل مئة سنة لذلك لا أريد أن ننام بل أن نصلي محنين رأسنا مئة مرة ساجدين لإلهنا القدير الرحيم المبارك إلى الأبد، ولنقل كل مرة:

أعترف بأن إلهنا الأحد الذي ليس لك من بداية ولا يكون لك من نهاية لأنك برحمتك أعطيت كل الأشياء بدايتها، وستعطي بعدلك الكل نهاية لا شبه لك بين البشر، لأنك بجودك غير المتناهي لست عرضة للحركة ولا لعارض، ارحمنا لأنك خلقتنا ونحن عمل يدك.

إن تخصيص عيسى هذه الليلة بالصلاة والذكر دون غيرها من الليالي يعود إلى أنها ليلة تقدير الأمور وقضاءها، وفيها من المصالح الدينية والدنيوية ما لا يوجد في سائر الليالي، وهي الليلة المعروفة في الإسلام

بليلة القدر، وكانت قبل مبعث محمد رسول الله وإلى أول الزمان بالنبوة تجيء مرة واحدة على رأس كل مئة سنة، وفي زمانه ﷺ تجيء مرة واحدة كل سنة تشريفاً وتفضيلاً لمحمد وأمته، وصادف مجيئها هذه المرة وبعد مرور مئة سنة على آخر مرة حلت فيها في شهر رمضان من أواخر العام الثاني لمبعث عيسى وهم في المدينة السامرية، فصلى عيسى وحواريوه كما لو لم يصلوا من قبل ليحظوا ببركاتها وخيرها، وبعد الصلاة قال لهم.

- لنشكر الله لأنه وهبنا هذه الليلة رحمة عظيمة، لأنه أعاد الزمن الذي يلزم أن يمر في هذه الليلة إذ قد صلينا بالاتحاد مع رسول الله، وقد سمعت صوته.

ولما سمع الحواريون هذه البشرى السعيدة واشتراكهم في الصلاة مع رسول الله، أشرقت وجوههم بالبشر والسرور فقالوا له:

- ما معلم علمنا شيئاً من الوصايا هذه الليلة.

فمهد عيسى لموعظته ووصاياه بقوله:

- هل رأيتم مرة ما البراز ممزوجاً بالبلسم.

استفظع الحواريون ذلك الجمع بين المتناقضات فأجابوه منكرين:

- لا يا سيد لأنه لا يوجد مجنون يفعل هذا.

عندئذ أجابهم بشيء من الحدة والحماس عمن هم أشد جنوناً ممن يمزج الخبيث بالطيب:

- إني مخبركم الآن أنه يوجد في العالم من هم أشد جنوناً من ذلك، لأنهم يمزجون عبادة الله بعبادة الدنيا، حتى أن كثيرين من الذين يعيشون بلا لوم قد خدعوا من الشيطان، وبينما هم يصلون مزجوا بصلاتهم المشاغل الدنيوية، فأصبحوا في ذلك ممقوتين في نظر الله، قولوا لي أتحذرون متى اغتسلتم للصلاة من أن يمسكم شيء نجس، نعم بكل تأكيد ولكن ماذا تفعلون عندما تصلون، إنكم تغسلون أنفسكم من الخطايا بواسطة رحمة الله، أتريدون إذا وأنتم

تصلون أن تتكلموا عن الأشياء الدنيوية احذروا من أن تفعلوا هكذا، لأن كل كلمة دنيوية تصير براز الشيطان على نفس المتكلم.

ارتجف الحواريون ليس فقط من حدة كلامه، بل أيضاً من فظاعة تشبيه الاشتغال بالأمور الدنيوية أثناء العبادة ببراز الشيطان في النفس فسألوه:

- يا معلم ماذا نفعل إذا جاء صديق يكلمنا ونحن نصلى؟

فأجابهم:

- دعوه ينتظر وأكملوا الصلاة.

وتساءل برتولوماوس عما إذا أحس الصديق من طول الانتظار بالإهمال والتجاهل وفارقهم غاضباً حيث قال:

- ولكن لو فرضنا أنه متى رأى أننا لا نكلمه اغتاظ وانصرف.

أجابهم عيسى:

- إذا اغتاظ فصدقوني أنه ليس بصديقكم وليس بمؤمن، بل كافر ورفيق الشيطان. قولوا لي إذا ذهبتم لتكلموا أحد غلمان اصطبل هيرودتس ووجدتموه يهمس في أذن سيده أتغتاظون إذا جعلكم تنتظرون، كلا ثم كلا، بل تسرون أن تروا صديقكم مقرباً من الملك.

الحق أقول لكم أن كل من يصلي إنما يكلم الله، أفيصح أن تتركوا التكلم مع الله لتكلموا الناس. أيحق لصديقكم أن يغتاظ لهذا السبب لأنكم تحترمون الله أكثر منه، صدقوني إنه إذا اغتاظ لأن جعلتموه ينتظر فإنما هو عبد جيد للشيطان، لأن هذا ما يتمناه الشيطان أن يترك الله لأجل الناس، لعمر الله أنه يجب على كل من يخاف الله أن يفصل كل عمل صالح عن أعمال الدنيا لكيلا يفسد العمل الصالح.

عقب هذا كان هو البادىء لهم بالسؤال:

- إذا فعل إنسان سوءاً، أو تكلم بسوء وذهب أحد ليصلحه ويمنع عملاً كهذا فماذا يفعل هذا.

فأجابوه الإجابة المتبادرة للأذهان:

أنه يفعل حسناً لأنه يعبد الله الذي يطلب على الدوام منع الشر، كما أن الشمس تطلب على الدوام طرد الظلام.

أما عيسى فقد كان مقصوده إجابة غير تلك المتبادرة لأذهانهم حيث أوضحها لهم في قوله.

- وأنا أقول لكم إنه بالضد من ذلك، متى فعل أحد حسناً أو تكلم حسناً فكل من يحاول منعه بوسيلة ليس فيها ما هو أفضل منه، فإنما هو يخدم الشيطان بل يصير رفيقه، لأن الشيطان لا يهتم بشيء سوى منع كل شيء صالح، ولكن ماذا أقول لكم الآن، إني أقول لكم ما قاله سليمان النبي:

- من كل ألف تعرفونهم يكون واحد صديقكم.

عندئذ خطر للحواري متى كما لو انعدمت عاطفة المحبة والتراحم بين الإخوان فسأل:

- ألا نقدر إذاً أن نحب أحداً؟

فأتاح سؤاله لعيسى فرصة لتوضيح معنى الصديق والصداقة في ميزان الدين والحق فقال لهم:

«الحق أقول لكم أنه لا يجوز لكم أن تكرهوا شيئاً إلا الخطيئة، حتى أنكم لا تقدرون أن تبغضوا الشيطان من حيث هو خليقة الله بل من حيث هو عدو الله، أتعلمون لماذا؟ إني أفيدكم، لأنه خليقة الله وكل ما خلق الله فهو حسن وكامل، فلذلك كل من يكره الخليقة يكره الخالق، ولكن الصديق شيء خاص لا يسهل وجوده ولكن يسهل فقده، لأن الصديق لا يسمح باعتراض على من يحبه حباً شديداً، احذروا وانتبهوا ولا تختاروا من لا يحب من تحبون صديقاً، فاعلموا ما المراد بالصديق».

لا يراد بالصديق إلا طبيب النفس، وهكذا كما أنه يندر أن يجد الإنسان طبيباً ماهراً يعرف الأمراض ويفقه استعمال الأدوية فيها، هكذا يندر

وجود أصدقاء يعرفون الهفوات ويفقهون كيف يرشدون للصلاح، ولكن هنالك شراً وهو أن لكثيرين أصدقاء يغضون الطرف عن هفوات صديقهم، وآخرين يعذرونهم، وآخرين يحامون عنهم بوسيلة دنيوية، ويوجد أصدقاء - وهؤلاء شر ما تقدم - يدعون أصدقاءهم ويعضدونهم في ارتكاب الخطأ وستكون آخرتهم نظير لؤمهم، احذروا من أن تتخذوا أمثال هؤلاء القوم أصدقاء، لأنهم أعداء وقتلة نفس حقاً.

ليكن صديقك صديقاً يقبل الإصلاح كما يريد هو أن يصلحك وكما أنه يريد أن تترك كل شيء حباً في الله فعليه أن يرضى بأن تتركه لأجل عبادة الله، ولكن قل لي إذا كان الإنسان لا يعرف كيف يحب الله فكيف يحب نفسه، وكيف يعرف يحب الآخرين إذا كان لا يعرف كيف يحب نفسه.

حقاً إن هذا لمحال، فمتى اخترت لك صديقاً فانظر أولاً لا إلى نسبه الحسن ولا إلى أسرته الحسنة ولا إلى بيته الحسن ولا إلى ثيابه الحسنة ولا إلى شخصه الحسن ولا إلى كلامه الحسن أيضاً، لأنك حينئذ تغش بسهولة، بل انظر كيف يخاف وكيف يحتقر الأشياء الدنيوية، وكيف يحب الأعمال الصالحة، وعلى نوع أخص كيف يبغض جسده، فيسهل عليك حينئذ وجود الصديق الصادق.

انظر على وجه أخص إذا كان يخاف الله ويحتقر أباطيل الدنيا. وإذا كان دائماً منهمكاً في الأعمال الصالحة، ويبغض جسده كعدو عات. ولا يجب عليك أيضاً أن تحب صديقاً كهذا بحيث إن حبك ينحصر فيه لأنك تكون عابد صنم، بل أحبه كهبة وهبك الله إياها فيزينه الله بفضل أعظم، الحق أقول لكم أن من وجد صديقاً وجد إحدى مسرات الجنة بل هو مفتاح الجنة.

ولما سأله تدايوس مستدركاً:

«إذا اتفق لإنسان وجود صديق لا ينطبق على ما قلت يا معلم، فماذا يجب عليه أن يفعل، أيجب أن يهجره؟

أجابه عيسى:

- يجب عليه أن يفعل ما يفعله النوتي بالمركب الذي يسيره ما رأى منه نفعاً، ولكن متى وجد فيه خسارة تركه، هكذا يجب أن تفعل بصديق شر منك، فاتركه في الأشياء التي يكون فيها عثرة لك إذا كنت لا تود أن تتركك رحمة الله.

ويل للعالم من العثرات، لا بد أن تأتي العثرات، لأن العالم يقيم في الإثم، ولكن ويل لذلك الإنسان الذي به تأتي العثرة، خير للإنسان أن يعلق في عنقه حجر ويغرق في لجة البحر من أن يعثر جاره، إذا كانت عينك عثرة فاقلعها، لأنه خير لك أن تدخل الجنة أعور من أن تدخل الجحيم ولك عينان، إن أعثرتك يدك أو رجلك فافعل بهما كذلك لأنه خير لك أن تدخل الجنة أعرج أو أقطع من أن تدخل الجحيم ولك يدان ورجلان[١].

شعر الحواري بطرس من نصائح عيسى أن الالتزام بهذا الضابط الصارم قد يجعله في النهاية بلا رفيق ولا أنيس فسأله مستفسراً:

- يا سيد كيف يجب أن أفعل هذا حقاً، إنني أصير أبتر في زمن وجيز.

ولما نحى بطرس بسؤاله منحى شخصياً فقد أجابه معلمه أيضاً إجابة شخصية حيث خاطبه بقوله:

- يا بطرس اخلع الحكمة الجسدية تجد الحق تواً، لأن من يعلمك هو عينك، ومن يساعدك للعمل هو رجلك، ومن يخدمك في شيء ما هو يدك، فمتى كانت أمثال هذه باعثاً على الخطيئة فاتركها، لأنه خير لك أن تدخل الجنة جاهلاً فقيراً ذا أعمال قليلة من أن تدخل الجحيم بأعمال عظيمة وأنت حكيم غني، فاطرح عنك كل ما يمنعك عن عبادة الله كما يطرح الإنسان كل ما يعيق بصره.

---

(١) إنجيل برنابا ص١٣١ - ١٣٣.

ولما شعر عيسى بخصوصية كلامه دعا بطرس للجلوس بجانبه ثم قاله له:

- إذا أخطأ أخوك إليك فاذهب وأصلحه، فإذا اصطلح فتهلل لأنك قد ربحت أخاك، وإن لم يصطلح فاذهب وادع شاهدين وأصلحه أيضاً. فإن لم يصطلح فأخبر الهيكل بذلك، فإن لم يصطلح حينئذ فاحسبه كافراً، ولذلك لا تسكن تحت سقف البيت الذي يسكنه، ولا تأكل على المائدة التي يجلس إليها، ولا تكلمه حتى إنك إن علمت أين يضع قدمه أثناء المشي فلا تضع قدمك هناك، ولكن احذر من أن تحسب نفسك أفضل منه، بل يجب عليك أن تقول هكذا: بطرس بطرس إنك لو لم يساعدك الله لكنت شراً منه.

فسأله بطرس:

- كيف يجب عليّ أن أصلحه.

فأجابه:

بالطريقة التي تحب أنت نفسك أن تصلح بها، فكلما تريد أن تعامل بالحلم هكذا عامل الآخرين، صدقني يا بطرس لأني أقول لك الحق أنك في كل مرة تصلح أخاك بالرحمة تنال رحمة من الله وتثمر كلماتك بعض الثمر، ولكن إذا فعلت ذلك بالقسوة يقاصك عدل الله بقسوة ولا تأتي بثمر، قل لي يا بطرس أيغسل الفقراء مثلاً هذه القدور الفخارية التي يطبخون فيها طعامهم بالحجارة والمطارق الحديدية، كلا ثم كلا، بل بماء سخن، فالقدور تحطم بالحديد والأشياء الخشبية تحرقها النار، أما الإنسان فإنه يصلح بالرحمة فمتى أصلحت أخاك قل لنفسك إذا لم يعضدني الله فإني فاعل غداً شراً من كل ما فعل هو اليوم.

فسأله بطرس:

- كم مرة أغفر لأخي يا معلم.

أجابه:

- بعدد ما تريد أن يغفر لك.

فقال بطرس:

- أسبع مرات في اليوم.

أجابه عيسى:

- لا أقول سبعاً فقط بل تغفر له كل يوم سبعين سبع مرات لأن من يغفر يغفر له ومن يدين يدان.

عندئذ تدخل برنابا في الحديث بين الاثنين وقال معلقاً على ذلك الحوار:

- ويل للرؤساء لأنهم سيذهبون للجحيم.

فأنبه عيسى ليس على تعليقه، وإنما على أحكامه الجزافية على خلق الله قائلاً:

- لقد أصبحت مضحكاً يا برنابا إذ تكلمت هكذا، الحق أقول لك إن الحمام ليس بضروري للجسم، ولا اللجام للفرس، ولا يد الدفة للسفينة كضرورة الرئيس للبلاد، ولأي سبب أذن الله لموسى ويشوع وصموئيل وداود وسليمان ولكثيرين آخرين أن يصدروا أحكاماً، إنما أعطى الله السيف لمثل هؤلاء لاستئصال الإثم.

فسأل برنابا حينئذ:

- كيف يجب إصدار الحكم بالقصاص والعفو.

أجاب عيسى:

- ليس كل أحد قاضياً يا برنابا، لأن للقاضي وحده أن يدين الآخرين، وعلى القاضي أن يقتص من المجرم كما يأمر الأب بقطع عضو فاسد من ابنه لكيلا يفسد الجسد كله.

ثم عاد بطرس مرة أخرى ليسأل معلمه:

- كم يجب عليّ أن أمهل أخي ليتوب؟

أجابه:

- بقدر ما تريد أن تمهل.

فقال بطرس مستفسراً:

- لا يفهم كل أحد هذا فكلمنا بوضوح أتم.

أجابه:

- أمهل أخاك ما أمهله الله.

وعاد بطرس مرة أخرى طالباً مزيداً من الإيضاح والتفسير حيث قال:

- ولا يفهمون هذا أيضاً.

فأجابه مرة أخرى:

- أمهله ما دام له وقت للتوبة.

وعلى الرغم من كل هذا لم يفقه بطرس وبقية الحواريين مراد معلمهم ومقصوده، فحزنوا، عندئذ فصّل لهم عيسى ما أجمله من قبل:

- لو كان عندكم إدراك صحيح وعرفتم أنكم أنتم أنفسكم خطأة لما خطر في بالكم مطلقاً أن تنزعوا من قلوبكم الرحمة بالخاطىء، ولذلك أقول لكم صريحاً أنه يجب أن يمهل الخاطىء ليتوب ما دام له نفس يتنفس من وراء أسنانه، لأنه هكذا يمهله إلٰهنا القدير الرحيم.

إن الله لم يقل: إني أغفر للخاطىء في الساعة التي يصوم ويتصدق ويصلي ويحج فيها، وهو ما قام به كثيرون وهم ملعونون لعنة أبدية ولكنه قال: في الساعة التي يندب فيها الخاطىء خطاياه أنسى إثمه فلا أذكره بعد، أفهمتم.

أجابوه:

- فهمنا بعضاً دون بعض.

عندها اطمأن عيسى لوصول مقصوده، وسألهم عن الجانب الذي خفي عليهم:

- ما هو الذي لم تفهموه.

- كون كثير من الذين صلوا مع الصيّام ملعونين.

وعلى الفور أدرك عليه السلام ما خفي وغمض عليهم فأوضحه بقوله:

- الحق أقول لكم أن المرائين يصلون ويتصدقون ويصومون أكثر من أخلاء الله، ولكن لما لم يكن لهم إيمان لم يتمكنوا من التوبة ولهذا كانوا ملعونين.

هنا سأله يوحنا عن موضوع جديد لم يتطرقوا إليه كثيراً من قبل، فقال:

- علمنا ما هو الإيمان حباً في الله.

غير أن سؤال يوحنا ورد مع فجر اليوم الثاني لهم في المدينة السامرية، دون أن يحس أحداً منهم أو يشعر بمرور الوقت إلا بعد تنبيه عيسى لهم بقوله:

- لقد حان لنا أن نصلي صلاة الفجر.

فنهضوا واغتسلوا ثم صلوا خلف معلمهم، وبعد الصلاة التفوا حوله لسماع إجابته عن سؤال يوحنا. فقال:

- اقترب يا يوحنا لأني اليوم سأجيبك عن كل ما سألت، الإيمان خاتم يختم الله به من أنعم عليهم، وهو خاتم أعطاه لرسوله محمد الذي أخذ كل منعم عليه الإيمان من يديه، فالإيمان واحد كما أن الله واحد، لذلك لما خلق الله قبل كل شيء رسوله وهبه قبل كل شيء الإيمان الذي هو بمثابة صورة الله، وكل ما صنع الله، وما

قال، فيرى المؤمن بإيمانه كل شيء أجلى من رؤيته بعينيه، لأن العينين قد تخطئان، بل تكادان تخطئان على الدوام، أما الإيمان فلن يخطئ لأن أساسه الله وكلمته.

صدقني أنه بالإيمان يخلص كل المنعم عليهم، ومن المؤكد أنه بدون إيمان لا يمكن لأحد أن يرضي الله، لذلك لا يحاول الشيطان أن يبطل الصوم والصلاة والصدقات والحج، بل هو يحرض الكافرين عليها، لأنه يسر أن يرى الإنسان يشتغل بدون الحصول على أجرة، لن يحاول جهده أن يبطل الإيمان لذلك وجب بوجه أخص أن يحرص على الإيمان بجد، وآمن طريقة لذلك أن تترك لفظة (لماذا) لأن لماذا أخرجت البشر من الفردوس وحولت الشيطان من ملاك جميل إلى شيطان مريع.

احترم الحواريون اختيار معلمهم ليوحنا ومخاطبته له وحده مفسحين له حواره وسؤاله كامتياز خصه به ولم يحرم فائدته منهم فسأله يوحنا:

- كيف نترك لماذا وهي باب العلم؟

أجابه:

- بل لماذا هي باب الجحيم.

فسكت يوحنا فلم يسأل أو يعلق، أما عيسى فقد بين له مقصوده الحقيقي من تلك الإجابة التي أكرهت يوحنا على لزوم الصمت، فقال له ولإخوانه:

- متى علمت أن الله قال شيئاً فمن أنت أيها الإنسان حتى تتقعر، لماذا قلت يا الله كذا، ولماذا فعلت كذا، أيقول الإناء الخزفي لصانعه لماذا صنعتني لأحوي ماء لا لأحوي بلسماً، الحق أقول لكم أنه يجب في كل تجربة أن تتقووا بهذه الكلمة قائلين: إنما الله قال كذا، إنما الله فعل كذا، إنما الله يريد كذا، لأنك إن فعلت هذا عشت في أمن وأمان.



الفصل الرابع
العام الثالث للبعثة

تمكن عيسى عليه السلام طوال العامين المنصرمين ومن خلال جولاته وتنقلاته العديدة على معظم قرى ومدن اليهود من إبلاغ قومه برسالة ربه وكلمته الموحى بها إليه في الإنجيل، حتى وجدت الدعوة قبولاً واسعاً، وحظى هو بشهرة عريضة، أجبر أولئك الذين ناصبوه العداء ومن اليوم الأول لدعوته للتسليم له بقدرته العالية على اجتذاب الجماهير، وجاذبيته الفريدة في التأثير عليهم. ليس فقط بعذوبة خطبه وجمالها، ونفاذها في الأفئدة والقلوب، بل أيضاً بمعجزاته الباهرة والخارقة للعادة كأدلة وبراهين مؤيدة للدعوة والداعية.

غير أن هذه المعجزات والبراهين هي التي أثارت وبإيعاز من الرومان الوثنيين فكرة ألوهية عيسى وبنوته لله تعالى بين عامة الناس وخواصهم. ولم يسلم منها حتى أقرب الناس إليه وأعرفهم به وأكثرهم معاشرة له واحتكاكاً به، ولم تكن الفكرة وطوال العامين الماضيين تشكل أي خطورة على مسار البعثة ومجرياتها. وفي الشهر الأول أو الثاني على الأكثر من العام الثالث أطلت الفكرة من جديد يغذيها هذه المرة أبناء الأمة أنفسهم، فانقسموا حولها إلى ثلاث فرق وأحزاب:

- فمنهم من يرى أن عيسى هو الله قد جاء إلى العالم.
- ومنهم من يعارض ألوهيته ويرى أنه ابن الله.

- ومنهم من يرفض كلا الرأيين، ولا يرى في عيسى سوى نبي مصطفى من عند الله كغيره من الأنبياء والرسل.

والخطير في الأمر أن الفكرة اتخذت في هذا العام بعداً جديداً لم تعهده في بداية ظهورها، إذ كانت كما رأينا عبارة عن فكرة تراود البعض حين يريد تعليل وتفسير تلك المعجزات الخارقة التي تتم على يديه. أما في هذا العام فقد تحولت إلى اعتقاد جازم وإيمان قوي راسخ، دفع بكل فريق وحزب إلى الذود عن إيمانه واعتقاده في عيسى ليس بالحجة والدليل بل بالقوة والسيف.

وعلى مدى أربعين يوماً تحولت منطقة اليهودية إلى مسرح كبير جمع الأمة بأسرها، وقد تدججت بالسلاح، وعلى أهبة الاستعداد لمعركة فاصلة يحسم فيها الخلاف، ويتجلى فيها الحق كالشمس بقوة السلاح.

وخشية من دخول الأمة برمتها في حرب أهلية تقضي على الأخضر واليابس تحركت السلطات الدينية والمدنية، ومن ورائهم السلطات الرومانية لتدارك المشكلة قبل تفاقمها، وعندما خرج رئيس الكهنة قيافا في موكب عظيم وهو يرتدي ملابس الكهنوتية التقليدية، واسم الله القدوس على جبهته، يرافقه الحاكم الروماني بيلاطس وأرخلاوس ملك اليهودية، كانت هناك بالفعل ثلاثة جيوش محتشدة في منطقة (مزبة) شمال القدس، قوام كل منها مئتا ألف رجل متقلدي السيوف وعلى أهبة الاستعداد للاقتتال دفاعاً عن معتقدهم في عيسى ابن مريم.

وبادىء ذي بدء وقف فيهم أرخلاوس متكلماً فقوبل بالرفض والاحتجاج، وتقدم الحاكم الروماني بيلاطس ورئيس الكهنة قيافا فالتزموا الصمت، مما مكنهم بإيجاز سريع من تصوير الخطر المحدق بالبلاد. والفتنة التي توشك أن تدفع بأبناء الدين الواحد للحرب، ومن ضمن ما قاله وأثبته برنابا في إنجيله ما يلي:

«أيها الإخوة إن هذه الفتنة إنما قد أثارها عمل الشيطان، لأن عيسى حي وإليه يجب أن نذهب ونسأله أن يقدم لنا شهادة عن نفسه، وأن نؤمن

به حسب كلامه»[1].

فسكنت ثائرة الجموع المحتشدة، ونزع كل منهم سلاحه وتعانقوا جميعاً، وكل واحد منهم يقول للآخر: اغفر لي أيها الأخ، وفي غمرة الفرح عقد كل واحد منهم العزم والنية على أن يؤمن بعيسى وفقاً لما يقوله عيسى عن نفسه، وتجاوباً مع فرحة الجموع بوأد الفتنة والحرب قدم الحاكم الروماني أو سيقدم هو ورئيس الكهنة جوائز كبرى وقيمة لكل من يأتي ويخبر عن المكان الذي يقيم فيه عيسى وحوارييه.

جرت تلك الأحداث السريعة والمتلاحقة في وقت كان عيسى وحواريوه وعملاً بأمر الله تعالى يقضون فترة بلغت أربعين يوماً منقطعين ومنعزلين عن العالم في جبل سيناء، ولما انقضت أيام الخلوة عادوا إلى القدس عن طريق نهر الأردن، وعلى مشارف المدينة رآهم أحد أولئك الذين يؤمنون بأن الله هو المسيح عيسى ابن مريم، فصاح بأعلى صوته من شدة الفرح قائلاً:

- إن إلٰهنا آت.

ثم انطلق جرياً لإبلاغ السكان بمشاهدته لعيسى على مقربة من نهر الأردن وسيدخل المدينة ما بين لحظة وأخرى، عندها تهيأت المدينة بأسرها لاستقباله والترحيب به ولسان حالهم يقول:

- إن إلٰهنا آت يا قدس فتهيئي لقبوله.

ولم ينتظر سكان المدينة قدوم عيسى بل خرجوا إليه على بكرة أبيهم، حتى خلت المدينة منهم، وفي الاندفاع الجماعي لهم حملت النساء أطفالهن على أذرعهن بلا زاد للأكل أو ماء للشرب. كما خرج الحاكم الروماني ورئيس الكهنة راكبين، وأرسلا رسولاً إلى أرخلاوس فلحق بهم هو الآخر راكباً.

---

(١) إنجيل برنابا ص١٣٩.

وعلى مدى يومين كاملين ظلت الجموع تجوب المنطقة الواقعة بين نهر الأردن والقدس بحثاً عنه دون جدوى، وفي منتصف اليوم الثالث عثروا عليه هو وحوارييه يتوضأون لصلاة منتصف النهار.

كانت اللحظات القليلة التي وقعت فيها عينا عيسى على الجموع الغفيرة تغطي الأرض من حوله من اللحظات التي ينسى الواحد فيها كل شيء، ويتلاشى عندها كل هم، بما في ذلك استعداده وتهيؤه لأداء الصلاة، ولكن الشيء الذي تركز عليه فكره، والخاطر الذي قفز إلى ذهنه لمجرد مرآهم هو أن هذه الجموع قد جاءت مدفوعة باعتقاد يدعو إلى الفتنة والكفر، فقال لحوارييه:

- لعل الشيطان أحدث فتنة في اليهودية، لينزع الله من الشيطان السيطرة التي له على الخطاة.

وصدق ما توقعه عليه السلام، فما أن اقتربت الجماهير الغفيرة منه، وتبينت لهم ملامح وجهه حتى علت أصواتهم بالقول:

- مرحباً بك يا إلٰهنا.

وأردفوا القول بالعمل فخروا له ساجدين، فتنفس عيسى الصعداء، وصاح فيهم بصوت هادر كهدير الرعد:

- انصرفوا عني أيها المجانين لأني أخشى أن تفتح الأرض فاها وتبتلعني وإياكم لكلامكم الممقوت.

وكان لارتفاع صوته، وظهور علامات الغضب والاشمئزاز على وجهه أثرهما الحاسم في نفوسهم، فتراجعوا عما كانوا ينوون فعله. ولأول مرة منذ شيوع فكرة ألوهيته يتكشف للناس مبلغ الخطأ الذي وقعوا فيه، والجرم الشنيع الذي أوشكوا على ارتكابه، فخافوا خوفاً شديداً، وبكوا بكاء مراً تردد صداه في جنبات المنطقة، ولما رأى عيسى نكوص القوم وندمهم، رفع يده إيماء بالصمت، فلزم الجميع الصمت، وسكنت حركاتهم كما لو كان على رؤوسهم الطير، عندئذ خاطبهم قائلاً:

- إنكم قد ضللتم ضلالاً عظيماً أيها الإسرائيليون لأنكم دعوتموني إلٰهكم وأنا إنسان، وإني أخشى لهذا أن ينزل الله بالمدينة المقدسة وباءً شديداً مسلماً إياها لاستعباد الغرباء، لعن الله الشيطان الذي أغراكم بهذا ألف لعنة.

وعلى مرأى من الجموع التي كلها أذان صاغية وعيونها مركزة عليه صفع عيسى وجهه بكلتا يديه، كأنما يندب سوء حظه ويرثي لحالتهم وحالته التي أوصلتهم إلى هذا الاعتقاد القبيح والتهمة الباطلة، وكان لفعله وقع مؤلم على المحتشدين أدى بهم إلى المزيد من البكاء والنحيب، حتى اضطر عيسى كي يواصل حديثه إلى رفع يده من جديد طالباً منهم السكوت والهدوء، وانتظر لبرهة ليكمل مرة أخرى ما بدأه قائلاً:

- أشهد أمام السماء، وأشهد كل شيء على الأرض أني بريء من كل ما قلتم، لأني إنسان مولود من امرأة فانية بشرية وعرضة لحكم الله، مكابد لشقاء الأكل والنوم، وشقاء البرد والحر كسائر البشر. لذلك متى جاء الله ليدين يكون كلامي كحسام يخترق كل من يؤمن بأني أعظم من إنسان.

ولما انتهى من كلامه الموجز، رأى على البعد كوكبة من الفرسان، علم من هيئتهم أنهم الوالي الروماني وأرخلاوس ورئيس الكهنة فتوقف عما كان يريد قوله، وخشي حدوث ما حدث قبل قليل فقال بصوت مسموع:

- لعلهم هم قد صاروا مجانين أيضاً.

وعند وصولهم ترجلوا جميعاً وأحاطوا به من كل جانب حتى أن الجنود لم يتمكنوا من دفع الجمهور الذين أرادوا سماع عيسى وهو يكلمهم بوصفهم أصحاب الشأن، فاقترب عيسى من رئيس الكهنة قيافا كما يقتضي الموقف والمقام، إلا أن الكاهن مدفوعاً هو الآخر بما يشاع حول ألوهيته المزعومة أراد أن يسجد له، عندئذ صرخ فيه عيسى قائلاً:

- حذار ما أنت فاعل يا كاهن الله الحي، لا تخطىء إلى الله.

فاضطرب قيافا، وتراجع إلى الخلف بارتباك ظاهر وهو يقول:

- إن اليهودية اضطربت لآياتك وتعليمك حتى أنهم يجاهرون بأنك أنت الله، فاضطررت بسبب الشعب إلى أن آتي إلى هنا مع الوالي الروماني وأرخلاوس ملك اليهودية، فنرجوك من كل قلبنا أن ترضى بإزالة الفتنة التي ثارت بسببك، لأن فريقاً يقول إنك الله، وآخر إنك ابن الله، ويقول فريق إنك نبي.

فرد عليه عيسى:

- وأنت يا رئيس كهنة الله، لماذا لم تخمد الفتنة، هل جننت أنت أيضاً، هل أمست النبوات وشريعة الله نسياً منسياً، أيتها اليهودية الشقية التي ضللها الشيطان.

إني أشهد أمام السماء، وأشهد كل ساكن على الأرض، أني بريء من كل ما قال الناس عني من أني أعظم من بشر، لأني بشر مولود من امرأة وعرضة لحكم الله، أعيش كسائر البشر، عرضة للشقاء العام، لعمر الله الذي تقف نفسي بحضرته إنك أيها الكاهن قد أخطأت خطيئة عظيمة بالقول الذي قلته، ليلطف الله بهذه المدينة المقدسة حتى لا تحل نقمة عظيمة لهذه الخطيئة.

كانت شهادة عيسى في حق نفسه دحضاً لكل الشائعات والأراجيف كافية لتبين للكاهن صدقه. وبوصفه عالم دين فقد أذعن مقتنعاً بقوة حجته وسلامة منطقه. فقال له قولة عارف أدرك الحق وقبله راضياً مطمئناً:

- ليغفر لنا الله، أما أنت فصل من أجلنا.

أما الوالي الروماني وأرخلاوس. فقد وقفت آيات عيسى ومعجزاته الباهرة حائلاً بينهم وبين رؤية الحقيقة والصدق في كلامه فقالوا له:

- يا سيد إنه لمن المحال أن يفعل بشر ما أنت تفعله فلذلك لا نفقه ما تقول.

أدرك عيسى أن موقف الوالي بيلاطس وأرخلاوس ملك اليهودية في

عدم التسليم له بصدق دعواه ليس من قبيل الاعتراض أو الجهل وعدم العلم، بل لأنهم في حاجة إلى علم أخص من العلم المدروس لكي يقفوا على المعنى الخفي الذي يجعل كائناً بشرياً يفعل فعل الألهة. فرد عليهم رداً مدعماً بشواهد العقل والنقل قائلاً:

- أن ما تقولاه لصدق إن الله يفعل صلاحاً بالإنسان، كما أن الشيطان يفعل شراً، لأن الإنسان بمثابة حانوت من يدخله برضاه يشتغل ويبيع فيه، ولكن قل لي أيها الوالي وأنت أيها الملك، أنتما تقولان هذا لأنكما أجنبيان عن شريعتنا، لأنكما لو قرأتما العهد وميثاق إلٰهنا لرأيتما أن موسى حول بعصاه البحر دماً والغبار براغيث والندى زوبعة والنور ظلاماً، أرسل الضفادع والجرذان على مصر فغطت الأرض، وقتل الأبكار، وشق البحر وأغرق فيه فرعون، ولم أفعل شيئاً من هذا، وكل يعترف بأن موسى إنما هو رجل ميت، أوقف يشوع الشمس، وشق الأردن وهما مما لم أفعله حتى الآن، وكل يعترف بأن يشوع إنما هو الآن رجل ميت، وأنزل إيليا النار من السماء عياناً، وأنزل المطر، وهما مما لم أفعله، وكل يعترف بأن إيليا إنما هو بشر، كثيرون آخرون من الأنبياء الأطهار وأخلاء الله فعلوا بقوة الله أشياء لا تبلغ كنهها عقول الذين لا يعرفون إلٰهنا القدير الرحيم المبارك إلى الأبد.

ولم يعلق أحد منهما على كلامه، بل طلبوا منه أن يرتقي مكاناً مرتفعاً يراه فيه كل أحد، ومنه يكلم جموع الشعب تسكيناً وتهدئة حول ما أثير من قبل، وما سوف يثار حول شخصيته في مستقبل الأيام، وبالفعل ارتقى عليه السلام إحدى الحجارة العالية وقال مخاطباً الجميع بصوت عال:

- ليصعد كاهننا إلى محل مرتفع حيث يتمكن من تحقيق كلامي.

صعد الكاهن قيافا إلى مكان يوازي في ارتفاعه مكان عيسى بحيث أمكن رؤيتهما معاً يقف كل منهما بإزاء الآخر. ثم جرت محاورة بينهما أتيح

لكل واحد من الحاضرين سماعها كما لو لم يكن هناك مستمع سواه، وجرت المحاورة على النحو التالي:

قال عيسى للكاهن:

- قد كتب عهد الله الحي وميثاقه أن ليس لإلهنا بداية ولا يكون له نهاية.

أجاب الكاهن:

- لقد كتب هكذا هناك.

قال عيسى:

- إنه كتب هناك أن إلهنا قد خلق كل شيء بكلمته فقط.

أجاب الكاهن

- إنه كذلك.

قال عيسى:

- إنه مكتوب هناك أن الله لا يرى وأنه محجوب عن عقل الإنسان لأنه غير متجسد وغير مركب وغير متغير.

فقال الكاهن:

- إنه كذلك حقاً.

قال عيسى:

- إنه مكتوب هناك كيف أن سماء السموات لا تسعه لأن إلهنا غير محدود.

قال الكاهن:

- هكذا قال سليمان النبي يا عيسى.

قال عيسى:

- إنه مكتوب هناك أن ليس لله حاجة، لأنه لا يأكل ولا ينام ولا يعتريه نقص.

قال الكاهن:

- إنه لكذلك.

قال عيسى:

- إنه مكتوب هناك أن إلهنا في كل مكان وإن لا إله سواه، الذي يضرب ويشفي ويفعل كل ما يريد.

قال الكاهن:

- هكذا كتب.

عند هذا الحد من الحوار توقف عيسى، ورفع رأسه إلى السماء وهو يشهد الله تعالى على إيمانه به كما نطق الكاهن، وكما هو محقق في كتب الله لأنبيائه ورسله قائلاً:

- أيها الرب إلهنا هذا هو إيماني الذي آتى به إلى دينونتك شاهداً على كل من يؤمن بخلاف ذلك.

ثم التفت إلى الجموع المحتشدة قائلاً:

- توبوا لأنكم تعرفون خطيئتكم من كل ما قال الكاهن، أنه مكتوب في سفر موسى عهد الله إلى الأبد، فإني بشر منظور وكتلة من طين تمشي على الأرض، وإني كسائر البشر، وأنه كان لي بداية وستكون لي نهاية، وإني لا أقدر أن ابتدع خلق ذبابة.

ولما تيقن الناس من صدق عيسى، وتأكدت لهم حقيقته البشرية بل وفداحة خطأهم وكبر ذنبهم وعظم جريمتهم في حق الله وحق رسوله ارتفعت أصواتهم بالبكاء والعويل، وهم يدعون الله قائلين:

- لقد أخطأنا إليك أيها الرب إلهنا فارحمنا.

ومما لا يختلف عليه أحد أن بكاء القوم وندمهم ثم دعاءهم قد أزاح

عنهم غشاوة سميكة كانت تعمي أبصارهم وبصيرتهم عن رؤية الحق، فشعروا وكأنهم قد استردوا وعيهم المفقود، وعادوا إلى رشدهم وصوابهم، ولكن استقر في وعيهم أنهم يقفون بلا حول ولا قوة نتيجة لما ارتكبوه في حق أنفسهم أمام غضب الله وسخطه، ولا مفر لهم من تجنب عقوبة عاجلة تنصب عليهم، إلا باللجوء إلى رسوله كي يكون شفيعهم عند الله، ليس لأجلهم فقط، بل لأجل المدينة المقدسة. فلا يدفعها غضبه وسخطه لتدوسها أقدام الأمم، ويقع سكانها تحت ذل الأسر والاستعباد. فرفع عيسى يديه إلى السماء وصلى لأجلهم وأجل مدينتهم، وكل واحد منهم يؤمن على دعائه وتضرعه بقوله:

- ليكن كذلك، آمين.

إن الوقائع والمحاورات السابقة والمفعمة لمشاعر الندم والتوبة قد أبانت للجميع الصفة البشرية والإنسانية لعيسى، وقضت على فكرة ألوهيته وبنوته لله تعالى، ولكن بقيت رغم كل هذا حقيقة تحتاج هي الأخرى إلى بيان وإيضاح، وهي التي أشار إليها رئيس الكهنة عقب ذلك الدعاء مباشرة حيث قال لعيسى:

- قف يا عيسى لأنه يجب علينا أن نعرف من أنت تسكيناً لأمتنا.

فأجابه عيسى على قدر ما طلب وسأل وفي حدود المقصود:

- أنا عيسى ابن مريم من نسل داود، بشر مائت ويخاف الله، وأطلب ألا يعطى الإكرام والمجد إلا لله.

لقد أجاب عيسى الإجابة التي ظن أن الكاهن يسعى إليها تعميقاً لبشريته وإنسانيته، في حين كان مقصوده الكشف عن شخصيته النبوية، أو ماهيته الرسالية، فسأله مرة أخرى:

- إنه مكتوب في سفر موسى أن إلهنا سيرسل لنا مسيا الذي سيأتي ليخبرنا بما يريد الله، وسيأتي للعالم برحمة الله، لذلك أرجوك أن تقول لنا الحق، هل أنت رسول الله الذي ننتظره.

فأجابه عيسى:

- حقاً إن وعد الله هكذا، ولكني لست هو لأنه خلق قبلي وسيأتي بعدي.

إن رد عيسى القاطع في إنكاره أنه ليس هو رسول الله، واقتناع الكاهن الفوري بصدقه، دفع به من جديد إلى أن يحدثهم عليه السلام عن كيف ومتى يأتي رسول الله قائلاً:

- إننا نعتقد من كلامك وآياتك على كل حال أنك نبي الله، لذلك أرجوك باسم اليهودية كلها وإسرائيل أن تفيدنا حباً في الله بأية كيفية سيأتي رسول الله.

رد عليه عيسى رداً شافياً ووافياً قائلاً:

- لعمر الله الذي تقف بحضرته نفسي إني لست رسول الله الذي تنتظره كل قبائل الأرض كما وعد الله أبانا إبراهيم قائلاً:

- بنسلك أبارك كل قبائل الأرض.

ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عدم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله، فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً، حينئذ يرحم الله العالم ويرسل رسوله الذي خلق كل الأشياء لأجله، الذي سيأتي من الجنوب بقوة وسيبيد الأصنام وعبادة الأصنام، وسينتزع من الشيطان سلطته على البشر، وسيأتي برحمة لخلاص الذين يؤمنون به، وسيكون من يؤمن بكلامه مباركاً، ومع أني لست مستحقاً أن أحل سير حذائه فقد نلت نعمة ورحمة من الله لأراه.

إن الشيء الوحيد الذي أكدت عليه كلمات عيسى لكل من الوالي والكاهن والملك ووقفوا عنده هو حتمية اختلاف الناس مرة أخرى حول شخصيته اختلافاً يؤدي إلى فساد الدين والإيمان، فقالوا له بحكم مناصبهم ومسؤولياتهم في الدولة والمجتمع:

- لا تزعج نفسك يا قدوس الله، لأن هذه الفتنة لا تحدث في زمننا مرة أخرى، لأننا سنكتب إلى مجلس الشيوخ الروماني المقدس بإصدار أمر ملكي ينص على ألا يدعوك أحد فيما بعد الله وابن الله.

وأياً ما كان في وعدهم من تسلية وتفريج عن همومه، إلا أن الفتنة ستكون أكبر وأعظم من أن يحد شرورها قرار ملكي أو أوامر مكتوبة، بل لا يخمد نارها إلا نبي مرسل من عند الله، عندها وهنالك فقط تكون التسلية والعزاء، فرد عليهم:

- إن كلامهم لا يعزيني، لأنه يأتي ظلام حيث ترجون النور، ولكن تعزيتي هي في مجيء الرسول الذي سيبيد كل رأي كاذب فيّ، وسيمتد دينه ويعم العالم بأسره، لأنه هكذا وعد الله أبانا إبراهيم، وإن ما يعزيني هو ألا نهاية لدينه لأن الله سيحفظه صحيحاً.

اتضح للكاهن دون الآخرين أن عيسى يعلق آمالاً عريضة على رسول الله الذي يأتي من بعده، لأجل ذلك سأله ومن باب التحوط:

- أيأتي رسل آخرون بعد مجيء رسول الله؟

فأجابه:

- لا يأتي بعده أنبياء صادقون مرسلون من الله، ولكن يأتي عدد غفير من الأنبياء الكذبة، وهو ما يحزنني، لأن الشيطان سيثيرهم بحكم الله العادل فيتسترون بدعوى إنجيلي.

وقف الملك أرخلاوس بن هيرودتس وقفة بسيطة عند إجابة عيسى: كيف يعقل أن يهيج الشيطان الأنبياء الكذبة وبمشيئة الله فيعملون على تشويه دينه وكتاب إيمانه فقال له:

- كيف أن مجيء هؤلاء الكافرين يكون بحكم الله العادل؟

أجابه:

- من العدل أن مَن لا يؤمن بالحق لخلاصه يؤمن بالكذب للعنته

لذلك أقول لكم إن العالم كان يمتهن الأنبياء الصادقين دائماً، وأحب الكاذبين كما يشاهد في أيام أليشع وأرميا، لأن الشبيه يحب شبيهه.

عندها سعى الكاهن وخشية من وجود هذا العدد الهائل من الدجالين الذين يتوقع ظهورهم أن يحدد لهم عيسى وعلى أقل تقدير اسم الرسول المرتقب، وأبرز علامة يعرف بها عند مبعثه، قائلاً:

- ماذا يسمى رسول الله، وما هي العلامة التي تعلن عن مجيئه.

فأجابه:

- إن اسم رسول الله عجيب، لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعه في بهاء سماوي قال الله: اصبر يا محمد لأني لأجلك أريد أن أخلق الجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلائق التي أهبها لك حتى أن من يبارك يكون مباركاً ومن يلعنك يكون ملعوناً، ومتى أرسلتك للعالم أجعلك رسولي للخلاص، وتكون كلمتك صادقة حتى إن السماء والأرض تهنان ولكن إيمانك لا يهن أبداً، أن اسمه المبارك محمد.

ولما سمعت الجماهير ذلك الرد الذي فصل لهم فيه عن اسم النبي والرسول المنتظر رفعوا أكفهم بالدعاء قائلين:

- يا الله أرسل لنا رسولك، يا محمد تعال سريعاً لخلاص العالم.

عقب هذا تفرقت جموع الناس، وذهب كل منهم إلى بيته، أما الوالي الروماني وبحكم سلطته العليا في البلاد فقد وفى بوعده، فكتب إلى مجلس الشيوخ في العاصمة روما بحقيقة ما يجري في منطقته، وطالبهم بضرورة إصدار قرار يصاغ في شكل أوامر صريحة لكل المواطنين الخاضعين لسلطته بألا يدعو أحداً منهم عيسى ابن مريم الناصري نبي اليهود الله أو ابن الله، وكل من يخالف هذه الأوامر الإمبراطورية يكون عرضة لعقوبة الموت، واستجاب مجلس الشيوخ لرغبة الوالي وأصدر القرار، وبمجرد وصوله عمل الجهاز التنفيذي للوالي على نقشه في لوحة نحاسية وعلق في الهيكل.

ولما انصرف الفريق الأكبر من سكان القدس وما حولها بقي مع عيسى عدد يقدر بنحو خمسة آلاف رجل عدا النساء والأطفال، وهؤلاء نتيجة طبيعية للإعياء الذي أصابهم من السير الطويل على أرجلهم ومن قضائهم يومين كاملين بلا خبز يعوضهم ما فقدوه من طاقتهم وقوتهم. ووقف عيسى بنفسه على حالهم ولمس معاناتهم الشديدة حتى أخذته الشفقة والرحمة بهم، فقال لحوارييه شاكياً.

ـ أين نجد خبزاً لهم لكيلا يهلكوا من الجوع.

قال عيسى قولته تلك لا من قبيل الامتحان لحوارييه، بل خوفاً على هؤلاء الجوعى، فأجابه فيلبس على شكواه إجابة تقريرية يعلم أن معلمه قبل غيره من أدرى الناس باستحالة معالجتها بالطرق العادية:

ـ يا سيدي أن مئتي قطعة من الذهب لا تكفي لشراء ما يتبلغون به من الخبز.

على أثر كلام فيليبس قال إندراوس باذلاً قصارى جهده لمعالجة هذا الوضع المأساوي:

ـ هنا غلام معه خمسة أرغفة وسمكتان، ولكن ما عسى أن تكون بين هذا العدد الضخم.

وفجأة أمره عيسى قائلاً:

ـ أجلس الجمع.

فتعاون الحواريون جميعاً على تنفيذ أمر معلمهم، فأجلسوا جموع الناس على العشب في شكل دوائر يتراوح عدد المجموعة ما بين خمسين وأربعين فرداً بما فيهم النساء والأطفال، ثم تناول عيسى الأرغفة الخمسة والسمكتين وصلى لله ثم قسمها إلى قطع، أعطى قطعة لكل واحد من حوارييه، وهؤلاء بدورهم مروا على المجموعات وأعطوا كل مجموعة حاجتها الكاملة من الخبز والسمك، فأكل الجميع إلى حد الشبع، حينئذ أمر عيسى حوارييه قائلاً:

- اجمعوا الباقي.

فجمع الحواريون ما فضل بعد الأكل من الخبز والسمك فملأت اثنتي عشر قفة، هنا وضع الناس أيديهم على أعينهم ولبثوا ساعة من الزمان مسلوبو الإرادة والقوة بسبب هذه الآية العظيمة وكل منهم يحدث نفسه قائلاً:

- أمستيقظ أنا أم حالم.

ولعل الواقعة السابقة بكل أحداثها هي على الأرجح التي أرَّخ لها القرآن بقوله:

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ﴾[1].

إذ فيها ظهر له بالفعل كفر القوم وعدم إيمانهم ظهوراً بأن لحسه وشعوره ناهيك عن فهمه، وعلم من كفرهم وإصرارهم المقيت على ما هم عليه من عناد ومكابرة واستمرارهم على الضلال علماً لا شبهة فيه ولا التباس كعلم ما يدرك بالحواس، وعند بلوغه هذا الحد من العلم سعى إلى معرفة من يؤازره ويناصره في درب الدعوة لله حتى النهاية فقال:

﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[2].

فبادر الحواريون من آمن به من قبل ومن آمن به بعد خطبته تلك في القوم إلى القول:

﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾[3].

ويدل جواب الحواريون على عمق علمهم بأن استنصار عيسى بهم لا لذاته، بل لله ودينه، ويدل قولهم: «نحن أنصار الله» بأنهم قد ندبوا أنفسهم لنصرة نبي الله ودينه، ثم فرعوا على ذلك أمرين:

---

(١)(٢)(٣) سورة آل عمران: ٥٢ ـ ٥٣.

- أولهما، إيمانهم بالله وبما أنزله في كتابه وأظهره لهم من حكمه، وهم في هذا متبعين لعيسى ومؤيدين له، وتأكيداً على إيمانهم أشهدوا الله وعيسى على إسلامهم، أي ما ظهر من إيمانهم.

- وثانيهما: دعوا الله تعالى بأن يجعلهم مع الذين يشهدون لرسل الله بالتبليغ والصدق وأداء الأمانة.

وعلى أي حال فبعد أن أدت الجموع المتخلفة عن ركب إخوانهم الشكر لله على ما أولاهم من نعم عادوا إلى ديارهم خلا اثنين وسبعين منهم، لم تطاوعهم أنفسهم ترك عيسى ومفارقته بعد ما تبين لهم الحق، وأصروا على البقاء معه وملازمته، وهو من جهته لما رأى قوة إيمانهم وعزمهم على مشاركته له في الدعوة اختارهم حواريين له وضمهم إلى حوارييه الاثنى عشر.

وعلى الرغم مما عاناه الجميع في هذا اليوم العاصف من أيام البعثة وحاجة الجميع إلى الراحة، إلا أن عيسى شعر بأن الدعوة تمر الآن بمنعطف حاد وخطير، تتطلب مضاعفة الجهود لبلاغ الناس هدف الدعوة وغايتها، وعلى الفور جلس على حجر من الأحجار المتناثرة على ضفاف النهر، ودعا الحواريين القدامى والجدد وأجلسهم حوله، ثم قال لهم:

- لقد رأينا اليوم إثماً عظيماً في اليهودية وفي إسرائيل، وهو إثم يخفق له قلبي في صدري من خشية الله، الحق أقول لكم إن الله غيور على كرامته ويحب إسرائيل، وأنتم تعلمون أنه متى كلف شاب بامرأة لا تحبه بل تحب آخر ثار حنقه وقتل نده، إني أقول لكم هكذا يفعل الله، لأنه عندما أحب إسرائيل شيئاً بسببه نسي الله أبطل الله ذلك الشيء.

أي شيء أحب إلى الله هنا على الأرض من الكهنوت والهيكل المقدس، ومع هذا لما نسي الشعب الله في زمن أرميا النبي وفاخروا بالهيكل فقط، إذ لم يكن له نظير في العالم كله أثار الله غضبه بواسطة نبوخذ نصر ملك بابل ومكّنه وجيشه من المدينة المقدسة، فأحرقها وأحرق

الهيكل المقدس، حتى أن الأشياء المقدسة التي كان أنبياء الله يرتجفون من مسها ديست تحت أقدام الكفار المملوئين إثماً.

وأحب الله إبراهيم ابنه إسماعيل أكثر قليلاً مما ينبغي لذلك أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه ليقتل المحبة الأثيمة في قلبه، وأحب داؤد أبشالوم حباً شديداً لذلك سمح الله أن يثور الابن على أبيه، فتعلق بشعره وقتل يواب، ما أرهب حكم الله، أن أبشالوم أحب شعره أكثر من كل شيء فتحول حبلاً علق به.

وأوشك أيوب التقي أن يفرط في حب أبنائه السبعة وبناته الثلاث، فدفعه الله إلى يد الشيطان فلم يأخذ منه أبناءه وثروته في يوم واحد فقط، بل ضربه أيضاً بداء عضال حتى كانت الديدان تخرج من جسده مدة سبع سنين.

وأحب أبونا يعقوب ابنه يوسف أكثر من أبنائه الآخرين، لذلك قضى الله ببيعه وجعل يعقوب يُخدع من هؤلاء الأبناء أنفسهم حتى أنه صدّق أن الوحش افترس ابنه فلبث عشر سنوات نائحاً.

لعمر الله أيها الإخوان إني أخشى أن يغضب الله عليّ، لذلك وجب عليكم أن تسيروا في اليهودية وإسرائيل بالحق لأسباط إسرائيل الاثني عشر حتى ينكشف الخداع.

فزع الحواريون فزعاً شديداً من مجرد فكرة غضب الله على معلمهم وعلى أنفسهم، ولكنهم أجابوه إلى مراده قائلين:

- إننا لفاعلون كل ما تأمرنا به.

فلما رأى عليه السلام استعداد حوارييه على تحمل مشقات الدعوة، وعدم ترددهم في المضي قدماً رغم الشدائد قال لهم عندها:

- لنصل ولنصم ثلاثة أيام ومن الآن فصاعداً، لنصل ثلاث مرات متى لاح النجم الأول كل ليلة إذ تؤدى الصلاة لله، طالبين منه الرحمة ثلاث مرات، لأن خطيئة إسرائيل تزيد على الخطايا الأخرى ثلاثة أضعاف.

وبالفعل فقد أمضوا الأيام الثلاث في الصلاة والصوم والذكر والدعاء، وفي صباح اليوم الرابع دعاهم من جديد كل يبين لهم المهام التي سوف يضطلعون بها، ودورهم في الدعوة نيابة عنه لأسباط بني إسرائيل حيث قال لهم:

- يكفي أن يمكث معي برنابا ويوحنا، أما أنتم فجوبوا بلاد السامرة واليهودية وإسرائيل كلها مبشرين بالتوبة لأن الفأس موضوعة على مقربة من الشجرة لتقطعها، وصلوا على المرضى لأن الله قد سلطني على كل مرض.

حصر عيسى مهمة حوارييه، ودون الدخول في تفاصيل فرعية في الدعوة للتوبة، اقتناعاً منه بأن خطبه ومواعظه قد فصلت في أهداف البعثة وغاياتها، وقدمت لهم القاعدة الصلبة التي ينطلقون منها، وبرنابا وحده وبحكم صلته الوثيقة بعيسى من أكثر الحواريين معايشة لمعلمهم وأكثرهم علماً ومعرفة بمسار البعثة. كان هو وحده الذي سأل معلمه، فاتحاً الباب أمام زملائه القدامى والجدد للاستفسار حول مهمتهم، فربما تكون قد غابت عنهم بعض الأمور التي لا تمس بصورة مباشرة لجوهر الدعوة، ولكن لا غنى عنها للداعية خصوصاً في هذه المرحلة التي برزت فيها وعلى السطح أفكاراً خطيرة وهدامة يتحتم عليهم مجابهتها والتصدي لها بسلاح العلم والمعرفة العميقة بطبيعة البعثة العيسوية، فقال لعيسى كالمستعلم عن شيء يجهله:

- يا معلم إذا سئل تلاميذك عن الطريقة التي يجب بها إظهار التوبة فبماذا يجيبون.

أجابه عليه السلام:

- إذا أضاع رجل كيساً أيدير عينيه ليراه أو يده ليأخذه أو لسانه ليسأل فقط، كلا ثم كلا، يلتفت بكل جسمه، ويستعمل كل قوة في نفسه ليجده.

إن التوبة عكس الحياة الشريرة، لأنه يجب أن تنقلب كل حاسة إلى

عكس ما صنعت وهي ترتكب الخطيئة، فيجب النوح عوضاً عن المسرة، والبكاء عوضاً عن الضحك، والصوم عوضاً عن البطر، والسهر عوضاً عن النوم، والعمل عوضاً عن البطالة، والعفة عوضاً عن الشهوة، وليتحول الفضول إلى صلاة والجشع إلى تصدق.

وسأل برنابا أيضاً وكالمستدرك لما فاته، أو كأنه يحاول رفع أي خلاف أو خطأ قد يتوهم من استعلامه السابق:

- ولكن لو سئلوا كيف يجب أن ننوح، وكيف يجب أن نبكي، وكيف يجب أن نصوم، وكيف يجب أن ننشط، وكيف يجب أن نبقى أعفاء، وكيف يجب أن نصلي ونتصدق، فأي جواب يعطون. وكيف يحسنون القيام بالعقوبة البدنية إذا لم يعرفوا كيف يتوبون.

أعجب عيسى باستدراك برنابا أكثر من إعجابه باستعلامه الأول، لعلمه أن اصطفاءه له كي يلازمه يجعله بعيداً عن الاشتغال بالدعوة والتبشير، فهو يريد فقط إفادة إخوانه بإثارة المناقشة حول هذا الموضوع الحيوي في الدعوة العيسوية، فأجابه.

- لقد أحسنت السؤال يا برنابا، وأريد أن أجيب على كل ذلك بالتفصيل إن شاء الله، أما اليوم فإني أكلمك في التوبة على وجه عام، وما أقوله لواحد أقوله للجميع.

فاعلم أن التوبة يجب أن تفعل أكثر من كل شيء لمجرد محبة الله، وإلا كانت عبثاً، وإني أكلمكم بضرب الأمثلة، كل بناء إذا أزيل أساسه تساقط خراباً، أصحيح هذا؟

أجابوه قائلين:

- إنه لصحيح.

استطرد بعدها:

- إن أساس خلاصنا هو الله الذي لا خلاص لنا بدونه، فلما أخطأ الإنسان خسر أساس خلاصه، لذلك وجب الابتداء بالأساس، قولوا

لي: إذا استأتم من عبيدكم وعلمتم أنهم لم يحزنوا لأنهم أغاظوكم، بل حزنوا لأنهم خسروا جزاءهم أتغفرون لهم، لا البتة، إني أقول لكم أن الله هكذا يفعل بالذين يتوبون لأنهم خسروا الجنة، إن الشيطان عدو كل صلاح لنادم شديد الندم لأنه خسر الجنة وربح الجحيم، ومع ذلك لن يجد رحمة، فهل تعلمون لماذا، لأنه ليس عنده مجد لله بل يبغض خالقه.

الحق أقول لكم إن كل حيوان مفطور على الحزن لفقد ما يشتهي من الطيبات، لذلك وجب على الخاطىء النادم ندامة صادقة أن يرغب كل الرغبة في أن يقتص من نفسه لما صنع عاصياً لخالقه، حتى أنه متى صلى لا يجسر أن يرجو الجنة من الله، أو أن يعتقه من الجحيم، بل أن يسجد لله مضطرب الفكر ويقول من صلاته:

انظر يا رب إلى الأثيم الذي أغضبك بدون أدنى سبب في الوقت الذي كان يجب عليه أن يعبدك فيه، لذلك يطلب الآن أن تقتص منه لما فعله بيدك لا بيد الشيطان عدوك، حتى لا يشمت الفجار بمخلوقاتك أدّب واقتص كما تريد يا رب لأنك لا تعذبني كما يستحق هذا الأثيم.

فإذا جرى الخاطىء على هذا الأسلوب وجد أن رحمة الله تزيد على نسبة العدل الذي يطلبه، حقاً إن ضحك الخاطىء دنس مكروه حتى أنه يصدق على هذا العالم ما قال داود، إنه وادي الدموع، واضرب لكم مثلاً:

كان ملك تبنى أحد عبيده وجعله سيداً على كل ما يملكه، فحدث بسعاية ماكر خبيث أن وقع هذا التعيس تحت غضب الملك فأصابه شقاء عظيم لا في مقتنياته فقط، بل أُحتقر وأُنتزع منه ما كان يربحه كل يوم من العمل، أتظنون أن مثل هذا الرجل يضحك مرة أخرى؟

ضرب عيسى ذلك المثال، وسأل هذا السؤال قاصداً بهما إيقاظ رسله وإثارة انتباههم إلى أن يضعوا على رأس اهتماماتهم وضع الأمور في مكانها اللائق بها، بلا إفراط ولا تفريط، فأجابوه إجابة من فهم المراد واستوعب المقصود:

- لا ألبتة لأنه لو عرف الملك بذلك لأمر بقتله، إذ يرى أنه يضحك من غضبه، ولكن الأرجح أنه يبكي ليلاً ونهاراً.

ترقرقت الدموع من عيني عيسى حزناً وأسى على العواقب الوخيمة التي تنتظر الناس وهم غافلون عنها وجاهلون بها، فقال معقباً على إجابة حوارييه:

- ويل للعالم لأنه سيحل به عذاب أبدي ما أتعسك أيها الجنس البشري، فإن الله قد اختارك ابناً واهباً إياك الجنة، ولكنك أيها التعيس سقطت تحت غضب الله بعمل الشيطان وطردت من الجنة وحكم عليك بالإقامة في العالم النجس حيث تنال كل شيء بكدح وكل عمل صالح لك يحبط بتوالي ارتكاب الخطايا، وإنما العالم يضحك والذي هو شر من ذلك أن الخاطىء الأكبر يضحك أكثر من غيره، فسيكون كما قلتم.

إن الله يحكم بالموت الأبدي على الخاطىء الذي يضحك لخطاياه، ولا يبكي عليها، إن بكاء الخاطىء يجب أن يكون كبكاء أب على ابن مشرف على الموت، ما أعظم جنون الإنسان الذي يبكي على الجسد الذي فارقته النفس، ولا يبكي على النفس التي فارقتها رحمة الله بسبب الخطيئة.

قولوا لي إذا قدر النوتي الذي كسرت العاصفة سفينته على أن يسترد بالبكاء كل ما خسر فماذا يفعل، من المؤكد أنه يبكي بمرارة ولكني أقول لكم حقاً إن الإنسان يخطىء من البكاء على أي شيء لا على خطيئته فقط، لأن كل شقاء يحل بالإنسان إنما يحل به من الله لخلاصه حتى أنه يجب عليه أن يتهلل له، ولكن الخطيئة إنما تأتي من الشيطان للعنة الإنسان، ولا يحزن الإنسان عليها، حقاً إنكم لا تدركون أن الإنسان إنما يطلب هنا خسارة لا ربحاً.

وصدقت توقعات برنابا فما أن استوفى عيسى الكلام حول طبيعة التوبة حتى قفزت إلى أذهان الحواريين الرسل عدة تساؤلات منبثقة من التوبة أو تدور حولها، تحتاج هي الأخرى إلى مزيد من الإيضاح والبيان. بدأها برتولوماوس قائلاً:

- يا سيد ماذا يجب أن يفعل من لا يقدر أن يبكي لأن قلبه غريباً عن البكاء.

أجابه عيسى:

- ليس كل من يسكب العبرات بباك يا برتولوماوس، لعمر الله يوجد قوم لم تسقط من عيونهم عبرة قط بكوا أكثر من ألف من الذين يسكبون العبرات، إن بكاء الخاطىء هو احتراق هواه الدنيوي بشدة الأسى، وكما أن نور الشمس يقي هذا الاحتراق النفس من الخطيئة. فلو وهب الله النادم الصادق دموعاً قدر ما في البحر من ماء لتمنى أكثر من ذلك بكثير، ويفني هذا التمني تلك القطرة الصغيرة التي يود أن يسكبها كما يفني الأتون الملتهب قطرة من ماء، أما الذين يفيضون بكاء بسهولة كالفرس الذي تزيد سرعة عدوه كلما خف حمله.

إنه ليوجد قوم يجمعون بين الهدى الداخلي والعبرات الخارجية، ولكن من على هذه الشاكلة يكون كأرميا، ففي البكاء يزن الله الحزن أكثر مما يزن العبرات.

أما الحواري يوحنا فقد أثيرت في خاطره فكرة أخرى تدور في ذات الإطار السابق فسأل عيسى:

- يا معلم كيف يخسر الإنسان في البكاء على غير الخطيئة؟

فرد عليه بسؤال سعى به إلى تقريب الإجابة حيث قال:

- إذا أعطاك أرخلاوس رداء لتحفظه له ثم أخذه بعد ذلك منك أيكون لك باعث على البكاء.

أجاب يوحنا:

- لا.

حينئذ بيّن له عيسى حجم خسارة الإنسان في البكاء على أشياء لا تدخل ضمن الخطايا، قائلاً:

ـ إذاً يكون باعث الإنسان على البكاء أقل من هذا إذا خسر شيئاً أو فاته ما يريد، لأن كل شيء يأتي من يد الله، أليس لله إذاً قدرة على التصرف بأشيائه حسبما يريد، أما أنت فليس لك من ملك سوى الخطيئة فقط فعليها يجب أن تبكي لا على شيء آخر.

وأما الحواري متى فقد أثارت تلك الإجابة في ذهنه موضوعاً عقدياً بحتاً مقطوع الصلة بموضوع التوبة، فقال متسائلاً:

ـ يا معلم إنك قد اعترفت أمام اليهودية كلها بأن ليس لله من شبه كالبشر، وقلت الآن أن الإنسان ينال من يد الله، فإذا كان لله يدان فله إذاً شبه بالبشر.

فأجابه عليه السلام دون الالتفات إلى انتفاء النسبة بين الموضوعين، فقال مخاطباً إياه وحده:

ـ إنك لفي ضلال يا متى، ولقد ضل كثيرون هكذا إذ لم يفقهوا معنى الكلام، لأنه لا يجب على الإنسان أن يلاحظ ظاهر الكلام بل معناه، إذ الكلام البشري بمثابة ترجمان بيننا وبين الله، ألا تعلم أنه لما أراد الله أن يكلم آباءنا على جبل سيناء صرخ آباؤنا كلمنا أنت يا موسى ولا يكلمنا الله لئلا نموت، وماذا قال الله على لسان أشعياء النبي أليس كما بعدت السموات عن الأرض هكذا بعدت طرق الله عن طرق الناس، وأفكار الله عن أفكار الناس.

إن الله لا يدركه قياس إلى حد أني ارتجف من وصفه، ولكن يجب أن أذكر لكم قضية، فأقول لكم إذاً أن السموات تسع وإنها بعضها يبعد عن بعض كما تبعد السماء الأولى عن الأرض التي تبعد عن الأرض سفر خمس مئة سنة، وعليه فإن الأرض تبعد عن أعلى سماء مسيرة أربعة آلاف وخمس مئة سنة، فبناء على ذلك أقول لكم إنها بالنسبة إلى السماء الأولى كرأس إبرة، ومثلها السماء الأولى بالنسبة إلى الثانية، وعلى هذا النمط كل السموات بالنسبة إلى الجنة كنقطة، بل كحبة رمل، أليست هذه العظمة مما لا يقاس.

لعمر الله الذي تقف نفسي بحضرته أن الكون أمام الله لصغير كحبة رمل، والله أعظم من ذلك بمقدار ما يلزم من حبوب الرمل لملأ كل السموات والجنة بل أكثر، فانظروا الآن إذا كان هناك نسبة بين الله والإنسان الذي ليس سوى كتلة صغيرة من طين واقفة على الأرض، فانتبهوا إذاً لتأخذوا المعنى لا مجرد الكلام إذا أردتم أن تنالوا الحياة الأبدية.

لم تكن تلك الحقائق عن الله بعيدة عن أفهام الحواريين ولا جديدة عليهم، ولكن عيسى أجلاها بصورة غير تلك التي عهدوها في قراءاتهم، ومن هنا قالوا معلقين:

- إن الله وحده يقدر أن يعرف نفسه، وأنه حقاً كما قال أشعيا النبي: هو محتجب عن الحواس البشرية.

فعلق عيسى على كلامهم، وفي الوقت نفسه مواصلاً ما انقطع من حديثه عن التوبة:

- إن هذا لهو الحق لذلك سنعرف الله متى صرنا في الجنة كما يعرف هنا البحر من قطرة ماء مالح، وأعود إلى حديثي فأقول لكم:

إنه يجب على الإنسان أن يبكي على الخطيئة فقط لأنه بالخطيئة يترك الإنسان خالقه، ولكن كيف يبكي من يحضر مجالس الطرب والولائم؟! إنه يبكي كما يعطي الثلج ناراً، فعليكم أن تحولوا مجالس الطرب إلى مجالس صوم إذا أحببتم أن يكون لكم سلطة على حواسكم لأن سلطة إلهنا هكذا.

قصد عيسى بقوله هذا صرف حوارييه ولو مؤقتاً عن الحديث في الذات الإلهية، والتركيز على الموضوع الذي هم مطالبين بتحقيقه في رسالتهم للناس، ولكن تدّاوس عاد ليسأل عن الله قائلاً:

- إذاً يكون لله حاسة يمكن التسلط عليها.

فأجابهم إجابة تنطوي على العتاب واللوم الرقيق، وتتضمن في الوقت نفسه إشارة واضحة إلى الموضوعات الجديدة بالمعرفة في المرحلة المقبلة من رسالتهم، فقال لهم:

- أتعودون إذاً للقول بأن الله هذا وإن لله هكذا، قولوا لي أللإنسان حاسة؟

فأجابوه:

- نعم.

عندئذ سأل:

- أيمكن أن يوجد إنسان فيه حياة ولا تعمل فيه حاسة.

فقالوا:

- لا.

ولما تبين له عليه السلام ليس فقط خطأ إجابتهم بل أيضاً عدم فهمهم للموضوع برمته قال لهم متسائلاً:

- إنكم تخدعون أنفسكم، فأين حاسة من كان أعمى أو أطرش أو أخرس أو أبتر حين يكون في غيبوبة.

عندها وقع الحواريون في حيرة كنتيجة طبيعية لصعوبة الإجابة من جهة، وترددهم في معرفة الإجابة الصحيحة من جهة أخرى، ولأجل ذلك أزاح عليه السلام حيرتهم وترددهم بقوله:

- يتألف الإنسان من ثلاثة أشياء، النفس والحس والجسد، كل منها مستقل بذاته، لقد خلق إلهنا النفس والجسد كما سمعتم، ولكنكم لم تسمعوا حتى الآن كيف خلق الحس، لذلك أقول لكم كل شيء غداً إن شاء الله.

وفي صباح اليوم التالي وبعد أداء صلاة الفجر جلس عيسى تحت شجرة نخل، والتف حوله حوارييه كالعادة للاستماع إليه وهو يحدثهم عن الكيفية التي خلق بها الحس الإنساني، فقال:

- لعمر الله الذي تقف نفسي بحضرته، إن كثيرين مخدوعون في شأن حياتنا، لأن النفس والحس مرتبطان معاً ارتباطاً محكماً حتى أن أكثر

الناس يثبتون أن النفس والحس إنما هما شيء واحد، مفرقين بينهما بالعمل لا بالجوهر، ويسمونها النفس الحاسة والنباتية والعقلية، ولكن الحق أقول لكم إن النفس هي شيء حي مفكر، ما أشد غباوتهم، فأين يجدون النفس العقلية بدون حياة لن يجدوها أبداً، ولكن يسهل وجود الحياة بدون حس كما يشاهد في من وقع في غيبوبة حتى فارقه الحس.

وقع حديث عيسى السابق كما لو كان تصحيحاً لبعض المعلومات الشائعة حول النفس والحس والروح وعلاقة كل منها بالآخر، هنا تدخل الحواري تدّواس لتقرير مقولة أخرى شائعة بين المثقفين والمتعلمين في ذلك الوقت ليرى رأي معلمه فيها، فقال:

- يا معلم متى فارق الحس الحياة فلا تكون للإنسان حياة.

فهم عيسى على الفور مداخلة حوارييه فقال ضمن السياق نفسه مصححاً ومزيلاً عن أذهانهم تلك الأخطاء العلمية المنتشرة بين الناس:

- إن هذا ليس بصحيح لأن الإنسان إنما يفقد الحياة متى فارقته النفس، لأن النفس لا ترجع إلى الجسد إلا بآية، ولكن الحس يذهب بسبب الخوف الذي يعرض له، أو بسبب الغم الشديد الذي يعرض للنفس، لأن الله خلق الحس لأجل الملذة، ولا يعيش إلا بها، كما أن الجسد يعيش بالطعام والنفس تعيش بالعلم والحب، فهذا الحس يخالف النفس بسبب الغيظ الذي يلم به لحرمانه من ملاذ الجنة بسبب الخطيئة، لذلك وجب أشد الوجوب وآكده على من لا يريد تغذيته بالملاذ الجسدية أن يغذيه بالملاذ الروحية، أتفهمون؟

الحق أقول لكم إن الله لما خلقه حكم عليه بالجحيم والثلج والجليد اللذين لا يطاقان، لأنه قال إنه هو الله، ولكن لما حرمه من التغذية، وأخذ طعامه منه أقر أنه عبدالله وعمل يديه، والآن قولوا لي كيف يعمل الحس في الفجار، حقاً إنه لهم بمثابة الله لأنهم يتبعون الحس معرضين عن العقل وعن

شريعة الله، فيصيرون مكروهين ولا يعملون صالحاً.

وهكذا فإن أول شيء يتبع الحزن على الخطيئة الصوم، لأن من يرى أن نوعاً من الطعام أمرضه حتى خشي الموت فإنه بعد أن يحزن على أكله يعرض عنه حتى لا يمرض، فهكذا يجب على الخاطىء أن يفعل فمتى رأى أن اللذة جعلته يخطىء إلى الله خالقه باتباعه الحس في طيبات العالم هذه فليحزن لأنه فعل هكذا، لأن هذا يحرمه من الله في حياته، ويعطيه موت الجحيم الأبدي، ولكن لما كان الإنسان محتاجاً وهو عائش إلى مناولة طيبات العالم هذه وجب عليه هنا الصوم، فليأخذ إذا في إماتة الحس وأن يعرف الله سيداً له. ومتى رأى أن الحس يمقت الصوم فليضع قبالته حال الجحيم حيث لا لذة على الإطلاق بل الوقوع في حزن غير متناه، ليضع قبالته مسرات الجنة التي هي عظيمة بحيث إن حبة من ملاذ الجنة لأعظم من كل ملاذ الدنيا، فبهذا يسهل تسكينه، لأن القناعة بالقليل لنيل الكثير لخير من إطلاق العنان في القليل مع الحرمان من كل شيء والمقام في العذاب.

وعليكم أن تتذكروا الغني صاحب الولائم لكي تصوموا جيداً، لأنه لما أراد هنا على الأرض أن يتنعم كل يوم حرم إلى الأبد من قطرة واحدة من الماء، بينما قنع لعازر بالفتات هنا على الأرض، وسيعيش إلى الأبد في بحبوحة من ملاذ الجنة.

ولكن ليكن التائب متيقظاً، لأن الشيطان يحاول أو يبطل كل عمل صالح ويخص عمل التائب أكثر من سواه، لأن التائب قد عصاه وانقلب عليه عدواً عنيداً بعد أن كان عبداً أميناً، فلذلك يحاول الشيطان أن يحمله على عدم الصوم بشبهة المرض. فإذا لم يغن ذلك أغراه بالغلو في الصوم حتى ينتابه مرض فيعيش بعد ذلك متنعماً، فإذا لم يفلح في هذا حاول أن يجعله يقصر صومه على ترك الطعام الجسدي حتى يكون مثله لا يأكل شيئاً ولكنه يرتكب الخطيئة على الدوام.

لعمر الله إنه لممقوت أن يحرم المرء الجسد من الطعام ويملأ النفس

كبرياء محتقراً الذين لا يصومون، وحاسباً نفسه أفضل منهم، قولوا لي أيفاخر المريض بطعام الحمية الذي فرضه عليه الطبيب، ويدعو الذين لا يقتصرون على طعام الحمية مجانين، لا البتة، بل يحزن للمرض الذي اضطر بسببه إلى الاقتصار على طعام الحمية.

إنني أقول لكم أنه لا يجب على التائب أن يفاخر بصومه ويحتقر الذين لا يصومون، بل يجب عليه أن يحزن للخطيئة التي يصوم لأجلها ولا يجب على التائب الذي يصوم أن يتناول طعاماً شهياً بل يقتصر على الطعام الخشن، أفيعطي الإنسان طعاماً شهياً للكلب الذي يعض وللفرس الذي يرفس، لا البتة، بل الأمر بالعكس، وليكن في هذا كفاية لكم في شأن الصوم.

أصيخوا السمع إذاً لما سأقوله لكم بشأن السهر، إنه لما كان قسمين، أي نوم للجسد ونوم للنفس، وجب عليكم أن تحذروا من السهر كي لا تنام النفس والجسد ساهر، إن هكذا يكون خطأ فاحشاً جداً، ما قولكم في هذا المثل.

بينما كان إنسان ماشياً اصطدم بصخر فلكي يتجنب أن تصدم به رجله أكثر من ذلك صدمه برأسه، فما حال رجل كهذا؟[1].

أجابه البعض من حوارييه على سؤاله بقولهم:

- إنه تعيس، فإن رجلاً كهذا مصاب بالجنون.

عقّب على إجابتهم قائلاً:

- حسناً أجبتم، فإني أقول لكم حقاً، أن من يسهر الجسد وينام بالنفس لمصاب بالجنون، وكما أن المرض الروحي أشد خطراً من الجسدي فشفاؤه أشد صعوبة، أفيفاخر إذاً تعيس كهذا بعدم النوم بالجسد الذي هو رجل الحياة، بينما هو لا يرى شقاءه في أنه ينام بالنفس التي هي رأس الحياة.

---

(١) إنجيل برنابا ص١٦١ ـ ١٦٤.

إن ندم النفس هو نسيان الله وقيامته الرهيبة، فالنفس التي تسهر إنما هي التي ترى الله في كل شيء وفي كلّ مكان وتشكر جلالته في كل شيء وعلى كل شيء وفوق كل شيء عالمة أنها دائماً في كل دقيقة تنال نعمة ورحمة من الله، فمن ثم يرنّ دائماً في أذنها خشية من جلالته ذلك القول الملكي: تعالي أيتها المخلوقات للدينونة لأن إلهك يريد أن يدينك، فإنها تلبث على الدوام في خدمة الله، قولوا لي أتفضلون أن تروا بنور النجم أو بنور الشمس؟

أما هذه المرة فقد بادر الحواري إندراوس للإجابة على السؤال قائلاً:

- بنور النجم لا نقدر أن نبصر الجبال المجاورة، وبنور الشمس نبصر أصغر حبوب الرمال، لذلك نسير بخوف على نور النجم، ولكن بنور الشمس نسير باطمئنان.

حينئذ اطمأن عيسى إلى وصول المعنى من خلال المقارنة بين النورين والفارق بينهما أكمل. بعدها موعظته قائلاً:

- إنني أقول لكم هكذا يجب عليكم أن تسهروا النفس بشمس العدل التي هي إلهنا، ولا تفاخروا بسهر الجسد، وصحيح كل الصحة أنه يجب تجنب الرقاد الجسدي جهد الطاقة، إلا أن منعه البتة محال لأن الحس والجسد مثقلان بالطعام، والعقل بالمشاغل، لذلك يجب على من يريد أن يرقد قليلاً أن يتجنب فرط المشاغل وكثرة الطعام.

لعمر الله الذي في حضرته تقف نفسي أنه يجوز الرقاد قليلاً كل ليلة، إلا أنه لا يجوز أبداً الغفلة عن الله وقيامته الرهيبة، وما رقاد النفس إلا هذه الغفلة.

وكعادة برنابا في التقاط الموضوعات ذات البعد التعبدي من خطب معلمه، وإثارة القضايا وثيقة الصلة بالدعوة ككل، فقد سأل عن النصيحة الأخيرة سؤالاً تتضمن إجابته استحالة الأخذ بها وتطبيقها، وفي الوقت نفسه يفتح الباب كي يتوسع في النصيحة توسعاً يفضي إلى محو كل صعوبة تكتنفها، فقال له:

ـ يا معلم كيف لنا أن نتذكر الله على الدوام، إنه ليلوح لنا أن هذا محال.

وفجر سؤال برنابا في قلب عيسى مشاعر الحزن والأسى على هذا الإنسان المبتلى بصنوف لا حصر لها من المصائب. فقال وهو يطلق تنهيدة طويلة:

ـ إن هذا لأعظم شقاء يكابده الإنسان يا برنابا، لأن الإنسان لا يقدر هنا على الأرض أن يذكر الله خالقه على الدوام إلا الأطهار فإنهم يذكرون الله على الدوام، لأن فيهم نور نعمة الله حتى لا يقدرون أن ينسوا الله، ولكن قولوا لي أرأيتم الذين يشتغلون بالحجارة المستخرجة من المقالع كيف تعودوا بالتمرن المستمر أن يضربوا حتى أنهم يتكلمون وهم طول الوقت يضربون بالآلة الحديدية في الحجر من دون أن ينظروا إليها ومع ذلك لا يصيبون أيديهم، فافعلوا إذاً أنتم كذلك، ارغبوا في أن تكونوا أطهاراً إذا أحببتم أن تتغلبوا تماماً على شقاء الغفلة، ومن المؤكد أن الماء يشق أقوى الصخور بقطرة واحدة يتكرر وقوعها عليها زمناً طويلاً.

أتعلمون لماذا لم تتغلبوا على هذا الشقاء لأنكم لم تدركوا أنه خطيئة، لذلك أقول لكم أن من الخطأ أيها الإنسان أن يهبك أمير هبة فتغمض عنه عينيك وتوليه ظهرك، هكذا يخطىء الذين يغفلون عن الله، لأن الإنسان ينال كل حين هبات ونعمة من الله.

ألا فقولوا لي ألا ينعم الله عليكم كل حين، بل حقاً فإنه يجود عليكم دوماً بالنفس الذي به تحيون، الحق الحق أقول لكم إنه يجب على قلبكم أن يقول كلما تنفس جسدكم: الحمد لله.

سلم الحواريون لمعلمهم بضرورة ذكر الله تعالى في كل وقت وحين، وألا يغيب بالهم عن طرفة عين، ولكن ينقصهم معرفة أقصر الطرق المفضية لبلوغ هذه العبادة الخالصة والدائمة، وفيما يبدو أن يوحنا وحده هو الذي تنبه مثل برنابا إلى استحالة دوام ذكر الله، بدون اتباع خطوات بعينها تيسره

وتعين عليه، ولذلك سأل عيسى قائلاً:

- إن ما تقوله لهو الحق كل الحق يا معلم، فعلمنا أقصر الطرق لبلوغ هذه الحال السعيدة؟

فأوضح لهم عيسى أقصر الطرق لتلك العبادة بقوله:

- الحق أقول لكم إنه لا يتاح لأحد بلوغ هذه الحال بقوى بشرية بل برحمة الله ربنا. ومن المؤكد أنه يجب على الإنسان أن يشتهي الصالح ليهبه الله إياه، قولوا لي أتأخذون وأنتم على المائدة الأطعمة التي تأنفون من النظر إليها. لا البتة، كذلك أقول لكم أنكم لا تنالون ما لا تشتهون، إن الله لقادر إذا اشتهيتم الطهارة أن يجعلكم طاهرين في أقل من طرفة عين، ولكن إلهنا يريد أن ننظر ونطلب لكي يشعر الإنسان بالهبة والواهب.

أرأيتم الذين يتمرنون على رمي الهدف، حقاً إنهم ليرمون مراراً متعددة عبثاً، وكيفما كانت الحال فهم لا يرغبون مطلقاً أن يرموا عبثاً، ولكنهم يؤملون دوماً أن يصيبوا الهدف، فافعلوا هكذا أنتم الذين تشتهون دوماً أن تذكروا الله، ومتى غفلتم فنوحوا، لأن الله سيهبكم نعمة لتبلغوا كل ما قد قلته لكم.

إن الصوم والسهر الروحي متلازمان حتى إذا أبطل أحد السهر بطل الصوم تواً، لأن الإنسان بارتكاب الخطيئة يبطل صوم النفس ويغفل عن الله، وهكذا فإن السهر والصوم من حيث النفس لازمان دوماً لنا ولسائر الناس لأنه لا يجوز لأحد أن يخطىء، أما صوم الجسد وسهره فصدقوني أنهما غير ممكنين في كل حين ولا لكل شخص، لأنه يوجد مرضى وشيوخ وحبالى وقوم مقصورون على طعام الحمية وأطفال وغيرهم من أصحاب البنية الضعيفة، وكما أن كل أحد يلبس بحسب قياسه الخاص هكذا يجب عليه أن يختار صومه، لأنه كما أن أثواب الطفل لا يصلح لرجل ابن ثلاثين سنة هكذا لا يصلح صوم أحد وسهره لآخر.

ولكن احذروا الشيطان أن يوجه كل قوته لأن تسهروا في أثناء الليل ثم

تناموا بعد ذلك على حين يجب عليكم بوصية الله أن تصلوا وتصغوا إلى كلمة الله، قولوا لي أترضون أن يأكل أحد أصدقائكم اللحم ويعطيكم العظام؟

أجابه بطرس على لسانهم أجمعين:

- لا يا معلم لأن مثل هذا لا يجب أن يسمى صديقاً بل مستهزئاً.

عندها أطلق عليه السلام تنهيدة طويلة كسابقتها وقال موجهاً الحديث إلى بطرس:

- إنك نطقت بالحق يا بطرس لأن من يسهر بالجسد أكثر مما يلزم وهو نائم أو مثقل رأسه بالنعاس على حين يجب عليه أن يصلي أو يصغي إلى كلام الله، فمثل هذا التعيس حقاً يستهزىء بالله خالقه ويكون مرتكباً هذه الخطيئة، وعلاوة على ذلك فهو لص يسرق الوقت الذي يجب أن يعطيه لله ويصرفه وبقدر ما يريد، أضرب لكم مثلاً:

كان رجل يسقي أعداءه من إناء فيه أطيب خمرة، إذ كانت الخمر على أجودها، ثم لما صارت الخمر حثالة سقى سيده، فماذا تظنون السيد يفعل بعبده عندما يعرف كل شيء والعبد أمامه؟

حقاً إنه ليضربه ويقتله بغيظ عادل جرياً على شرائع العالم، فماذا يفعل الله إذاً بالرجل الذي يصرف وقته في المشاغل وأرداه في الصلاة ومطالعة الشريعة، ويل للعالم لأن قلبه مثقل بهذه الخطيئة وبما هو أعظم منها، لذلك لما قلت لكم أنه يجب أن ينقلب الضحك بكاء والولائم صوماً والرفاء مهراً جمعت في كلمات ثلاث كل ما قد سمعتموه، وهو أنه يجب على المرء هنا على الأرض أن يبكي دوماً، وأن البكاء يجب أن يكون من القلب لأن الله تعالى خالقنا مستاء، وأنه يجب عليكم أن تصوموا لكي تكون لكم سلطة على الحس، وأن تسهروا لكي لا تخطئوا، وإن البكاء الجسدي والصوم الجسديان يجب أن يكون بحسب بنية الأفراد.

توقف عيسى عن الكلام وبطريقة توحي كما لو كان تذكر شيئاً نسيه في خضم اضطراب يوم أمس، ومواصلة الدرس والموعظة بلا انقطاع فقال لحوارييه:

- يجب عليكم أن تطلبوا ثمار الحقل التي بها قوام حياتنا لأنه منذ ثمانية أيام لم نأكل خبزاً، فلذلك أصلي إلى إلهنا وانتظركم مع برنابا.

كانت خاتمة تلك الموعظة ومع إشراقة شمس هذا اليوم إيذاناً لهم بالانطلاق للدعوة وإبلاغ الناس ما وصاهم به نبيهم، فانصرف الحواريون والرسل في مجموعات أصغرها يتكون من أربعة أفراد وأكبرها من ستة متفرقين على تجمعات اليهود في أنحاء فلسطين، وبقي معه برنابا وحده، ولما غادرت آخر مجموعة المكان، أسر عيسى لبرنابا وهو يبكي بأمور لا يريد لسواه معرفتها على الأقل في الوقت الحاضر، فقال له:

- يا برنابا يجب أن أكاشفك بأسرار عظيمة يجب عليك مكاشفة العالم بها بعد انصرافي منه.

تأثر برنابا غاية التأثر ببكاء معلمه، فرد عليه باكياً هو الآخر ومعزياً.

- اسمح لي بالبكاء يا معلم ولغيري أيضاً لأننا خطأة، وأنت يا من هو طاهر ونبي الله لا يحسن بك أن تكثر من البكاء.

ثم ألقى عليه السلام على مسامع حوارييه الأثير السر الذي لا يريد لأحد الاطلاع عليه إلا بعد رفعه حياً إلى السماء، فقال له:

- صدقني يا برنابا أنني لا أقدر أن أبكي قدر ما يجب عليّ لأنه لو لم يدعني الناس إلهاً لكنت عاينت هنا الله كما يعاين في الجنة، ولكنت آمنت خشية يوم الدين، بيد أن الله يعلم أني بريء لأنه لم يخطر لي في بال أن أحسب أكثر من عبد فقير، بل أقول لك إنني لو لم أدع إلهاً لكنت حملت إلى الجنة عندما انصرف من العالم، أما الآن فلا أذهب إلى هناك حتى الدينونة، فترى إذن إذا كان يحق لي البكاء.

فاعلم يا برنابا أنه لأجل هذا يجب عليّ التحفظ وسيبيعني أحد تلاميذي بثلاثين قطعة من النقود، وعليه فإني على يقين من أن من يبيعني

يقتل باسمي، لأن الله سيصعدني من الأرض، وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة أمكث في ذلك العار زمناً طويلاً في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس، تزل عني هذه الوصمة، وسيفعل الله هذا لأني اعترفت بحقيقة محمد الذي سيعطيني هذا الجزاء أي أن أعرف أني حي وأني بريء من وصمة تلك الميتة.

من أكثر الأشياء التي أثارت حفيظة برنابا وغيظه هي كيف يسمح ذلك الحواري لنفسه على تسليم معلمه ومعلمهم إلى أعدائه، وكيف تطاوعه نفسه على مبادلة نبي الله بقطع نقدية كسلعة من السلع، فقال لمعلمه وهو موطن النفس على فدائه والذود عنه بكل غال ونفيس:

- يا معلم قل لي من هو ذلك التعيس، لأني وددت لو أميته خنقاً.

كان عيسى على يقين تام واعتقاد راسخ إن كل ذلك من تقدير العزيز الحكيم، وحكمه الذي راد له، وقضاءه الذي يجب يستقبل بالرضى والصبر، لأجل ذلك قال لبرنابا:

- صه يا برنابا فإن الله هكذا يريد، والذي سيبيعني لا يقدر أن يفعل غير ذلك، ولكن متى حلت هذه النازلة بأمي فقل لها الحق لكي تتعزى.

وبرنابا من جانبه لما أيقن بحتمية ذلك المصير، أذعن للمشيئة الإلهية مسلماً أمره كمعلمه لله تعالى، واستجابة لرغبة معلمه قال له:

- إني فاعل ذلك يا معلم إن شاء الله.

إن الفترة التي استغرقها الحواريون والرسل لإنجاز مهامهم وفيما يبدو من رواية برنابا ليست طويلة، وذلك لأن الحواريين عندما عادوا في منتصف نهار أحد الأيام، حاملين معهم حق وصنوبر وكمية لا بأس بها من الرطب، وجدوا برنابا عابس الوجه مقطب الجبين تتجلى على ملامحه مظاهر الحزن والأسى، فقفز إلى أذهانهم أن تلك علامات الفراق، وأن الساعة التي يفارقهم فيها معلمهم قد أزفت، غير أن عيسى لما أحس بتوتر أعصابهم

وشدة انزعاجهم خفف عنهم وقع المصاب بقوله:

- لا تخافوا لأن ساعتي لم تحن حتى الآن لكي أنصرف عنكم، فسأمكث معكم زمناً يسيراً، فلذلك يجب أن أعلمكم الآن كما قد قلت وسط كل إسرائيل لتبشروا بالتوبة ليرحم الله خطيئة إسرائيل، وليحذر كل واحد الكسل وخصوصاً من يستعمل العقوبة البدنية، لأن كل شجرة لا تثمر ثمراً صالحاً تقطع وتلقى في النار، وأضرب لكم مثلاً:

كان لأحد الأهالي كرم في وسطه بستان فيه شجرة تين ولما لم يجد فيها صاحبها ثمراً عندما كان يجيء مدة ثلاث سنين، ولما كان يرى أن كل شجرة أخرى أثمرت قال لكرامه:

- اقطع هذه الشجرة الرديئة لأنها تثقل عليّ الأرض فأجاب الكرام:

- ليس كذلك يا سيدي لأنها شجرة جميلة.

فقال له صاحب الأرض:

- صه فإنه لا يهمني الجمال بغير جدوى، وأنت يجب أن تعرف أن النخل والبلسان هي أجمل من التينة، ولكني غرست سابقاً في صحن داري فسيلا من النخل ومن البلسان وأحطتهما بجدران نفيسة، ولكنهما لما لم يحملا ثمراً بل أوراقاً تراكمت وأفسدت الأرض أمام الدار أمرت بنقلهما كليهما. أفأعفو إذاً عن شجرة تين بعيدة عن الدار تثقل عليّ بستاني، حيث كل شجرة أخرى تحمل ثمراً، إنني لا احتملها فيما بعد.

فقال حينئذ الكرام:

- يا سيدي إن التربة لخصبة جداً فانتظر إذاً سنة أخرى، فإني أشذب أغصان شجرة التين وأزيل عنها التربة المسمدة وأضع تربة فقيرة وحجارة فتثمر.

أجاب صاحب الأرض:

- فاذهب إذا وافعل هكذا فإني منتظر وستحمل التينة ثمراً. أفهمتم هذا المثل؟

وبلا شك فالرمزية في المثال مغرقة في الغموض والإبهام إلى حد لم يستطع أحد منهم أن يجد له تأويلاً معقولاً فردوا نافيين:

- كلا يا سيد، فسره لنا.

وتلقائياً شرع عيسى في إيضاح المثال والكشف عن غموضه قائلاً:

- إن صاحب الكرم هو الله، والكرام شريعته، فكان عند الله إذاً في الجنة النخل والبلسان لأن الشيطان هو النخل والإنسان الأول هو البلسان فطردهما لأنهما لم يحملا ثمراً من الأعمال الصالحة، بل فاها بألفاظ غير صالحة كانت قضاء على ملائكة وأناس كثيرين، ولما كان الله قد وضع الإنسان في وسط خلائقه التي تعبده كلها بحسب أمره فإذا كان كما قلت لا يحمل ثمراً فإن الله يقطعه ويدفعه إلى الجحيم، لأنه لم يعف عن الملاك والإنسان الأول فنكل بالملاك تنكيلاً أبدياً وبالإنسان إلى حين فتقول من ثم شريعة الله أن للإنسان طيبات أكثر مما يجب في هذه الحياة، فوجب عليه إذاً أن يحتمل الضيق ويحرم من الطيبات الدنيوية ليعمل أعمالاً صالحة، وعليه فإن الله يمهل الإنسان ليتوب، الحق أقول لكم إن إلهنا قضى على الإنسان بالعمل للغرض الذي قاله أيوب خليل الله ونبيه:

- كما أن الطير مولودة للطيران والسمك للسباحة هكذا الإنسان مولود للعمل.

وهكذا يقول أيضاً داود أبونا نبي الله:

- لأننا إذا أكلنا تعب أيدينا نبارك ويكون خير لنا.

لذلك يجب على كل أحد أن يعمل بحسب صفته، ألا فقولوا لي إذا كان أبونا داود وابنه سليمان اشتغلا بأيديهما فماذا يجب على الخاطىء أن يفعل.

هنا بادر يوحنا بإجابة تمثل الإجابة البديهية عن زملائه وعامة الناس:

- يعلم أن العمل شيء حسن ولكن يجب على الفقراء أن يقوموا به.

ومن إجابة يوحنا أكمل عيسى حديثه قائلاً:

- نعم لأنهم لا يقدرون أن يفعلوا غير ذلك، ولكن ألا تعلم أنه يجب على الصالح ليكون صالحاً أن يكون مجرداً عن الضرورة، فالشمس والسيارات الأخرى تتقوى بأوامر الله حتى أنها لا تقدر أن تفعل غير ذلك، فليس لهن فضل، قولوا لي أقال الله عندما أمر بالعمل:

- يعيش الفقير من عرق جبينه.

أو قال أيوب:

- كما أن الطير مولودة للطيران هكذا الفقير مولود للعمل.

بل قال الله للإنسان:

- بعرق جبينك تأكل خبزك.

وقال أيوب:

- الإنسان مولود للعمل.

وعليه فإن من ليس بإنسان معفى من هذا الأمر، حقاً إنه لا سبب لغلاء الأشياء سوى أنه يوجد جمهور غفير من الكسالى، فلو اشتغل هؤلاء وعمل بعضهم في الأرض وآخرون في صيد الأسماك في الماء لكان العالم في أعظم سعة، ويجب أن يؤدي الحساب على هذا النقص في يوم الدين الرهيب.

ليقل لي الإنسان بماذا أتى إلى الدنيا الذي بسببه يعيش بالكسل فمن المؤكد أنه ولد عرياناً وغير قادر على شيء فهو ليس صاحب كل ما وجد، بل المتصرف به. وعليه أن يقدم حساباً عنه في ذلك اليوم الرهيب، ويجب أن يخشى كثيراً من الشهوة الممقوتة التي تصير الإنسان شبيهاً بالحيوانات غير الناطقة، لأن عدو المرء من أهل بيته حتى أنه لا يمكن الذهاب إلى

محل ما لا يطرقه العدو، وما أكثر الذين هلكوا بسبب الشهوة، فبسبب الشهوة أتى الطوفان حتى أن العالم هلك أمام رحمة الله ولم ينج إلا نوح وثلاثة وثمانون شخصاً بشرياً فقط، وبسبب الشهوة أهلك الله ثلاث مدن شريرة لم ينج منها سوى لوط وولديه، وبسبب الشهوة كاد سبط بنيامين أن يفنى، وإني أقول لكم الحق أني لو عددت لكم الذين هلكوا بسبب الشهوة لما كفتني مدة خمس أيام.

بدأ كلام عيسى الأخير لحوارييه عن الشهوة عاماً وبلا تخصيص، إذ الشهوة رغبة إنسانية وطبيعية لما يحب ويراد، وليست ممقوتة إلى حد الازدراء، ومن هنا استفهم يعقوب عن أي شهوة تلك التي قادت وتقود الأمم للهلاك والبوار بقوله:

- يا سيد ما معنى الشهوة.

فأبان لهم عيسى عن مقصوده قائلاً:

- إن الشهوة عشق غير مكبوح الجماح إذا لم يرشده العقل تجاوز حدود البصيرة والعواطف، حتى أن الإنسان لما لم يكن يعرف نفسه أحب ما يجب عليه بغضه، صدقوني متى أحب الإنسان شيئاً لا من حيث إن الله أعطاه هذا الشيء فهو زان، لأنه جعل النفس متحدة بالمخلوق وهي التي يجب أن تبقى متحدة بالله خالقها، ولهذا قال الله نادباً على لسان أشعيا النبي:

- إنك قد زنيت بعشاق كثيرين لكن ارجعي إليّ أقبلك.

لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لو لم تكن في قلب الإنسان شهوة داخلية لما سقط في الخارجية، لأنه إذا اقتلع الجذر ماتت الشجرة سريعاً. فليقنع الرجل إذا بالمرأة التي أعطاه إياها خالقه وليس كل امرأة أخرى.

إذن فليست الشهوة هي المقصودة، إذ هي رغبة وميل فطري لا فكاك منه، ولا تدخل ضمن مقدورات الإنسان، ولكن المقصود هو تعلق القلب

بها تعلقاً تنقلب فيه إلى حب جارف للشيء يتجاوز كل الحدود، وكل تعلق للقلب بغير الله يجر صاحبه إلى الخسران المبين، وهو الذي أهلك من أهلك من الأمم السابقة، وهنا أشكل على الحواري إندراوس إهمال أمر النساء والغفلة عنهن في مكان يعج بهن، فنقل ما استغلق عليه إلى معلمه قائلاً:

- كيف ينسى الإنسان النساء إذا عاش في المدينة حيث يوجد كثيرات منهن فيها.

فشرح له عيسى ما استعصى عليه فهمه، وأبان له ما استبهم عليه علاجه قائلاً:

- يا إندراوس حقاً إن السكن في المدينة يضر، لأن المدينة كالإسفنجة تمتص كل إثم، فيجب على الإنسان أن يعيش في المدينة كما يعيش الجندي، إذا كان حوله أعداء يحيطون بالحصن دافعاً عن نفسه كل هجوم خائفاً على الدوام خيانة الأهلين، أقول هكذا يجب عليه أن يدفع كل إغراء خارجي من الخطيئة، وأن يخشى الحس لأن له شغفاً منوطاً بالأشياء الدنسة، ولكن كيف يدافع عن نفسه إذا لم يكبح جماح العين التي هي أصل كل خطيئة جسدية، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته أن من ليست له عينان جسديتان يأمن من العقاب، إلا ما كان إلى الدركة الثالثة، على أن من له عينان يحل به القصاص حتى الدركة السابعة، أحكي لكم هذه الواقعة:

حدث في زمن النبي إيليا أن رأى إيليا رجلاً ضريراً حسن السيرة يبكي فسأله قائلاً:

- لماذا تبكي أيها الأخ.

أجابه الضرير:

- أبكي لأني لا أقدر أن أبصر إيليا النبي.

فوبخه إيليا قائلاً:

ـ كف عن البكاء أيها الرجل لأنك ببكائك تخطىء.

سأله الضرير:

ـ ألا فقل لي أرؤية نبي الله الذي يقيم الموتى وينزل ناراً من السماء خطيئة.

أجاب إيليا:

ـ إنك تقول الصدق، لأن إيليا لا يقدر أن يأتي شيئاً مما قلت على الإطلاق، فإنه رجل نظيرك لأن أهل العالم بأسرهم لا يقدرون أن يخلقوا ذبابة واحدة.

فقال الضرير:

ـ إنك تقول هذا أيها الرجل لأنه لا بد أن يكون قد وبخك إيليا على بعض خطاياك، فلذلك تكرهه.

أجاب إيليا:

ـ عسى أن تكون قد نطقت بالحق، لأني لو أبغضت إيليا أيها الأخ لأحببت الله، وكلما زدت بغضاً لإيليا زدت حباً في الله.

فاغتاظ الضرير غيظاً شديداً، وقال:

ـ لعمر الله إنك لفاجر، أيمكن لأحد أن يحب الله وهو يكره نبي الله، انصرف من هنا لأني لست بمصغ إليك فيما بعد.

فقال إيليا حينئذ:

ـ أيها الأخ إنك لترى الآن بعقلك شدة شر البصر الجسدي، لأنك تتمنى بصراً لتبصر به إيليا وأنت تبغض إيليا بنفسك.

فقال الضرير رداً عليه:

ـ ألا فانصرف لأنك أنت الشيطان الذي يريد أن يجعلني أخطىء إلى قدوس الله.

فتنهد حينئذ إيليا وقال بعيون دامعة:

- إنك لقد قلت الصدق أيها الأخ لأن جسدي الذي تود أن تراه يفصلني عن الله.

فقال الضرير:

- إني لا أود أن أراك، بل لو كان لي عينان لاغمضتهما لكي لا أراك.

حينئذ قال إيليا:

- اعلم أيها الأخ أني أنا إيليا.

فقال الضرير:

- إنك لا تقول الصدق.

حينئذ قال إيليا:

- أيها الأخ إنه إيليا نبي الله بعينه.

فقال الضرير:

- إذا كان النبي فليقل لي من أي ذرية أنا وكيف صرت ضريراً.

أجابه إيليا:

- إنك من سبط لاوى، ولأنك نظرت وأنت داخل هيكل الله إلى امرأة بشهوة على مقربة من المقدس أزال إلهنا بصرك.

فقال حينئذ الضرير باكياً:

- اغفر لي يا نبي الله الطاهر لأني قد أخطأت إليك في الكلام وإني لو أبصرتك لما كنت أخطأت.

فقال إيليا:

- ليغفر لك إلهنا أيها الأخ، لأني أعلم أنك فيما يخصني قد قلت

الصدق، لأني كلما ازددت بغضاً لنفسي ازددت محبة لله، ولو رأيتني لخمدت رغبتك التي ليست مرضية لله، لأن إيليا ليس هو خالقك بل الله.

ثم قال إيليا باكياً:

- إني أنا الشيطان فيما يختص بي لأني أحولك عن خالقك، فابك إذاً أيها الأخ إذ لم يكن لك نور يريك الحق من الباطل، لأنه لو كان لك ذلك لما احتقرت تعليمي، لذلك أقول لك أن كثيرين يتمنون أن يرونني ويأتون من بعيد ليروني وهم يحتقرون كلامي، لذلك كان خيراً لهم لخلاصهم ألا تكون لهم عيون لأن كل من يجد لذة في المخلوق إياً كان ولا يطلب أن يجد لذة في الله فقد صنع صنماً في قلبه وترك الله.

توقف عيسى لبرهة وجيزة ليسأل حوارييه وهو يطلق تنهيدة عميقة من تنهيداته التي تحمل دوماً زفرة من زفرات الحزن والألم قائلاً:

- أفهمتم كل ما قاله إيليا.

وما قاله إيليا ليس فيه من الغموض ما يستدعي مزيداً من الشرح والإيضاح، ولأجل ذلك انتقلوا إلى موضوع آخر يكتنفه الغموض والإبهام فقالوا لمعلمهم:

- حقاً لقد فهمنا، وإننا لحيارى من العلم بأنه لا يوجد هنا على الأرض إلا قليلون من الذين لا يعبدون الأصنام.

وعلى الرغم من أن رد الحواريين هو من قبيل التعجب ولا يحمل تساؤلاً مباشراً كسائر الأسئلة، إلا أن عيسى كما عودهم وعودوه، اعتبر تعجبهم في حد ذاته رغبة متوارية في إيضاح هذه الحقيقة المحيرة لأذهانهم، فقال لهم.

«إنكم تقولون الحق لأن إسرائيل كان الآن راغباً في إقامة عبادة الأصنام التي في قلوبهم إذ حسبوني إلهاً، وكثيرون منهم قد احتقروا الآن

تعليمي قائلين أنه يمكنني أن أجعل نفسي سيد اليهودية كلها إذا اعترفت بأنني إله، وإني مجنون إذا رضيت أن أعيش في الفاقة في أنحاء البرية دون أن أقيم على الدوام بين الرؤساء في عيش رغيد، ما أتعسك أيها الإنسان الذي يحترم النور الذي يشترك فيه الذباب والنمل، ويحتقر النور الذي يشترك فيه الملائكة وأخلاء الله الأطهار خاصة.

فإذا لم تحفظ العين يا إندراوس فإني أقول لك أن عدم الانغماس في الشهوة حينئذ من المحال، لذلك قال أرميا النبي باكياً بشدة:

- عين لص يسرق نفسي.

ولذلك صلى داود أبونا بأعظم شوق لله أن يحول عينيه لكي لا يرى الباطل، لأن كل ما له نهاية إنما هو باطل قطعاً، قل لي إذاً إذا كان لأحد فلسان يشتري بهما خبزاً أفيصرفهما مشترياً دخاناً، لا ألبتة لأن الدخان يضر العينين ولا يقيت الجسم، فعلى الإنسان أن يفعل هكذا لأنه يجب عليه ببصر عينيه الخارجي وبصر عقله الداخلي أن يطلب ليعرف الله خالقه، ومرضاة مشيئته، وألا يجعل غرضه المخلوق الذي يجعله يخسر الخالق.

لأنه حقاً كلما نظر الإنسان شيئاً ونسي الله الذي خلقه فقد أخطأ، إذ لو وهبك صديق شيئاً تحفظه ذكرى له فبعته ونسيت صديقك فقد أغظت صديقك، فهذا ما يفعل الإنسان لأنه عندما ينظر إلى المخلوق ولا يذكر الخالق الذي خلقه إكراماً للإنسان يخطىء إلى الله خالقه بالكفران بالنعمة.

فمن ينظر إذاً إلى النساء وينسى الله الذي خلق المرأة لأجل خير الإنسان يكون قد أحبها واشتهاها، وتبلغ منه شهوته هذه مبلغاً يحسب معه كل شيء شبيه بالشيء المحبوب فتنشأ عن ذلك الخطيئة التي يخجل من ذكرها، فإذا وضع الإنسان لجاماً لعينيه يصير سيد الحس الذي لا يشتهي ما لا يقدم له، وهكذا يكون الجسد تحت حكم الروح، فكما أن السفينة لا تتحرك بدون ريح لا يقدر الجسد أن يخطىء بدون الحس.

أما ما يجب على التائب عمله بعد ذلك من تحويل الثرثرة إلى صلاة فهو ما يقول به العقل حتى لو لم يكن وصية من الله، لأن الإنسان يخطىء

في كل كلمة قبيحة، ويمحو إلهنا خطيئته بالصلاة، لأن الصلاة هي شفيع النفس، الصلاة هي دواء النفس، الصلاة هي صيانة القلب، الصلاة هي سلاح الإيمان، الصلاة هي لجام الحس، الصلاة هي ملح الجسد الذي لا يسمح بفساده بالخطيئة، أقول لكم إن الصلاة هي يدا حياتنا اللتان يدافع بهما المصلي عن نفسه في يوم الدين، فإنه يحفظ نفسه من الخطيئة هنا على الأرض ويحفظ قلبه حتى لا تمسه الأماني الشريرة مغضباً للشيطان لأنه يحفظ حسه ضمن شريعة الله ويسلك جسده في البر نائلاً من الله كل ما يطلب.

لعمر الله الذي نحن في حضرته إن الإنسان بدون صلاة لا يقدر أن يكون رجلاً ذا أعمال صالحة أكثر مما يقدر أخرس على الاحتجاج عن نفسه أمام ضرير أو أكثر من إمكان برء ناسور بدون مرهم، أو مدافعة رجل عن نفسه بدون حركة أو مهاجمة آخر بدون سلاح أو إقلاع في سفينة بدون دفة، أو حفظ اللحوم الميتة بدون ملح، فإن من المؤكد أن من ليس له يدان لا يقدر أن يأخذ، فإذا تمكن المرء من تحويل السرقين إلى ذهب، أو الطين إلى سكر فماذا يفعل؟[1]».

سكت عيسى سكوتاً فهم منه الحواريون أنه يريد منهم إجابة ولو من قبيل إشراكهم في الحديث، وإلا فالإجابة بديهية، ولأجل ذلك قالوا له:

- لا يتعاطى أحد عملاً آخر سوى صنع الذهب والسكر.

فأخذ عليه السلام إجابتهم تلك كحلقة وصل بين حديثه السابق وحديثه اللاحق، حيث قال:

- ألا فلماذا لا يحول المرء الثرثرة إلى صلاة، أعطاه الله الوقت لكي يُغضب الله، أي متبوع يهب تابعه مدينة لكي يثير هذا عليه حرباً، لعمر الله لو علم المرء إلى أية صورة تتحول النفس بالكلام الباطل لفضل عض لسانه بأسنانه على التكلم، ما أتعس العالم لأن الناس

---

(١) إنجيل برنابا ص١٧٩ ـ ١٨١.

لا يجتمعون اليوم للصلاة بل للشيطان في أورقة الهيكل، بل في الهيكل نفسه ذبيحة الكلام الباطل، بل ما هو شر من ذلك من الأمور التي لا يمكن التكلم عنها دون خجل.

أما ثمر الكلام الباطل فهو هذا: إنه يوهن البصيرة إلى حد لا يمكنها معه أن تكون مستعدة لقبول الحق، فهي كفرس اعتاد أن يحمل رطلاً من القطن فلم يعد قادراً أن يحمل رطل من الحجر.

ولكن شر من ذلك الرجل الذي يصرف وقته في المزاح، فمن أراد أن يصلي ذكره الشيطان بنفس الفكاهات المزحية، حتى أنه عندما يجب عليه أن يبكي على خطاياه لكي يستمنح الله الرحمة، ولينال غفران خطاياه يثير بالضحك غضب الله الذي سيؤدبه ويطرحه خارجاً.

ويل إذاً للمازحين والمتكلمين بالباطل، ولكن إذا كان يمقت إلهنا المازحين والمتكلمين بالباطل فكيف يعتبر الذين يتذمرون ويغتابون جيرانهم. وفي أي ورطة يكون الذين يتخذون ارتكاب الخطيئة ضرباً من التجارة على غاية الضرورة، أيها العالم الدنس، لا أقدر أن أتصور بأي صرامة يقتص منك الله، فعلى من يجاهد نفسه أن يعطي كلامه بثمن الذهب.

هنا تساءل الحواريون:

- ولكن من يشتري كلامه امرىء بثمن الذهب؟ لا أحد قط، وكيف يجاهد نفسه، من المؤكد أنه يصير طماعاً.

فأجابهم:

- إن قلبكم ثقيل جداً حتى إني لا أقدر على رفعه، لذلك لزم أن أفيدكم معنى كل كلمة، ولكن اشكروا الله الذي وهبكم نعمة لتعرفوا أسرار الله، لا أقول أن على التائب أن يبيع كلامه بل أقول أنه متى تكلم وجب عليه أن يحسب أنه يلتقط ذهباً، حقاً إن فعل ذلك فإنه يتكلم متى كان الكلام ضرورياً فقط كما يصرف الذهب على الأشياء الضرورية، فكما لا يصرف أحد ذهباً على شيء يكون من ورائه

ضرر بجسده، كذلك لا ينبغي له أن يتكلم عن شيء قد يضر نفسه.

إذا سجن حاكم مسجوناً ليمتحنه، والمسجل يسجل قولوا لي كيف يتكلم رجل كهذا؟

فأجابوه إجابة تعد من البديهيات كسابقتها:

- إنه يتكلم بخوف وفي الموضوع، حتى لا يجعل نفسه مظنة للتهمة ويكون على حذر من أن يقول شيئاً يكدر الحاكم بل يحاول أن يقول شيئاً باعثاً على إطلاقه.

وبلا انقطاع واضح في السرد أكمل عيسى موعظته قائلاً:

- هذا ما يجب إذاً على التائب عمله لكي لا يخسر نفسه، لأن الله أعطى لكل إنسان ملاكين مسجلين أحدهما لتدوين الخير الذي يعمله الإنسان والآخر لتدوين الشر، فإذا أحب الإنسان أن ينال رحمة ما فليزن كلامه بأدق مما يزن الذهب.

أما البخل فيجب تحويله إلى تصدق، الحق أقول لكم أنه كما أن غاية الشاقول المركز، كذلك الجحيم غاية البخيل، لأنه من المحال أين ينال البخيل خيراً في الجنة، أتعلمون لماذا، إني مخبركم لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن البخيل وإن كان لسانه صامتاً ليقول بأعماله: لا إله غيري لأنه يصرف كل ماله على ملذاته الخاصة غير ناظر إلى بدايته أو نهايته، فإنه ولد عرياناً ومتى مات ترك كل شيء.

ألا قولوا لي إذا أعطاكم هيرودتس بستاناً لتحفظوه وأحببتم أن تتصرفوا فيه كأنكم أصحاب الملك فلا ترسلون ثمراً منه لهيرودتس ومتى أرسل هيرودتس يطلب ثمراً طردتم رسله، قولوا لي ألا تكونون بذلك قد جعلتم أنفسكم ملكاً على البستان، بلى البتة. فأقول لكم إنه هكذا يجعل البخيل ملكاً على الثروة التي وهبها إياه الله.

البخل هو عطش الحس الذي لما فقد الله بالخطيئة لأنه يعيش

بالملذة، ولما لم يعد قادراً على الابتهاج بالله المحتجب عنه أحاط نفسه بالأشياء الدنيوية يحسبها خيره، وكلما رأى نفسه محروماً من الله ازداد قوة، وهكذا فإن تجدد الخاطىء إنما هو من الله، الذي ينعم عليه فيتوب كما قال أبونا داود:

- هذا التغيير يأتي من يمين الله.

ومن الضروري أن أفيدكم من أي نوع هو الإنسان إذا كنتم تريدون أن تعلموا كيف يجب فعل التوبة، ولنشكر اليوم الله الذي وهبنا نعمة لأبلغ إرادته بكلمتي.

قال عيسى هذا ثم رفع يديه إلى السماء داعياً ومناجياً ربه بهذه الكلمات:

- أيها الرب الإله القدير الرحيم الذي خلقتنا نحن عبيدك برحمة، ومنحتنا مرتبة البشر، ودين رسولك الحقيقي، إننا نشكرك على كل إنعاماتك ونود أن نعبدك وحدك كل أيام حياتنا، نادبين خطايانا مصلين ومتصدقين صائمين ومطالعين كلمتك، مثقفين الذين يجهلون مشيئتك، مكابدين الآلام في الدنيا حباً فيك، وباذلين نفسنا للموت خدمة لك، فنجنا أنت يا رب من الشيطان ومن الجسد ومن الدنيا، كما نجيت مصطفاك إكراماً لنفسك، وإكراماً لرسولك محمد الذي لأجله خلقتنا وإكراماً لكل أوليائك وأنبيائك.

كان الحواريون أثناء تدفق تلك العبارات المفعمة بالتضرع يرددون القول.. ليكن كذلك، ليكن كذلك، أيها الإله الرحيم.

لا يعرف بالتحديد الفترة التي انقطع فيها عيسى من إلقاء دروسه ولكن من الثابت أنهم لم يغادروا ضفاف نهر الأردن منذ تلك الأحداث العاصفة، ومكثوا هنالك منقطعين انقطاعاً تاماً للعبادة، وفي صباح إحدى أيام الجمعة التي مرت عليهم وهم على تلك الحالة جمع عيسى حوارييه باكر وقال لهم:

- لنجلس لأنه كما أنه في مثل هذا اليوم خلق الله الإنسان من طين

الأرض، هكذا أفيدكم أي شيء هو الإنسان إن شاء الله.

وكعادتهم في جلسة من تلك الجلسات المحببة إلى قلوبهم تجمعوا حول معلمهم في شكل دائرة حيث قال لهم:

- إن إلهنا لأجل أن يظهر لخلائقه جوده ورحمته وقدرته على كل شيء من كرمه وعدله صنع مركباً من أربعة أشياء متضاربة ووحدها في شبح واحد نهائي هو الإنسان، وهو التراب والهواء والماء والنار ليعدل كل منها ضده، وصنع من هذه الأشياء الأربعة إناء وهو جسد الإنسان من لحم وعظام ودم ونخاع وجلد مع أعصاب وأوردة وسائر أجزائه الباطنية، ووضع الله فيه النفس والحس بمثابة يدين لهذه الحياة وجعل مثوى الحس في كل جزء من الجسد لأنه انتشر هناك كالزيت، وجعل مثوى النفس حيث تتحد فتتسلط على الحياة كلها.

فبعد أن خلق الله الإنسان هكذا، وضع فيه نوراً يسمى العقل، ليوحد الجسد والحس والنفس لمقصد واحد وهو العمل لعبادة الله، فلما وضع هذه الصنيعة في الجنة وأغرى الحس العقل بعمل الشيطان فقد الجسد راحته، وفقد الحس المسرة التي يحيا بها وفقدت النفس جمالها.

فلما وقع الإنسان في هذه الورطة، وكان الحس الذي لا يطمئن إليه في العمل، بل يطلب مسرة غير مكبوحة الجماح بالعقل اتبع النور الذي تظهره له العينان، ولما كانت العينان لا تبصران شيئاً غير الباطل خدع نفسه واختار الأشياء الدنيوية فأخطأ.

لذلك وجب برحمة الله أن ينور عقل الإنسان من جديد ليعرف الخير من الشر، والمسرة الحقيقية، فمتى عرف الخاطىء ذلك تحول إلى التوبة لذلك أقول لكم حقاً أنه إذا لم ينور الله ربنا قلب الإنسان فإن تعقل البشر لا يجدي.

إن النتيجة الطبيعية التي خلص إليها يوحنا وهو يستمع لوظيفة العقل والتعقل هي بطلان قيمة النطق الإنساني، فقطع على معلمه سرده لتلك الحقائق ليسأله:

- إذاً ما هي الجدوى من كلام الإنسان.

أجاب عيسى على سؤاله وبنبرة توحي كما لو كان يوحنا قد استعجل الأمر فقال:

- الإنسان من حيث هو إنسان لا يفلح في تحويل إنسان إلى التوبة، أما الإنسان من حيث هو وسيلة يستخدمها الله فهو يجدد الإنسان، ولما كان الله يعمل في الإنسان بطريقة خفية لخلاص البشر وجب على المرء أن يصغي لكل إنسان حتى يقبل من بين الجميع ذلك الذي يكلمنا به الله.

غير أن الاستماع لكل الناس وفيهم الصالح والطالح يجعل المستمع عرضة لسماع الحق والباطل، الشيء الذي أدى بالحواري يعقوب لسؤاله عن المخرج من هذا الموقف، فقال:

- يا معلم لو فرضنا أن أتى نبي دعي ومعلم كذاب مدعياً أنه يهذبنا فماذا يجب أن نفعل؟

لم يعط عيسى لحوارييه إجابة مباشرة على سؤال يعقوب، بل ساق لهم مثلين، تمهيداً للإفادة المرجوة من كلامه المقبل، وتوطئة لأسلم الطرق في تبيان الحق من الباطل فقال:

- ذهب رجل ليصطاد بشبكة فيمسك فيها سمكاً كثيراً والرديء منه يطرحه، وأيضاً ذهب رجل ليزرع، وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق فجاءت الطيور وأكلته، وسقط آخر على الأماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أرض، ولكن لما أشرقت الشمس احترق. وإذ لم يكن له أصل جف، وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه، وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمراً بعض مئة وآخر ستين وآخر ثلاثين. فهكذا يجب عليكم أن تفعلوا مصغين إلى الجميع وقابلين الحق فقط، لأن الحق وحده يحمل ثمراً للحياة الأبدية.

عندئذ اتضح للجميع الفائدة المرجوة من الانفتاح والاستماع إلى الكل شريطة ألا يُقبل إلا الحق، ولكن الحواري إندراوس قال مستدركاً:

- ولكن كيف يعرف الحق.

فأجابه عيسى:

- كل ما ينطبق على كتاب موسى فهو حق فاقبلوه، لأنه لما كان الله واحداً كان الحق واحداً، فينتج من ذلك أن التعليم واحد، وأن معنى التعليم واحد، فالإيمان إذاً واحد، الحق أقول لكم أنه لو لم يمح الحق من كتاب موسى لما أعطى الله داود أبانا الكتاب الثاني، ولو لم يفسد كتاب داود لم يعهد الله بإنجيله إليّ، لأن الرب إلهنا غير متغير، ولقد نطق برسالة واحدة لكل البشر، فمتى جاء محمد رسول الله يجيء ليطهر كل ما أفسد الفجار من كتابي.

تحير الحواريون من هذه الإجابة التي تكشف أن الحق نفسه قد يكون عرضة للفساد، وقد يختلط بالباطل إلى مدى يجعل الاهتداء إليه أمر بالغ الصعوبة، ولأجل ذلك سأل برنابا كعادته سؤالاً أصاب به كبد الحقيقة جاء فيه:

- يا معلم ماذا يجب على المرء فعله متى فسدت الشريعة وتكلم النبي المدعي؟

فرد عليه معلمه مبدياً إعجابه واستحسانه بالسائل والسؤال قائلاً:

- إن سؤالك لعظيم يا برنابا لذلك أفيدك أن الذين يخلصون في مثل ذلك الوقت قليلون لأن الناس لا يفكرون في غايتهم التي هي الله. لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته أن كل تعليم يحول الإنسان عن غايته التي هي الله لشر عظيم، لذلك يجب عليك ملاحظة ثلاثة أمور في التعليم، أي المحبة لله، وعطف المرء على قريبه، وبغضك لنفسك التي أغضبت الله وتغضبه كل يوم، فتجنب كل تعليم مضاد لهذه الرؤوس الثلاثة لأنه شر جداً.

ولما استوفى عيسى الكلام في هذا الموضوع، انتقل إلى الموضوع الذي بقي ناقصاً لم يستوفيه حقه من الشرح والإبانة نتيجة لمداخلات حوارييه، فقال لهم:

- وإني لأعود الآن إلى البخل، فأفيدكم أنه متى أراد الحس الحصول على شيء أو الحرص عليه يجب أن يقول العقل: لا بد من نهاية لهذا الشيء ومن المؤكد أنه إذا كان له نهاية فمن الجنون أن يحب، لذلك وجب على الإنسان أن يحب ويحفظ ما لا نهاية له، فليتحول بخل الإنسان إذاً إلى صدقة موزعاً بالعدل ما قاله بالظلم.

وليكن على انتباه حتى لا تعرف اليد اليسرى ما تفعله اليد اليمنى، لأن المرائين إذا تصدقوا يحبون أن ينظرهم ويمدحهم الناس، ولكن الحق أنهم مغرورون لأن من يشتغل لإنسان فمنه يأخذ أجره، فإذا نال إنسان شيئاً من الله وجب عليه أن يعبد الله، وتوخوا متى تصدقتم أن تحسبوا إنكم تعطون الله كل شيء حباً في الله، فلا تبطئوا في العطاء، وأعطوا خير ما عندكم حباً في الله.

قولوا لي أتريدون أن تنالوا شيئاً رديئاً من الله، لا ألبتة أيها التراب والرماد. فكيف يكون عندكم إيمان إذا أعطيتم شيئاً رديئاً حباً في الله، ألا تعطوا شيئاً خير من أن تعطوا شيئاً رديئاً، لأن لكم في عدم العطاء شيئاً من المعذرة في عرف الناس، ولكن ما تكون معذرتكم في إعطاء شيء لا قيمة له وإبقاء الأفضل لأنفسكم، وهذا كل ما أملك أن أقول لكم في شأن التوبة.

جاءت الجملة الأخيرة مؤذنة في نبرتها ومعناها باستيفاء التوبة حقها من الكلام، لا قفل باب الحديث فيها، ولأجل ذلك سأل برنابا سؤال يوحي هو الآخر بأنه ختام الأسئلة في التوبة قال فيه:

- كم يجب أن تدوم التوبة.

فرد عليه بقوله:

- يجب على الإنسان ما دام في حال الخطيئة أن يتوب ويجاهد نفسه، فكما أن الحياة البشرية تخطىء على الدوام وجب عليها أن تقوم بجهاد النفس على الدوام، إلا إذا كنتم تحسبون أحذيتكم أكرم من نفسكم لأنه كلما انفتق حذاؤكم أصلحتموه.

ومهما يكن من أمر فإن موضوع التوبة يأتي على رأس أهداف البعثة العيسوية، ومن أكثر الموضوعات التي اشتملت عليها خطبه ومواعظه، وذلك لحاجة الناس الماسة إليها، ومن هنا دعا حوارييه عقب تلك الجلسة، ومقصوده الجوهري أوضحه لهم في قوله:

- اذهبوا وبشروا كما سمعتم.

أي بالتوبة والرجوع إلى الشريعة الموسوية والتقيد بأحكامها. وأيضاً في مجموعات صغيرة جداً لا يتجاوز عدد المجموعة الواحدة الاثنان بأي حال من الأحوال، وفي اليوم المحدد لانطلاقهم وقفوا أمامه كل مبعوث ورسول بجوار رفيقه، حيث وضع يديه الكريمتين على رأس كل مجموعة على حدة وهو يقول لهما:

- باسم الله أبرئوا المرضى أخرجوا الشياطين وأزيلوا ضلال إسرائيل في شأني مخبريهم ما قلت أمام رئيس الكهنة.

كما أوصاهم أيضاً على ألا يحملوا شيئاً في الطريق غير عصا فقط، لا مزوداً ولا خبزاً ولا نحاساً، وتكون أقدامهم مشدودة بنعال. وألا يلبسوا ثوبين، ثم ختم حديثه لهم بقوله.

- حيثما دخلتم بيتاً فأقيموا فيه حتى تخرجوا ممن هناك، وكل من لا يقبلكم ولا يسمع لكم فأخرجوا من هناك وانفضوا التراب الذي تحت أرجلكم شهادة عليهم، الحق أقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة.

وانصرف المبعوثون مثنى مثنى عدا برنابا ويعقوب ويوحنا ويهوذا بحكم مهمامهم المالية في الدعوة، وجابوا مدن اليهود وقراهم مبشرين

بالتوبة والرجوع إلى هدى الله. يؤيدهم في دعوتهم ورسالتهم السلطان الذي منحهم إياه نبي الله عيسى بإذن الله لشفاء كل مرض من الأمراض المستعصية، حتى ثبت بالفعل في أرجاء المنطقة وتحقق ليس فقط أن عيسى نبي الله ورسوله، بل أيضاً إثبات كونه مبعوثاً لإحياء دين نسيت تعاليمه وحرفت أحكامه، وتنكب أتباعه طريق الحق، وفي الوقت نفسه مبشراً بمقدم محمد رسول الله الخاتم للرسل والأنبياء.

وعند عودتهم بعد أداء مهمتهم على الوجه الأتم، استقبلهم عيسى كما يستقبل الأب أبناءه، ورحب بعودتهم ترحيباً يدل على عظم الرسالة التي حملوها للناس، فقال لهم:

- أخبروني كيف فعل الرب إلهنا، حقاً إني لقد رأيت الشيطان يسقط تحت أقدامكم وأنتم تدوسونه كما يدوس الكرام العنب.

فأجابوه:

- يا معلم لقد أبرأنا عدداً لا يحصى من المرضى وأخرجنا شياطين كثيرين كانوا يعذبون الناس.

عندها لفت نظرهم إلى ما في قولهم من خطأ قد يجر إلى الوقوع في الشرك فنبههم إليه بلطف ورقة قائلاً:

- ليغفر الله لكم أيها الإخوة لأنكم أخطأتم إذا قلتم أبرأنا وإنما الله هو الذي فعل ذلك كله.

أقر الحواريون وفي التو واللحظة بغلطتهم قائلين:

- لقد تكلمنا بغباوة فعلمنا كيف نتكلم.

فنصحهم بقوله:

- في كل عمل صالح قولوا: الرب صنع، وفي كل عمل ردىء قولوا أخطأت.

فوعدوه بالالتزام حرفياً بنصيحته قائلين:

- إنا لفاعلون هكذا.

سألهم بعد ذلك عن بعض الأمور التي قابلتهم قائلاً:

- ماذا يقول إسرائيل وقد رأى الله يصنع على أيدي جمهور من الناس ما صنع الله على يدي.

أجابوه:

- يقولون إنه يوجد إله واحد وإنك نبي الله.

فتهلل وجه عيسى بالبشر والفرح فقال معلقاً:

- تبارك اسم الله القدوس الذي لم يحتقر رغبة عبده هذا.

وعلى أي حال فقد قضى عيسى عقب عودة حوارييه فترة من الزمان في راحة واستجمام تامّين، شاركه فيها رسله بحكم معاناتهم الطويلة في التجوال. وهي فترة فيما يبدو لم تتخللها أية مواعظ وتعاليم، إما لانفراد عيسى طلباً للعزلة المحببة إلى قلبه، أو استعداداً لمرحلة جديدة يتولى فيها الدعوة بنفسه. ولعل هذا ما حدث بالفعل، فبعد انقضاء تلك الفترة ترك هو وحواريوه ضفاف نهر الأردن واتجهوا رأساً إلى القدس.

وما أن دخل عليه السلام القدس، وشاع خبر وجوده فيها حتى تقاطر الناس على الهيكل للإسعاد برؤيته والاستماع لخطبه ومواعظه التي تفعل فيهم فعل السحر، وبعد المقدمات التقليدية التي تسبق عادة كل خطبة وأولها قراءة نصوص من التوراة أو فقرات من الزبور، ارتقى عليه السلام المنصة التي يرتقيها الكتبة، ثم أشار بيديه للجموع المحتشدة إشارة دالة على السكوت ولزوم الصمت، فقال لهم على أثرها:

«أيها الإخوة تبارك اسم الله القدوس الذي خلقنا من طين الأرض لا من روح ملتهب، لأنه متى أخطأنا وجدنا رحمة عندالله لن يجدها الشيطان أبداً، لأنه لا يمكن إصلاحه بسبب كبريائه، إذ يقول أنه شريف دوماً لأنه روح ملتهب.

هل سمعتم أيها الإخوة ما يقول أبونا داود عن إلهنا، إنه يذكرنا أننا تراب، وأن روحنا تمضي فلا تعود أيضاً فلذلك رحمنا، طوبى للذين يعرفون هذه الكلمات لأنهم لا يخطئون إلى ربهم إلى الأبد، فإنهم بعد أن يخطئوا يتوبون، فلذلك لا تدوم خطيئتهم، ويل للمتغطرسين لأنهم سيذلون في جمرات الجحيم، فقولوا لي أيها الإخوة ما هو سبب الغطرسة؟

أيتفق أن يوجد صلاح على الأرض، لا ألبتة لأنه كما يقول سليمان نبي الله:

إن كل ما تحت الشمس باطل.

ولكن إذا كانت أشياء العالم لا تسوغ لنا الغطرسة بقلبنا فبالأحرى ألا تسوغه حياتنا لأنها مثقلة بشقاء كثير، لأن كل الحيوانات التي هي دون الإنسان تقاتلنا، ما أكثر الذين قتلهم حر الصيف المحرق والبرد، ما أكثر الذين غرقوا في البحر بعصف الريح، وما أكثر الذين ماتوا من الوباء والجوع، أو لأن الوحوش الضارية قد افترستهم أو نهشتهم الأفاعي أو خنقهم الطعام.

ما أتعس الإنسان المتغطرس إذ إنه يرزح تحت أحمال ثقيلة وتقف له في كل موضوع جميع الخلائق بالمرصاد، ولكن ماذا أقول عن الجسد والحس اللذين لا يطلبان إلا الإثم، وعن العالم الذي لا يقدم إلا الخطيئة، وعن الشرير الذي لما كان يخدم الشيطان يضطهد كل من يعيش بحسب شريعة الله، ومن المؤكد أيها الإخوة أن الإنسان كما يقول داود لو تأمل الأبدية بعينه لما أخطأ.

وليس تغطرس الإنسان بقلبه سوى إقفال رأفة الله ورحمته حتى لا يعود يصفح، لأن أبانا داود يقول:

- إن إلٰهنا يذكر أننا لسنا سوى تراب، وأن روحنا تمضي ولا تعود أبداً.

فمن تغطرس إذاً أنكر أنه تراب وعليه فلما كان لا يعرف حاجته فهو

لا يطلب عوناً فيغضب الله معينه، لعمر الله الذي تقف نفسي في أن الله يعفو عن الشيطان لو عرف الشيطان شقاءه وطلب رحمة من خالقه المبارك إلى الأبد.

لذلك أقول لكم أيها الإخوة إنني أنا الذي هو إنسان من تراب وطين يسير على الأرض أقول لكم جاهدوا أنفسكم واعرفوا خطاياكم، أقول أيها الإخوة إن الشيطان ضللكم بواسطة الجنود الرومانية عندما قلتم أنني أنا الله، فاحذروا من أن تصدقوهم، لأنهم واقعون تحت لعنة الله وعابدون الآلهة الباطلة الكاذبة، كما استنزل أبونا داود لعنة عليهم قائلاً:

- إن آلهة الأمم فضة وذهب من عمل أيديهم، لها أعين ولا تبصر، لها آذان ولا تسمع، لها مناخر ولا تشم، لها فم ولا تأكل، لها لسان ولا تنطق، لها أيد ولا تلمس، لها أرجل ولا تمشي.

لذلك قال داود أبونا ضارعاً إلى إلهنا الحي:

يا لكبرياء لم يسمع بمثلها، كبرياء الإنسان الذي ينسى حاله ويود أن يصنع إلهاً بحسب هواه، مع أن الله خلقه من تراب، وهو بذلك يستهزىء بالله بهدوء، كأنه يقول: لا فائدة من عبادة الله، لأن هذا ما تظهره أعمالهم، إلى هذا أراد الشيطان أن يوصلكم أيها الإخوة إذ حملكم على التصديق بأنني أنا الله، فإني لا طاقة لي أن أخلق ذبابة، بل إني زائل فانٍ لا أقدر أن أعطيكم شيئاً نافعاً، لأني أنا نفسي في حاجة إلى كل شيء، فكيف أقدر إذاً أن أعينكم في كل شيء كما هو شأن الله أن يفعل.

أفنستهزىء إذاً وإلهنا هو الإله العظيم الذي خلق بكلمته الكون والأمم وآلهتهم، أضرب لكم مثلاً:

صعد رجلان إلى الهيكل هنا ليصليا أحدهما فريسي والآخر عشار، فاقترب الفريسي من القدس، ووقف يصلي رافعاً وجهه قائلاً:

- أشكرك أيها الرب إلهي لأني لست كباقي الناس الخطاة الذين يرتكبون كل إثم، ولا مثل هذا العشار، لأني أصوم مرتين في

الأسبوع وأعشر كل ما أقتنيه.

وأما العشار فلبث واقفاً من بعيد منحياً إلى الأرض، لا يريد أن يرفع عينيه إلى السماء، بل ضرب على صدره قائلاً:

- يا رب أنني لست أهلاً أن أتطلع إلى السماء ولا إلى مقدسك لأني أخطأت كثيراً فارحمني.

الحق أقول لكم أن العشار نزل الهيكل أفضل من الفريسي لأن إلٰهنا برره غافراً له خطاياه كلها، أما الفريسي فنزل وهو على حال أردأ من العشار، لأن إلٰهنا رفضه ماقتاً أعماله.

أيفتخر الفأس مثلاً لأنه قطع حرجة حيث صنع إنساناً بستاناً، لا ألبتة لأن الإنسان صنع كل شيء بيديه حتى الفأس، وأنت أيها الإنسان أتفتخر أنك فعلت شيئاً حسناً، وأنت قد خلقك إلٰهنا من طين ويعمل فيك كل ما تأتيه من صلاح، ولماذا تحتقر قريبك ألا تعلم أنه لولا حفظ الله إياك من الشيطان لكنت شراً من الشيطان.

ألا تعلم أن خطيئة واحدة مسخت أجمل ملاك شر شيطان مكروه، وإنها حولت أكمل إنسان جاء إلى العالم وهو آدم مخلوقاً شقياً، وجعلته عرضة لما نكابد نحن وسائر ذريته، فأي إذن لك يخولك حق المعيشة بحسب هواك دون أدنى خوف، ويل لك أيتها الطينة لأنك بتغطرسك على الله الذي خلقك ستحقرين تحت قدميّ الشيطان الذي هو واقف لك بالمرصاد[1].

وبانتهاء الخطبة وكما هي العادة رفع عيسى يديه إلى السماء داعياً الله للجميع بالتوبة والهداية، والجموع تؤمن معه، ثم نزل من المنصة ليجد أن السكان قد جمعوا له عدداً كبيراً من المرضى فشفاهم بإذن الله، وعند مغادرته الهيكل اعترض طريقه فريسي يدعى سمعان كان من أولئك الذين عانوا طويلاً من البرص فشفاه الله على يديه، داعياً له ولحوارييه على مأدبة سيقيمها خصيصاً لهم، فقبل عليه السلام دعوته.

---

(١) إنجيل برنابا ص١٩٢ أ - ١٩٦.

وبينما هم جلوس على مائدة سمعان، ومنهمكين في الأكل، إذا بامرأة مومس تدعى مريم دخلت عليهم، ثم طرحت نفسها باكية على الأرض تحت قدمي عيسى وغسلتهما بدموعها ومسحتهما بشعر رأسها، ودهنتهما بالطيب، فلما رأى سمعان وكل الذين كانوا على المائدة ما فعلته المرأة، قال كل واحد في نفسه:

- لو كان هذا الرجل نبياً لعلم من هذه المرأة، ومن أي طبقة هي، ولما سمح لها أن تمسه.

أجابهم عيسى عما دار في خلدهم موجهاً الحديث إلى سمعان بوصفه مضيف الجميع:

- يا سمعان عندي شيء أقوله لك.

فقال له سمعان:

- قل يا معلم لأني أحب كلامك.

فقال عيسى:

- كان لرجل مدينان أحدهما مدين لدائنه بخمسين فلساً، والآخر بخمس مئة، فلما لم يكن عند أحد منهما ما يدفعه تحنن الدائن وعفا عن دين كليهما، فأيهما يحب دائنه أكثر؟

أجابه سمعان:

- صاحب الدين الأكبر الذي عفا عنه.

فقال له عيسى:

- لقد قلت صواباً، إني أقول لك إذاً انظر إلى هذه المرأة ونفسك لأنكما كنتما كلاكما مدينين لله أحدكما ببرص الجسم والآخر ببرص النفس الذي هو الخطيئة، فتحنن الله ربنا بسبب صلواتي وأراد شفاء جسدك ونفسها، فأنت إذاً تحبني قليلاً لأنك نلت هبة صغيرة، وهكذا لما دخلت لم تقبلني ولم تدهن رأسي، أما هذه المرأة فلما

دخلت بيتك جاءت تواً ووضعت نفسها عند قدمي اللتين غسلتهما بدموعها ودهنتهما بالطيب، ولذلك أقول لك الحق أنه قد غُفرت لها خطايا كثيرة لأنها أحبت كثيراً.

ثم التفت إلى مريم وقال لها:

- اذهبي في طريقك لأن الرب إلهنا قد غفر خطاياك، ولكن انظري ألا تخطئي فيما بعد، لأن إيمانك قد خلصك، فاذهبي بسلام.

أمضى عيسى والحواريون بقية اليوم في منزل الفريسي سمعان، ولما حل عليهم الليل تخيروا كعادتهم مكاناً يخلون فيه بأنفسهم داخل القدس أو في أطرافها، وبعد صلاة العشاء انتهز الحواريون ما أثير في خطبة اليوم ليستفسروا عن بعض ما أُشكل أو استغلق عليهم، وعقب الصلاة مباشرة اقتربوا من معلمهم ليسألوه.

- يا معلم ماذا يجب أن نفعل لكي نتخلص من الكبرياء.

فأجابهم على سؤالهم بسؤال مثله:

- هل رأيتم فقيراً مدعواً إلى بيت عظيم ليأكل خبزاً.

تصدى الحواري يوحنا للإجابة على السؤال، إذ كان له بالفعل تجربة وخبرة سابقة في الأكل على موائد الأغنياء فقال.

- إني أكلت خبزاً في بيت هيرودتس، لأني قبل أن أعرفك كنت أذهب لصيد السمك وأبيعه لبيت هيرودتس، فجئتهم يوماً إلى هناك وهو في وليمة بسمكة نفيسة، فأمرني بأن أبقى وآكل هناك.

فقال له عيسى موبخاً ومستفسراً في آن واحد:

- كيف أكلت خبزاً مع الكفار، ليغفر الله لك يا يوحنا، ولكن قل لي كيف تصرفت على المائدة، أطلبت أن يكون لك المحل الأرفع، أطلبت أشهى الطعام، أتكلمت على المائدة، وأنت لم تسئل، أحسبت نفسك أكثر أهلية للجلوس إلى المائدة من الآخرين:

فأجابه يوحنا بقوله:

- لعمر الله إني لم أجسر أن أرفع عيني لأني صياد سمك فقير ومرتد ثياباً رثة وجالس مع حاشية الملك، فكنت متى ناولني الملك قطعة صغيرة أخال العالم هبط على رأسي لعظم المنة التي أحسن بها الملك إليّ، والحق أقول أنه لو كان الملك من شريعتنا لخدمته طول أيام حياتي.

ساق يوحنا عبارته الأخيرة من قبيل الإعجاب بكرم هيرودوتس ولطف تعامله مع صياد فقير مثله، ولكنها متضمنة معاني خفية عن العظمة، لأجل ذلك رد عليه معلمه قائلاً.

- صه يا يوحنا لأني أخشى أن يطرحنا الله في الهاوية لكبريائنا.

فخاف الحواريون من رد معلمهم، وارتعدوا فزعاً من كلامه الذي يحمل وعيداً ونذيراً، ولما رأى عيسى علائم الاضطراب على وجوههم خفف بسرعة من وقعه على نفوسهم بقوله:

- لنخشى الله لكي لا يطرحنا في الهاوية لكبريائنا.

أعقبه مباشرة بيان الكيفية التي يتخلصون بها من الكبرياء والتجبر والتعظم قائلاً:

- أسمعتم أيها الإخوة من يوحنا ما صنع في بيت أمير، ويل للبشر الذين أوتوا إلى العالم، لأنهم كما يعيشون في الكبرياء سيموتون في المهانة وسيذهبون إلى الاضطراب، فإن هذا العالم بيت يولم الله فيه للبشر حيث أكل كل الأطهار وأنبياء الله، والحق أقول لكم إن كل ما ينال الإنسان إنما يناله من الله، لذلك يجب على الإنسان أن يتصرف بأعظم ضعة عارفاً حقارته وعظمة الله مع كرمه العظيم الذي يغذينا لذلك لا يجوز للمرء أن يقول: لماذا فعل هذا أو قبل هذا العالم، بل يجب عليه أن يحسب نفسه كما هو في الحقيقة غير أهل أن يقف في العالم على مائدة الله، لعمر الله الذي تقف نفسي

في حضرته أنه مهما كان الشيء الذي يناله الإنسان من الله في العالم صغيراً فإنه يجب عليه في مقابلته أن يصرف حياته حباً في الله.

لعمر الله إنك لم تخطىء يا يوحنا لأنك أكلت على مائدة هيرودوتس، فإنك فعلت ذلك بتدبير الله لتكون معلمنا نحن وكل من يخشى الله، وهكذا افعلوا لتعيشوا في العالم كما عاش يوحنا في بيت هيرودوتس عندما أكل خبزاً معه، لأنكم هكذا تكونون بالحق خالين من كل كبرياء.

ومن القدس قام عيسى وحواريوه بزيارة سريعة وخاطفة للناصرة لرؤية ولادته والاطمئنان عليها، وذلك بعد غيبة طويلة قضاها بعيداً عنها، ومن الناصرة ذهب إلى بحر الجليل في الجليل الأعلى. وبينما كانوا يمشون على الشاطىء أحاط بهم جمهور غفير من الناس يشكل الصيادون أغلبهم يريدون الاستماع إليه، ولكن كثرة الناس وضيق المكان تحول بينه وبين الكلام، فرأى سفينة صغيرة تقف منفردة وعلى مسافة قصيرة من الشاطىء، فخاض البحر حتى وصل إليها، ثم عمل حواريوه على دفعها إلى اليابسة، وفي موضع يمكن منه سماع صوته، وبذلك أتاح للجميع مجالاً للوقوف أو الجلوس، ومن ثم وقف على السفينة الصغيرة ليلقي عليهم خطبة تعد بالقياس إلى غيرها أول خطبة تحتوي بأكملها على الأمثال جاء فيها:

«ها هو ذا زارع خرج ليزرع، فبينما هو يزرع سقط بعض البذور على الطريق فداسته أقدام الناس وأكلته الطيور، وسقط البعض منه على الحجارة فلما نبت أحرقته الشمس، إذ لم يكن فيه رطوبة، ولم يكن له عمق في الأرض، سقط البعض على السياج فلما طلع الشوك خنق البذور، وسقط البعض على الأرض الجيدة فأثمر ثلاثين وستين ومئة ضعف.

أضرب لكم مثلاً آخر:

ها هو ذا رب أسرة زرع حنطة جيدة في حقله، وبينما خدم الرجل الصالح نيام جاء عدو سيدهم، وزرع زواناً فوق البذرة الجيدة ومضى فلما نبتت الحنطة رؤي كثير من الزوان نابتاً بينهما، فجاء الخدم إلى سيدهم وقالوا:

ـ يا سيد ألم تزرع بذوراً جيدة في حقلك، فمن أين إذاً طلع فيه مقدار وافر من الزوان.

رد السيد:

ـ إني زرعت بذوراً جيدة ولكن بينما الناس نيام جاء عدو وزرع زواناً فوق الحنطة.

فقال الخدم:

ـ أتريد أن نذهب ونقتلع الزوان من بين الحنطة.

أجاب السيد:

ـ لا تفعلوا هكذا لأنكم تقلعون الحنطة معه، ولكن تمهلوا حتى يأتي زمن الحصاد وحينئذ تذهبون وتقلعون الزوان من بين الحنطة وتطرحونه في النار ليحرق، وأما الحنطة فتضعونها في مخزني.

وأضرب لكم مثلاً آخر:

ـ خرج أناس كثيرون ليبيعوا تيناً، فلما بلغوا السوق إذا بالناس لا يطلبون تيناً جيداً بل ورقاً جميلاً، فلم يتمكن القوم من بيع تينهم، فلما رأى ذلك أحد الأهالي الأشرار قال أني لقادر على أن أصير غنياً، فدعا ابنيه وقال:

ـ اذهب إليه واجمعا مقداراً كبيراً من الورق مع تين ردىء.

فباعوها بزنتها ذهباً لأن الناس سروا كثيراً بالورق.

فلما أكل الناس التين مرضوا مرضاً شديداً.

وأضرب لكم مثلاً آخر:

ها هو ذا ينبوع لأحد الأهالي يأخذ منه الجيران ماء ليزيلوا به وسخهم، ولكن صاحب الماء يترك ثيابه تنتن.

وأضرب لكم مثلاً آخر:

ذهب رجلان ليبيعا تفاحاً فأراد أحدهما أن يبيع قشر التفاح بزنته ذهباً غير مبال بجوهر التفاح، أما الآخر فأحب أن يهب التفاح بزنته ذهباً، ولم يبالوا بالذي أحب أن يهبهم بل احتقروه[1].

وهكذا خطب عيسى في جمهور أغلبهم من صيادي السمك البسطاء والبحارة بالأمثال التي في نظرهم قصص وحكايات جذابة وذات مغزى مفيد يصل إلى عقولهم ومداركهم بلا صعوبة، ولما تفرقت جموعهم ذهبوا إلى مدينة نايبين حيث دخلوها والشمس موشكة على المغيب، وفي داخل نايبين اختار عيسى بيت الأرملة التي أحيا ابنها بإذن الله للإقامة وقبلت الأرملة وابنها عيسى وحوارييه في بيتهما وعملا معاً على ضيافتهم طيلة بقائهم في المدينة.

وفي داخل بيت الأرملة سأل الحواريون معلمهم قائلين.

ـ يا معلم قل لنا معنى الأمثال التي كلمت بها الشعب.

سأل الحواريون هذا السؤال في الوقت الذي غربت فيه الشمس خلف المدينة، لأجل ذلك قال لهم:

ـ لقد اقتربت ساعة الصلاة، فمتى انتهت صلاة المساء أفيدكم بمعنى الأمثال.

ووفى عيسى عليه السلام بوعده، فبعد الصلاة مباشرة جلس الحواريون إلى جواره وبدأ في شرح تلك الأمثال حيث قال:

«إن الرجل الذي يزرع البذور على الطريق أو على الحجارة أو على الشوك أو على الأرض الجيدة هو من يعلم كلمة الله التي تسقط على عدد غفير من الناس، تقع على الطريق متى جاءت إلى آذان البحارة والتجار الذين أزال الشيطان كلمة الله من ذاكرتهم بسبب الأسفار الشاسعة التي يزمعونها وتعدد الأمم التي يتجرون معها، وتقع على الحجارة متى جاءت

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٠٠ ـ ٢٠١.

إلى آذان رجال البلاط، لأنه بسبب شغفهم بخدمة شخص حاكم لا تنفذ إليهم كلمة الله، على أنهم وإن كان لهم شيء من تذكرها فحالما تصيبهم شدة تخرج كلمة الله من ذاكرتهم، ولأنهم وهم لم يخدموا الله من ذاكرتهم، لأنهم وهم لم يعبدوا الله لا يقدرون أن يرجوا معونة الله.

وتقع على الشوك متى جاءت إلى آذان الذين يحبون حياتهم، لأنهم - وإن نمت كلمة الله فيهم - إذا نمت الأهواء الجسدية خنقت البذور الجيدة من كلمة الله، لأن رغد العيش الجسدي يبعث على هجران كلمة الله، أما التي تقع على الأرض الجيدة فهو ما جاء من كلمة الله إلى أُذني من يخاف الله حيث تثمر الحياة الأبدية، الحق أقول لكم إن كلمة الله تثمر في كل حال متى خاف الإنسان الله.

أما ما يختص بأبي الأسرة فالحق أقول لكم أنه الله ربنا ورب كل الأشياء، لأنه خلق الأشياء كلها، ولكنه ليس أباً على طريقة الطبيعة لأنه غير قادر على الحركة التي لا يمكن التناسل بدونها، فهو إذاً إلٰهنا الذي يخص هذا العالم، والحقل الذي يزرع فيه هو الجنس البشري، والبذرة كلمة الله، فمتى أهمل المعلمون التبشير بكلمة الله لانشغالهم بمشاغل الدنيا، زرع الشيطان ضلالاً في قلب البشر ينشأ عنه عدد لا يحصى من الاعتقادات الشريرة، فيصرخ الأطهار والأنبياء:

- يا سيد ألم تعط تعليماً صالحاً للبشر فمن أين الأضاليل الكثيرة.

فيجيب الله:

- إني أعطيت البشر تعليماً صالحاً ولكن بينما كان البشر منقطعين إلى الباطل زرع الشيطان ضلالاً يبطل شريعتي.

فيقول الأطهار:

- يا سيد إننا نبدد هذه الأضاليل بإهلاك البشر.

فيجيب الله:

- لا تفعلوا هذا لأن المؤمنين متحدون بالكافرين اتحاداً شديداً بالقرابة

حتى أن المؤمنين يهلكون مع الكافرين، ولكن تمهلوا إلى الدينونة لأنه في ذلك الوقت سيجمع ملائكتي الكفار فيقعون مع الشيطان في الجحيم، والمؤمنون يأتون إلى مملكتي، ومما لا ريب فيه أن كثيرين من الآباء الكفار يلدون أبناء مؤمنين ولأجلهم أمهل الله العالم ليتوب.

أما الذين يثمرون تيناً حسناً، فهم المعلمون الحقيقيون الذين يبشرون بالتعليم الصالح، ولكن العالم الذي يسر بالكذب يطلب من المعلمين أوراقاً من الكلام والمداهنة المزوقين، فمتى رأى الشيطان ذلك أضاف نفسه مع الجسد والحس وأتى بمقدار وافر من الأوراق، أي مقدار من الأشياء الأرضية التي يعطي بها الخطيئة، فمتى أخذها الإنسان اعتل وأمسى على وشك الموت الأبدي.

أما أحد الأهالي الذي عنده ماء ويعطي ماءه للآخرين ليغسلوا وسخهم ويترك ثيابه تنتن فهو المعلم الذي يبشر الآخرين بالتوبة أما هو نفسه فيلبث في الخطيئة، ما أتعس هذا الإنسان، لأن لسانه يخط في الهواء القصاص الذي هو أهل له لا الملائكة.

لو كان لأحد لسان فيل وكان سائر جسده صغيراً بقدر نملة، أفلا يكون هذا الشيء من خوارق الطبيعة، بل البتة، فالحق أقول لكم أن من يبشر الأخرين بالتوبة ولا يتوب هو عن خطاياه لأشد غرابة من ذاك.

أما الرجلان بائعا التفاح فأحدهما من يبشر لأجل محبة الله، فهو لذلك لا يداهن بل يبشر بالحق طالباً معيشة فقير فقط، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته أن العالم لا يقبل رجلاً كهذا، بل هو حري بأن يحتقره، ولكن من يبيع القشر بزنته ذهباً ويهب التفاحة، فإنما هو من يبشر ليرضي الناس، وهكذا متى داهن العالم أتلف النفس التي تتبع مداهنته، وكم وكم من أناس هلكوا لهذا السبب»[1].

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٠٢ ـ ٢٠٤.

وبمجرد اكتمال شرحه عليه السلام لتلك الأمثال سأل برنابا سؤالاً استوحاه من المثل الأخير، فقال:

- كيف يجب على الإنسان أن يصغي إلى كلمة الله، وكيف يمكن لأحد أن يعرف الذي يبشر لأجل محبة الله؟

فأجابه:

- إنه يجب أن يصغي إلى من يبشر بتعليم صالح كأن المتكلم هو الله لكنه يتكلم بفمه، ولكن من يترك التوبيخ على الخطايا محابياً بالوجوه ومداهناً أناساً خصوصين، فيجب تجنبه كأفعى مخوفة لأنه بالحقيقة يسم القلب البشري.

أتفهمون، الحق أقول لكم إنه كما لا حاجة بالجريح إلى عصائب جميلة لعصب جراحه، بل يحتاج بالحري إلى مرهم جيد، وهكذا لا حاجة بالخاطىء إلى كلام مزوقاً بل إلى توبيخات صالحة كي ينقطع عن الخطيئة.

أتاح سؤال برنابا عن موضوع ضعيف الصلة بشرح الأمثال إلى بطرس كي يسأل معلمه عن موضوع له صلة قوية بالخطيئة وآثارها فقال:

- يا معلم قل لنا كيف يعذب الهالكون وكم يبقون في الجحيم لكي يهرب الإنسان من الخطيئة.

أجابه:

«يا بطرس لقد سألت عن شيء عظيم ومع ذلك فإني إن شاء الله مجيبك، فاعلموا إذاً أن الجحيم واحد ومع ذلك فإن له سبع دركات الواحدة منها دون الأخرى، فكما أن للخطيئة سبعة أنواع إذ أنشأها الشيطان نظير سبعة أبواب للجحيم كذلك يوجد فيها سبعة أنواع من العذاب، لأن المتكبر أي الأشد ترفعاً في قلبه سيزج في أسفل دركة ماراً في سائر الدركات التي فوقه ومكابداً فيها جميع الآلام الموجودة فيها، وكما أنه يطلب هنا أن يكون أعظم من الله لأنه يريد أن يفعل ما يعن له مما يخالف ما أمر به الله ولا يعترف بأن أحداً فوقه، فهكذا يوضع تحت أقدام الشيطان

وشياطينه، فيدوسونه كما يداس العنب عند صنع الخمر وسيكون أضحوكة وسخرية للشياطين.

والحسود الذي يحتدم غيظاً لفلاح قريبه ويتهلل لبلاياه يهبط إلى الدركة السادسة، وهناك تنهشه أنياب عدد غفير من أفاعي الجحيم ويخيل له أن كل الأشياء في الجحيم تبتهج لعذابه وتتأسف لأنه لم يهبط إلى الدركة السابعة، وذلك بأن عدل الله يخيل للحسود التعيس ذلك على أعواز الملعونين الفرح، كما يخيل للمرء في حلم أن شخصاً يرفسه فيتعذب. تلك هي الغاية التي أمام الحسود التعيس، ويخيل إليه حيث لا مسرة على الإطلاق أن كل أحد يبتهج لبليته ويتأسف أن التنكيل به لم يكن أشد.

أما الطماع فيهبط إلى الدركة الخامسة حيث يلم به فقر مدقع كما ألم بصاحب الولائم الغني، وسيقدم له الشياطين زيادة في عذابه ما يشتهي، فإذا صار في يديه اختطفته شياطين أخرى بعنف ناطقين بهذه الكلمات:

- أذكر أنك لم تحب أن تعطي لمحبة الله ولذلك فلا يريد الله أن تنال.

ما أتعسه من إنسان، فإنه سيرى نفسه في تلك الحال فيذكر سعة العيش الماضي ويشاهد فاقة الحاضر، وإنه بالخيرات التي لا تقدر على الحصول عليها حينئذ كان يمكنه أن ينال النعيم الأبدي.

أما الدركة الرابعة فيهبط إليها الشهوانيون حيث يكون الذين قد غيروا الطريق التي أعطاهم الله إياها كحنطة مطبوخة في براز الشيطان المحترق. وهناك تعانقهم الأفاعي الجهنمية، وأما الذين كانوا قد زنوا بالبغايا فستتحول كل أعمال هذه النجاسة فيهم إلى غشيان جنيات الجحيم اللواتي هن شياطين بصور نساء، شعورهن من أفاع وأعينهن كبريت ملتهب، وفمهن سام ولسان علقم، وجسدهن محاط بشصوص مريشة بسنان شبيهة بالتي تصاد بها الأسماك الحمقاء، ومخالبهن كمخالب العقبان وأظافرهن أمواس وطبيعة أعضائهن التناسلية نار، فمع هؤلاء يتمتع الشهوانيون على جمر الجحيم الذي سيكون سريراً لهم.

ويهبط إلى الدركة الثالثة الكسلان الذي لا يشتغل الآن، هنا تشاد مدن وصروح فخمة، ولا تكاد تنجز حتى تهدم تواً لأنه ليس فيها حجر موضوع في محله، فتوضع هذه الحجارة الضخمة على كتفي الكسلان الذي لا يكاد مطلق اليدين فيبرد جسده وهو ماش ويخفف الحمل، لأن الكسلان قد أزال قوة ذراعيه، وساقاه مكبلتان بأفاعي الجحيم.

وأنكى من ذلك وراءه الشياطين تدفعه وترمي به على الأرض مرات متعددة وهو تحت العبء، ولا يساعده أحد في رفعه، بل لما كان أثقل من أن يرفع يوضع عليه مقدار مضاعف.

ويهبط إلى الدركة الثانية النهم، فيكون هناك قحط إلى حد أن لا يوجد شيء يؤكل سوى العقارب الحية التي تعذب عذاباً أليماً، حتى أنهم لو لم يولدوا لكان خيراً لهم من أن يأكلوا مثل هذا الطعام، وستقدم لهم الشياطين بحسب الظاهر أطعمة شهية، ولكن لما كانت أيديهم وأرجلهم مغلولة بأغلال من نار لا يقدرون أن يمدوا يداً إذا بدا لهم الطعام، وأنكى من ذلك أنه لما كانت هذه العقارب نفسها التي يأكلها لتلتهم بطنه غير قادرة على الخروج سريعاً فإنها تمزق سوءة النهم، ومتى خرجت نجسة وقذرة على ما هي عليه تؤكل مرة أخرى.

ويهبط المستشيط غضباً إلى الدركة الأولى حيث يمتهنه كل الشياطين وسائر الملعونين الذين هم أسفل منه مكاناً، فيرفسونه ويضربونه ويضجعونه على الطريق التي يمرون عليها واضعين أقدامهم على عنقه، ومع هذا فهو غير قادر على المدافعة عن نفسه، لأن يديه ورجليه مربوطة، وأنكى من ذلك أنه غير قادر على إظهار غيظه بإهانة الآخرين، لأن لسانه مربوط بشص شبيه بما يستعمله بائع اللحوم.

ففي هذا المكان الملعون يكون عقاب عام يشمل كل الدركات كمزيج من حبوب عديدة يصنع منها رغيف، لأنها ستتحد بعدل الله النار والجمر والصواعق والبرق والكبريت والحرارة والبرد والريح والجنون والهلع على طريقة لا يخفف فيها البرد والحرارة ولا النار الجليد، بل

يعذب كل منها الخاطىء التعيس تعذيباً.

ففي هذه البقعة الملعونة يقيم الكافرون إلى الأبد، حتى لو فرض أن العالم مليء حبوب دُخن وكان طير واحد يحمل حبة واحدة منها كل مئة سنة إلى انقضاء العالم لسر الكافرون، لو كان يتاح لهم بعد انقضائه الذهاب إلى الجنة، ولكن ليس لعذابهم من نهاية، لأنهم لا يرون أن يضعوا حداً لخطيئتهم حباً في الله، أما المؤمنون فسيكون لهم تعزية لأن لعذابهم نهاية»[1].

ذعر الحواريون عند سماعهم بعذاب إخوانهم من أهل الإيمان، وهالهم دخول هؤلاء الأطهار نار جهنم، وصعب عليهم تقبل فكرة مساواتهم مع أهل الكفر ولو إلى حين فتساءلوا كالمنكرين:

- أيذهب إذاً المؤمنون إلى الجحيم.

فأجابهم عيسى:

«يتحتم على كل أحد أياً كان أن يذهب إلى الجحيم. بيد أن ما لا مشاحة فيه أن الأطهار وأنبياء الله إنما يذهبون إلى هناك ليشاهدوا لا ليكابدوا عقاباً. أما الأبرار فإنهم لا يكابدون إلا الخوف، وماذا أقول لكم أنه حتى رسول الله يذهب إلى هناك ليشاهد عدل الله، فترتعد ثمة الجحيم لحضوره، وبما أنه ذو جسد بشري يرفع العقاب عن كل ذي جسد بشري من المقضي عليهم بالعقاب، فيمكث بلا مكابدة عقاب مدة إقامة رسول الله لمشاهدة الجحيم، ولكنه لا يقيم هناك إلا طرفة عين، وإنما يفعل الله هذا ليعرف كل مخلوق أنه نال نفعاً من رسول الله.

ومتى ذهب إلى هناك ولولت الشياطين وحاولت الاختباء تحت الجمر المتقد قائلاً بعضهم لبعض:

- اهربوا اهربوا فإن عدونا محمداً قد أتى.

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٠٥ ـ ٢٠٩.

فمتى سمع الشيطان ذلك يصفع وجهه بكلتا كفيه ويقول صارخاً:

ـ ذلك بالرغم عني لأشرف مني، وهذا إنما فعل ظلماً.

أما ما يختص بالمؤمنين الذين لهم اثنان وسبعون درجة مع الدرجتين الأخيرتين الذين كان لهم إيمان بدون أعمال صالحة، إذ كان الفريق الأول حزيناً على الأعمال الصالحة والآخر مسروراً بالشر فسيمكثون جميعاً في الجحيم سبعين ألف سنة.

وبعد هذه السنين يجيء الملاك جبريل إلى الجحيم ويسمعهم يقولون:

ـ يا محمد أين وعدك لنا أن من كان على دينك لا يمكث في الجحيم إلى الأبد.

فيعود حينئذ ملاك الله إلى الجنة وبعد أن يقترب من رسول الله باحترام يقص عليه ما سمع، فحينئذ يكلم الرسول الله ويقول:

ـ ربي وإلهي اذكر وعدك لي أنا عبدك بألا يمكث الذين قبلوا ديني في الجحيم إلى الأبد.

فيجيب الله:

ـ اطلب ما تريد يا خليلي لأني أهبك كل ما تطلب.

فحينئذ يقول رسول الله:

ـ يا رب يوجد من المؤمنين في الجحيم من لبث سبعين ألف سنة، أين رحمتك يا رب، إني أضرع إليك يا رب أن تعتقهم من هذه العقوبات المرة.

فيأمر الله حينئذ الملائكة المقربين لله جبرائيل وميخائيل ورفائيل وأورائيل، أن يذهبوا إلى الجحيم ويخرجوا كل من على دين رسوله ويقودونه إلى الجنة، وهو ما سيفعلونه، ويكون من مبلغ جدوى دين رسول الله، أن كل من آمن به يذهب إلى الجنة بعد العقوبة التي تكلمت

عنها، حتى ولو لم يعمل صالحاً لأنه مات على دينه»[١].

ومع إشراقة شمس اليوم التالي جاء إلى بيت الأرملة وعلى غير العادة المتبعة في مقابلات عيسى ولقاءاته بالناس رجال مدينة نايين بصحبة نسائهم وأطفالهم، ولما خرج عيسى على ضوضائهم كان أول ما فعلوه أن توسلوا إليه قائلين:

- يا سيد ارحمنا لأن الديدان قد أكلت في هذه السنة الحبوب، ولا نحصل في هذه السنة على خبز من أرضنا.

انحصرت شكوى القوم على أمر قد مضى نفاذ حكم الله فيه، وهو إتلاف الآفات الزراعية لمحصولهم قبل أوان حصاده، أما خوفهم فقد تركز جله في عدم وجود احتياطي كاف من الحبوب حتى أوان حصاد محصول العالم المقبل، ومن هنا كان رده عليهم:

- ما هذا الخوف الذي أنتم فيه ألا تعلمون أن إيليا عبدالله لم ير خبزاً مدة اضطهاد أخاب له ثلاث سنين مغتذياً بالبقول والثمار البرية فقط، وعاش داود أبونا نبي الله مدة سنتين على الثمار البرية والبقول إذا اضطهده شاول حتى أنه لم يذق الخبز سوى مرتين.

فعلقوا على تطمينه لهم بقولهم:

- إنهم كانوا أيها السيد أنبياء يغتذون بالمسرة الروحية ولذلك احتملوا كل شيء، ولكن ماذا يصيب هؤلاء الصغار؟

ثم أروه أطفالهم، عندها أخذته الشفقة بهؤلاء الصغار الذين لا طاقة لهم على مكابدة الجوع وآلامه فسأل القوم:

- كم بقي للحصاد.

فأجابوه:

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٠٩ ـ ٢١١.

ـ عشرون يوماً.

عندئذ قدم لهم الحل المناسب لمشكلتهم بقوله:

ـ يجب أن ننقطع مدة هذه العشرين يوماً للصوم والصلاة. لأن الله سيرحمهم. الحق أقول لكم إن الله قد أحدث هذا القحط لأنه ابتدأ هنا في مدينتكم جنون الناس وخطيئة إسرائيل، إذ قالوا أنا الله وابن الله.

وبالفعل اعتكف القوم رجالاً ونساءً وبناء على نصيحة عيسى مدة تسعة عشر يوماً في المنازل والمعابد للصلاة والذكر متضرعين إلى الله كي يرفع عنهم هذا البلاء والوباء، وفي صباح اليوم العشرين خرج الأهالي إلى ظاهر المدينة، فإذا بهم يشاهدون الحقول والهضاب مغطاة بالحنطة اليابسة. فهرعوا إلى عيسى وأخبروه باستجابة الله لتضرعهم ودعائهم. فحمد عليه السلام الله وشكره على نعمته وفضله، ثم قال لهم:

ـ اذهبوا أيها الإخوة واجمعوا الخبز الذي أعطاكم إياه الله.

وذهب الأهالي وجمعوا مقداراً كبيراً من القمح تجاوز المعدل الثابت لإنتاج مزارعهم، وفاض حتى لم يعرفوا أين يضعوه، فاضطروا إلى تسويقه في أنحاء البلاد. فكان ذلك سبباً في بحبوحة وسعة جميع سكان المنطقة، ورداً على الخدمة الكبيرة التي أسداها لهم وعرفاناً منهم بجميل صنعه، تشاور سكان المدينة فيما بينهم لكي ينصبوه ملكاً عليهم. أو على أقل تقدير حاكماً على إقليمهم، وحال معرفته عليه السلام برغبتهم تسلل خفية من مدينة نايين دون أن يخطر حوارييه بوجهته وذهب رأساً إلى دمشق. لعلمه التام بأن هذه الفكرة سوف تجر عليه غضب السلطات الرومانية، وتذمر من ينوبون عنهم في حكم بني قومه، وهي السلطات التي ظلت تقف دوماً على الحياد في صراعه وخلافه مع السلطات الدينية والكهنوتية في البلاد.

وأعقب اختفائه المفاجىء حركة بحث واسعة النطاق قام بها حواريوه استغرقت خمسة عشر يوماً، شملت جميع المناطق التي اعتاد التردد عليها أو التي يحتمل وجوده فيها دون جدوى، إلى أن عثر عليه كل من برنابا

ويعقوب ويوحنا في دمشق، وبمجرد رؤيتهم له قالوا بنبرة يمتزج البكاء فيها بفرحة اللقاء بعد غيبة خالوها كالدهر:

- يا معلم لماذا هربت منا، فلقد طلبناك ونحن حزانى، بل إن الحواريين كلهم طلبوك باكين.

أوضح عليه السلام لهم الدوافع التي حدت به للاختفاء فجأة، والمسوغات التي جعلته يختار مكاناً بعيداً كهذا قائلاً:

- إنماهربت لأني علمت أن جيشاً من الشياطين يهيىء لي ما سترونه بعد برهة وجيزة، فسيقوم عليّ رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وسيطلبون أمراً من الحاكم الروماني بقتلي لأنهم يخافون أن اغتصب ملك إسرائيل، وعلاوة على ذلك فإن واحداً من تلاميذي يبيعني ويسلمني كما بيع يوسف إلى مصر، ولكن الله العادل سيوثقه كما يقول النبي داود: من نصب فخاً لأخيه وقع فيه. ولكن الله سيخلصني من أيديهم وسينقلني من العالم.

عندئذ خاف الحواريون، وارتعدت فرائصهم، غير أنه أزال ما في نفوسهم من اضطراب، فقال لهم معزياً ومواسياً:

- لا تخافوا لأنه لا يسلمني أحد منكم.

وفي اليوم التالي حضر إلى دمشق ستة وثلاثون حوارياً مثنى مثنى، ومكث الجميع في انتظار باقي إخوانه، ولما علم هؤلاء بقرب مغادرة معلمهم لعالمهم حزن البعض وبكي البعض الآخر من آلام الفراق، فتحدث إليهم حديثاً طويلاً تحول من طوله إلى خطبة وموعظة، جاء فيه:

«إن من يسير دون أن يعلم إلى أين يذهب لهو تعيس، وأتعس منه من هو قادر ويعرف كيف يبلغ نزلاً حسناً ومع ذلك يريد أن يمكث في الطريق القذرة والمطر وخطر اللصوص.

قولوا لي أيها الإخوة هل هذا العالم وطننا؟ لا ألبتة فإن الإنسان الأول طرد من العالم منفياً، فهو يكابد فيه عقوبة خطأه، أيمكن أن يوجد منفي لا

يبالي بالعودة إلى وطنه الغني الذي وجد نفسه في الفاقة، حقاً إن العقل لينكر ذلك ولكن الاختبار يثبته بالبرهان، لأن محبي الدنيا لا يفكرون في الموت، بل عندما يكلمهم عنه أحد لا يصغون إلى كلامه.

صدقوني أيها القوم أني جئت إلى العالم بامتياز لم يعط إلى بشر حتى أنه لم يعط لرسول الله، لأن إلٰهنا لم يخلق الإنسان ليبقيه في العالم بل ليضعه في الجنة، ومن المحقق أن من لا أمل أن ينال شيئاً من الرومانيين لأنهم من شريعة غريبة عنه لا يريد أن يترك وطنه وكل ما عنده ويذهب ليتوطن في روما على ألا يعود. ويكون ميله إلى ذلك أقل جداً إذا هو أغاظ قيصر، فالحق أقول لكم أنه هكذا يكون وسليمان نبي الله يصرخ معي:

ـ ما أمرَّ ذكراك أيها الموت للذين يتنعمون في ثروتهم.

إني لا أقول هذا لأن عليّ أن أموت الآن، وإني عالم بأني سأحيا إلى نحو منتهى العالم، ولكن أكلمكم بهذا لكي تتعلموا كيف تموتون. لعمر الله إذا أسيىء عمل شيء ولو من دل على أنه لا بد من التمرن عليه إذا أريد إتقانه.

أرأيتم كيف يتمرن الجنود في زمن السلم مع بعض كأنهم يتحاربون وكيف يتاح لمن لم يتعلم كيف يحسن الموت أن يموت ميتة صالحة، قال النبي داود:

ـ ثمين في نظر الرب موت الطاهرين.

أتدرون لماذا، إني أفيدكم أنه لما كانت الأشياء النادرة ثمينة، وكان موت الذين يحسنون الموت نادراً كان ثميناً في نظر الله خالقنا، فمن المؤكد أنه متى شرع المرء في أمر لا يريد أن ينجزه فقط، ولكنه يكدح متى يكون لفرضه نتيجة حسنة.

يا لك من رجل شقي يفضل سراويلاته على نفسه، لأنه عندما يفصل القماش يقيسه جيداً قبل تفصيله، ومتى فصله خاطه باعتناء، أما حياته التي ولدت لتموت ـ إذ لا يموت إلا من يولد ـ فلماذا لا يقيسها الإنسان

بالموت، أرأيتم البنائين كيف لا يضعون حجراً إلا والأساس نصب أعينهم، فيقيسونه ليروا إذا كان مستقيماً لكيلا يسقط الجدار، يا له من رجل تعيس لأن بنيان حياته سيتهدم شر تهدم. لأنه لا ينظر إلى أساس الموت.

قولوا لي كيف يولد الإنسان متى ولد. حقاً إنه يولد عرياناً، وأي جدوى له متى وسد ميتاً تحت الثرى، ليس سوى خرقة يلف بها وهذا هو الجزاء الذي تعطيه إياه الدنيا، فإذا كان يجب في كل عمل أن تكون الوسيلة على نسبة إلى البداية والنهاية ليمكن إيصال العمل إلى نهاية حسنة، فما عسى أن تكون نهاية الإنسان الذي يشتهي الثروة الدنيوية، أنه ليموت كما يقول داود نبي الله: إن الخاطىء ليموتن شر ميتة.

إذا حاول خياط أن يدخل جذوعاً في سم إبرة بدلاً من خيط فما يكون مصير عمله، إنه ليحاول عبثاً، وجيرانه يزدرون به، فالإنسان لا يرى أنه فاعل هذا على الدوام وهو يجمع الخيرات الأرضية، لأن الموت هو الإبرة التي لا يمكن إدخال جذوع الخيرات الأرضية في سمها، ومع ذلك فهو بجنونه يحاول على الدوام أن يفلح في عمله ولكن عبثاً.

ومن لا يصدق هذا في كلامي، فليتفرس في القبور، لأن هناك يجد الحق، فمتى أراد أن يبرز في الحكمة على من سواه في خوف الله، فليطالع كتاب القبر، لأنه هناك يجد التعليم الحقيقي لخلاصه، فإنه متى رأى أن جسد الإنسان يحفظ ليكون طعاماً للديدان تعلم أن يحذر الدنيا والجسد والحس.

قولوا لي إذا كان هناك طريق على حال يكون إذا سار معها المرء في الوسط سار آمناً، فإذا سار على الجانبين شج رأسه، فماذا تقولون إذا رأيتم الناس يختصمون ويتبارون ليكونوا أقرب إلى الجانب ويقتلوا أنفسهم، ما أشد ما يكون عجبكم حقاً إنكم تقولون: إنهم لمعتوهون ومجانين، وإنهم إذا لم يكونوا مجانين فإنما هم بائسون.

إن عشاق الدنيا إنما هم كذلك، لأنهم لو عاشوا بحسب العقل الذي

اتخذ موضعاً متوسطاً في الإنسان لاتبعوا شريعة الله وخلصوا من الموت الأبدي. ولكنهم جنوا وأصبحوا أعداء عتاة لأنفسهم، لأنهم يتبعون الجسد والدنيا، مجتهدين في أن يعيش كل منهم أشد غطرسة وفجوراً[١].

ولم تمض أيام قلائل على ذلك الحديث الشيق حتى جاء باقي الحواريين، وكان آخر القادمين مجموعة صغيرة على رأسها يهوذا، وهو وحده الذي تظاهر أكثر من غيره بمكابدة ضروب وصنوف شتى من الحزن والأسى على غياب معلمه، ولما أحس عيسى بالتكلف البين في كلامه والتدفق المصطنع في التعبير عن انفعالاته، قال ناصحاً الجميع:

- ليحذر كل أحد من أن يحاول بدون سبب أن يقيم دلائل الحب.

ولأمر ما ذهبت تلك النصيحة أدراج الرياح، دون أن يفطن أحد من الحواريين إلى المغزى الكامن وراءها، وقال لهم بعدها مباشرة:

- لنرجع إلى الجليل لأن ملاك الله قال لي أنه يجب عليّ أن أذهب إلى هناك.

على أثر ذلك غادر عيسى وحواريوه دمشق في طريقهم إلى الجليل، وفي صباح يوم سبت حيث الجميع تقريباً يقضون راحتهم الأسبوعية بلغوا مشارف الناصرة، فلما تبين للأهالي أن الجمع القادم نحوهم على رأسهم عيسى هب كل أحد لرؤيته، وبلغ الزحام مداه على طول الطريق الذي يتوقع الأهالي سلوكه، إلى درجة أن عشاراً اسمه زكا، كان قصير القامة قصراً لا يمكن معه رؤية عيسى ركض متقدماً عليه بمسافة ثم تسلق شجرة جميز حتى بلغ رأسها، ومكث هناك منتظراً مرور عيسى وهو في طريقه إلى المعبد.

وعند بلوغ عيسى الموضع الذي اتخذه زكا مكاناً له، رفع عليه السلام عينيه نحوه قائلاً:

---

(١) إنجيل برنابا ص٢١٣ ـ ٢١٧.

ـ انزل يا زكا لأني سأقيم في بيتك.

فأسرع زكا بالنزول وقبل عيسى بفرح بالغ وسرور عظيم لما أولاه من دون المستقبلين له بالاهتمام، وفي منزله أعد وليمة كبيرة على شرفه دعا إليها إضافة إلى الحواريين كثير من وجهاء الناصرة وعظمائها، وبينما البيت غاص بالمدعوين تذمر بعض الفريسيين إلى من كان يجاورهم في المجلس من الحواريين منكرين عليهم اهتمام معلمهم بعشار يبغض مهنته كل أحد قائلين:

ـ لماذا يذهب معلمكم ليأكل مع عشارين وخطاة.

فتنامى إلى مسامع عيسى غضب الفريسيين واستياؤهم فسألهم مستفهماً:

ـ لأي سبب يذهب الطبيب إلى بيت المريض، قولوا لي أقل لكم لماذا ذهبت إلى هناك.

فأجابوه الإجابة البديهية المتعارف عليها:

ـ ليشفي المرضى.

عندئذ قال لهم:

ـ لقد قلتم الحق فإنه لا حاجة بالأصحاء إلى طبيب، بل المرضى فقط، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته أن الله يرسل أنبياءه وخدامه إلى العالم ليتوب الخطأة، ولا يرسلهم لأجل الأبرار لأنهم ليس بهم حاجة إلى التوبة، كما أنه لا حاجة بمن كان نظيفاً إلى الحمام، ولكن الحق أقول لكم لو كنتم فريسيين حقيقيين لسررتم بدخولي على الخطأة لخلاصهم، قولوا لي أتعرفون منشأكم ولماذا ابتدأ العالم يقبل الفريسيين، إني لأقول لكم إنكم لا تعرفونه، فأصيغوا لاستماع كلامي.

إن أخنوخ خليل الله الذي صار مع الله بالحق غير مكترث بالعالم نقل إلى الفردوس، وهو يقيم هناك إلى يوم القيامة، فلما علم الناس بذلك شرعوا يطلبون الله خالقهم طمعاً في الفردوس، لأن معنى الفردوس في لغة

الكنعانيين (يطلب الله)، لأن هناك ابتدأ هذا الاسم على سبيل الاستهزاء بالصالحين، لأن الكنعانيين كانوا منغمسين في عبادة الأصنام التي هي عبادة أيد بشرية.

وعليه كان الكنعانيون عندما يرون أحداً ممن كان منفصلاً من شعبنا عن العالم ليعبد الله قالوا سخرية منه (فريس)، أي يطلب الله، كأنهم يقولون، أيها المجنون ليس لك تماثيل من أصنام فإنك تعبد الريح فانظر إلى عقباك واعبد آلهتنا، الحق أقول لكم إن كل أولياء الله وأنبيائه كانوا فريسيين، لا بالاسم مثلكم بل بالفعل نفسه، لأنهم في كل أعمالهم طلبوا الله خالقهم، وهجروا مدنهم ومقتنياتهم حباً في الله فباعوها وأعطوها للفقراء حباً في الله.

لعمر الله لقد كان في زمن إيليا خليل الله ونبيه اثنا عشر جبلاً يقطنها سبعة عشر ألف فريسي، ولم يكن بين هذا العدد الغفير منبوذ واحد، بل كانوا جميعاً مختاري الله، أما الآن وفي إسرائيل نيف ومئة ألف فريسي، فعسى إن شاء الله أن يوجد بين كل ألف مختار واحد.

كشفت مقارنته عليه السلام بين الفريسيين الأوائل وبين أحفادهم الحاليين عن عمق الاختلاف بينهم، وعن بعد الأخيرين عن الدين الحق، واختلاط عبادتهم بحظوظ الدنيا الزائلة، مما أثار حقدهم وغضبهم عليه فسألوه منكرين:

- أنحن إذاً جميعاً منبوذون وتجعل ديانتنا منبوذة؟!

فأجاب على إنكارهم بالآتي:

- إني لا أحسب ديانة الفريسيين الحقيقيين منبوذة، بل ممدوحة. وإني مستعد أن أموت من أجلها. ولكن تعالوا ننظر هل أنتم فريسيون، إن إيليا خليل الله كتب إجابة لتضرع تلميذه اليشع كتيباً أودع فيه الحكمة البشرية مع شريعة الله أبينا.

تحير الفريسيون عن ورود ذكر لكتاب إيليا على لسانه، واضطربت

نفوسهم، وأيقنوا ألا أحد سواهم يعي مضمون هذا الكتاب، وبالتالي لا أحد يستطيع الكلام عما جاء فيه سواه، فخشوا أن يجرهم عيسى للحديث عن مضمون الكتاب فيعريهم أمام الملأ. ويظهر جهلهم، وادعاءهم الفارغ بتدينهم. فأرادوا الانصراف متذرعين بقضاء حوائج عاجلة وضرورية، ولكن عيسى قطع عليهم الطريق وخاطبهم قائلاً:

- لو كنتم فريسيين لتركتم كل شغل ولاحظتهم هذا، لأن الفريسي إنما يطلب الله وحده.

وعند سماعهم ذلك القول توقفوا عن الحركة، وبدأت عليهم علائم الارتباك، ثم اتجهت أنظارهم نحو عيسى مصغين إليه في قلق وتوجس. وانتهز عيسى ارتباكهم وقلقهم ليقرأ عليهم ما يلي من كتاب إيليا:

«إيليا عبدالله يكتب هذا لجميع الذين يبتغون أن يسيروا مع الله خالقهم إن من يحب أن يتعلم كثيراً يخاف الله قليلاً. لأن من يخاف الله يقنع بأن يعرف ما يريده الله فقط.

إن من يطلب كلاماً مزوقاً لا يطلب الله الذي لا يفعل إلا توبيخ خطايانا، وعلى من يشتهون أن يطلبوا الله أن يحكموا إقفال أبواب بيتهم وشبابيكه، لأن السيد لا يرضى أن يوجد خارج بيته حيث لا يحب، فاحرسوا مشاعركم، واحرسوا قلبكم، لأن الله لا يوجد خارجاً عنه في هذا العالم الذي يكرهه.

على من يريدون أن يعملوا أعمالاً صالحة أن يلاحظوا أنفسهم، لأنه لا يجدي المرء نفعاً أن يربح كل العالم ويخسر نفسه.

على من يريدون تعليم الآخرين أن يعيشوا أفضل من الآخرين لأنه لا يستفاد شيء ممن يعرف أقل منا نحن، فكيف إذاً يصلح الخاطىء حياته وهو يسمع من هو شر منه يعلمه.

على من يطلبون الله أن يهرب من محادثة البشر، لأن موسى لما كان وحده على جبل سيناء وجد الله وكلمه كما يكلم الخليل خليله.

على من يطلبون الله أن يخرجوا مرة كل ثلاثين يوماً إلى حيث يكون أهل الدنيا، لأنه يمكن أن يعمل في يوم واحد أعمال سنتين من خصوص شغل الذي يطلبه الله.

عليه متى تكلم ألا ينظر إلا إلى قدميه.

عليه متى تكلم ألا يقول إلا ما كان ضرورياً.

عليهم متى أكلوا أن يقوموا عن المائدة وهم دون الشبع مفكرين كل يوم أنهم لا يبلغون اليوم التالي، وصارفين وقتهم كما يتنفس المرء.

ليكن ثوب واحد من جلد الحيوانات كافياً.

على كتلة التراب أن تنام على الأديم. ليكف كل ليلة ساعتان من النوم.

عليه ألا يبغض أحداً إلا نفسه.

عليهم أن يكونوا واقفين أثناء الصلاة بخوف كأنهم أمام القيامة الآتية.

فافعلوا إذاً هذا في خدمة الله مع الشريعة التي أعطاكم إياها الله على يد موسى، لأن بهذه الطريقة تجدون الله، وإنكم ستشعرون في كل زمان ومكان أنكم في الله وإن الله فيكم.

هذا كتيب إيليا أيها الفريسيون، لذلك أعود فأقول لكم لو كنتم فريسيون لسررتم بدخولي هنا لأن الله يرحم الخطأة»[1].

تأكد لزكا أنه كان وراء هذا الحوار الطويل بين مضيفه وبين الفريسيين، ورغم ذلك فقد اختار عيسى منزله هو دون غيره للإقامة فيه، ودون أن يضع في اعتباره كراهية الناس لعمله، ونفورهم من الأكل على مائدته، ولأجل ذلك وقف ليقول للجميع موجهاً الخطاب أصلاً لعيسى:

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٢٢ ـ ٢٢٣.

ـ يا سيد انظر فإني أعطي حباً في الله نصف أموالي للمساكين. وأرد أربعة أضعاف ما أخذت من الربا.

فقال عليه السلام معقباً على توبة العشار زكا والتي تبعتها توبة كثير ممن كان حاضراً ذلك الموقف منه:

ـ اليوم حصل خلاص لهذا البيت، حقاً حقاً إن كثير من العشارين والزواني سيمضون إلى جنة الله. وسيمضي الذين يحسبون أنفسهم أبراراً إلى اللهب الأبدية.

أما الفريسيون فقد انسحبوا بهدوء من البيت، في حين تحول عليه السلام إلى الذين تابوا وخطب فيهم قائلاً:

ـ أضرب لكم مثلاً، كان لأب ابنان فقال أصغرهما:

ـ يا أبت أعطني نصيبي من المال.

فأعطاه أبوه إياه، فلما أخذ نصيبه انصرف وذهب إلى قرية بعيدة حيث بذر كل ماله على الزانيات بإسراف، فحدث بعد ذلك جوع شديد في تلك القرية حتى أن الرجل التعيس ذهب ليخدم أحد الأهالي فجعله راعياً للخنازير في ملكه، وكان وهو يرعاها يخفف جوعه بأكل ثمر البلوط مع الخنازير، ولكنه لما رجع إلى نفسه قال:

ـ كم في بيت أبي من سعة عيش وأنا أهلك هنا جوعاً، لذلك فلأقم ولأذهب إلى أبي وأقل له: يا أبت أخطأت في السماء إليك فاجعلني كأحد خدمك.

فذهب المسكين، وحدث أن أباه رآه قادماً من بعيد فتحنن عليه، فذهب لملاقاته، ولما وصل إليه عانقه وقبله، فانحنى الابن أمام أبيه قائلاً:

ـ يا أبت لقد أخطأت في السماء إليك فاجعلني كأحد خدمك، لأني لست مستحقاً أن ادعى ابنك.

أجاب الأب:

- لا تقل يا بني هكذا فإنك ابني ولا أسمح أن تكون عبداً لي.

ثم دعا خدمه وقال لهم:

- أخرجوا الحلل وألبسوا ابني إياها، وأعطوه سراويل جديدة. اجعلوا الخاتم في إصبعه، واذبحوا حالاً العجل المسمن فنطرب، لأن ابني كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد.

وبينما كان يطربون في البيت إذا بالابن البكر جاء إلى البيت، فلما سمعهم يطربون في الداخل تعجب فدعا أحد الخدم وسأله:

- لماذا كانوا في مثل هذا الطرب.

أجابه الخادم:

- لقد جاء أخوك فذبح له أبوك العجل المسمن وهم في طرب.

فلما سمع البكر هذا تغيظ غيظاً شديداً، ولم يدخل البيت فخرج أبوه إليه وقال له:

- يا بني لقد جاء أخوك فتعال إذاً وافرح معه.

فأجاب الابن بغيظ:

- لقد خدمتك خير خدمة فلم تعطني قط حملاً لأفرح مع أصدقائي، ولكن لما جاء هذا الخسيس الذي انصرف عنك مبذراً نصيبه كله على الزانيات ذبحت له العجل المسمن.

أجاب الأب:

- يا بني أنت معي في كل حين وكل مالي فهو لك، ولكن هذا كان ميتاً فعاش، وكان ضالاً فوجد.

فازداد الكبير غضباً وقال:

- اذهب وفز فإني لا آكل على مائدة زناة.

وانصرف عن أبيه دون أن يأخذ قطعة واحدة من النقود، لعمر الله

هكذا يكون فرح ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب.

أراد عيسى بعد انتهاء الوليمة مغادرة الناصرة والذهاب إلى منطقة اليهودية، ولكن حواريوه حذروه من مغبة دخولها بعد ما جرى في مدينة نايين فقالوا له كالمشفقين:

- يا معلم لا تذهب إلى اليهودية، لأننا نعلم أن الفريسيين قد ائتمروا مع رئيس الكهنة بك.

أما معلمهم فقد أجابهم وكأن الأمر لا يعنيه كثيراً:

- لقد علمت بذلك قبل أن يفعلوه، ولكني لا أخاف لأنهم لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً مضاداً لمشيئة الله، فليفعلوا كل ما يرغبون فإني لا أخافهم بل أخاف الله.

ثم انتهز هذه المناسبة ليلقي عليهم درساً وموعظة أخرى تعد هي الأخرى امتداداً طبيعياً للوحي المنزل على قلبه، فقال:

«ألا تقولوا لي هل فريسيو اليوم فريسيون، هل هم عباد الله، لا لا ألبتة، بل الحق أقول لكم إنه لا يوجد هنا على الأرض شر من أن يستر الإنسان نفسه بالعلم ووشاح الدين ليخفي خبثه، إني أقص عليكم مثالاً واحداً من فريسي الزمان القديم لكي تعرفوا الحاضرين منهم:

بعد سفر إيليا تشتت شمل طائفة الفريسيين بسبب الاضطهاد العظيم من عبدة الأصنام، لأنه ذبح في زمن إيليا نفسه في سنة واحدة عشرة آلاف نبي ونيف من الفريسيين الحقيقيين، فذهب فريسيان إلى الجبال ليقطنا هناك، ولبث أحدهما خمس عشرة سنة لا يعرف شيئاً عن جاره مع أن أحدهما كان على بعد ساعة واحدة عن الآخر.

فحدث في هذه الجبال قيظ فشرعا من ثم كلاهما يفتشان على ماء فالتقيا، فقال هنالك الأكبر منهما ـ لأنه كان من عادتهم أن يتكلم الأكبر قبل كل أحد غيره، وإذا تكلم شاب قبل شيخ حسبوا ذلك خطيئة كبرى:

- أين تسكن أيها الأخ.

فأجابه مشيراً بإصبعه إلى المسكن.

- ههنا أسكن.

لأنهما كانا قريبين من مسكن الأصغر.

فقال الأكبر:

- لعلك أتيت لما قتل أخاب أنبياء الله.

أجاب الأصغر:

- إنه لكذلك.

قال الأكبر:

- أتعلم أيها الأخ من هو الملك على إسرائيل الآن.

فأجاب الأصغر:

- إن الله هو ملك إسرائيل، لأن عبدة الأصنام ليسوا ملوكاً بل مضطهدين لإسرائيل.

قال الأكبر:

- إن هذا لصحيح، ولكن أردت أن أقول من هو الذي يضطهد إسرائيل الآن.

أجاب الأصغر:

- إن خطايا إسرائيل تضطهد إسرائيل، لأنهم لو لم يخطئوا لم يسلط الله على إسرائيل العظماء عبدة الأصنام.

فقال حينئذ الأكبر:

- من هو ذلك العظيم الكافر الذي أرسله الله لتأديب إسرائيل؟

أجاب الأصغر:

- وكيف يمكن أن أعرف إذ لم أرى إنساناً مدة خمسة عشرة سنة سواك وأجهل القراءة فلا ترسل إليّ رسائل.

قال الأكبر:

- ما أجد جلود الغنم التي عليك، فإذا كنت لم تر إنساناً فمن أعطاك إياها.

أجاب الأصغر:

- إن من حفظ ثياب شعب إسرائيل جديدة أربعين سنة حفظ جلودي كما ترى.

حينئذ لاحظ الأكبر أن الأصغر كان أكبر منه لأنه كان أكمل منه لأنه كان في كل سنة يختلط بالناس، ولذلك قال لكي يظفر بمحادثته:

- أيها الأخ إنك لا تعرف القراءة، وأنا أعرف القراءة وعندي في بيتي مزامير داود، فتعال إذاً لأعطيك كل يوم قراءة وأوضح لك ما يقول داود.

أجاب الأصغر:

- لنذهب الآن.

قال الأكبر:

- أيها الأخ إنني منذ يومين لم أشرب ماء، فلنفتش إذاً على قليل من الماء.

قال الأصغر:

- أيها الأخ منذ شهرين لم أشرب، فلنذهب إذاً ونرى ماذا يقول الله على لسان نبيه داود: إن الله لقادر على أن يعطينا ماء.

فعادوا من ثم إلى مسكن الأكبر فوجدوا على بابه ينبوعاً من ماء عذب، فقال الأكبر:

- إنك أيها الأخ ولي الله لأنه من أجلك قد أعطى هذا الينبوع.

أجاب الأصغر:

- إنك أيها الأخ تقول هذا تواضعاً، ولكن من المؤكد أنه لو فعل الله هذا من أجلي لكان صنع ينبوعاً قريباً من مسكني حتى لا انصرف للبحث عنه، فإني أعترف بأني أخطأت إليك لما قلت منذ يومين لم نشرب وكنت تفتش على الماء، أما أنا فإني بقيت شهرين دون شرب ولذلك شعرت بإعجاب فيّ كأني أفضل منك.

فقال الأكبر:

- أيها الأخ إنك قلت الصحيح ولذلك لم تخطىء.

قال الأصغر:

- إنك نسيت أيها الأخ ما قال أبونا إيليا أن من يطلب الله يجب أن يحكم على نفسه فقط، ومن المؤكد أنه قال هذا لا لنعرفه بل لنعمل به.

وبعد أن لاحظ الأكبر سناً صدق وبر رفيقه قال:

- إنه لصحيح غفر لك إلهنا.

وبعد أن قال هذا أخذ المزامير وقرأ ما يقول أبونا داود:

- إني أضع حارساً لفمي حتى لا يميل قلبي إلى كلمات الإثم منتحلاً عذراً عن خطاياي.

وانصرف الأصغر فلبث من ثم خمس عشرة سنة أخرى حتى التقيا لأن الأصغر غير مسكنه، لذلك عندما عاد الأكبر فلقيه قال:

- لماذا لم ترجع أيها الأخ إلى مسكني.

أجاب الأصغر:

- لأني لم أتعلم جيداً حتى الآن ما قلته لي.

فقال الأكبر:

- كيف يمكن ذلك وقد مرت الآن خمسة عشرة سنة.

أجاب الأصغر:

- أما الكلمات فقد تعلمتها في ساعة واحدة. ولم أنسها قط، ولكني حتى الآن لم أحفظها، فما الفائدة من أن يتعلم المرء كثيراً جداً ولا يحفظه، إن الله لا يطلب أن تكون بصيرتنا جيدة بل قلبنا، وهكذا لا يسألنا يوم القيامة عما تعلمنا بل عما عملنا.

أجاب الأكبر:

- لا تقل هكذا أيها الأخ لأنك إنما تحتقر المعرفة التي لا يريد الله أن تعتبر.

أجاب الأصغر:

- فكيف أتكلم إذاً حتى لا أقع في الخطيئة، لأن كلمتك صادقة وكلمتي أيضاً، أقول إذاً إن من يعرف وصايا الله المكتوبة في الشريعة يجب عليه العمل بهذه أولاً إذا أحب أن يتعلم بعد ذلك أكثر، وليكن كل ما يتعلمه الإنسان للعمل لا لمجرد العلم به.

أجاب الأكبر:

- قل لي أيها الأخ مع من تكلمت لتعلم أنك لم تتعلم كل ما قلته.

أجاب الأصغر:

- إني أتكلم أيها الأخ مع نفسي، إني أضع كل يوم نفسي أمام دينونة الله لأعطي حساباً عن نفسي، وأشعر على الدوام في داخلي بمن يوبخ ذنوبي.

قال الأكبر:

- ما هي ذنوبك أيها الأخ الذي هو كامل.

أجاب الأصغر:

- لا تقل هذا لأني واقف بين ذنبين كبيرين، الأول أني لا أعرف نفسي إني أعظم الخطأة، الثاني: أني لا أرغب في مجاهدة النفس أكثر من الآخرين.

أجاب الأكبر:

- كيف تعلم أنك أعظم الخطأة إذا كنت أكمل الناس.

أجاب الأصغر:

- إن الكلمة الأولى التي قالها لي معلمي عندما لبست لباس الفريسيين هي، أنه يجب عليّ أن أفكر في خير غيري وفي إثمي، فإذا فعلت هذا عرفت أنني أعظم الخطأة.

قال الأكبر:

- في خير من وذنب من تفكر، وأنت على هذه الجبال، فإنه لا يوجد بشر هنا.

أجاب الأصغر:

- ليس عليّ أن أفكر في طاعة الشمس والسيارات لأنها تعبد خالقها أفضل مني. ولكني أحكم عليها إما لأنها لا تعطي نوراً كما أرغب أو لأن حرارتها أكثر مما ينبغي أو لأنه يوجد مطر أقل أو أكثر مما تحتاج الأرض.

فلما سمع الأكبر هذا قال:

- أيها الأخ أين تعلمت هذا التعليم، فإني أنا الآن ابن تسعين سنة، صرفت منها خمساً وسبعين وأنا فريسي.

أجاب الأصغر:

- أيها الأخ إنك تقول هذا تواضعاً لأنك ولي الله، ولكن أجيبك بأن الله خالقنا لا ينظر إلى الوقت بل ينظر إلى القلب، لذلك لما

كان داود ابن خمسة عشرة سنة، وهو أصغر إخوته الستة انتخبه إسرائيل ملكاً وصار نبي الله.

لقد كان هذا الرجل فريسياً حقيقياً وإن شاء الله أمكنا أن نأخذه يوم الدين صديقاً لنا»[1].

مهما يكن من أمر فقد أصر عيسى على الذهاب إلى القدس ولكن عن طريق نهر الأردن متجنباً المرور بالسامرة. وعندما دخلوا إحدى السفن التي تربط الجليل الأعلى باليهودية تذكر الحواريون فجأة أنهم نسوا جلب طعام أو خبز معهم، ولكن عيسى زجرهم بقوله:

- احذروا من خمير فريسي يومنا، لأن خميرة صغيرة تخمر كيلة من الدقيق.

فتعجب الحواريون من قوله هذا فقال بعضهم لبعض:

- أي خمير معنا إذ لم يكن معنا خبز.

عندها بين عيسى مراده ومقصوده قائلاً:

- يا قليلي الإيمان أنسيتم إذاً ما فعل الله في نايبين، حيث لم يكن هناك أدنى دليل على الحنطة. وكم عدد الذين أكلوا وشبعوا من خمسة أرغفة وسمكتين، إن خمير الفريسي هو عدم الإيمان بالله، بل قد أفسد إسرائيل، لأن السذج لما كانوا أميين يفعلون ما يرون الفريسيين يفعلونه، لأنهم يحسبونهم أطهاراً.

أتعلمون ما هو الفريسي الحقيقي؟ هو زيت الطبيعة البشرية، لأن الزيت كما يطفو فوق كل سائل هكذا تطفو جودة كل فريسي حقيقي فوق كل صلاح بشري، هو كتاب حي يمنحه العالم للعالم.

كل ما يقوله أو يفعله إنما هو بحسب شريعة الله، فمن يفعل كما يفعل فهو يحفظ شريعة الله، إن الفريسي الحقيقي ملح لا يدع الجسد

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٢٦ - ٢٣١.

البشري ينتن بالخطيئة، لأن كل من يراه يتوب، إنه نور ينير طريق السائح، لأن كل من يتأمل فقره مع توبته يرى أنه لا يجب علينا في هذا العالم أن نغلق قلوبنا.

ولكن من يجعل الزيت زنخاً ويفسد الكتاب ويجعل الملح منتناً ويطفىء النور فهذا الرجل فريسي كاذب، فإذا كنتم لا تريدون أن تهلكوا فاحذروا أن تفعلوا كما يفعل الفريسيون اليوم.



الفصل الخامس
الرفع إلى السماء

إن اختفاء عيسى المفاجىء حتى عن حوارييه ألصق الناس به وأكثرهم ملازمة له، وذهابه إلى دمشق بعيداً عن مسرح دعوته يعني ومن الناحية العملية إنكاراً صريحاً ورفضاً كاملاً لفكرة تنصيبه ملكاً ولو على رقعة محدودة من الأرض، فإذا كانت فكرة ألوهيته وبنوته لله تعد جنوناً مطبقاً، فإن فكرة تمليكه وتسييده على الناس تعد خروجاً صارخاً عن هدف الدعوة المتمثل في إحياء الشريعة الموسوية، وعن غايتها وهي الإعداد والتهيئة لمبعث الرسول الخاتم، مما يدل عن بعد القوم وعدم فهمهم لدعوته حق الفهم، وضياع خطبه ومواعظه خلال الأعوام الثلاثة الماضية سدى.

أما بالنسبة ليهوذا الإسخريوطي على وجه أخص فإن هروب عيسى يعني تقويضاً تاماً لآمال عريضة ظلت تراوده، وهي أن يصبح ذو شأن كبير في المملكة الجديدة وبسلطات دستورية واسعة تجعل منه كعبة القصاد وطالبي الحاجات. فكانت خيبة أمله نقطة تحول في ماضيه كحواري، وخط فاصل في تاريخ البعثة العيسوية، وقد حكى برنابا ما وطن عليه يهوذا نفسه مدفوعاً بمرارة الفشل وما قاله هو بينه وبين نفسه:

«لو كان هذا الرجل نبياً لعرف أني أختلس نقوده ولكان حنق عليّ وطردني من خدمته، إذ يعلم أني لا أومن به، ولو كان حكيماً لما هرب من المجد الذي يريد الله أن يعطيه إياه. فالأجدر بي أن أتفق مع رؤساء الكهنة

والكتبة والفريسيين ونرى كيف أسلمه إلى أيديهم، فبهذا أتمكن من تحصيل شيء من النفع»[1].

وفي الوقت الذي تشتت فيه إخوانه بحثاً عن معلمهم اتجه يهوذا إلى القدس حيث أخبر الكتبة والفريسيين بما حدث في مدينة نايبين وكما عايشه بنفسه، وهؤلاء بدورهم نقلوا نص الوقائع إلى رئيس الكهنة قيافا بوصفه صاحب السلطة المعنية بالأمر في البلاد، وعلى الفور جرت مشاورات مستفيضة بين الأطراف الثلاثة تناولت القضية من كافة جوانبها، والمهددات التي تواجه الجميع، وانتهوا من تحليلاتهم ومناقشاتهم إلى الآتي:

أولاً: لو أصبح عيسى ملكاً بالفعل فسيَستغل كل ما لديه من سلطات لإصلاح الشريعة الموسوية وتطبيقها بحذافيرها، وذلك واضح من دعوته باستمرار إلى الرجوع إليها، والالتزام الصارم بتعاليمها عقيدة وشريعة، وهذا يتطلب منه بالضرورة التصدي لكل محاولات التحريف والتغيير والتقاليد التي تتمسك بها الطوائف الدينية والقضاء عليها، مما يترتب عليه طردهم من مناصبهم الدينية وضياع مصالحهم الدنيوية.

ثانياً: إن تقاسم السلطة في البلاد بين أجنبيان كلاهما بعيد عن شريعتهم ولا يباليان بها، قد أفسح لهم مجالاً واسعاً لفعل ما يشاؤون نقضاً وإبراماً في أمورهم الدينية، فإذا أذنبوا أو أجرموا في حق الله فإن الله الذي يعبدونه يمكن استرضاؤه بدماء الأضحية والقرابين وأيام قليلة من الصوم كفارة وتكفيراً. ولكن إذا نصب عيسى ملكاً عليهم ولو تحت مظلة السلطة الرومانية وبرضائها فلن يرضى بغير تطبيق أحكام الشريعة بحذافيرها على كل مذنب ومخالف لها وبلا توان، ودون اعتبار لمكانته ومنزلته الاجتماعية.

ثالثاً: أكد عيسى وفي أكثر من مناسبة على أن رسول الله (مسيا) وأمل إسرائيل لن يأتي من نسل إسحاق، بل يأتي من نسل إسماعيل، وإن وعد إبراهيم بالبركة والنماء المقصود به إسماعيل لا إسحاق، مما يعني أن العرب

---

(١) إنجيل برنابا ص٢١٧.

سيكونون من ذوي الوجاهة والقبول عند الرومان، فيعطونهم بلادهم، ومن ثم يتحول اليهود من سادة إلى عبيد كما كانوا في الماضي.

تلك هي المخاوف التي تمخض عنها ذلك الاجتماع، وسلم الكل بخطورتها حاضراً ومستقبلاً، وبناء عليها فوّض المجتمعون لقيافا رئيس الكهنة وبحكم منصبه الاتصال المباشر بالسلطات المدنية وعلى جناح السرعة لتداركها قبل أن تستفحل وتستعصي على العلاج، وكان قيافا بالفعل عند حسن ظن القوم فيه، فقد رأى أن الشعب برمته يلتف حول عيسى. ويحظى عندهم بقبول واسع يجعله مسموع الكلمة. ولا يمكنهم الآن اتخاذ أي إجراء عملي ضده إلا بسند وضمان من أرخلاوس والرومان للوقوف بجانبهما، وتأييدهم المطلق بقرارات سياسية وعسكرية تكفل لهم النجاح وتقمع الشعب إذا ما انحاز لعيسى في صراعه معهم.

وعلى أي حال فقد انتهى ذلك الاجتماع الثلاثي إلى ضرورة وحتمية القبض على عيسى أولاً كإجراء احترازي فقط. وذلك طبعاً بعد موافقة السلطات الحاكمة، وإيداعه الحبس مؤقتاً كما حدث مع ابن خالته يحيى بن زكريا عليه السلام، أما الخطوة التي تعقب الحبس فلم يبت فيها أو حتى يتطرق إليها أحد منهم أثناء المشاورات، وذلك لأن همهم الأوحد كان منصباً على وأد فكرة تنصيبه ملكاً في مهدها وبسرعة شديدة، والحيلولة بينها وبين الذيوع والانتشار، أو على أقل تقدير حتى لا تحظى بقبول وتأييد شعبي واسع لا يجد معه الوالي الروماني وأمام الضغط الشعبي مفراً من تنصيبه ملكاً بدلاً عن أرخلاوس، انتصاراً للشعب وإنحيازاً لاختياره.

ومنذ ذلك الوقت أعدت خطة دقيقة ومتقنة للقبض على عيسى، وبطريقة لا توحي ولا يشتم منها رائحة التآمر، وتتم ضمن سياق المواجهات العادية والمألوفة بينه وبين مناوئيه من رجالات الطوائف الدينية، وبدعم كامل من السلطات الرومانية، وتعاون وثيق من أرخلاوس وجنده.

إن دخول الرومان وأعوانهم طرفاً أساسياً في المؤامرة قد أطفى على الصراع طابعاً سياسياً وأمنياً، وذلك يعطيهم الحق في التدخل المباشر

والسريع وفي الوقت المعد له مسبقاً بقواتهم العسكرية، ليس انحيازاً للشعب، وإنما انحيازاً لأمن الإمبراطورية وسلامة مواطنيها، ومن هنا يكون الحياد والذي درجت عليه السياسة الرومانية طوال الأعوام السابقة من بعثته عليه السلام قد ذهب أدراج الرياح، مما يعني أن الأمور ستسير هذه المرة إلى نهايتها الطبيعية.

ولما جاء عيسى إلى القدس ودخل الهيكل كعادته يوم السبت، ووقف على المنبر للوعظ والإرشاد، تقدم منه وفي سابقة فريدة وشاذة أفراد قلائل من جنود الجيش الروماني ليجربوه، وهي محاولة بلا أدنى ريب سافرة ومكشوفة للتحرش به، أو فتح جبهة جديدة ضده تعطي فيما بعد المسوغات اللازمة للقبض عليه، فسأله أحدهم:

- يا معلم أيجوز شن الحرب؟

فأجابه عيسى إجابة تتفق مع طبيعة دعوته ومنهج رسالته:

- إن ديننا يخبرنا أن حياتنا حرب عوان على الأرض.

فالحرب التي أشار إليها عليه السلام غير تلك التي يشنونها هم من أجل السيطرة والسيادة والمغانم، فتصدى له أحدهم مستنكراً:

- أفتريد إذن أن تحولنا إلى دينك، أو تريد أن نترك آلهتنا ونتبع إلٰهك الأحد، ولما كان إلٰهك لا يُرى فهو لا يعلم أين مقره، وقد لا يكون سوى باطل.

أحس عيسى من كلام الجندي بمدى جهله وسذاجته. ولذلك رد عليه كما لو كان مقصوده قطع المحادثة:

- لو كنت خلقتكم كما خلقكم إلٰهنا لحاولت تغييركم.

وكما لو أحسوا هم أيضاً من رده عليهم بأنه مغلوب على أمره فصاح أحدهم:

- إذا كان لا يُعلم أين إلٰهك فكيف خلقنا، أرنا إلٰهك نكن يهوداً.

فرد عليهم رداً أراد به بيان تعذر رؤية الله لا لاستحالتها وإنما لامتناعها عليهم وهم ما عليه من كفر وشرك وضلال فقال:

- لو كان لكم عيون لأريتكم إياه، ولكن لما كنتم عمياناً فلست بقادر على أن أريكم إياه.

وللمرة الثانية ردوا عليه رداً يحمل في طياته الجهل والسذاجة حيث قالوا:

- حقاً لا بد أن يكون الإكرام الذي يقدمه لك الشعب قد سلبك عقلك، لأن لكل منا عينين في رأسه وأنت تقول أننا عميان.

عندئذ كشف لهم مفهوم الرؤية التي يرمي إليها فقال:

- إن العيون الجسدية لا تبصر إلا الكثيف والخارجي، فلا تقدرون من ثم إلا على رؤية آلهتكم الخشبية والفضية والذهبية التي لا تقدر أن تفعل شيئاً، أما نحن أهل يهوذا فلنا عيون روحية هي خوف إلٰهنا ودينه، ولذلك لا يمكن لنا رؤية إلٰهنا في كل مكان.

ولما كان ذلك الإيضاح بعيداً عن مدارك الجنود، فقد وقفوا فقط عند مقارنته بين آلهتهم التي ترى بالعيون المجردة، وبين الله تعالى المتعالي عن الرؤية. فظنوا أن تلك المقارنة بمثابة مسبة وقدح في آلهتهم، لأجل ذلك رفع أحدهم عقيرته محتجاً بقوله:

- احذر كيف تتكلم لأنك إذا صببت احتقاراً على آلهتنا سلمناك إلى يد أرخلاوس الذي ينتقم لآلهتنا القادرة على كل شيء.

تبين لعيسى أن الجنود في واد وهو في واد آخر، فحاول النزول إلى مستوى فهمهم للأمور الدينية، بل على الأصح وقف عند حدود مداركهم العقلية البسيطة فقال:

- إن كان آلهتكم قادرة على كل شيء كما تقولون، فعفواً لأني سأعبدها.

فصرخ الجنود وتعالت صيحاتهم تمجيداً لآلهتهم وثناء عليها. ولكن عيسى قطع عليهم فرحتهم بقوله:

- لا حاجة بنا هنا إلى الكلام بل الأعمال، فاطلبوا من آلهتكم أن تخلق ذبابة واحدة فأعبدها.

فبهت الجنود وتحيروا فيما عسى يردون به عليه، وماذا يقولون له، فأكمل عليه السلام حديثه قائلاً:

- إذا كان آلهتكم لا تقدر أن تصنع ذبابة واحدة جديدة فإني لا أترك لأجلها ذلك الإله الذي خلق كل شيء بكلمة واحدة، الذي مجرد اسمه يروع جيوشاً.

وبكل تهور المغلوب على أمره اندفع الجنود صاعدين نحو عيسى وهم يصيحون:

- لنرى هذا لأننا نريد أن نأخذك.

وقبل أن تمتد إليه أيديهم المشرعة لأخذه قال عيسى بصوت قوي وهادر:

- أدوناي صبأوت.

وفي الحال تدحرج الجند كما تتدحرج البراميل الفارغة، وأصوات صراخهم وفزعهم من هول القوة الخفية التي تدفع بهم يميناً ويساراً وهم بإزائها بلا حول ولا قوة تصم الآذان، أما الكهنة والفريسيون الذين شاهدوا الجنود وهم يتخبطون في هروبهم ذات اليمين وذات الشمال، فقد قالوا فيما بينهم:

- لقد أُوتي عيسى حكمة بعل وعشتاروت، وهو إنما فعل ذلك بقوة الشيطان.

وبطبيعة الحال لم يعثر عيسى في تذمرهم على شيء يمكن الرد عليه، فصرف همته إلى ما يشغل بال الناس ويفيدهم فقال مخاطباً الناس:

- لقد أمرنا الله ألا نسرق قريبنا. ولكن قد انتهكت حرمة هذه الوصية حتى أنها ملأت العالم خطيئة لا تغفر كما تغفر الخطايا الأخرى، لأنه إذا ندم المرء على الخطايا الأخرى ولم يعد إلى ارتكابها فيما بعد، وصام مع الصلاة والتصدق صفح الله القدير الرحيم عنه، ولكن هذه الخطيئة من نوع لا يمكن غفرانه إلا إذا رد ما أخذ ظلماً.

استغرب أحد الكتبة ليس فقط من شيوع السرقة والذي يؤكد عليه كلامه، بل أيضاً استحالة مغفرتها إلا بعد إعادة المسروق كشرط لازم. فقال له سائلاً ومعلقاً:

- كيف ملأت السرقة العالم كله خطيئة؟ حقاً إنه لا يوجد الآن بنعمة الله سوى النزر القليل من اللصوص وهم لا يجرؤن على الظهور لأن الجنود تشنقهم حالاً.

فرد عليه عيسى:

- من لا يعرف الأموال لا يقدر أن يعرف اللصوص، بل أقول لكم الحق إن كثيرين يسرقون وهم لا يدرون ما يفعلون، ولذلك كانوا أعظم خطيئة من الآخرين. لأن المرض الذي لا يعرف لا يشفى.

إن فعل السرقة كما هو واضح قد يتحول بدوام الاستمرار فيها إلى داء يفعله الواحد كما لو كان عادة درج عليها ولا يستطيع منها فكاكاً، مما يترتب عليه جهل الكثير منهم بها. وعدم معرفتهم بدوافعها ومسبباتها النفسية، وهو الأمر الذي حدا بأحد الفريسيين إلى الاقتراب منه متسائلاً:

- يا معلم إذا كنت أنت وحدك في إسرائيل تعرف الحق فعلمنا.

وعلى الرغم مما في سؤال الفريسي من تهكم واستهزاء، إلا أن عيسى تجاهل هذا التجريح المتعمد وحصر إجابته له ولهم في بيان الحق وحده محتسباً جهله وسفاهته عند الله تعالى فقال:

- إني لا أقول أني أنا وحدي في إسرائيل أعرف الحق، لأن هذه

اللفظة (وحدك) تختص بالله وحده لا بغيره، لأنه هو الحق الذي وحده يعرف الحق، فإذا قلت هكذا صرت لصاً أعظم لأني أكون قد سرقت مجد الله، وإن قلت أني وحدي عرفت الله وقعت في جهل أعظم من الجميع، وعليه فإنكم قد ارتكبتم خطيئة فظيعة بقولكم أني وحدي أعرف الحق، ثم أقول لكم إنكم إذا قلتم هذا لتجربوني فخطيئتكم أعظم مرتين.

وعلى أي حال فمع أني لست الوحيد في إسرائيل الذي يعرف الحق، فإني وحدي أتكلم الحق فأصيغوا السمع لي لأنكم قد سألتموني.

إن كل المخلوقات خاصة بالخالق حتى أنه لا يحق لشيء أن يدعي شيئاً، وعليه فإن النفس والحس والجسد والوقت والمال جميعها ملك لله، فإذا لم يقبلها الإنسان كما يريد الله أصبح لصاً، وكذلك إذا صرفها مخالفاً لما يريده الله فهو أيضاً لص. لذلك أقول لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته أنكم تسوفون قائلين: سأفعل غداً كذا، سأقول كذا، سأذهب إلى الموضع الفلاني، دون أن تقولوا إن شاء الله، فأنتم لصوص، وتكونون أعظم لصوصية إذا صرفتم وقتكم في مرضاة أنفسكم دون مرضاة الله، بل تصرفون أردأه في عبادة الله، لأنتم إذاً بالحق لصوص. كل من يرتكب الخطيئة مهما كان زيه فهو لص، لأنه يسرق النفس والوقت وحياته التي يجب أن تعبد الله، ويعطيها للشيطان عدو الله.

فالرجل الذي له شرف وحياة ومال إذا سرقت أمواله شنق السارق، وإذا أخذت حياته قطع رأس القاتل، وهو عدل لأن الله أمر بذلك. ولكن متى أخذ شرف قريب فلماذا لا يصلب السارق؟ المال أفضل أم الشرف. أأمر الله مثلاً أن يقاضي بأخذ المال، ومن يأخذ الحياة مع المال يقاص، ولكن من يأخذ الشرف يسرح، لا لا ألبتة لأن آباءنا بسبب تذمرهم لم يدخلوا أرض الموعد بل أبناؤهم. ولهذه الخطيئة قتلت الأفاعي سبعين ألف من شعبنا.

لعمر الله الذي تقفُ نفسي في حضرته أن من يسرق الشرف يستحق

عقوبة أعظم ممن يسرق رجلاً ماله وحياته، ومن يصغي إلى المتذمر فهو مذنب أيضاً لأن أحدهما يُقبل الشيطان لسانه والآخر من أذنيه.

جاءت إجابة عيسى حاوية لمفاهيم يستحيل على أحد من العارفين بروح الشريعة المجادلة فيها، ومشتملة على معاني نبيلة تنحني لها هامات العارفين. فسلم الفريسيون مكرهين لسلامتها وتجردها من الخطأ أو الغلو. ولما رأى أحد الناموسيين عجز الفريسيين وشعر ببوادر تنبي بانسحابهم من مواجهة عيسى، اقترب منه متسائلاً:

- أيها المعلم الصالح قل لي لماذا لم يهب أبوينا حنطة وثمراً، فإنه إذا كان يعلم أنه لا بد من سقوطهما فمن المؤكد أنه كان يجب أن يسمح لهما بالحنطة، أو ألا يرياها.

فأجاب عليه السلام بلا تردد:

- إنك أيها الرجل تدعونني صالحاً، ولكنك تخطىء لأن الله وحده هو الصالح، وإنك لأكثر خطأ في سؤالك لماذا لا يفعل الله حسب دماغك، ولكن أجيبك عن كل شيء فأفيدك إذ إن الله خالقنا لا يجعل عمله موافقاً في نفسه لنا، لذلك لا يجوز للمخلوق أن يطلب طريقه وراحته بل بالحري مجد الله خالقه. ليعتمد المخلوق على الخالق، لا الخالق على المخلوق. لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لو وهب الله كل شيء لما عرف الإنسان نفسه أنه عبدالله ولكان حسب نفسه سيد الفردوس، لذلك نهاه الله المبارك إلى الأبد.

الحق أقول لكم إن كل من كان نور عينيه جلياً يستخرج من الظلمة نفسها نوراً، ولكن الأعمى لا يفعل هكذا، لذلك أقول لو لم يخطىء الإنسان لما علمت أنا ولا أنت رحمة الله وبره، ولو خلق الله الإنسان غير قادر على الخطيئة لكان نداً لله في ذلك الأمر، لذلك خلق الله الإنسان صالحاً وباراً، ولكنه حر أن يفعل ما يريد من حيث حياته وخلاصه لنفسه أو لعنته.

ولما سمع العالم الناموسى الذي تدخل في المحاورة إنقاذاً للفريسيين من ارتباكهم تلك الإجابة، أصيب هو الآخر بالارتباك والاضطراب فولى وجهه مدبراً لا يلوي على شيء. مما دفع برئيس الكهنة إلى استدعاء شيخين وأرسلهما للحاق بعيسى الذي خرج من الهيكل إلى رواق سليمان حيث جلس هناك في انتظار صلاة الظهر، وإلى جانبه حوارييه مع عدد غفير من الناس.

وبناء على الاتفاق المبرم مع رئيس الكهنة، اقترب الشيخان من عيسى وقال له أحدهما وبصوت مسموع في محاولة مكشوفة لإحراجه وسط الجمع الكبير:

- لماذا أكل الإنسان حنطة وثمراً، هل أراد الله لهما أن يأكلا أم لا؟

ظن الشيخان أن عيسى لو قال: إن الله أراد ذلك. لأجابا ولماذا نهى عنه، وإذا قال إن الله لم يرد ذلك. يقولان حينئذ: إن للإنسان قوة أعظم من الله لأنه يعمل ضد إرادة الله، وهو نوع شائع من المحاورة في زمانهم يسعى فيه المحاور لجر خصمه إلى إجابة واحدة لا ثاني لها، فيقع في الفخ المعد له سلفاً، ولكن عيسى رد عليهما بقول:

- إن سؤالكما كطريق في جبل ذو جرف عن اليمين وعن اليسار ولكن أسير في الوسط.

عندئذ أدرك الشيخان أن عيسى قد اضطلع على نواياهما الحقيقية، فتحيرا ولزما الصمت، فقال لهما عيسى:

- لما كان كل إنسان محتاجاً كان يعمل كل شيء لأجل منفعته، ولكن الله الذي لا يحتاج إلى شيء يعمل بحسب مشيئته، لذلك لما خلق الإنسان خلقه حراً، ليعلم أن ليس لله حاجة إليه، كما يفعل الملك الذي يعطي حرية لعبيده ليظهر ثروته وليكون عبيده أشد حباً له.

إذاً قد خلق الله الإنسان حراً لكي يكون أشد حباً لخالقه، وليعرف

جوده، لأن الله وهو القادر على كل شيء غير محتاج إلى الإنسان، فإنه إذا خلقه بقدرته على كل شيء تركه حراً بجوده على طريقة يمكنه معها مقاومة الشر وفعل الخير، وإن الله على قدرته على منع الخطيئة لم يرد أن يضاد جوده ـ إذ ليس عند الله تضاد ـ فلما عملت قدرته على كل شيء وجوده عملهما في الإنسان لم يقاوم الخطيئة في الإنسان لكي تعمل في الإنسان رحمة الله وبره، وآية صدقي هي أن أقول لكما إن رئيس الكهنة قد أرسلكما لتجرباني، وهذا هو ثمر كهنوته.

وانصرف الشيخان دون التفكير حتى في الصلاة الجامعة، وقصا على مسامع رئيس الكهنة كيف تخلص عيسى من إحراجهما ليحرجهما بإجابة لم تكن واردة لهما على بال أو خاطر، فعلق رئيس الكهنة على ما سمع تعليق من يئس تماماً من إيجاد ذريعة مقبولة أو غير مقبولة للنيل منه حيث قال أمامهما:

ـ إن وراء ظهر هذا الشخص الشيطان الذي يلقنه كل شيء، لأنه يطمح إلى ملكية إسرائيل، ولكن الأمر في ذلك لله.

وبعد أداء الصلاة وعند اجتيازه الهيكل رأى عيسى رجلاً أعمى منذ ولادته (أكمه)، فانتهز أحد تلاميذه هذه الواقعة البسيطة والمتكررة ليسأله على لسان إخوانه:

ـ أيها المعلم من أخطأ في هذا الإنسان حتى ولد أعمى أبوه أم أمه.

فأجابهم وهم في طريقهم للخارج:

ـ لا أبوه أخطأ فيه ولا أمه، ولكن الله خلقه هكذا شهادة للإنجيل ولتظهر فيه أعماله.

ثم توقف عن السير ودعا الأكمه إليه، ولما وقف بجواره تفل عليه السلام وصنع من التفل طيناً طلى به عيني الأكمه وقال له:

ـ اذهب إلى بركة سلوام واغتسل.

فذهب الأكمه إلى بركة سلوام وبمجرد غسله عينيه من الطين عاد

بصيراً. وبينما هو في طريق عودته إلى منزله رآه الكثير ممن تعودوا رؤيته وهو جالس يستعطي الناس على باب الهيكل، فقال بعضهم:

- لو كان هذا الرجل أعمى لقلت بكل تأكيد أنه هو الذي كان يجلس على الباب الجميل في الهيكل.

وقال آخرون:

- إنه هو ولكن كيف أبصر.

في حين قال ممن يرون استحالة شفاءه من العمى:

- إنه ليس هو ولكن يشبهه.

ولما سألوه حسماً للاختلاف الناشب بينهم:

- هل أنت الأكمه الذي كان يجلس على الباب الجميل من الهيكل.

أجابهم:

- إني أنا هو ولماذا؟

فقالوا له:

- كيف نلت بصرك.

أجابهم ببساطة متناهية:

- إن رجلاً صنع طيناً تافلاً على الأرض ووضع هذا الطين على عيني، وقال لي: اذهب واغتسل في بركة سلوام، فذهبت واغتسلت فصرت الآن أبصر، تبارك إله إسرائيل.

وما أن عاد الرجل الذي كان أكمهاً إلى الباب الجميل من الهيكل حتى امتلأت القدس كلها بالخبر، وتناقله الناس بانبهار شديد وتعجب بالغ. فاضطر قيافا رئيس الكهنة والفريسيون إلى استدعاء الرجل على عجل لمعرفة الحقيقة منه. وبمجرد أن مثل بين أيديهم سأله رئيس الكهنة:

- هل ولدت أعمى أيها الرجل.

فأجابهم:

ـ نعم.

فقال له رئيس الكهنة محاولاً جره إلى إجابة يريدها لا الرجل.

ـ ألا فاعط مجداً لله وأخبرنا أي نبي ظهر لك في الحلم وأنالك نوراً، أهو أبونا إبراهيم، أم موسى عبدالله، أم نبي آخر، لأن غيرهم لا يقدر أن يفعل شيئاً نظير هذا.

فرد عليه بتلقائية واضعاً إياه أمام الواقع الذي خبره بنفسه:

ـ إني لم أر في حلم ولم يشفني لا إبراهيم ولا موسى ولا نبي آخر، ولكني بينما أنا جالس على باب الهيكل أدناني رجل إليه، وبعد أن صنع طيناً من تراب بتفله وضع بعضاً من ذلك الطين على عيني وأرسلني إلى بركة سلوام لأغتسل فذهبت واغتسلت وعدت بنور عيني.

عندئذ تأكد لهم صدق الرجل من لهجته التي لا تكلف فيها ولا تصنع. سألوه بعدها اسم الرجل الذي شفاه، فقال لهم:

ـ إنه لم يذكر لي اسمه، ولكن رجلاً رآه ناداني وقال لي: اذهب واغتسل كما قال لك ذلك الرجل، لأنه عيسى الناصري نبي إله إسرائيل ووليه.

ولآخر مرة سأله رئيس الكهنة للتأكد فقط من وعيه بالأيام قائلاً:

ـ لعله أبرأك اليوم أي السبت.

فرد عليه الأكمه:

ـ نعم إنه أبرأني اليوم.

وجه بعدها رئيس الكهنة كلامه للحاضرين قائلاً:

ـ انظروا الآن كيف أن هذا الرجل خاطىء، لأنه لا يتقيد بيوم السبت.

فقال له الرجل:

- لست أعلم أخاطىء هو أم لا، وإنما أعلم هذا وهو أني كنت أعمى فأنارني.

مال الكهنة ورئيسهم إلى تصديق الرجل في أقواله، إذ ليس هناك ما يدعوه للكذب واختلاق أمور قد لا تجد قبولاً وتصديقاً من أحد، ولكن الفريسيون احتفظوا بلجاجتهم المعهودة وأصروا على مزيد من التحري في دعواه، فقال أحدهم لرئيس الكهنة:

- أرسل وادع أباه وأمه لأنهما يقولان لنا الصدق.

فأرسل رئيس الكهنة لإحضار أبويّ الرجل، ولما مثلا بين يديه سألهم:

- هل هذا الرجل ابنكما.

أجاباه:

- نعم إنه ابننا حقاً.

فسألهم:

- يقول إنه ولد أعمى والآن يبصر، فكيف حدث هذا الشيء.

ردا عليه قائلين:

- إنه ولد حقاً أعمى ولكن لا نعلم كيف يبصر النور، وهو كامل السن اسألوه يقل لكم الصدق.

إن تهرب الأبوين من الإجابة الصريحة، وخوفهم من قول الحق عن ولدهما مرده إلى القرار الصادر من مجلس الشيوخ الروماني والذي ينص على ألا يتحزب أحد لعيسى نبي اليهود وإلا فعقابه الموت. لذلك قالا: هو كامل السن فاسألوه، حينئذ صرفهما رئيس الكهنة وعاد من جديد لمواجهة الرجل عله يظفر منه بشيء يستخدمه ضد عيسى فقال له:

- أعط مجداً لله وقل الصدق لأننا نعلم أن هذا الرجل الذي شفاك خاطىء.

فقال:

- لست أعلم أخاطىء هو أم لا، وإنما أعلم فقط أنني كنت لا أبصر فأنارني، ومن المؤكد أنه منذ ابتداء العالم، وحتى هذه الساعة لم ير أكمه. والله لا يصيغ السمع إلى الخطاة.

هنا سأله أحد الفريسيين:

- لماذا فعل ذلك، ولماذا أنارك.

تعجب الرجل ليس فقط من عدم إيمانهم. بل أيضاً لإصرارهم المقيت على عدم تصديقه، كما لو لم يكونوا يريدون لمثل هذه المعجزة أن تحدث، فرد عليهم:

- فلماذا تسألونني، أتريدون أنتم أن تصيروا تلاميذ له.

فنهره رئيس الكهنة لتطاوله وخروجه عن حدود الأدب في مخاطبته لهم. قال له بعدها:

- إنك ولدت بجملتك في الخطيئة أفتريد أن تعلمنا، أغرب وصر أنت تلميذاً لهذا الرجل، أما نحن فإننا تلاميذ موسى ونعلم أن الله كلم موسى، وأما هذا الرجل فلا نعلم من أين هو.

وفي سابقة لم تحدث من قبل استدعى رئيس الكهنة الحراس لإخراج الرجل من الهيكل، كما أصدر أمراً في تلك الساعة يقضي بمنعه من الصلاة مع الناس. ولما وجد الرجل نفسه طريداً ومغضوباً عليه، ذهب على الفور لمقابلة عيسى، وإطلاعه عما جرى داخل بيت من بيوت الله، وعند لقائه به، بادره عيسى معزياً ومواسياً. فقال له:

- إنك لم تبارك في زمن ما كما أنت الآن، لأنك مبارك من إلٰهنا الذي يتكلم على لسان داود أبينا ونبيه قائلاً:

ـ هم يلعنون وأنا أبارك.

وقال على لسان ميخا:

ـ إني أعلن بركتك.

لأن التراب لا يضاد الهواء ولا الماء النار، ولا النور الظلام، ولا البرد الحرارة، ولا المحبة البغضاء، كما تضاد إرادة الله إرادة العالم.

بدأ المعنى الكامن وراء كلامه ولكثير من حوارييه عميقاً وبعيد الغور. وفي الوقت نفسه بعيد عن مداركهم العقلية فسأله أحدهم:

ـ ما أعظم كلامك أيها السيد. فقل لنا المعنى لأننا حتى الآن لم نفهم؟

فأجابهم:

ـ متى عرفتم العالم ترون أني قلت الحق، وهكذا تعرفون الحق عند كل نبي، فاعلموا إذاً أن هناك ثلاث أنواع من العوالم متضمنة في اسم واحد، الأول يشير إلى السموات والأرض مع الماء والهواء والنار وكل الأشياء التي هي دون الإنسان فيتبع هذا العالم في كل شيء إرادة الله كما يقول داود:

ـ لقد أعطاها الله أمراً لا تتعداه.

الثاني يشير إلى كل بشر، كما أن بيت فلان لا يشير إلى الجدران بل إلى الأسرة، فهذا العالم يحب الله أيضاً، لأنهم بالطبيعة يتوقون إلى الله قدر ما يستطيع كل أحد أن يتوق بحسب الطبيعة إلى الله وإن ضلوا في طلب الله، أفتعلمون لماذا يتوق الجميع إلى الله، لأنهم لا يتوقون جميعاً إلى صلاح غير متناه بدون أدنى شر، وهذا هو الله وحده، لذلك أرسل الله الرحيم أنبياءه إلى هذا العالم لخلاصه.

أما الثالث فهو حال سقوط الإنسان في الخطيئة التي تحولت إلى شريعة مضادة لله خالق العالم. فهذا يصير الإنسان نظير الشياطين أعداء الله.

فماذا تظنون في مصير الأنبياء لو أحبوا هذا العالم حقاً، إن الله ليأخذ منهم نبوتهم، وماذا أقول لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لو خامر رسول الله حب هذا العالم الشرير متى جاء إليه، لأخذ الله منه بالتأكيد كل ما وهبه عند خلقه وجعله منبوذاً، لأن الله بهذا المقدار مضاد للعالم.

وللمرة الثانية لجأ الحواريون لمعلمهم ليشرح مغزى ومضمون كلامه فقالوا له:

- يا معلم إن كلامك لعظيم، فارحمنا لأننا لا نفهمه.

فشرح لهم معلمهم فحوى مقصوده ومراده في الآتي:

- أيخيل لكم أن الله خلق رسوله ليكون نداً له يريد أن يجعل نفسه مساوياً لله، كلا ثم كلا، بل عبده الصالح الذي لا يريد ما لا يريده الله، إنكم لا تقدرون أن تفقهوا هذا لأنكم لا تعرفون ما هي الخطيئة، فأصيخوا السمع لكلامي، الحق أقول لكم إن الخطيئة لا يمكن أن تنشأ في إنسان إلا مضادة لله. إذ ليست الخطيئة إلا ما لا يريده الله، فإن كل ما يريده الله أجنبي عن الخطيئة، فلو اضطهدني رؤساء الكهنة مع الفريسيين لأن شعب إسرائيل دعاني إلهاً لفعلوا شيئاً يرضى به الله ولكافأهم الله، ولكن الله مقتهم لأنهم يضطهدونني لسبب مضاد، وهو أنهم لا يريدون أن أقول الحق، وكم قد أفسدوا بتقليدهم كتاب موسى وكتاب داود نبي الله وخليله، وإنهم لهذا يكرهونني ويودون موتي.

إن موسى قتل ناساً، وأخاب قتل ناساً، قولوا لي أيعد هذا قتلاً من كليهما؟ لا ألبتة، لأن موسى قتل الناس ليبيد عبادة الأصنام وليبقي على عبادة الإله الحقيقي، ولكن أخاب قتل ناساً ليبيد عبادة الإله الحقيقي، وليبقي على عبادة الأصنام، لذلك تحول قتل موسى للناس ضحية على حين تحول قتل أخاب تدنيساً، فإن ذات العمل الواحد أحدث نتيجتين متضادتين، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لو كلم الشيطان الملائكة ليرى كيف أحبوا الله لما رذله الله، ولكنه منبوذ لأنه حاول أن يبعدهم عن الله.

وفي موضوع قريب من هذا سأل برنابا:

- فكيف يجب إذاً أن يفهم ما قيل في ميخا النبي بشأن الكذب الذي أمر الله الأنبياء الكذبة أن يتفوهوا به كما هو مكتوب في كتاب ملوك إسرائيل؟

فرد عليه عيسى هو الآخر متسائلاً:

- واتل يا برنابا باختصار كل ما حدث لترى الحق جلياً:

ومن الذاكرة تلى برنابا ما أمره به حيث قال:

إن دانيال النبي لما وصف تاريخ ملوك بني إسرائيل كتب هذا:

اتحد ملك إسرائيل مع ملك يهودا ليحاربا بني بلعال (أي المنبوذين) الذين كانوا هم العمونيين، ولما كان يهوشافاط ملك يهوذا وأخاب ملك إسرائيل جالسين كلاهما على عرش في السامرة، وقف أمامهم أربع مئة نبي كذاب، فقالوا لملك إسرائيل:

- اصعد ضد العمونيين لأن الله سيدفعهم إلى يديك وستبدد عمون.

حينئذ قال يهوشافاط:

- هل يوجد نبي هنا لإله آبائنا.

أجاب أخاب:

- يوجد واحد فقط وهو شرير لأنه دائماً يتنبأ بالشر عليّ. ولقد وضعته في السجن.

وهو إنما قال (يوجد واحد فقط) لأن كل الذين وجدوا قتلوا بأمر أخاب، حتى إن الأنبياء كما قلت يا معلم هربوا إلى رؤوس الجبال حيث لا يسكن بشر.

حينئذ قال أخاب:

- أحضره إلى هنا ولنر ما يقول.

لذلك أمر أخاب أن يحضر ميخا إلى هنا، فأتى بقيود في رجليه ووجهه مضطرب كشخص يعيش بين الحياة والموت. فسأله أخاب قائلاً:

- تكلم يا ميخا باسم الله أنصعد ضد العمونيين، أيدفع الله مدنهم إلى أيدينا.

أجاب ميخا:

- اصعد اصعد لأنك ستصعد مفلحاً وتنزل أشد فلاحاً.

حينئذ أطرى الأنبياء الكذبة ميخا قائلين:

- إنه نبي صادق لله.

وكسروا القيود من رجليه، أما يهوشافاط الذي كان يخاف الله ولم يحن ركبتيه قط للأصنام فسأل ميخا قائلاً:

- قل الحق يا ميخا إكراماً لإله آبائنا كما رأيت عقبى هذه الحرب.

أجاب ميخا:

- إني لا أخشى وجهك يا يهوشافاط لذلك أقول لك إني رأيت شعب إسرائيل كغنم لا راعي لها.

حينئذ قال أخاب مبتسماً ليهوشافاط:

- لقد أخبرتك أن هذا الرجل لا يتنبأ إلا بسوء ولكنك لم تصدق ذلك.

فتساءل كلاهما:

- كيف تعلم يا ميخا؟

أجاب ميخا:

- خيل لي أن التأمت ندوة من الملائكة في حضرة الله، وسمعت الله يقوله كذا: من يغوي أخاب ليصعد ضد عمون ويقتل. فقال واحد شيئاً وقال الآخر شيئاً، ثم أتى ملاك فقال: يا رب أنا أحارب

أخاب فأذهب إلى أنبيائه الكذبة وألقي كذباً في أفواههم. وهكذا يصعد ويقتل، فلما سمع هذا قال: اذهب وافعل هكذا فإنك تفلح.

فحنق حينئذ الأنبياء الكذبة فصفع رئيسهم خد ميخا قائلاً:

- يا منبوذ الله متى عبر ملاك الحق من عندنا وجاء إليك، قل لنا متى جاء إلينا الملاك الذي حمل الكذب؟

أجاب ميخا:

- إنك ستعرف متى هربت من بيت إلى بيت خوفاً من القتل، إنك قد أغويت ملكك.

فتغيظ حينئذ أخاب وقال:

- امسكوا ميخا وضعوا القيود التي كانت في رجليه على عنقه واقتصروه على خبز الشعير والماء إلى حين عودتي، لأني لا أعرف الآن بأية ميتة أنكل به.

فصعدوا وتم الأمر حسب كلمة ميخا، لأن ملك العمونيين قال لخدمه:

- احذروا أن تحاربوا ملك يهوذا أو عظماء إسرائيل بل اقتلوا عدوي أخاب ملك إسرائيل»[1].

وعندما بلغ برنابا من تلاوته هذا الحد أوقفه عيسى بقوله:

- قف هنا لأنه يكفي لغرضنا.

ثم سأل حوارييه قائلاً:

- أسمعتم كل شيء.

ولما أجابوه:

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٤٧ ـ ٢٤٩.

نعم يا سيدي.

عندئذ شرع في شرح وتحليل كلامه الآنف الذكر قائلاً:

- إن الكذب خطيئة ولكن القتل خطيئة أعظم، لأن الكذب خطيئة تختص بالذي يتكلم، ولكن القتل على كونه يختص بالذي يرتكبه هو يهلك أيضاً أعز شيء لله هنا في الأرض، أي الإنسان، ويمكن مداواة الكذب بقول ضد ما قد قيل، على حين لا دواء للقتل لأنه ليس بممكن منح الميت حياة، قولوا لي إذاً هل أخطأ موسى عبدالله بقتل كل الذين قتلهم؟

فردوا عليه:

حاش لله، حاش لله أن يكون موسى قد أخطأ بطاعته لله الذي أمره.

قال بعدها:

- وأنا أقول حاش لله أن يكون قد أخطأ ذلك الملاك الذي خدع أنبياء أخاب الكذبة بالكذب، لأنه كما أن الله يقبل قتل الناس ذبيحة، فلهذا قبل الكذب حمداً، الحق أقول لكم كما يغلط الطفل الذي يصنع حذاءه بقياس رجل جبار هكذا يغلط من يجعل الله خاضعاً للشريعة كما أنه هو نفسه خاضع لها من حيث هو إنسان، فمتى اعتقدتم أن الخطيئة إنما هي ما لا يريده الله تجدون حينئذ الحق كما قلت لكم، وعليه لما كان الله غير مركب وغير متغير، فهو أيضاً غير قادر أن يريد وألا يريد الشيء الواحد، لأنه بذلك يصير تضاد في نفسه يترتب عليه ألم ولا يكون مباركاً إلى ما لا نهاية.

هنا قطع فيليبس الحديث متسائلاً:

- ولكن كيف يجب فهم قول النبي عاموس أنه لا يوجد شر في المدينة لم يصنعه الله.

فرد عليه عيسى:

- انظر الآن يا فيليبس ما أشد خطر الاعتماد على الحرف كما يفعل الفريسيون الذين قد انتحلوا لأنفسهم اصطفاء الله للمختارين على طريقة يستنتجون منها فعلاً أن الله غير بار وإنه خادع وكاذب ومبغض للدينونة التي ستحل بهم.

لذلك أقول أن عاموس نبي الله يتكلم هنا عن الشر الذي يسميه العالم شراً، لأنه لو استعمل لغة الأبرار لما فهمه الناس، لأن كل البلايا حسنة، إما حسنة لأنها تطهر الشر الذي فعلناه، وإما حسنة لأنها تمنعنا من ارتكاب الشر، وإما حسنة لأنها تعرف الإنسان مآل هذه الحياة لكي نحب ونتوق إلى الحياة الأبدية، فلو قال النبي عاموس:

- ليس في المدينة من خير إلا كان الله صانعه.

لكان ذلك وسيلة لقنوط المصابين متى رأوا أنفسهم في المحن، والخطأة في سعة العيش، وأنكى من ذلك أنه متى صدق كثيرون أن للشيطان سلطة على الإنسان خافوا الشيطان وخدموه تخلصاً من البلايا، فلذلك فعل عاموس ما يفعله الترجمان الروماني الذي لا ينظر في كلامه كأنه يتكلم في حضرة رئيس الكهنة، بل ينظر إلى إرادة مصلحة اليهودي الذي لا يعرف التكلم باللسان العبراني.

لو قال عاموس:

- ليس في المدينة خير إلا كان الله صانعه.

لكان لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته قد ارتكب خطأ فاحشاً، لأن العالم لا يرى خيراً سوى الظلم والخطايا التي تصنع في سبيل الباطل، وعليه يكون الناس أشد توغلاً في الإثم لأنهم يعتقدون أنه لا يوجد خطيئة أو شر لم يصنعه الله، وهو أمر تتزلزل لسماعه الأرض.

وبعد أن قال عيسى هذا حدث تواً زلزالاً عظيماً إلى حد سقط كل أحد من الحواريين كأنه ميت، فأنهضهم عيسى قائلاً:

- انظروا الآن إذا كنت قد قلت لكم الحق، فيكفكم هذا إذا إنه لما

قال عاموس: إن الله صنع شراً في المدينة، مكلماً العالم فهو إنما يتكلم عن البلايا التي لا يسميها شراً إلا الخطاة. ولنأت الآن على ذكر سبق الاصطفاء والذي تريدون أن تعرفوه، والذي سأتكلم عنه غداً على مقربة من الأردن على الجانب الآخر إن شاء الله.

وارتحل عيسى وحواريوه من القدس متجهين شرقاً، فعبروا نهر الأردن، ومنه إلى إحدى الوديان التي سبق لهم الإقامة فيها لفترة، حيث وصلوه منتصف النهار، وبعد أدائهم صلاة الظهر جلس عليه السلام تحت ظل نخلة والتف حوله الحواريون لاستكمال الحديث الذي بدأه في القدس عن سر الاصطفاء، حيث قال:

- أيها الإخوة إن سبق الاصطفاء لسر عظيم حتى أني أقول الحق أنه لا يعلمه جلياً إلا إنسان واحد فقط وهو الذي تتطلع إليه الأمم الذي تتجلى له أسرار الله تجلياً. فطوبى للذين سيصيخون السمع إلى كلامه متى جاء إلى العالم، لأنه سيظللهم كما تظللنا هذه النخلة، بل إنه كما تقينا هذه الشجرة حرارة الشمس المتلظية هكذا تقي رحمة الله المؤمنين بذلك الاسم من الشيطان.

ظن الحواريون في مقدمة كلام عيسى الاستهلالية عن سر الاصطفاء أنه يقصد شخصاً آخر غير محمد رسول الله فسأله أحدهم مستفهماً:

- يا معلم من عسى أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه الذي سيأتي إلى العالم.

فأجابهم بفرح وابتهاج:

- إنه محمد رسول الله الذي متى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها، كما يجعل المطر الأرض تعطي ثمراً بعد انقطاع المطر زمناً طويلاً، فهو غمامة بيضاء ملأى برحمة الله، وهي رحمة ينثرها الله رذاذاً على المؤمنين كالغيث.

إني أشرح لكم الآن ذلك النزر اليسير الذي وهبني الله معرفته بشأن سر الاصطفاء نفسه. يزعم الفريسيون أن كل شيء قدر على طريقة لا يمكن معها لمن كان مختاراً أن يصير منبوذاً، ومن كان منبوذاً لا يتسنى له بأية وسيلة كانت أن يصير مختاراً، وإنه كما أن الله قدر أن يكون عمل الصلاح هو الصراط الذي يسير عليه المختارون إلى الخلاص، هكذا قدر الله أن تكون الخطيئة هي الطريق الذي يسير فيه المنبوذون إلى الهلاك. لعن اللسان الذي نطق بهذا واليد التي سطرته، لأن هذا إنما هو اعتقاد الشيطان، فيمكن للمرء على هذا أن يعرف شاكلة هذا العصر لأنهم خدمة الشيطان الأمناء.

فماذا يمكن أن يكون معنى سبق الاصطفاء سوى أنه إرادة مطلقة تجعل الشيء غاية وسيلة الوصول إليها في يد المرء، فإنه بدون وسيلة لا يمكن لأحد تعيين غاية، فكيف يتسنى لأحد تقدير بناء بيت وهو لا يعوزه الحجر والنقود ليصرفها فقط بل يعوزه موطن القدم من الأرض، لا أحد البتة، فسبق الاصطفاء لا يكون شريعة الله بالأولى إذا استلزم سلب حرية الإرادة التي وهبها الله للإنسان بمحض جوده. فمن المؤكد أننا نكون إذ ذاك آخذين في إثبات مكرهة لا سبق الاصطفاء.

أما كون الإنسان حراً فواضح من كتاب موسى لإلٰهنا عندما أعطى الشريعة على جبل سيناء، قال هكذا.

ـ ليست وصيتي في السماء لكي تتخذ لك عذراً قائلاً: من يذهب ليحضر لنا وصية الله، ومن يا ترى يعطينا قوة لنحفظها، ولا هي وراء البحر لكي تعد نفسك كما تقدم، بل وصيتي قريبة من قلبك حتى أنك تحفظها متى شئت.

قولوا لي لو أمر أرخلاوس شيخاً أن يعود يافعاً ومريضاً أن يعود صحيحاً، ثم إذا هما لم يفعلا ذلك أمر بقتلهما أيكون هذا عدلاً؟

فأجابه أحد الحواريين:

ـ لو أمر أرخلاوس بذلك لكان أعظم ظالم وكافر.

وعند تلك الإجابة تنهد عيسى بعمق ثم أكمل حديثه:

- أيها الإخوة ما هذه إلا ثمار التقاليد البشرية، لأنه بقولهما إن الله قدر فقضى على المنبوذ بطريقة لا يمكنه معها أن يصير مختاراً يجدفون على الله كأنه طاغ وظالم، لأنه يأمر الخاطىء أن يخطىء وإذا أخطأ أن يتوب على أن هذا القدر ينزع من الخاطىء القدرة على ترك الخطيئة فيسلبه التوبة بالمرة.

ولكن اسمعوا ما يقول الله على لسان يوئيل النبي:

- لعمري يقول إلهكم لا أريد موت الخاطىء بل أود أن يتحول إلى التوبة، أيقدر الله إذاً ما لا يريده، تأملوا ما يقول الله وما يقول فريسيو الزمن الحاضر.

يقول الله أيضاً على لسان النبي أشعيا:

- دعوت فلم تصغوا إليّ، وما أكثر ما دعا الله.

اسمعوا ما يقول على لسان هذا النبي نفسه:

- بسطت يدي طول النهار إلى شعب لا يصدقني بل يناقضني.

فإذا قال فريسيونا أن المنبوذ لا يقدر أن يصير مختاراً فهل يقولون سوى أن الله يستهزىء بالبشر كما لو استهزأ بأعمى يريه شيئاً أبيض، وكما لو استهزأ بأصم يكلمه من أذنيه، أما كون المختار يمكن أن ينبذ فتأملوا ما يقول إلٰهنا على لسان حزقيال النبي:

- يقول الله لعمري إذا رجع البار عن بره وارتكب الفواحش فإنه يهلك ولا أذكر فيما بعد شيئاً من بره، فإن بره سيخذله أمامي فلا ينجيه وهو متكل عليه.

أما نداء المنبوذين فماذا يقول الله فيه على لسان هوشع سوى هذا:

- إني أدعو شعب غير مختار فأدعوهم مختارين.

إن الله صادق ولا يقدر أن يكذب، وإن الله لما كان الحق فهو يقول

الحق، ولكن فريسي الوقت الحاضر يناقضون الله كل المناقضة بتعليمهم.

وهنا أيضاً قطع عليه الحواري إندراوس حديثه وسأله مستدركاً:

- ولكن يا معلم كيف يجب أن يفهم ما قال الله لموسى من أنه يرحم من يرحم ويقسي من يقسي:

فأجابه إجابة متداخلة مع الموضوع السابق في جوانب وزائدة عليها في جوانب أخرى:

- إنما يقول الله هذا لكيلا يعتقد الإنسان أنه خلص بفضيلته، بل ليدرك أن الحياة ورحمة الله قد منحهما له الله من جوده، ويقوله ليتجنب البشر الذهاب إلى أنه يوجد آلهة أخرى سواه، فإذا قسي فرعون فإنما فعله لأنه نكل بشعبنا وحاول أن يبغي عليه بإبادة الأطفال الذكور في إسرائيل حتى كاد موسى يخسر حياته.

وعليه أقول لكم أن أساس القدر إنما هو شريعة الله وحرية الإرادة الإنسانية، بل لو قدر الله أن يخلص العالم كله حتى لا يهلك أحد لما أراد أن يفعل ذلك لكيلا يجرد الإنسان من الحرية التي يحفظها له ليكيد الشيطان حتى يكون لهذه الطينة التي امتهنها الشيطان قدرة على التوبة والذهاب للسكن في ذلك الموضع الذي طرد منه الشيطان، فأقول إن إلهنا يريد أن يتبع برحمته حرية إرادة الإنسان، ولا يريد أن يترك بقدرته غير المتناهية المخلوق، وهكذا لا يقدر أحد في يوم الدين أن يعتذر عن خطاياه لأنه يتضح له حينئذ كم فعل الله لتجديده وكم وكم قد دعاه إلى التوبة.

فإذا كانت أفكاركم لا تطمئن لهذا ووددتم أن تقولوا أيضاً، لماذا هكذا فإني أوضح لكم لماذا؟ وهو هذا: قولوا لي لماذا لا يمكن للحجر أن يستقر على سطح الماء، مع أن الأرض برمتها مستقرة على سطح الماء، قولوا لماذا كان التراب والهواء والماء والنار متحدة بالإنسان ومحفوظة على وفاق، مع أن الماء يطفىء النار والتراب يهرب من الهواء حتى أنه لا يقدر أحد أن يؤلف بينها.

فإذا كنتم إذا لا تفقهون هذا، بل إن البشر من حيث هم لا يقدرون أن يفقهوه، فكيف يفقهون أن الله خلق الكون من لا شيء بكلمة واحدة؟ فكيف يفقهون أزلية الله، حقاً لا يتاح لهم أبداً أن يفقهوا هذا، لأنه لما كان الإنسان محدوداً ويدخل في تركيبه الجسد الذي هو كما يقول سليمان قابل للفساد بضغط النفس، ولما كانت أعمال الله مناسبة لله فكيف يمكن للإنسان إدراكها.

فلما رأى أشعيا نبي الله هذا صرخ قائلاً:

- حقاً إنك الإله متحجب.

ويقول عن رسول الله كيف خلقه الله..

- أما جيله فمن يصفه.

ويقول عن عمل الله:

- من كان مشيره فيه.

لذلك يقول الله للطبيعة البشرية:

- كما تعلو السماء عن الأرض، هكذا تعلو طرقي عن طرقكم، وأفكاري عن أفكاركم.

لذلك أقول لكم أن كيفية القدر غير واضحة للإنسان وإن كان ثبوته حقيقياً كما قلت لكم، فيجب إذاً على الإنسان أن ينكر الواقع لأنه لا يقدر أن يعرف كيفيته، حقاً إني لم أجد أحداً يرفض الصحة، وإن لم يمكن إدراك كيفيتها، لأني لا أدري حتى الآن كيف يشفي الله المرض بواسطة لمسي.

لم يجد الحواريون أمام تدفق كلام عيسى بمعان وحقائق لا تشبه الكلام المقروء في كتب أنبيائهم إلا الإعجاب، فقال له أحدهم:

- حقاً إن الله تكلم على لسانك لأنه لم يتكلم إنسان قط كما تتكلم فرد عيسى على إعجابهم بقوله:

ـ صدقوني إنه لما اختارني الله ليرسلني إلى بيت إسرائيل أعطاني كتاباً يشبه مرآة نقية نزلت إلى قلبي حتى إن كل ما أقول يصدر عن ذلك الكتاب ومتى انتهى صدور ذلك الكتاب من فمي أصعد عن العالم.

ولما كان الحواريون ومن احتكاكهم اليومي به يعلمون أنه ليس لديه كتاباً مرقوماً في صحيفة سأله بطرس:

ـ يا معلم هل ما تتكلم الآن به مكتوب في ذلك الكتاب؟

أجابه:

ـ إن كل ما أقوله لمعرفة الله ولخدمة الله ولمعرفة الإنسان ولخلاص الجنس البشري إنما هو جميعه صادر من ذلك الكتاب الذي هو إنجيلي.

هنا تنبه بطرس إلى موضوع ظلت معرفته أو معرفتهم به محدودة فاستغل المناسبة ليسأله:

ـ أمكتوب فيه مجد الجنة.

فتح سؤال بطرس لعيسى الباب ليتحدث إليه حديثاً لا مثيل له في غير الإنجيل فقال:

«أصيخوا السمع أشرح لكم كيفية الجنة، وكيف أن الأطهار والمؤمنين يقيمون هناك إلى غير نهاية، وهذه بركة من أعظم بركات الجنة، لأن كل شيء مهما كان عظيماً إذا كان له نهاية يصير صغيراً، بل لا شيء، فالجنة هي البيت الذي يخزن فيه الله مسراته التي هي عظيمة جداً. حتى أن الأرض التي تدوسها أقدام الأطهار والمباركين ثمينة جداً بحيث أن درهماً منها أثمن من ألف عالم.

ولقد رأى هذه المسرات أبونا داود نبي الله، فإن الله أراه إياها إذ يسر له أن يبصر مجد الجنة، ولذلك لما عاد إلى نفسه غطى عينيه بكلتا يديه وقال باكياً:

- لا تنظري فيما بعد إلى هذا العالم يا عيني، لأن كل شيء فيه باطل وليس فيه شيء جيد.

ولقد قال عن هذه المسرات أشعيا النبي:

- لم تر عينا إنسان ولم تسمع أذناه ولم يدرك قلب بشر ما أعده الله للذين يحبونه.

أتعلمون لماذا لم يروا ولم يسمعوا ولم يدركوا هذه المسرات، لأنهم ما داموا عائشين هنا في الأسفل فهم ليسوا أهلاً لمشاهدة مثل هذه الأشياء، ولذلك أخبركم أن أبانا داود على كونه قد رآها حقاً لم يرها بعينين بشريتين. لأن الله أخذ نفسه إليه، وهكذا لما صار متحداً مع الله رآها بنور إلهي، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لما كانت مسرات الجنة غير متناهية وكان الإنسان متناهياً فلا يقدر الإنسان أن يعيها، كما أن جرة صغيرة لا تقدر أن تعي البحر.

انظروا ما أجمل العالم في زمن الصيف حين تحمل كل الأشياء ثمراً، حتى أن الفلاح نفسه يثمل من الحبور بالحصاد الذي أتى فيجعل الأودية والجبال ترجع غناءه، لأنه يحب أعماله كل الحب، ألا فارفعوا إذاً قلبكم هكذا إلى الجنة حيث تثمر كل الأشياء ثماراً على قدر الذي حرثها.

لعمر الله إن هذا كاف لمعرفة الجنة من حيث هي أن الله خلق الجنة بيتاً لمسراته، ألا تظنون أنه يكون للجودة غير المحدودة بالقياس أشياء غير محدودة في الجودة، أو أنه يكون للجمال الذي يقاس أشياء جمالها يفوق القياس، احذروا فإنكم تضلون كثيراً إذا كنتم تظنون أنها ليست عنده.

يقول الله هكذا للرجل الذي يعبده بإخلاص:

اعرف أعمالك وإنك تعمل لي لعمري أنا الأبدي أن حبك لا يزيد على جودي، فإنك تعبدني إلهاً خالقاً لك، عالماً صنعي ولا تطلب مني شيئاً سوى النعمة والرحمة لإخلاصك في عبادتي، لأنك لا تضع حداً لعبادتي إذ ترغب أن تعبدني أبداً، هكذا أفعل أنا فإني أجزيك كأنك إله وند

لي لا أضع في يدك خيرات الجنة فقط، بل أعطيك نفسي هبة، وكما أنك تريد أن تكون عبدي دائماً، أجعل أجرتك إلى الأبد.

ما هو ظنكم في الجنة، هل يوجد عقل يدرك مثال ذلك الغنى والمسرات، فعلى الإنسان الذي يريد أن يعرف ما يريد الله أن يعطي لعبيده أن تكون معرفته عظيمة على قدر معرفة الله، إذا قدم أرخلاوس هدية لأحد شرفائه الأخصاء أتدرون بأية طريقة يقدمها»[١].

هنا بادر يوحنا بالإجابة وذلك من واقع خبرته الشخصية ورؤيته العيانية قائلاً:

- لقد رأيت ذلك مرتين وأوكد أن عشر ما يعطيه يكون فيه الكفاية.

فلما رأى عيسى أن تجربة يوحنا هي نموذج حي يمكن التدليل به على أقواله سأل يوحنا قائلاً:

- ولكن لو قدم فقير لأرخلاوس فماذا يعطيه؟

فرد عليه:

- فلساً أو فلسين:

عندئذ أكمل عيسى حديثه مستنداً على تلك الإجابتين فقال:

- فليكن هذا كتابكم الذي تطالعون فيه لأجل معرفة الجنة، لأن كل ما أعطى الله للإنسان في هذا العالم الحاضر لجسده هو كما لو أعطي أرخلاوس فلساً لفقير، ولكن ما يعطيه الله للجسد والنفس في الفردوس هو كما لو أعطى أرخلاوس كل ما عنده بل حياته لأحد خدمة.

يقول الله لمن يحبه ويعبده بإخلاص:

- يا عبدي اذهب وتأمل رمال البحر ما أكثرها، فإذا أعطاك البحر حبة

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٥٨ ـ ٢٦٠.

رمل واحدة ألا يظهر لك أن ذلك قليل، بلى البتة، لعمري أنا خالقك إن كل ما أعطيت لكل عظماء وملوك الأرض لأقل من حبة رمل يعطيك إياها البحر في جنب ما أعطيك إياه في الجنة.

تأملوا إذاً خيرات الجنة، أنه لو أعطى الله للإنسان في هذا العالم أوقية من سعة العيش فسيعطيه في الجنة ألف ألف حمل، تأملوا مقدار الثمار التي في هذا العالم، ومقدار الطعام، ومقدار الأزهار، ومقدار الأشياء التي تخدم الإنسان، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته كما يزيد رمل البحر على الحبة التي يأخذها منه آخذ، يزيد تين الجنة في جودته ومقداره على نوع التين الذي نأكله هنا، وقس عليه كل شيء آخر في الجنة، ولكني أقول لكم أيضاً أنه كما أن الجبل من الذهب واللآلىء هو أثمن من ظل نملة، هكذا تكون مسرات الجنة، أعظم قيمة من مسرات العظماء والملوك التي كانت وستكون لهم حتى دينونة الله حين ينقضي العالم.

تلك هي الصورة الدقيقة والوافية عن الجنة ونعيمها، تخالف في مجملها وتفصيلها معظم ما عرفه عنها الحواريون من قبل، ومن هنا انهالت استفساراتهم طالبة المزيد من الشرح والتفصيل، وكان بطرس أول من تساءل حيث قال:

- أيذهب جسدنا الذي لنا الآن إلى الجنة.

فقال له:

- احذر يا بطرس من أن تصير صدوقياً، فإن الصدوقيين يقولون أن الجسد لا يقوم أيضاً، وأنه لا توجد ملائكة لذلك حرم على جسدهم وروحهم الدخول إلى الجنة، وهم محرومون من كل خدمة الملائكة في هذا العالم، أنسيتم أيوب النبي وخليل الله كيف يقول:

- اعلم أن إلهي حي وأني سأقوم في اليوم الأخير بجسدي وسأرى بعيني الله مخلصي.

ولكن صدقوني إن جسدنا هذا يتطهر على كيفية لا يكون له معها

خاصة واحدة من خصائصه الحاضرة، لأنه سيتطهر من كل شهوة شريرة، وسيعيده الله إلى الحال التي كان عليها آدم قبل أن أخطأ.

أضرب لكم مثلاً:

رجلان يخدمان سيداً واحداً في عمل واحد، أحدهما يقتصر على النظر في العمل وإصدار الأوامر، والثاني يقوم بكل ما يأمره به الأول، أقول أترون من العدل أن يخص السيد بالجزاء من ينظر ويأمر فقط، ويطرد من بيته من أنهك نفسه في العمل، لا البتة.

فكيف يحتمل عدل الله هذا؟ إن نفس الإنسان وجسده وحسه تعبد الله، فالنفس تنظر وتأمر بالخدمة فقط، لأن النفس لما كانت لا تأكل خبزاً فهي لا تصوم، ولا تمشي ولا تشعر بالبرد أو الحر، ولا تمرض ولا تقتل لأنها خالدة، وهي لا تكابد شيئاً من الآلام الجسدية التي يكابدها الجسد بفعل العناصر، فأقول هل من العدل أن تذهب النفس وحدها إلى الجنة دون الجسد الذي أنهك نفسه بهذا المقدار في عبادة الله.

ثم سأله بطرس مرة ثانية بقوله:

- يا معلم لما كان الجسد هو الذي حمل النفس على الخطيئة فلا ينبغي أن يوضع في الجنة؟

فأجابه:

- كيف يخطىء الجسد بدون النفس، حقاً إن هذا محال، فإذا نزعت رحمة الله من الجسد، قضيت على النفس بالجحيم، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن الله يعد الخاطىء برحمته قائلاً:

- أقسم بنفسي أن الساعة التي يندب فيها الخاطىء خطيئته هي التي أنسى فيها إثمه إلى الأبد.

فأي شيء يأكل إذاً أطعمة الجنة إذا كان الجسد لا يذهب إلى هناك، هل النفس، لا ألبتة لأنها روح.

وللمرة الثالثة سأله بطرس أيضاً:

- أيأكل إذاً المباركون في الفردوس، ولكن كيف يبرز الطعام دون نجاسة؟

فأجاب عليه السلام:

- أي بركة ينالها الجسم إذا لم يأكل ولم يشرب، من المؤكد أنه من اللائق أن يكون التمجيد بالنسبة إلى الشيء الممجد، ولكنك تخطىء يا بطرس في ظنك أن طعاماً كهذا يبرز نجاسة، لأن هذا الجسم في الوقت الحاضر يأكل أطعمة قابلة للفساد ولهذا يحصل الفساد، ولكن الجسم في الجنة غير قابل للفساد، وغير قابل للألم وخالداً وخالياً من كل شقاء، والأطعمة التي لا عيب فيها لا تحدث أدنى فساد.

هكذا يقول الله على لسان أشعيا النبي ساكباً ازدراء على المنبوذين:

- يجلس عبادي على مائدتي في بيتي ويتلذذون بابتهاج مع حبور ومع صوت الأعواد والأراغن ولا أدعهم يحتاجون شيئاً، أما أنتم أعدائي فتطرحون خارجاً عني حيث تموتون في الشقاء وكل عبد لي يمتهنكم.

ماذا يجدي نفعاً قوله يتلذذون: حقاً إن الله يتكلم جلياً، ولكن ما فائدة الأنهر الأربعة من السائل الثمين في الجنة مع ثمار وافرة جداً، فمن المؤكد أن الله لا يأكل والملائكة لا تأكل والنفس لا تأكل والحس لا يأكل، بل الجسد الذي هو جسمنا، فمجد الجنة هو طعام الجسد، وأما النفس والحس فلهما الله ومحادثة الملائكة والأرواح المباركة، وأما ذلك المجد فسيوضحه بأجلى بيان رسول الله الذي هو أدرى بالأشياء من كل مخلوق لأن الله قد خلق كل شيء حباً فيه.

ولما استوفت أسئلة بطرس وإجابات عيسى على أغلب ما كان يدور في أذهان الحواريين سأله الحواري برتولوماوس عن درجات الجنة بالنسبة للمنعمين فيها حيث قال:

- يا معلم أيكون مجد الجنة لكل واحد على السواء، فإذا كان على السواء فهو ليس من العدل، وإذا لم يكن على السواء فالأصغر يحسد الأعظم؟

فأجابه:

- لا يكون على السواء لأن الله عادل، وسيكون كل أحد قنوعاً إذ لا حسد هناك، قل لي يا برتولوماوس: يوجد سيد عنده كثيرون من الخدم، ويلبس جميع خدمه هؤلاء لباساً واحداً، أيحزن إذاً الغلمان اللابسون لباس الغلمان، لأن ليس لهم ثياب البالغين، بل بالعكس لو أراد البالغون أن يلبسوهم ثيابهم الكبيرة لتغيظوا، لأنه لما لم تكن الأثواب موافقة لحجمهم يزعمون أنهم سخرية، فارفع إذن يا برتولوماوس قلبك لله في الجنة، فترى أن للجميع مجداً واحداً ومع أن يكون كثيراً لواحد قليلاً للآخر فهو لا يولد شيئاً من الحسد.

وتطرق برنابا في سؤاله إلى الكيفية التي تضاء بها الجنة قائلاً:

- يا معلم الجنة نور من الشمس كما لهذا العالم.

فأجابه:

- هكذا قال الله لي يا برنابا:

إن للعالم الذي تسكنون فيه أيها البشر الخطأة الشمس والقمر والنجوم التي تزينه لفائدتكم وحبوركم، لأني لأجل هذا خلقتها، أتحسبون إذاً أن البيت الذي يسكن فيه المؤمنون بي لا يكون أفضل. حقاً إنكم تخطئون في هذا الحسبان لأني أنا إلهكم هو شمس الجنة ورسولي هو القمر الذي يستمد منه كل شيء، والنجوم أنبيائي الذين قد بشروكم بشيء، فكما أخذ المؤمنون بي كلمتي من أنبيائي، هنا سينالون مسرة وحبوراً بواسطتهم في جنة مسراتي، ليكفكم هذا في معرفة الجنة.

قال عيسى تلك العبارة إيذاناً بإغلاق الباب أمام الأسئلة، ولكن برتولوماوس رجاه قائلاً:

- يا معلم كن طويل الأناة عليّ إذا سألتك مسألة.

قبل عيسى رجاءه بقوله:

- قل ما تريد.

أما المسألة التي أقلقت برتولوماوس فهي حجم الجنة فسأله:

- حقاً إن الجنة لواسعة لأنه إذا كان فيها خيرات عظيمة هذا مقدارها فلا بد أن تكون واسعة.

فأجابه عليه السلام:

- إن الجنة واسعة جداً حتى أنه لا يقدر أحد أن يقيسها، الحق أقول لكم إن السموات تسع موضوعة بينها السيارات التي تبعد إحداها عن الأخرى مسيرة، خمس مئة سنة، وكذلك الأرض على مسيرة خمس مئة سنة من السماء الأولى، ولكن قف عند قياس التي تزيد عن الأرض برمتها كما تزيد الأرض عن حبة رمل، وهكذا تزيد السماء الثانية عن الأولى والثالثة عن الثانية وهلم جرا، حتى السماء الأخيرة كل منها تزيد عما يليها، والحق أقول لك إن الجنة أكبر من الأرض برمتها والسموات برمتها، كما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل.

أتاحت إجابة عيسى لبقية الحواريين المجال للأسئلة والاستفسار عن حجم الجنة وسعتها، فسأله بطرس:

- يا معلم لا بد أن تكون الجنة أكبر من الله لأن الله يرى داخلها.

فرد عليه عيسى قائلاً:

- صه يا بطرس لأنك تجدف على غير هدى.

في هذه اللحظة أنزل الله جبريل حاملاً مرآة براقة كالشمس، رأى فيها عليه السلام هذه الكلمات مكتوبة بحروف تتلألأ هي الأخرى كالشمس:

- لعمري أنا الأبدي، كما أن الجنة أكبر من السموات برمتها

والأرض، وكما أن الأرض برمتها أكبر من حبة رمل، هكذا أنا أكبر من الجنة، بل أكثر كثيراً من ذلك عدد حبوب رمل البحر وقطرات الماء في البحر وعشب الأرض وأوراق الأشجار وجلود الحيوانات، بل أكثر من ذلك كثيراً عدد حبوب الرمل التي تملأ السموات والجنة بل أكثر.

وبعد أن استوعب عيسى تلك الكلمات قال لحوارييه:

- لنسجد لإلهنا المبارك إلى الأبد.

فطأطأوا رؤوسهم تعظيماً وإجلالاً لله تعالى، ولما انتهت الصلاة دعا عيسى بطرس وأخبره هو وحوارييه بما رأى وقرأ، ثم توجه بالحديث إلى بطرس قائلاً:

- إن نفسك التي هي أعظم من الأرض برمتها ترى بعين واحدة الشمس التي هي أكبر من الأرض بألوف المرات.

رد بطرس مؤمناً على تلك الحقيقة:

- إن ذلك لصحيح.

عندئذ قال له عيسى:

- هكذا ترى الله خالقك بواسطة الجنة.

إن الأيام التي تلت عودة عيسى من برية الأردن مرت فيما يبدو دون أحداث جديرة بالرصد والتوثيق، كما لم يخطب خلالها أو يلقي درساً على حوارييه من إنجيله، بل اكتفى على الأرجح بالعبادة والذكر متوارياً عن أعين الناس، وفي ذات يوم من تلك الأيام، وبينما هو جالس في رواق سليمان عليه السلام انتظاراً للصلاة اقترب منه أحد الكتبة ويدعى نيقوديموس ممن مارس الخطابة لفترة في الشعب، وأحد أولئك الذي استمعوا إلى خطبه ومواعظه، وقال له:

- يا معلم لقد خطبت في هذا الشعب مراراً عديدة وفي خاطري آية

من الكتاب أشكل عليّ فهمها.

فسأله عيسى عنها قائلاً:

- وما هي.

فقال رداً على سؤاله:

- هي ما قاله الله لإبراهيم أبينا، إني أكون جزاءك العظيم، فكيف يستحق الإنسان هذا الجزاء.

فرح عيسى وأشرق محياه سروراً وابتهاجاً لعمق ثقافة الرجل الدينية، ولدقة سؤاله وطرافته، فقال له:

- حقاً إنك لست بعيداً عن الإيمان، أَصِخِ السمع إليّ لأني أخبرك معنى هذا التعليم، لما كان الله غير محدود والإنسان محدود لم يستحق الإنسان الله، فهل هذا موضع ريبتك أيها الأخ.

وبكى الرجل عند سماعه ذلك التفسير الذي لم يخطر على باله وهو يقول له:

- يا سيد إنك تعرف قلبي، تكلم إذاً لأن نفسي تروم أن تسمع صوتك.

فقال له عيسى:

- لعمر الله إن الإنسان لا يستحق النفس القليل الذي يأخذه كل دقيقة.

فلما سمع نيقوديموس ذلك كاد يجن من شدة وعيده، وأصيب الحواريون بالذهول إذ ذكرهم بقول عيسى لهم من قبل، أنهم مهما أعطوا في حب الله يأخذون مئة ضعف، غير أن عيسى قطع عليهم حبل تفكيرهم متسائلاً:

- لو أقرضكم أحد مئة قطعة من الذهب فصرفتم هذه القطع أفتقولون لذلك الإنسان: إني أعطيك ورقة كرمة عفنة فأعطني بها بيتك لأني أستحقه.

أجابه نيقوديموس:

- لا يا سيدي لأنه يجب عليه أن يدفع ما عليه، ثم عليه إذا أراد شيئاً أن يعطي أشياء جيدة، ولكن ما نفع ورقة فاسدة؟

عوّل عيسى على تلك الإجابة كمدخل لباقي الحديث حيث قال:

«لقد قلت حسناً أيها الأخ، فقل لي من خلق الإنسان من لا شيء، من المؤكد أنه هو الذي وهبه العالم برمته لمنفعته، ولكن الإنسان قد صرفه كله بارتكاب الخطيئة، لأنه بسبب الخطيئة انقلب العالم ضداً للإنسان، وليس للإنسان في شقائه شيء يعطيه لله سوى أعمال أفسدتها الخطيئة، لأنه بارتكابه الخطيئة كل يوم يفسد عمله، لذلك يقول أشعيا:

- إن برّنا هو كخرقة حائض.

فكيف يكون للإنسان استحقاق وهو غير قادر على الترضية؟ لعل الإنسان لا يخطىء، من المؤكد أن إلٰهنا يقول على لسانه نبيه داود:

- إن الصديق يسقط سبع مرات في اليوم، فكم مرة يسقط الفاجر إذاً، وإذا كان برّنا فاسداً فكم يكون فجورنا ممقوتاً.

لعمر الله إنه لا يوجد شيء يجب الإعراض عنه كهذا القول: إني أستحق ليعرف الإنسان أيها الأخ عمل يديه، فيرى تواً استحقاقه حقاً، إن كل عمل صالح يصدر عن الإنسان لا يفعله الإنسان، إنما يفعله الله فيه، لأن وجوده من الله الذي خلقه، أما ما يفعله الإنسان فهو أن يخالف خالقه ويرتكب الخطيئة التي لا يستحق عليها جزاء بل عذاباً.

لم يخلق الله الإنسان فقط بل خلقه كاملاً، وأعطاه ملكين ليحرساه، وبعث له الأنبياء ومنحه الشريعة والإيمان، وينقذه في كل دقيقة من الإنسان، ويريد أن يهبه الجنة بل أكثر من ذلك فإن الله يريد أن يعطي نفسه للإنسان، فتأملوا إذاً فيما إذا كان الدين عظيماً، فلمحو هذه وجب عليكم أن تكونوا أنتم قد خلقتم الإنسان من العدم، وأن تكونوا قد خلقتم أنبياء بعدد ما بعث الله مع خلق عالم وجنة، بل أكثر من ذلك مع خلق إلٰه عظيم وجواد

كإلهنا، وأن تهبوها برمتها لله، فبهذا يمحى الدين ويبقى عليكم فرض تقديم الشكر لله فقط، ولكن لما كنتم غير قادرين على خلق ذبابة واحدة، ولما كان لا يوجد إلا إله واحد وهو سيد كل الأشياء فكيف تقدرون أن تمحو دينكم، حقاً إن أقرضكم أحد مئة قطعة من الذهب وجب عليكم أن تردوا مئة قطعة من الذهب.

وعليه فإن معنى هذا أيها الأخ هو أنه لما كان الله سيد الجنة وكل شيء يقدر أن يقول كل ما يشاء ويهب كل ما يشاء لذلك لما قال لإبراهيم:

- إني أكون جزاءك العظيم.

لم يقدر إبراهيم أن يقول: الله جزائي، بل الله هبتي وديني. لذلك يجب عليك أيها الأخ عندما تخطب في الشعب أن تفسر هذه الآية هكذا:

- إن الله يهب الإنسان كذا وكذا من الأشياء إذا عمل الإنسان حسناً.

ومتى كلمك الله أيها الإنسان وقال:

- إنك يا عبدي قد عملت حسناً حباً فيّ، فأي جزاء تطلب مني أنا إلهك.

فأجب أنت:

- لما كنت يا رب عمل يديك فلا يليق أن يكون فيّ خطيئة وهو ما يحبه الشيطان، فارحم يا رب لأجل مجدك أعمال يديك.

فإذا قال الله:

- قد عفوت عنك وأريد الآن أن أجزيك.

فأجب:

- يا رب أنا أستحق العقوبة لما فعلته، وأنت تستحق لما فعلت أن تمجد فعاقبني يا رب على ما فعلت، وخلص ما صنعت.

فإذا قال الله:

- ما هو العقاب الذي تراه معادلاً لخطيئتك.

فأجب أنت:

- يا رب بقدر ما سيكابده كل المنبوذين.

فإذا قال الله:

- لماذا تطلب يا عبدي الأمين عقوبة عظيمة كهذه.

فأجب أنت:

- لو أخذ كل منها على قدر ما أخذت لكانوا أشد إخلاصاً في عبادتك.

فإذا قال الله:

- متى تريد أن تصيبك هذه العقوبة وكم تكون مدتها.

فأجب أنت:

- الآن وإلى غير نهاية.

لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن رجلاً كهذا يكون مرضياً لله أكثر من كل ملائكته الأطهار، لأن الله يحب التواضع الحقيقي ويكره الكبرياء»[1].

وعند نهاية الحديث تقدم إليه نيقوديموس بالشكر الجزيل على شرحه العميق وبيانه الضافي لتلك العبارة الدقيقة التي كانت مثاراً لحيرته، قال له بعدها:

- يا سيدي لنذهب إلى بيت خادمك، لأن خادمك يقدم لك وللتلاميذ طعاماً.

فقبل عيسى الدعوة ولكنه عاتبه قائلاً:

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٦٩ ـ ٢٧٠.

- إني ذاهب الآن إلى هناك متى وعدتني أن تدعوني أخاً لا سيداً، وتقول إنك أخي لا خادمي.

وبالفعل فقد صحب نيقوديموس عيسى وحوارييه إلى بيته، وبينما هم جلوس على المائدة، سأل مضيفه قائلاً:

- يا معلم قلت أن الله يحب التواضع الحقيقي، فقل لنا كيف يكون حقيقياً أو كاذباً.

أجابه عيسى:

- الحق أقول لكم إن من لا يصير كطفل صغير لا يدخل الجنة.

تعجب الحاضرون من معنى العبارة، وبدا لهم فهمها عويصاً وتحقيقها صعباً ومستحيلاً. ولكن عيسى شرح لهم معناها بقوله:

- لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إن كلامي لحق، إني قلت لكم إنه يجب على الإنسان أن يصير كطفل صغير لأن هذا هو التواضع الحقيقي، فإنكم لو سألتم ولداً صغيراً: من صنع ثيابك، لأجاب أبي، وإذا سألتموه: لمن البيت الذي هو فيه، يقول: بيت أبي، وإذا سألتموه من يعطيك لتأكل، يجيب: أبي، وإذا قلتم من علمك المشي والتكلم، يجيب أبي، ولكن إذا قلتم له من شج جبهتك فإن جبهتك معصوبة يجيب: سقطت فشججت رأسي. وإذا قلتم له لماذا وقعت يجيب: ألا ترون أني صغير حتى لا قوة لي على المشي والإسراع كالبالغ، حتى أنه يجب أن يأخذ أبي بيدي إذا كنت أمشي بثبات قدم. ولكن تركني أبي هنيهة لأتعلم المشي جيداً، فأحببت أن أسرع فسقطت، وإذا قلتم وماذا قال أبوك، يجيب: لماذا لم تمشي ببطء انظر ألا تترك في المستقبل جانبي، قولوا لي أهذا صحيح؟

فأجابه الحواريون ونيقوديموس:

- إنه لصحيح كل الصحة.

حينئذ أكمل عليه السلام حديثه قائلاً:

- إن من يشهد بالله بأخلاص قلب إن الله منشىء كل صلاح وإنه هو منشيء الخطيئة يكون متواضعاً، ولكن من يتكلم بلسانه كما يتكلم الولد ويناقضه بالعمل، فهو بالتأكيد ذو تواضع كاذب وكبرياء حقيقية، إن الكبرياء تكون في أوجها متى استخدمت الأشياء الوضيعة لكيلا توبخها الناس وتمتهنها.

فالتواضع الحقيقي هو مسكنة النفس التي يعرف بها الإنسان نفسه بالحقيقة، ولكن الصفة الكاذبة إنما هي ضبابة تجعل بصيرة النفس مظلمة بحيث ينسب الإنسان إلى الله ما يجب عليه أن ينسبه إلى نفسه، وعليه فإن الرجل ذا التواضع الكاذب يقول إنه متوغل في الخطيئة، ولكن إذا قال له أحد أنه خاطىء ثار حنقه عليه واضطهده، ذو الاتضاع الكاذب يقول أن الله أعطاه كل ماله ولكنه هو من جهة لم ينم بل عمل أعمالاً صالحة، فقولوا لي أيها الإخوة كيف يسير فريسيو الزمن الحاضر.

وعند توقف عيسى عن كلامه، عقب نيقوديموس على كلامه أو سؤاله بنغمة يغلب عليها التحسر والحزن. فقال له:

- يا معلم إن لفريسي الزمن الحاضر ثياب الفريسيين واسمهم وما في قلوبهم وأعمالهم سوى كنعانيين، ويا ليتهم اسماً كهذا، فإنهم حينئذ لا يخدعون البسطاء، أيها الزمن القديم كم عاملتنا بقسوة إذا أخذت منا الفريسيين الحقيقيين وتركت لنا الكاذبين.

فرد عيسى على تعقيبه بقوله:

- أيها الأخ ليس الزمن هو الذي فعل هذا، بل بالحري العالم الشرير. لأن عبادة الله بالحق تكن في كل زمن، ولكن الناس يصيرون أردياء بالاختلاط بالعالم، أي بالعوائد الرديئة في كل زمن، ألا تعلم أن حجيزي خادم أليسع النبي لما كذب وأورث سيده الخجل أخذ نقود نعمان السرياني وثوبه، ومع ذلك كان لأليسع عدد وافر من الفريسيين جعله الله يتنبأ لهم.

الحق أقول لكم لقد بلغ من حيل الناس لعمل الشر ومن إغواء العالم لهم بذلك، ومن إغواء الشيطان إياهم على الشر مبلغاً يعرض معه فريسيو الزمن الحاضر عن كل عمل صالح وكل قدوة طاهرة، وإن لفي مثال حجيزي كفاية لهم، ليكونوا منبوذين من الله.

فقال نيقوديموس:

- إن ذلك لصحيح.

عندئذ قال له:

- أريد أن تقص عليّ مثال حجي وهوشع نبي الله لنرى الفريسي الحقيقي.

استجاب نيقوديموس لطلب عيسى فقال:

- ماذا أقول يا معلم، حقاً إن كثيرين لا يصدقون مع أنه مكتوب في دانيال النبي، ولكن طاعة لك أقص الحقيقة:

كان حجي ابن خمس عشر سنة عندما خرج من عند أناثوث ليخدم عوبديا النبي بعد أن باع إرثه ووهبه للفقراء، أما عوبديا الشيخ الذي عرف تواضع حجي فاستعمله بمثابة كتاب يعلم به تلاميذه، فلذلك كان يكثر من تقديم الثياب والأطعمة الفاخرة له، ولكن حجي كان دائماً يرد الرسول قائلاً:

- اذهب وعد إلى البيت لأنك قد ارتكبت خطأ، أفيرسل لي عبوديا أشياء كهذه، لا ألبتة لأنه يعرف أني لا أصلح لشيء، بل إنما أرتكب الخطيئة.

ومتى كان عند عوبديا شيء رديء أعطاه لمن ولي حجي لكي يراه، فكان إذا رآه حجي يقول في نفسه:

- ها هو عوبديا قد نسيني بلا ريب، لأن هذا الشيء لا يصلح إلا لي، لأني شر من الجميع، ومهما كان الشيء رديئاً فمتى أخذته من

عوبديا الذي منحني الله إياه على يديه صار كنزاً.

ومتى أراد عوبدياً أن يعلم أحداً كيف يصلي دعا حجي وقال:

- اتل الآن صلاتك ليسمع كل أحد كلامك.

فيقول حجي:

- أيها الرب إلٰه إسرائيل انظر إلى عبدك الذي يدعوك، لأنك قد خلقته أيها الرب الإله البار، اذكر برك وقاص خطايا عبدك لكي لا أنجس عملك، أبي وإلٰهي إني لا أقدر أن أسلك المسرات التي تهبها لعبيدك المخلصين، لأني لا أفعل شيئاً إلا الخطايا، فإذا أنزلت يا رب بأحد عبيدك سقماً فاذكرني أنا.

وكان متى فعل حجي هذا أحب الله، حتى أن الله كان يعطي النبوة لكل من وقف بجانبه، ولم يكن حجي يطلب شيئاً فيمنعه الله عنه.

توقف نيقوديموس عند هذا الحد نتيجة لانخراطه في بكاء شديد، تماماً كما يبكي النوتي إذا رأى سفينته قد تحطمت، ثم هدأ قليلاً وواصل حديثه:

- كان هوشع لما ذهب ليعبد الله أميراً لسبط نفتالي وكان له من العمر أربع عشرة سنة، وبعد أن باع إرثه ووهبه للفقراء ذهب ليكون تلميذاً لحجي، وكان هوشع مشغوفاً بالصدقة حتى أنه كان كلما طلب منه شيء يقول:

- أيها الأخ إن الله منحني هذا لك فاقبله.

فلم يبق له لهذا السبب سوى ثوبين فقط، أي صدرة من مسح ورداء من جلد، وكان قد باع كما قلت إرثه وأعطاه للفقراء، لأنه بدون هذا لا يجوز لأحد أن يسمى فريسياً، وكان عند هوشع كتاب موسى، وكان يطالعه برغبة شديدة، فقال حجي يوماً ما:

- من أخذ منك كل مالك.

أجاب:

- كتاب موسى.

وحدث أن تلميذ أحد الأنبياء المجاورين أحب أن يذهب إلى القدس، ولم يكن له رداء، فلما سمع بتصدق هوشع ذهب ليراه وقال له:

- أيها الأخ إني أريد أن أذهب إلى القدس لأقوم بتقديم ذبيحة لإلهنا، ولكن ليس لي رداء، فلا أدري ماذا أفعل.

فلما سمع هوشع قال:

- عفواً أيها الأخ فإني قد ارتكبت خطيئة عظيمة إليك، لأن الله قد أعطاني رداء لكي أعطيك إياه فنسيت فاقبله الآن إلى الله لأجلي.

فصدق الرجل هذا وقبل رداء هوشع وانصرف، ولما ذهب هوشع إلى بيت حجي قال حجي:

- من أخذ رداءك.

أجاب هوشع:

- كتاب موسى.

فسر حجي كثيراً من سماع هذا لأنه أدرك صلاح هوشع، وحدث أن اللصوص سلبوا فقيراً وتركوه عرياناً، فلما رآه هوشع نزع صدرته وأعطاها للعريان، ولم يبق له سوى خرقة صغيرة من جلد الماعز على سوأته، فلما لم يأت إلى حجي ظن حجي أن هوشع مريض، فذهب مع تلميذين ليراه، فوجدوه ملفوفاً بأوراق النخل، فقال حينئذ حجي:

- قل لي الآن لماذا لم تزرني.

أجاب هوشع:

- إن كتاب موسى قد أخذ صدرتي فخشيت أن آتي إلى هناك بدون صدرة.

فأعطاه حجي صدرة أخرى، وحدث أن شاباً رأى هوشع يطالع كتاب موسى، فبكى وقال:

ـ أنا أيضاً أود القراءة لو كان لي كتاب.

فلما سمع هوشع هذا أعطاه الكتاب قائلاً:

ـ أيها الأخ إن هذا الكتاب لك، لأن الله أعطاني إياه لكي أعطيه من يرغب في كتاب باكياً.

فصدقه الرجل وأخذ الكتاب، وكان تلميذ لحجي على مقربة من هوشع، فأراد أن يرى هل كل كتابه مكتوباً صحيحاً، فذهب ليزوره وقال له:

ـ أيها الأخ خذ كتابك ولننظر هل هو مطابق لكتابي.

فأجاب هوشع:

ـ لقد أخذ مني.

فقال التلميذ:

ـ من أخذه منك.

أجاب هوشع:

ـ كتاب موسى.

فلما سمع الآخر هذا ذهب إلى حجي وقال له:

ـ إن هوشع قد جن لأنه يقول أن كتاب موسى قد أخذ منه كتاب موسى.

أجاب حجي:

ـ يا ليتني كنت مجنوناً مثله، وكان كل المجانين نظير هوشع.

وشن لصوص سوريا الغارة على أرض اليهودية، فأسروا ابن أرملة فقيرة كانت تسكن على مقربة من جبل الكرمل حيث كان الأنبياء والفريسيون

يقيمون. فاتفق حينئذ أن هوشع كان ذاهباً ليقطع حطباً، فالتقى بالمرأة وهي باكية، فشرع من ثم يبكي حالاً، لأنه كان متى رأى ضاحكاً ضحك ومتى رأى باكياً بكى، فسأل حينئذ المرأة عن سبب بكائها فأخبرته بكل شيء فقال حينئذ هوشع:

- تعالي أيتها الأخت لأن الله يريد أن يعطيك ابنك.

فذهب كلاهما إلى جرون حيث باع هوشع نفسه، وأعطى النقود للأرملة التي لم تعلم كيف حصل عليها فقبلتها وافتدت ابنها، والذي اشترى هوشع أخذه إلى القدس حيث كان له منزل وهو لا يعرف هوشع، فلما رأى حجي أنه لا يمكن العثور على هوشع لبث كاسف البال، فأخبره من ثم ملاك الله كيف أنه قد أُخذ عبداً إلى القدس.

فلما علم حجي الصالح بكى لبعاد هوشع كما تبكي الأم لبعاد ابنها، وبعد أن دعا تلميذين ذهب للقدس، فصادف بمشيئة الله عند مدخل المدينة هوشع وكان محملاً خبزاً ليأخذه إلى العالم في كرم سيده، فلما استبانه حجي قال:

- يا بني كيف هجرت أباك الشيخ الذي ينشدك نائحاً.

أجاب هوشع:

- يا أبتاه لقد شريت.

فقال حينئذ حجي بحنق:

- من هو ذلك الردىء الذي باعك.

فأجاب هوشع:

- غفر الله لك يا أبتاه، لأن الذي باعني صالح بحيث لو لم يكن في العالم لما صار أحداً طاهراً.

فقال حجي:

- فمن هو إذاً؟

أجاب هوشع:

ـ كتاب موسى يا أبتاه.

فوقف حينئذ حجي الصالح كمن فقد عقله وقال:

ـ ليت كتاب موسى يبيعني أنا أيضاً مع أولادي كما باعك.

وذهب حجي مع هوشع إلى بيت سيده الذي قال لما رأى حجي:

ـ تبارك إلٰهنا الذي أرسل نبيه إلى بيتي.

وأسرع ليقبل يده. فقال حينئذ حجي:

ـ قبل أيها الأخ يد عبدك الذي ابتعته لأنه خير مني.

وأخبره بكل ما جرى، فمن ثم أعتق السيد هوشع، وهذا كل ما تبتغي أيها المعلم»[1].

فقال عيسى معلقاً على تلك الرواية:

ـ إن هذا لصدق لأن الله قد أكده لي، ولتقف الشمس ولا تتحرك برهة اثنتي عشرة ساعة، لكي يؤمن كل أحد أن هذا صدق.

وبالفعل فقد توقفت حركة الشمس والأرض مدة نصف يوم كامل حتى أفضى توقفهما المفاجىء إلى حدوث خوف وهلع عم المنطقة كلها، وبينما هم على هذه الحال قال عيسى لنيقوديموس:

ـ ما عساك أن تطلب مني أيها الأخ وعندك مثل هذه المعرفة، لعمر الله إن في هذا كفاية لخلاص الإنسان، لأن تواضع حجي وتصدق هوشع يكملان العمل بالشريعة برمتها، وكتب الأنبياء برمتها، قل لي أيها الأخ أخطر في بالك لما أتيت لتسألني في الهيكل أن الله بعثني لأبيد الشريعة والأنبياء.

من المؤكد أن الله لا يفعل هذا لأنه غير متغير، فإن ما فرضه الله

---

(١) إنجيل برنابا ص٢٧٦ ـ ٢٧٩.

طريقاً لخلاص الإنسان هو ما أمر الأنبياء بالقول به لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لو لم يفسد كتاب موسى مع كتاب أبينا داود بالتقاليد البشرية للفريسيين الكذبة والفقهاء، لما أعطاني الله كلمته، ولكن لماذا أتكلم عن كتاب موسى وكتاب داود، فقد فسدت كل نبوة حتى أنه لا يطلب اليوم شيء، لأن الله أمر به، بل ينظر الناس إذا كان الفقهاء يقولون به والفريسيون يحفظونه، كأن الله على ضلال، والبشر لا يضلون، فويل لهذا الجيل الكافر لأنهم سيحملون تبعة دم كل نبي وصديق مع دم زكريا بن رخيا الذي قتلوه بين الهيكل والمذبح.

أي نبي لم يضطهدوه، أي صديق تركوه يموت حتف أنفه، لم يكادوا يتركوا واحداً، وهم الآن يطلبون أن يقتلوني، يفاخرون بأنهم أبناء إبراهيم، وإن لهم الهيكل الجميل ملكاً، لعمر الله إنهم أولاد الشيطان، فلذلك ينفذون إرادته، ولذلك سيتهدم الهيكل مع المدينة المقدسة تهدماً لا يبقى معه حجر على حجر من الهيكل، قل لي أيها الأخ وأنت الفقيه المتضلع في الشريعة، بأي موعد ضرب مسيا (رسول الله) لأبينا إبراهيم، أبإسحاق أم بإسماعيل؟

فتردد نيقوديموس في الإجابة قائلاً:

- يا معلم أخشى أن أخبرك عن هذا بسبب عقاب الموت.

ولدى سماعه عليه السلام تلك الإجابة أصيب بخيبة أمل فيمن ظنه مؤمناً، من شدة تعلقه بأسباب الحياة الدنيا فعاتبه بقوله:

- إني آسف أيها الأخ أني أتيت لآكل خبزاً في بيتك لأنك تحب هذه الحياة الحاضرة أكثر من الله خالقك، ولهذا السبب تخشى أن تخسر حياتك، ولكن لا تخشى أن تخسر الإيمان والحياة الأبدية التي تضيع متى تكلم اللسان عكس ما يعرف القلب من شريعة الله.

فبكى نيقوديموس من تقريع عيسى وتأنيبه الذي لم يكن يتوقعه من تلك الإجابة التي تعبر فعلاً عن حقيقة يعرفها، ولكنه يخشى البوح بها فقال:

ـ يا معلم لو عرفت كيف أثمر لكنت قد بشرت مراراً كثيرة بما أعرضت عن ذكره لئلا يحصل شغب في الشعب.

شعر عيسى بوقع المصاب على الكاتب فقال له ناصحاً ومعلماً:

ـ يجب عليك ألا تحترم الشعب ولا العالم كله، ولا الأطهار كلهم، ولا الملائكة كلهم، إذا أغضبوا الله، فخير أن يهلك العالم كله من أن تغضب الله خالقك، ولا تحفظه في الخطيئة، لأن الخطيئة تهلك ولا تحفظ، أما الله فقدير على خلق عوالم عدد رمال البحر بل أكثر.

عندئذ اعتذر نيقوديموس قائلاً:

ـ عفواً يا معلم لأني قد أخطأت.

فدعا له عيسى بقوله:

ـ الله يغفر لك لأنك إليه قد أخطأت.

بعد ذلك مباشرة حدّث الكاتب عيسى بما قرأه ووعته ذاكرته الآن متعلقاً بمحمد رسول الله، حيث قال:

ـ لقد رأيت كتيباً قديماً مكتوباً بيد موسى ويشوع الذي أوقف الشمس كما فعلت، عبدي ونبي الله، وهو كتاب موسى الحقيقي، ففيه مكتوب أن إسماعيل هو أب لمسيا وإسحاق أب لرسول مسيا، وهكذا يقول الكتاب أن موسى قال:

ـ أيها الرب إله إسرائيل القدير الرحيم أظهر لعبدك في سناء مجدك.

فأرآه الله من ثم رسوله على ذراعي إسماعيل، وإسماعيل على ذراعي إبراهيم، ووقف على مقربة من إسماعيل إسحاق، وكان على ذراعيه طفل يشير بإصبعه إلى رسول الله قائلاً:

ـ هذا هو الذي لأجله خلق الله كل شيء.

فصاح من ثم موسى بفرح:

يا إسماعيل إن في ذراعيك العالم كله والجنة، اذكرني أنا عبدالله لأجد نعمة في نظر الله بسبب ابنك الذي لأجله صنع الله كل شيء.

لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله يأكل لحم المواشي أو الغنم. لا يوجد في ذلك الكتاب أن الله حصر رحمته في إسرائيل فقط، بل إن الله يرحم كل إنسان يطلب الله خالقه بالحق، لم أتمكن من قراءة هذا الكتاب كله لأن رئيس الكهنة الذي كنت في مكتبته نهاني قائلاً: إن عربياً إسماعيلاً قد كتبه.

وكرر عيسى نصيحته لمضيفه قائلاً:

- انظر ألا تعود أبداً فتحجز الحق، لأنه بالإيمان بمسيا رسول الله سيعطي الخلاص للبشر ولن يخلص أحد بدونه.

وبتلك النصيحة الغالية بلغ حديث عيسى نهايته الطبيعية تلاها مباشرة تقديم الطعام للمضيفين، وبينما الجميع منهمكين في الأكل إذ دخلت عليهم مريم المجدلية واتجهت باكية نحو عيسى، ثم ألقت بنفسها بين قدميه وهي تقول:

- يا سيد إن لخادمتك التي بسببك وجدت رحمة من الله أخاً منطرحاً مريضاً في خطر الموت.

فقال لها عيسى مستفسراً:

- أين بيتك، قولي لي لأني سأجيء لأتضرع إلى الله من أجل صحته.

فأجابته:

- في بيت عنيا، لأن سكني أنا في المجدل وأخي في بيت عنيا.

وبعد أن عرف مسكن شقيقها الذي جاءت من أجله لمقابلته قال لها:

- اذهبي تواً إلى بيت أخيك وانتظريني هناك لأني آجي لأشفيه، ولا تخافي فإنه لا يموت.

فغادرت مريم المجدلية القدس في حالة غير تلك التي جاءت بها،

ولدى وصولها إلى بيت عنيا، وهي قرية صغيرة تقع في الجنوب من جبل الزيتون، وعلى بعد ميلين شمال شرق القدس، وجدت شقيقها قد فارق الحياة في اليوم الذي قابلت فيه عيسى، ودفن الجثمان في الضريح المعد لآبائه وأجداده.

مكث عيسى في بيت الكاتب يومين، وفي صبيحة اليوم الثالث وقبل عيد الفصح بستة أيام مضى إلى بيت عنيا بناء على وعده لمريم المجدلية، ولما تراءت لهم القرية على البعد بعث أمامه اثنان من حوارييه ليخبروا أهلها بمقدمه، فخفت مريم مسرعة للقائه تقديراً لتكبده تلك المشاق وعرفاناً منها بالجميل، وعند مقابلتها له قالت باكية:

- لقد قلت يا سيد أن أخي لا يموت، وقد صار له الآن أربعة أيام وهو دفين، يا ليتك جئت قبل أن أدعوك، لأنك لو فعلت لما مات.

فقال مهدئاً من روعها:

- إن أخاك ليس بميت، بل هو راقد، لذلك جئت لأوقظه.

فردت عليه وقد بلغ بها اليأس الحد الذي يتلاشى عنده كل أمل ورجاء:

- يا سيد إنه يستيقظ من هذا الرقاد يوم القيامة عند نفخ ملاك الله ببوقه.

وبكل هدوء وثقة في الله رد عليها:

- صدقيني يا مريم إنه سيقوم قبل ذلك اليوم، لأن الله أعطاني قوة على رقاده، والحق أقول لك إنه ليس بميت، فإن الميت إنما هو من يموت دون إن يجد رحمة من الله.

وعلى الرغم مما يوحي به كلام عيسى من أمل كبير في إحياء شقيقها، إلا أن مريم بقيت متشائمة وفاقدة لكل أمل ورجاء، فرجعت مسرعة لإعلام أختها مرثا بزيارة عيسى لهم، كي يعدان العدة معاً لاستقباله

بطريقة تليق به، وكان قد اجتمع في منزلهم للعزاء جمع كبير من الناس معظمهم من القدس، وكثيرون من الكتبة والفريسيين، فلما سمعت مرثا من أختها بمجيء عيسى قامت على عجل واندفعت خارج المنزل دون أن تخبر أحداً بوجهتها، فتبعها عدد غفير ممن جاءوا للعزاء وذلك لحسبانهم أنها ذاهبة إلى القبر كي تبكي أخاها، وعند وصولهما إلى المكان الذي قابلت فيه أختها مريم عيسى، قالت له باكية:

- يا سيد ليتك كنت هنا، لأنك لو كنت لم يمت أخي.

وعلى أثرها جاءت مريم وهي تنوح على شقيقها بحرقة شديدة أثرت في عيسى فسكب هو الآخر العبرات لمشاعرها النبيلة تجاه الفقيد، ثم قال لها متنهداً:

- أين وضعتموه.

فأجابوه:

- تعال وانظر.

وبينما الجميع في طريقهم إلى القبر الذي دفن فيه لعازر وهو اسم المتوفى، تهامس الفريسيون فيما بينهم قائلين:

- لماذا سمح هذا الرجل الذي أحيا ابن الأرملة في نايبين أن يموت هذا الرجل بعد أن قال إنه لا يموت.

وفي الوقت الذي لامست فيه قدمي عيسى الأرض التي حفر فيها قبر لعازر، وكل واحد من الحاضرين يبكي خاطبهم عيسى بصوت مسموع قائلاً:

- لا تبكوا لأن لعازر راقد وقد أتيت لأوقظه.

عندئذ صدرت همهمة من الفريسيين تدور كلها حول:

- ليتك ترقد أنت هذا الرقاد.

فقال عيسى لمن حوله دون أن يوجه حديثه إلى أحد بعينه وإن كان يقصدهم ضمناً:

- إن ساعتي لم تأت بعد، ولكن متى جاءت أرقد كذلك ثم أوقظ سريعاً.

ثم أمر بعض الحاضرين قائلاً:

- ارفعوا الحجر عن القبر.

هنا قالت مرثا كالمشفقة:

- يا سيد لقد أنتن لأن له أربعة أيام وهو ميت.

فرد عليها عيسى مؤنباً وموبخاً:

- إذاً لماذا جئت إلى هنا يا مرثا، ألا تؤمنين بأني أوقظه.

فقالت له مسلمة إليه أمرها وأمر شقيقها:

- أعلم أنك نبي الله الذي أرسلك إلى هذا العالم.

ثم رفع عيسى يديه إلى السماء قائلاً:

- أيها الرب إلٰه إبراهيم وإلٰه إسماعيل وإسحاق وإلٰه آبائنا ارحم مصاب هاتين المرأتين واعط مجداً لأسمك المقدس.

فأَمن كل واحد من الحاضرين على دعائه قائلاً بصوت عال وأيديهم صوب السماء:

- آمين.

في هذا الوقت خاطب عيسى لعازر بصوت عال قائلاً:

- لعازر هلم خارجاً.

فقام لعازر وكأنه يلبي أمره من قبره وهو يرتدي الكفن الذي دفن به، ووجهه مغطى بمنديل كعادة اليهود في دفن موتاهم، ولما استوفى واقفاً قال عيسى لحواريه:

- حلوه.

لقد كانت آية إحياء لعازر بعد مضي أربعة أيام على دفنه آية خارقة لكل العوائد، ولا تكاد تعادلها في مناحي إعجازها آية أخرى، ولذلك آمن بعيسى في تلك اللحظة جم غفير من الناس وفئة قليلة من الفريسيين، وغادر المقبرة بسرعة أولئك الذين لم يؤمنوا. ومنهم من توجه مباشرة إلى القدس حيث أخبروا رئيس الكهنة بقيامة لعازر. وتحول الكثير من سكان بيت عنيا إلى النصرانية أي أصبحوا ناصريين. فتشاور الكتبة والفريسيون مع رئيس الكهنة في الأخبار الواردة، ومن ثم اتفقوا على:

- قتل لعازر أولاً لوأد المعجزة في مهدها، حتى لا تكون قيامته آية حية تسعى بين الناس على صدق عيسى ومؤيدة لنبوته.

ولكنهم تخوفوا من مغبة تلك الجناية، إذ كان لعازر من الشخصيات البارزة في مجتمعه، وله أتباع في القدس وغيرها، كما له ممتلكات وعقارات كثيرة مشاركة مع أختيه في مجدل وبيت عنيا، تجعل منه رجلاً مهاب الجانب قد لا يمر قتله أو الاعتداء عليه بلا ردود فعل عكسية تقوض مخطط القوم.

ومن المقابر توجه عيسى ومن معه من المعزين إلى بيت لعازر، حيث قضى في ضيافته عدة أيام، كانت تخدمه خلالها مريم ومرثا، وحدث ذات يوم من تلك الأيام، وبينما كانت مريم جالسة عند قدمي عيسى مصغية، قالت مرثا له وعلى سبيل المداعبة والمزاح:

- ألا ترى يا سيد أن أختي لا تهتم بك ولا تحضر ما يجب أن تأكل أنت ولا تلاميذك:

فرد عليها مبتسماً:

- مرثا مرثا تبصري فيما يجب أن تفعلي، لأن مريم قد اختارت نصيباً لن ينزع منها إلى الأبد.

وفي اليوم الذي أعد فيه لعازر وليمة على شرف عيسى وحوارييه وجم

غفير ممن أمن بعيسى، خطب فيهم عليه السلام خطبة قصيرة اقتضتها المناسبة التي أعادت الكثير إلى دين الله الحق جاء فيها:

- أيها الإخوة لم يبق لي معكم سوى هنيهة من الزمن، لأنه اقترب الزمن الذي يجب فيه أن أنصرف من العالم، لذلك أذكركم بكلام الله الذي كلم به حزقيال النبي قائلاً:

- لعمري أنا إلٰهكم الأبدي إن النفس التي تخطىء تموت ولكن إذا تاب الخاطىء لا يموت بل يحيا.

إن الموت الحاضر ليس بموت، بل نهاية موت طويل، إن الجسد متى انفصل عن الحس في غيبوبة فليس له ميزة على الميت والمدفون - وإن كانت فيه النفس - سوى أن المدفون ينتظر الله ليقيمه أيضاً، والفاقد الشعور ينتظر عودة الحس، فانظروا إذاً الحياة الحاضرة التي هي مرت، إذ لا شعور لها بالله.

من يؤمن بي لا يموت أبدياً، لأنهم بواسطة كلمتي يعرفون الله فيهم، ولذلك يتممون خلاصهم، وما الموت سوى عمل تعمله الطبيعة بأمر الله، كما لو كان أحد ممسكاً عصفوراً مربوطاً، وأمسك الخيط في يده، فإذا أراد الرأس انفلات العصفور فماذا يفعل: من المؤكد أنه بالطبع يأمر اليد بالانفتاح فينفلت العصفور تواً، إن نفسنا ما لبث الإنسان تحت حماية الله هي كما يقول النبي داود:

كعصفور أفلت من شرك الصياد.

وحياتنا كخيط تربط فيه النفس إلى جسد الإنسان وحسه، فمتى أراد الله وأمر الطبيعة أن تنفتح انتهت الحياة، وانفلتت النفس إلى أيدي الملائكة الذين عينهم الله لقبض النفوس، لذلك يجب على الأصدقاء أن لا يبكوا متى مات صديق، لأن إلٰهنا أراد ذلك، بل ليبك بدون انقطاع متى أخطأ لأن النفس تموت إذ تنفصل عن الله، وهو الحياة الحقيقية، فإذا كان الجسد بدون اتحاده مع النفس هائلاً، فإن النفس تكون أشد هولاً بدون اتحادها مع الله الذي يجملها ويحييها بنعمته ورحمته.

ثم وقف لعازر بعد هذه الخطبة ليقول:

- يا سيد هذا البيت لله خالقي مع كل ما أعطى لعهدتي لأجل خدمة الفقراء، فإذا كنت فقيراً وكان لك عدد كبير من الحواريين تعال واسكن هنا متى شئت، فإن عبدالله يخدمك كما يجب حباً في الله.

فرح عيسى من تلك العبارات الدالة على إيمان لعازر، وتخليه عن ممتلكاته ابتغاء مرضاة الله فعلق قائلاً:

- انظروا الآن ما أطيب الموت إن لعازر مات مرة فقط، وقد تعلم تعليماً لا يعرفه أحكم البشر في العالم الذين شاخوا بين الكتب، يا ليت كل إنسان يموت مرة فقط ويعود للعالم مثل لعازر ليتعلموا كيف يحيون.

هنا تدخل يوحنا قائلاً:

- يا معلم أيؤذن لي أن أتكلم كلمة.

أجابه عيسى:

- قل ألفاً لأنه كما يجب على الإنسان أن يصرف أمواله في عبادة الله هكذا يجب عليه أن يصرفها في التعليم. بل يكون هذا أشد وجوباً عليه، لأن على الكلمة أن تحمل نفساً على التوبة، على حين أن الأموال لا تقدر أن ترد الحياة للميت، وعليه فإن من له قدرة على مساعدة فقير ثم لم يساعده حتى مات الفقير جوعاً فهو قاتل، ولكن القاتل الأكبر هو من يقدر بكلمة الله على تحويل الخاطىء للتوبة، ولم يحول بل يقف كما يقول الله: ككلب أبكم، ففي مثل هؤلاء يقول الله:

- أيها العبد الخائن منك أطلب نفس الخاطىء الذي يهلك لأنك كتمت كلمتي عنه.

فعلى أية حال إذاً يكون الكتبة والفريسيون الذين معهم المفتاح ولا يدخلون، بل يمنعون الذين يريدون في الحياة الأبدية. تستأذني يا يوحنا أن

تتكلم كلمة وأنت قد أصغيت إلى مئة ألف كلمة من كلامي، الحق أقول لك أنه يجب عليّ أن أصغي لك عشرة أضعاف ما أصغيت إليّ، وكل من لا يصغي إلى غيره فهو يخطىء كلما تكلم، لأنه يجب أن نعامل الآخرين بما نرغب فيه لأنفسنا، وأن نعمل للآخرين ما لا نود وصوله إلينا.

عندها سأله يوحنا:

- يا معلم لماذا لم ينعم الله على الناس بأن يموتوا مرة ثم يرجعوا كما لعازر، ليتعلموا أن يعرفوا أنفسهم وخالقهم.

أجابه:

- ما قولك يا يوحنا في رب بيت أعطى أحد خدمه فأساً صحيحة ليقطع غابة حجبت منظر بيته، ولكن الفاعل نسي الفأس وقال:

- لو أعطاني السيد فأساً قديمة لقطعت الغابة بسهولة.

قل يا يوحنا ماذا قال السيد؟ حقاً إنه حنق وأخذ الفأس القديمة وضربه على الرأس قائلاً:

- أيها الغبي الخبيث لقد أعطيتك فأساً تقطع بها الغابة بدون كد، أفتطلب الآن هذه الفأس التي يضطر معها المرء إلى كد عظيم، وكل ما يقطع بها يذهب سدى ولا ينفع لشيء، إني أريد أن تقطع الخشب على طريقة يكون معها عملك حسناً، أليس هذا صحيح.

فرد عليه:

- إنه لصحيح كل الصحة.

عندئذ قال عيسى:

- يقول الله لعمري أنا الأبدي إني أعطيت فأساً جيدة لكل إنسان وهي منظر دفن الميت، فمن استعمل هذه الفأس جيداً أزالوا غابة الخطيئة من قلوبهم بدون ألم، فهم لذلك ينالون نعمتي ورحمتي وأجزيهم الحياة الأبدية بأعمالهم الصالحة، ولكن من ينسى أنه فان مع أنه

يرى المرة بعد المرة غيره يموت فيقول:

- لو أتيح لي رؤية الحياة الأخرى لعلمت أعمالاً صالحة.

فإن غضبي يحل عليه ولأضربنه بالموت حتى لا ينال خيراً فيما بعد.

يا يوحنا ما أعظم ضربة من يتعلم من سقوط الأخرين كيف يقف على رجليه.

هنا تدخل لعازر متحدثاً عن تجربته مع الموت وعودته للحياة قائلاً:

- يا معلم الحق أقول لك إني لا أقدر أن أدرك العقوبة التي يستحقها من يرى المرة بعد المرة الموتى تحمل إلى القبر ولا يخاف الله خالقنا. فإن مثل هذا لأجل الأشياء الدنيوية التي يجب عليه تركها بالمرة يغضب خالقه الذي منحه كل شيء.

واستناداً على خبرة لعازر وتجربته الشخصية قال عيسى موجهاً الحديث إلى حوارييه:

تدعونني معلماً وتعملون حسناً، لأن الله يعلمكم بلساني، ولكن كيف تدعون لعازر، حقاً أنا هنا لمعلم كل المعلمين الذي يبثون تعليماً في هذا العالم. نعم إنني علمتكم كيف يجب أن تعيشوا حسناً. وأما لعازر فيعلمكم كيف تموتون حسناً، لعمر الله إنه قد نال موهبة النبوة، فاصغوا إذن لكلامه الذي هو حق، ويجب أن تكونوا أشد إصغاء إليه بالأحرى، لأن المعيشة الجيدة عبث إذا مات الإنسان ميتة رديئة.

ولما كانت تلك النصيحة متعلقة بلعازر وخالصة للحواريين فقد قال لعازر:

- يا معلم أشكر لك أنك تجعل الحق يقدر قدره لذلك يعطيك الله أجراً عظيماً.

أما برنابا فقد تنبه إلى ما في قول لعازر وما قاله عيسى لنيقوديموس من تناقض. فقال متسائلاً:

- يا معلم كيف يقول لعازر الحق بقوله لك ستنال أجراً مع أنك قلت لنيقوديموس إن الإنسان لا يستحق شيئاً سوى العقوبة، أفيقاضك الله إذاً؟

فرد عليه باستفاضة رافعاً عن ذهنه ذلك التناقض:

- عساني أن أنال من الله قصاصاً في هذا العالم لأني لم أعبده بإخلاص كما كان يجب عليّ أن أفعل. ولكن الله أحبني برحمته حتى أن كل عقوبة رفعت عني بحيث أني أعذب في شخص آخر، فإني كنت أهلاً للقصاص، لأن البشر دعوني إلهاً، ولكن لما كنت قد اعترفت لا بأني لست إلهاً فقط، كما هو الحق بل قد اعترفت أيضاً أني لست مسيا، فقد رفع الله لذلك العقوبة عني، وسيجعل شريراً يكابدها باسمي حتى لا يبقى منها سوى العار، لذلك أقول لك يا برنابا أنه متى تكلم إنسان عما سيهبه الله لقريبه، فليقل إن قريبه يستأهله، ولكن لينظر متى تكلم عما سيعطيه الله إياه أن يقول:

- إن الله سيهب لي.

ولينظر جيداً ألا يقول:

- إني أستأهل.

لأن الله يسر أن يمنح رحمته لعبيده متى اعترفوا أنهم يستأهلون الجحيم لأجل خطاياهم، إن الله لغني برحمته حتى أن دمعة واحدة ممن ينوح لإغضابه الله تطفىء الجحيم كله بالرحمة العظيمة التي يمده الله بها، على أن مياه ألف بحر لو وجدت، لا تكفي لإطفاء شرارة من لهب الجحيم، فلذلك يريد الله خذلاً للشيطان وإظهاراً لجوده هو أن يحسب في حضرة رحمته كل عمل صالح أجراً لعبده المخلص، ويحب منه أن يعامل غيره هكذا. أما الإنسان في خاصة نفسه فعليه أن يحذر من قول لي أجر، لأنه يدان.

ثم التفت إلى لعازر وقال له:

ـ يجب عليّ أيها الأخ أن أمكث في العالم هنيهة. فمتى كتب عليّ مقربة من بيتك لا أذهب إلى محل آخر، فقط لأنك تخدمني لا حباً فيّ بل حباً في الله.

ولما أوشك عيد الفصح على الحول قال عيسى لحوارييه:

ـ لنذهب إلى القدس لنأكل حمل الفصح.

وطلب من بطرس ويوحنا الذهاب إلى المدينة حيث أوصاهما قائلاً:

ـ تجدان أتاناً (حمارة) بجانب باب المدينة مع جحش. فحلاها وأْتيا بها إلى هنا، لأنه يجب أن أركبها إلى القدس، فإذا سألكما أحد قائلاً: لماذا تحلانها فقولا لهم: المعلم محتاج إليها فيسمحان لكما بإحضارها.

وبالفعل ذهب الحواريان إلى القدس، فوجدا حمارة (أتان) وجحشاً مربوطان بجوار باب المدينة، فحلاهما، وعادا بهما إلى بيت عنيا، حيث وضعا رداءيهما على ظهر الجحش، وركب عيسى وتبعه الحواريون مشياً على الأقدام، ولما ترامى إلى مسامع السكان قدوم عيسى الناصري لزيارتهم بعد غيبة من غيباته المعهودة، خرجوا إليه مع أطفالهم متشوقين لرؤيته وحاملين في أيديهم أغصان النخل والزيتون وهم يترنمون بهذه الترنيمة:

ـ تبارك الآتي إلينا باسم الرب الإله، مرحباً يا ابن داود.

أما الفريسيون الذين هالهم خروج الناس على هذا النحو الحاشد والفريد من نوعه لاستقبال عيسى والترحيب بمقدمه، فقد ثارت ثائرتهم، واحتدمت نيران الغيرة والغضب والحسد في نفوسهم، ولكن لا قدرة لهم على تفريق تلك الجموع الهادرة. كل ما قدروا عليه أنهم ذهبوا إلى عيسى قائلين:

ـ ألا ترى ما يقول هؤلاء، مرهم أن يسكتوا.

فرد عيسى على سؤالهم، الذي كان يفترض توجيهه لمستقبليه والمرحبين به قائلاً:

- لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته لو سكت هؤلاء صرخت الحجارة بكفر الأشرار الأردياء.

وبالفعل صاحت حجارة القدس بصوت مرددة الترنيمة نفسها التي يرددها الأهالي:

- تبارك الآتي إلينا باسم الرب الإله.

ومع كل هذا فقد أصر الفريسيون بإباء مقيت على موقفهم السابقة والمنكرة بلا تحفظ لرسالته، وفي الوقت الذي اتجه فيه عليه السلام نحو الهيكل، اجتمع هؤلاء لإعداد خطة جديدة ليتسقطونه في كلامه، علهم يجدون ثغرة يستندون عليها في حربهم ضده.

وبعد أن استقر به المقام في الهيكل أحضر إليه الكتبة والفريسيون امرأة ثبت عندهم وبشهود عدول ارتكابها للزنا، بقصد إحراجه، فهو بين أمرين، إما أن يعفو عنها فيكون بذلك قد أبطل شريعة موسى. وإما أن يدينها ويوقع عليها العقوبة. فيكون بذلك قد حكم بغير تعاليمه التي تبشر الخطأة والمذنبين بالرحمة، فقال لهم أحدهم:

- يا معلم لقد وجدنا هذه المرأة وهي تزني، وقد أمر موسى أن مثل هذه ترجم، فماذا تقول أنت؟

انحنى عيسى عند سماعه تلك الإدانة الصريحة للمرأة، ورسم بإصبعه مرآة مربعة الشكل، رأى فيها كل إثم ارتكبه أولئك الذين أحضروا المرأة للتضييق عليه حتى يقع في غلط يتخذ ضده. وظل على حالته تلك ساكتاً بلا إجابة، ولما أقبلوا عليه من جديد وبطريقة أقرب إلى الإلحاح انتصب واقفاً وقال لهم وهو يشير بإصبعه إلى المرأة:

- من كان منكم بلا خطيئة فليكن أول راجم لها.

ثم عاد وانحنى على الأرض من جديد مقلباً المرأة بيديه، أما أولئك

الذين رأوا تلك الآية وسمعوا كلامه الذي يبطن تهديداً ووعيداً بالكشف عن أسرارهم فقد تسللوا خارجين واحداً إثر الآخر خجلاً من أنفسهم، ولما وقف منتصباً لم ير سوى المرأة فقال لها:

- أيتها المرأة أين الذي دانوك.

فأجابته باكية:

- يا سيد لقد انصرفوا، فإذا صفحت عني، فإني لعمر الله لا أخطىء فيما بعد.

فقال لها:

- تبارك الله اذهبي بسلام ولا تخطئي فيما بعد لأن الله لم يرسلني لأدينك.

ولم يلبث أن عاد الكتبة والفريسيون بعد خروج المرأة إلى الهيكل مجتمعين حوله عليه السلام، فبادرهم بالكلام قائلاً:

- قولوا لي لو كان لأحدكم مئة خروف وأضاع واحداً منها ألا ينشده تاركاً التسعة والتسعين، ومتى وجدته ألا تضعه على منكبيك، وبعد أن تدعو الجيران تقول لهم:

- افرحوا معي لأني وجدت الخروف الذي فقدته.

حقاً إنك تفعل هكذا أيحب الله الإنسان أقل من ذلك، وهو لأجله قد خلق العالم، لعمر الله هكذا يكون فرح من حضرة ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب، لأن الخطأة يظهرون رحمة الله. قولوا لي من هو أشد حباً للطبيب الذين لم يمرضوا مطلقاً أم الذين شفاهم الطبيب من أمراض خطرة.

فأجابوه:

- وكيف يحب الصحيح الطبيب، حقاً إنما يحبه لأنه ليس بمريض، ولما لم تكن له معرفة بالمرض لا يحب الطبيب إلا قليلاً.

عندئذ تكلم عيسى بحدة قائلاً:

ـ لعمر الله إن لسانكم يدين كبرياءكم، لأن الخاطىء التائب يحب إلٰهنا أكثر من البار، لأنه يعرف رحمة الله العظيمة له، لأنه ليس للبار معرفة برحمة الله، لذلك يكون الفرح عند ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً، أين الأبرار في زماننا، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إن عدد الأبرار غير الأبرار لعظيم، لأن حالهم شبيهة بحال الشيطان.

ولما كان الكتبة والفريسيون يعدون أكبر إهانة توجه إليهم هي أن يدعوهم أحد خطاة. فقد ردوا عليه بقصد إثارته واستفزازه قائلين:

ـ إننا خطاة لذلك يرحمنا الله.

فقال لهم:

ـ إني أخشى أن تكونوا أبراراً غير أبرار، فإنكم إذا كنتم قد أخطأتم وتنكرون خطيئتكم داعين أنفسكم أبراراً فأنتم غير أبرار، وإذا كنتم تحسبون أنفسكم في قلوبكم أبراراً وتقولون بلسانكم إنكم خطأة فتكونون إذاً أبراراً غير أبرارٍ مرتين.

أُفحم خصوم عيسى بقوة حجته، وأخذت عمق معانيه بألبابهم، فتحيروا في أمرهم، ولم يجدوا في جعبتهم ما يردون به عليه، الأمر الذي أكرههم للانصراف خائبين، وبقي هو وحواريوه وحدهم في الهيكل، ولما خلا بهم المكان ذهبوا إلى دار سمعان الأبرص، وهناك جمع له الأهالي عدداً من المرضى طالبين منه إبراءهم من عللهم وأسقامهم المزمنة، فقال لهم وهو على يقين باقتراب الساعة التي يرفع فيها من الأرض.

ـ ادعوا المرضى ما بلغوا لأن الله رحيم وقادر على شفائهم.

فقالوا له:

ـ لا نعلم أنه يوجد مرضى آخرون هنا في القدس.

فوقف وخطب فيهم خطبة قصيرة أشبه ما تكون بالمرثية، جاء فيها:

- يا قدس يا إسرائيل إني أبكي عليك لأنك لا تعرفين يوم حسابك، فإني أحببت أن أضمك إلى محبة الله خالقك، كما تضم الدجاجة أفراخها، تحت جناحيها فلم تريدي، لذلك يقول الله لك هكذا:

أيتها المدينة القاسية القلب المرتكسة العقل، لقد أرسلت إليك عبدي لكي يحولك إلى قلبك فتتوبين، ولكن يا مدينة البلبلة قد نسيت كل ما أنزلت بمصر وفرعون حباً فيك يا إسرائيل، ستبكين مراراً عديدة ليبرىء عبدي جسمك من المرض، وأنت تطلبين أن تقتلي عبدي، لأنه يطلب أن يشفي نفسك من الخطيئة.

أتبقين إذاً وحدك دون عقوبة مني، أتعيشين إذاً إلى الأبد أو تنقذك كبرياؤك من يدي. لا ألبتة لأني سأحمل عليك بأمراء وجيش فيحيطون بك بقوة، وسأسلمك إلى أيديهم على كيفية تهبط بها كبرياؤك إلى الجحيم، لا أصفح عن الشيوخ ولا الآرامل، ولا أصفح عن الأطفال، بل أسلمكم جميعاً للجوع والسيف والسخرية، والهيكل الذي كنت أنظر إليه برحمة إياه أدمر مع المدينة، حتى تصيروا رواية وسخرية ومثلاً بين الأمم، هكذا يحل غضبي عليك، وحنقي لا يهجع.

ألا تعلمون أنه يوجد مرضى آخرون، لعمر الله إن أصحاء النفس في القدس لأقل من مرضى الجسد. ولكي تعرفوا الحق أقول لكم:

- أيها المرضى لينصرف باسم الله مرضكم عنكم.

وبكى الحاضرون لتلك النهاية المأساوية، والمصير الأسود الذي ينتظرهم وينتظر مدينتهم، فتضرعوا إليه لأجل الرحمة بهم وبمدينتهم فقال لهم:

- يقول الله إذا بكت القدس على خطاياها وجاهدت نفسها سائرة في طرقي فلا أذكر آثامها فيما بعد، ولا ألحق بها شيئاً من البلية التي ذكرتها. ولكن القدس تبكي على دمارها لا على إهانتها لي التي بها جدفت على اسمي بين الأمم، لذلك زاد حنقي احتداماً، لعمري أنا

الأبدي لو صلى لأجل هذا الشعب أيوب وإبراهيم وصموئيل وداود ودانيال وموسى عبادي لا يسكن غضبي على القدس.

تحدث عليه السلام عن خراب القدس ودمارها وكأنه أمر قد أبرم وواقع لا محالة. ولأجل ذلك خاف الحاضرون، ثم دخل بعد ذلك ومن معه من الحواريين إلى دار سمعان، وبينما هم جلوس لتناول طعام العشاء، دخلت عليهم مريم المجدلية وبيدها قارورة عطر، واتجهت نحو عيسى، حيث فتحت القارورة وسكبت ما فيها من عطر على رأسه وثوبه، مما أثار حفيظة يهوذا فأراد إيقافها ومنعها من الاستمرار في عملها قائلاً:

- اذهبي وبيعي الطيب وأحضري النقود لكي أعطيها للفقراء.

ولكن عيسى اعترض قائلاً:

- لماذا تمنعها، دعها، فإن الفقراء معكم دائماً أما أنا فلست معكم دائماً.

رد عليه يهوذا:

- يا معلم كان يمكن أن يباع هذا الطيب بثلاثة مئة قطعة من النقود، فانظر إذاً كم من فقير يمكن مساعدته بها.

اكتفى عيسى في رده عليه بتهدئته قائلاً:

- يا يهوذا إني لعارف قلبك، فاصبر أعطك الكل.

حزن الحواريون من تلك العبارات لما توحي به من اقتراب الساعة التي ينصرف فيها عنهم معلمهم. ماعدا يهوذا الذي غضب لعلمه بأنه خسر ثلاثين قطعة من النقود هي عشر ما كان سيختلسه من ثمن العطر.

وبعد الفراغ من تناول الطعام ذهب يهوذا لمقابلة قيافا رئيس الكهنة حيث وجده مجتمعاً مع الكهنة والكتبة والفريسيين في واحدة من اجتماعاتهم العديدة. ولما أذن له بالدخول عليهم في تلك الجلسة، كلمهم عن سبب مجيئه قائلاً:

ـ ماذا تعطوني وأنا أسلم إلى أيديكم عيسى الذي يريد أن يجعل من نفسه ملكاً على إسرائيل؟

فسأله أحد المجتمعين:

ـ ألا كيف تسلمه إلينا.

أجابهم:

ـ متى علمت أنه يذهب إلى خارج المدينة ليصلي أخبركم وأدلكم على الموضع الذي يوجد فيه، لأنه لا يمكن القبض عليه في المدينة بدون فتنة.

هنا قال له رئيس الكهنة:

ـ إذا سلمته ليدنا نعطيك ثلاثين قطعة من الذهب وسترى كيف أعاملك بالحسنى.

وفي منتصف نهار اليوم التالي على ضيافة سمعان، دخل عيسى الهيكل في معية جمع غفير من الناس، فاقترب منه رئيس الكهنة قائلاً:

ـ قل لي يا عيسى أنسيت كل ما كنت قد اعترفت به من أنك لست الله ولا ابن الله ولا مسيا رسول الله.

فرد عليه قائلاً:

ـ لا ألبتة لم أنس، لأن هذا هو الاعتراف الذي أشهد به أمام كرسي دينونة الله يوم القيامة، لأن كل ما كُتب في كتاب موسى صحيح كل الصحة، فإن الله خالقنا أحد، وأنا أرغب في خدمة رسول الله الذي تسمونه مسيا.

فقال له رئيس الكهنة محتجاً ومحذراً:

ـ فما المراد إذاً من المجيء إلى الهيكل بهذا الجم الغفير، لعلك تريد أن تجعل نفسك ملكاً على إسرائيل. احذر من أن يحل بك خطر.

فرد عيسى على تهديده ببيان الحقائق التي لا يجهلها:

- لو طلبت مجدي ورغبت في نصيبي من هذه الدنيا، لما هربت لما أراد أهل نايبين أن يجعلونني ملكاً، حقاً صدقني أني لست أطلب شيئاً من هذه الدنيا.

عندها هدأ رئيس الكهنة قليلاً مسلماً لعيسى بقوة حجته، ولكنه سأله:

- نحب أن نعرف شيئاً عن مسيا.

وعند هذا السؤال تجمع عدد من الكهنة والكتبة والفريسيين ضاربين حوله نطاقاً. ولكن عيسى مضى في حديثه وكأن الأمر لا يعنيه، بل تحداهم جميعاً بسؤاله لهم:

- ما هو ذلك الشيء الذي تريدون أن تعرفوه عن مسيا، لعله الكذب، حقاً إني لا أقول لك الكذب، لأني لو كنت قلت الكذبة لعبدتني أنت والكتبة والفريسيون مع كل إسرائيل، ولكن تبغضونني وتطلبون أن تقتلوني لأني أقول لكم الحق.

هنا قال رئيس الكهنة وكأنه يريد إثارة عيسى:

- نعلم الآن أن وراء ظهرك شيطاناً، لأنك سامري ولا تحترم كاهن الله.

فرد عليه عيسى:

- لعمر الله ليس وراء ظهري شيطان، ولكن أطلب أن أخرج الشيطان، فلهذا السبب يثير الشيطان عليّ العالم، لأني لست من هذا العالم، بل أطلب أن يعظم ويجل الله الذي أرسلني إلى العالم، فأصيخوا السمع لي أخبركم بمن وراء ظهره الشيطان، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته إن من يعمل بحسب إرادة الشيطان فالشيطان وراء ظهره، وقد وضع عليه لجام إرادته ويديره أنى شاء حاملاً إياه على الإسراع إلى كل إثم.

كما أن الثوب يختلف باختلاف صاحبه وهو هو الثوب نفسه هكذا البشر يختلفون على كونهم من مادة واحدة بسبب أعمال الذي يعمل في

الإنسان، إذا كنت قد أخطأت ـ كما أعلم ذلك ـ فلماذا لم توبخوني كأخ بدلاً من أن تبغضوني كعدو، حقاً إن أعضاء الجسد تتعاون متى كانت متحدة بالرأس، وإن ما انفصل منها عن الرأس فلا يغيثه، لأن يدي الجسد لا تشعران بألم رجلي جسد آخر، بل برجلي الجسد الذي هي متحدة به، لعمر الله الذي تقف نفسي في حضرته، إن من يخاف ويحب خالقه يرحم من يرحمه الله الذي هو رأسه، ولما كان الله لا يريد موت الخاطىء، بل يمهل كل أحد للتوبة، فلو كنتم من ذلك الجسد الذي أنا متحد فيه لكنتم لعمر الله تساعدونني لأعمل بحسب مشيئة رأسي.

إذا كنت أفعل الإثم وبخوني يحببكم الله، لأنكم تكونون عاملين بحسب إرادته، ولكن إذا لم يقدر أحد أن يوبخني على خطيئة، فلذلك دليل على أنكم لستم أبناء إبراهيم كما تدعون أنفسكم، ولا أنتم متحدون بذلك الرأس الذي كان إبراهيم متحداً به، لعمر الله إن إبراهيم أحب الله بحيث إنه لم يكتف بتحطيم الأصنام الباطلة تحطيماً ولا بهجر أبيه وأمه، ولكنه كان يريد أن يذبح ابنه في طاعة الله.

وللمرة الثانية وضمن سياق الموضوع المتعلق برسول الله، سأل رئيس الكهنة:

ـ إنما أسألك هذا ولا أطلب قتلك فقل لنا: من كان ابن إبراهيم هذا؟

أجابه:

ـ إن غيرة شرفك يا الله تؤججني، ولا أقدر أن أسكت، الحق أقول لكم إن ابن إبراهيم هو إسماعيل الذي يجب أن يأتي من سلالته مسيا الموعود به إبراهيم. إن به تتبارك كل قبائل الأرض.

وعند سماع رئيس الكهنة تلك الإجابة الحاسمة والتي تصرف نسبة رسول الله للعرب لا اليهود، غضب واهتاج موجهاً كلامه للجمع المحتشد من حول عيسى:

- لنرجم هذا الفاجر لأنه عربي، وقد جدف على موسى وعلى شريعة الله.

وبلا أدنى تردد وكأن الأمر قد أعد له مسبقاً، تناول كل واحد منهم حجراً لرجم عيسى، ولكنه فجأة اختفى عن أعينهم، أو بالأحرى عميت أبصارهم عن رؤيته، فتسلل خارجاً من الهيكل، أما الحواريون والذين آمنوا به فهم وحدهم الذين رأوه خارجاً من الهيكل، فتبعوه جميعاً إلى بيت سمعان.

وبلغ من شدة رغبة هؤلاء في قتله وحرصهم عليه أن أعماهم الحقد عن كل شيء، فاندفع كل منهم يضرب الآخر بقوة وعنف وبلا وعي وتمييز. فكأنه يريد أن يفرغ حقده الطويل وبغضه المزمن على عيسى في غريمه، وبعد ساعة أو تزيد هدأت النفوس وانكشفت على قلوبهم وصدورهم غيوم الحقد والغضب، مخلفة وراءها جثث ألف رجل ودماءهم تدنس المكان الطاهر.

ولما ترامت لمسامع نيقوديموس محاولة اغتيال عيسى، وما جرى في الهيكل من تقاتل، حضر مسرعاً إلى بيت سمعان، حيث عرض عليه مغادرة القدس فوراً قائلاً:

- يا سيد إن لي بستاناً وبيتاً وراء جدول قدرون على سفح جبل الزيتون، فأضرع إليك إذاً أن تذهب إلى هناك مع بعض حوارييك. وأن تبقى هناك إلى أن يزول حقد الكهنة، لأني أقدم لك كل ما يلزم، وأنتم يا جمهور الحواريين امكثوا هنا في بيت سمعان وفي بيتي لأن الله يعول الجميع.

وافق عيسى على اقتراح نيقوديموس، ولكنه طلب أن يصحبه إلى وادي قدرون حوارييه الاثني عشر الذين بدأت بهم الدعوة، على أن يبقى الباقون والذين دعوا فيما بعد رسلاً في بيت سمعان.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الأحداث الخطيرة والتي استهدفت ولأول مرة حياة عيسى، كانت مريم عليها السلام منتصبة للصلاة

في بيت والدها القديم بالناصرة، فجاءها جبريل عليه السلام مبعوثاً من الله، وقص عليها بالتفصيل ما حدث وجرى لابنها من اضطهاد ومحاولة اغتياله، ثم طمأنها على سلامته، وأزال مخاوفها المستقبلية عن حياته قائلاً:

- لا تخافي يا مريم لأن الله سيحميه من العالم.

وانطلقت مريم بمجرد سماعها ذلك الخبر إلى القدس حيث ذهبت مباشرة إلى بيت شقيقتها سالومة، وذلك لمعرفة مكان ابنها، والذي كان في وقت دخولها المدينة قد اعتزل بالفعل سراً وراء جدول قدرون دون أن يعرف أحداً من الأهالي مكان إقامته، وشاء الله تعالى ألا ترى مريم ابنها إلا بعد رفعه إلى السماء، ونزوله مرة أخرى بأمر من الله ورحمة وشفقة بأمه التي أوشكت على الهلاك نتيجة لفقدان أي أثر له.

ولما عاد الهدوء إلى الهيكل بعد تلك العاصفة الدامية، صعد رئيس الكهنة إلى منبر الخطابة، وأشار بكلتا يديه إيماء بالسكوت والتزام الصمت ثم قال للجميع:

- ماذا نفعل أيها الأخوة، ألا ترون أنه قد أضل العالم كله بعمله الشيطاني. فإذا لم يكن ساحراً. فكيف اختفى الآن، حقاً إنه لو كان طاهراً ونبياً لما جدف على الله وعلى موسى عبده وعلى مسيا الذي هو أمل إسرائيل، وماذا أقول لكم فلقد جدف على طغمة كهنتنا برمتها، فالحق أقول لكم إنه إذا لم يزل من العالم تدنس إسرائيل ودفعنا الله إلى الأمم، انظروا الآن كيف قد تدنس هذا الهيكل المقدس بسببه.

إن الطريقة التي تكلم بها رئيس الكهنة، والحجج التي ساقها متهماً عيسى بإحداث شرخ في إجماع الأمة وإثارة الفتنة بين أبنائها، هي التي أدت إلى إعراض الكثير عن الدعوة، لأجل ذلك اتسعت دائرة المعارضة وأخذت وللمرة الأولى بعداً شعبياً، تبعه بالضرورة إلى انتقال المواجهة من السرية إلى العلنية بما فيها محاولات الاضطهاد، الأمر الذي شجع رئيس الكهنة على الذهاب بنفسه إلى أرخلاوس والوالي الروماني شارحاً لهما وقوف قطاع

كبير من الشعب معهم في صراعهم ضد عيسى ودعوته، وردد على مسامعهما التهمة المعروفة، وهي رغبة عيسى في جعل نفسه ملكاً على إسرائيل كلها.

ونتيجة لما استجد من صراع بين عيسى والسلطة الدينية عقد يوم الأربعاء - قبيل عيد الفصح - وعلى عجل اجتماع ضم سلطات المنطقة الثلاثة، الكهنوتية والسلطة المحلية والسلطة الرومانية للبت في الخطوات العملية على ضوء المستجدات الأخيرة، والتي أودت بحياة الكثيرين، وكان هاجس الجميع ينحصر في أن أي إجراء يتخذ لا بد من أن يراعي أمرين كلاهما من الأوامر الإمبراطورية:

أولهما: التهديد بعقوبة الموت لكل من يدعو عيسى الناصري نبي اليهود بإنه الله أو ابن الله.

ثانيهما: التهديد بعقوبة الموت لكل من يثير الشغب في شأن عيسى الناصري نبي اليهود.

ومراعاة لتلك الأوامر الإمبراطورية فقد اختلف المجتمعون حول الإجراء الواجب اتخاذه ضد عيسى سواء بالقبض عليه أو إيداعه السجن أو قتله غيلة بعد محاكمة صورية. ويمكن إجمال تلك الآراء في ثلاثة:

أولها: كتابة شكوى إلى مجلس الشيوخ الروماني بشأن عيسى وما يفعله في المنطقة.

ثانيهما: ترك عيسى وشأنه غاضين النظر عن أقواله وأفعاله كأنه معتوه لا يؤبه له.

أما الرأي الثالث فقد تمحور حول إيراد الآيات التي فعلها في إشارة إلى صدق دعوته ورسالته. وهو الذي تضمن دفاعاً عن عيسى، مما أثار غضب رئيس الكهنة وسخطه، فأمر مستخدماً سلطته الدينية بألا يتفوه أحد بكلمة دفاع عنه، وإلا كان مصيره الطرد والحرمان، ثم وجه كلامه إلى كل

من أرخلاوس والوالي الروماني بنفس الحدة والغضب التي خاطب بها أصحاب الرأي الثالث قائلاً:

- كيفما كانت الحال فإن بين أيدينا معضلة، لأننا إذا قتلنا هذا الخاطىء خالفنا أمر القيصر، وإن تركناه حياً وجعل نفسه ملكاً فكيف يكون الحال.

على أثره وقف أرخلاوس وقال للوالي الروماني بلهجة تهديد ووعيد واتهام صريح حسماً لكل مناقشة عقيمة حول عيسى:

- احذر من أن يكون عطفك على ذلك الرجل باعثاً على ثورة هذه البلاد، لأني أتهمك بالعصيان أمام القيصر.

فخاف الوالي الروماني هذه المرة من مغبة مخالفة قرارات مجلس الشيوخ الروماني، ومن اتهام المجلس له، بالتفريط في ممتلكات الإمبراطورية وعدم المحافظة عليها وهي على رأس واجباته. فصالح أرخلاوس واتحدا معاً على إصدار قرار يقضي بالقبض على عيسى وقتله في الحال، وألقيا ما اتفقا عليه على مسامع رئيس الكهنة في صيغة أمر النحو التالي.

- متى علمت أين الأثيم فأرسل إلينا نعطك جنوداً.

إن إلقاء مسؤولية البحث عن عيسى لرئيس الكهنة يعني أن القضية أصلاً من اختصاص السلطة الدينية، أما القبض عليه فهو من اختصاص السلطة المدنية، ولعل هذا يفسر لنا السرعة التي نفذ بها رئيس الكهنة الأمر، فما أن انفض ذلك الاجتماع حتى بدأت عمليات تفتيش واسعة النطاق بحثاً عن عيسى شملت معظم أحياء المدينة دون أن يظفروا بمرادهم.

وفي الوقت الذي كانت عمليات التفتيش تسير على قدم وساق كان عيسى جالساً في بيت نيقوديموس وراء جدول قدرون على سفح جبل الزيتون. والذي يعتبر خارج نطاق عمليات البحث لوقوعه على أطراف المدينة، وكان يحدثهم وقتئذ آخر أحاديثه الطلية، فقال:

ـ لقد دنت الساعة التي أنطلق فيها من هذا العالم، تعزوا ولا تحزنوا، لأني حيث أمضي لا أشعر بمحنة، أتكونون أخلائي لو حزنتم لحسن حالي، لا ألبتة، بل بالحري أعداء، إذا سر العالم فاحزنوا، لأن مسرة العالم تنقلب بكاء، أما حزنكم فسيتحول فرحاً، ولن ينزع فرحكم منكم أحد، لأن العالم بأسره لا يقدر أن ينزع الفرح الذي يشعر به القلب بالله خالقه، وانظروا ألا تنسوا الكلام الذي كلمكم الله به على لساني. كونوا شهودي على كل ما يفسد الشهادة التي قد شهدتها بإنجيلي على العالم وعلى عشاق الدنيا.

ثم رفع يديه إلى الله وصلى لأجلهم قائلاً:

ـ أيها الرب إلٰهنا إله إبراهيم وإله إسماعيل وإسحاق إله آبائنا. ارحم من أعطيتني وخلصهم من العالم، لا أقول خذهم من العالم، لأنه من الضروري أن يشهدوا على الذين يفسدون إنجيلي. ولكن أضرع إليك أن تحفظهم من الشرير حتى يحضروا معي يوم الدين يشهدوا على العالم وعلى بيت إسرائيل الذي أفسد عهدك.

أيها الرب القدير الغيور الذي ينتقم من عبادة الأصنام من أبناء الآباء عبدة الأصنام حتى الجيل الرابع، العن إلى الأبد كل من يفسد إنجيلي الذي أعطيتني عندما يكتبون أني ابنك، لأني أنا الطين والتراب عبد عبادك، ولم أحسب نفسي قط عبداً صالحاً لك. لأني لا أقدر أن أكافئك على ما أعطيتني، لأن كل الأشياء لك.

أيها الرب الإله الرحيم الذي تظهر رحمته إلى ألف جيل للذين يخافونك ارحم الذين يؤمنون بالكلام الذي أعطيتني إياه، لأن كلمتك التي تكلمتها هي حقيقة كما أنت الإله الحقيقي لأنها كلمتك أنت، فإني كنت أتكلم دائماً كمن يقرأ ولا يقدر أن يقرأ إلا ما هو مكتوب في الكتاب الذي يقرأه، هكذا قلت ما قد أعطيتني إياه.

أيها الرب الإله المخلص خلص من قد أعطيتني لكيلا يقدر الشيطان أن يفعل شيئاً ضدهم، ولا تخلصهم هم فقط بل كل من يؤمن لهم.

أيها الرب الجواد والغني في الرحمة امنح عبدك أن يكون بين أمة رسولك يوم الدين. وليس أنا فقط، بل كل من قد أعطيتني مع سائر الذين سيؤمنون بي بواسطة بشيرهم، وافعل هذا يا رب لأجل ذاتك حتى لا يفاخرك الشيطان يا رب.

أيها الرب الإله الذي بعنايتك تقدم كل الضروريات لشعبك إسرائيل اذكر قبائل الأرض كلها التي قد وعدت أن تباركها برسولك الذي لأجله خلقت العالم، ارحم العالم وعجل بإرسال رسولك لكي يسلب الشيطان عدوك مملكته.

ليكن هكذا أيها الرب العظيم الرحيم(١).

كرر عيسى الجملة الأخيرة ثلاث مرات والحواريون يرددون معه: ليكن هكذا، ليكن هكذا، خلا يهوذا الذي بقى صامتاً يتابع بعينيه حزن الحواريين وبكاءهم على فراق معلمهم. وكأن الأمر لا يعنيه في شيء.

ولما جاء يوم أكل الحمل أرسل نيقوديموس سراً حملاً إلى البستان الذي أقيم في وسطه البيت لعيسى وحوارييه، وأخبرهم بنص ما تم الاتفاق عليه بين الوالي وأرخلاوس ورئيس الكهنة، كما أطلعهم على عمليات التمشيط التي جرت في القدس بحثاً عنه، عندها أشرق وجه عيسى بالبشر والفرح قائلاً:

- تبارك اسمك القدوس يا رب لأنك لم تفرزني من عدد عبادك الذين اضطهدهم وقتلهم العالم. أشكرك يا إلهي لأنك قد أتممت عملك.

ثم التفت إلى يهوذا وقال له:

- يا صديق لماذا تتأخر، إن وقتي قد دنا فاذهب وافعل ما يجب أن تفعله.

---

(١) إنجيل برنابا ص٣٠٤ ـ ٣٠٦.

غلب على ظن الحواريين أن عيسى قصد إلى إرسال يهوذا لشراء بعض احتياجات عيد الفصح، أو أمر اتفقا عليه معاً، ولكن لم يخطر على بالهم أن يهوذا على وشك تسليم معلمهم. أما يهوذا فقد رد عليه كما لو كان عارفاً بنواياه:

ـ تمهل عليّ يا سيد حتى آكل ثم أذهب.

خاطب بعد ذلك عيسى حوارييه قائلاً:

ـ لتأكل لأني اشتهيت جداً أن آكل هذا الحمل قبل أن أنصرف عنكم.

ثم قام وأخذ منشفة وقطعة من القماش مما يشد بها الخصر، ووضع ماء في طست، وراح يغسل أرجل حوارييه، بدءاً بيهوذا انتهاء ببطرس الذي قال له:

ـ يا سيد أتغسل رجليّ.

فأجابه:

ـ إن ما أفعله لا تفهمه الآن ولكن ستعلمه فيما بعد.

فقال له بطرس:

ـ لن تغسل رجلي أبداً.

عندئذ نهض عيسى واقفاً وقال لبطرس:

ـ وأنت لا تأتي بصحبتي يوم القيامة.

غير أن بطرس قال له مبتسماً:

ـ لا تغسل رجليّ فقط بل يدي ورأسي.

جلس الجميع بعد ذلك على المائدة ليأكلوا في صمت وخوف وحزن، حتى قطع عليهم الصمت قائلاً:

ـ لقد غسلتكم، ولكن مع ذلك لستم كلكم طاهرين، لأن ماء البحر لا يطهر من لا يصدقني.

فزادت هذه الكلمات من حزن الحواريين، ولكنهم لم ينطقوا بشيء فأكمل عيسى حديثه قائلاً:

- الحق أقول لكم إن واحداً منكم سيسلمني فأباع كخروف، ولكن ويل له، لأنه سيتم كل ما قال داود أبونا عنه إنه: سيسقط في الهوة التي أعدها للآخرين.

نظر الحواريون بعضهم إلى بعض في حيرة وقلق، وسألوه قائلين:

- من سيكون الخائن.

أما يهوذا فسأل بكل برود:

- أأنا هو يا معلم؟

فأجابه إجابة شاء الله ألا يسمعها أحد من الحواريين غيره:

- لقد قلت لي من هو الذي سيسلمني.

فلما أكل من الحمل خرج يهوذا من البيت وحده وعيسى يقول له:

- أسرع بفعل ما أنت فاعل.

ثم خرج عيسى من البيت إلى البستان حيث جثا على ركبتيه ليصلي ويركع ويسجد مئة مرة معفراً وجهه بالأرض، في هذا الوقت كان يهوذا يقف أمام رئيس الكهنة ويقول له:

- إذا أعطيتني ما وعدت به أسلم هذه الليلة ليدك عيسى الذي تطلبونه. لأنه منفرد مع أحد عشر من حوارييه.

فقال رئيس الكهنة:

- كم تطلب.

قال يهوذا:

- ثلاثين قطعة من الذهب.

وفي التو واللحظة عد رئيس الكهنة ثلاثين قطعة من الذهب وسلمها

له، ثم أرسل فريسياً إلى الوالي الروماني وأرخلاوس ملك اليهودية ليخبرهم بالعثور على عيسى مختبئاً خارج المدينة، ويطالبهما بتنفيذ الاتفاق المبرم بينهم. وعلى الفور وضعت كتيبة كاملة من الجند تحت تصرفه تحوطاً من حدوث أي شغب من قبل مناصري عيسى، وهؤلاء يتقدمهم يهوذا خرجوا من القدس والمشاعل في أيديهم على العصى في طريقهم إلى وادي قدرون.

ولما دنوا من البيت وأوشكوا على الدخول في البستان، سمع عيسى أصواتهم، فانسحب إلى داخل البيت خائفاً يترقب، فوجد الأحد عشر يغطون في نوم عميق، في هذه اللحظة الحرجة والخطر يحدق به من كل جانب أرسل الله تعالى جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل ليأخذوه من العالم الدنيوي. فجاء الملائكة الأطهار وحملوا عيسى على أيديهم عبر النافذة المشرفة على جهة الجنوب من بيت نيقوديموس، وصعدوا به من هذا العالم إلى عالم السموات، حيث وضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح لله تعالى بلا انقطاع، تشريفاً له وقربى وزلفى.

ودخل يهوذا الغرفة التي رفع منها عيسى إلى السماء وحيث كان جميع الحواريون نياماً، فأتى الله تعالى بالأمر العجيب. فقد تغيرت هيئة يهوذا وتبدل شكله وملامح وجهه، وتحول صوته وطريقة نطقه في الكلام حتى صار شبيهاً بعيسى ومشابهاً ومماثلاً له في الشكل والوجه والنطق، إلى حد أن الحواريين الذين أيقظهم يهوذا في محاولته الاهتداء إلى معلمهم، وسؤاله عنه بينهم تعجبوا وأجابوه مستغربين:

- أنت يا سيد هو معلمنا، أنسيتنا الآن.

أما يهوذا فقد رد عليهم مبتسماً:

- هل أنتم أغبياء حتى تعرفون يهوذا الإسخريوطي.

وبينما يهوذا يردد على مسامعهم تلك الكلمات الغريبة دخل الغرفة أفراد قلائل من الجند وألقوا عليه القبض، وذلك لشدة شبهه بعيسى شبهاً لا يتطرق إليه شك ولا ارتياب، أما الحواريون الذين استيقظوا وتلاحقت عليهم الأحداث بسرعة عاجزين عن التعامل معها، وأفقدهم كلام يهوذا القدرة على

التحكم في ردود فعلهم، ورؤيتهم للجنود داخل الغرفة وحول البيت. فقد هربوا كالمجانين من الغرفة والبستان، إلى درجة أن يوحنا الذي كان ملتفاً بملحفة من الكتان وقتها، وعندما أراد الجند الإمساك به ترك الملفحة بأيديهم وهرب عرياناً.

جر الجند يهوذا خارج الغرفة، وأوثقوا يديه جيداً، وهو ينكر مرة بعد أخرى بلا توقف أنه ليس عيسى الناصري. فقالوا مستهزئين من إنكاره، وساخرين من نطقه الذي يطابق نطق عيسى:

- يا سيد لا تخف لأننا أتينا لنجعلك ملكاً على إسرائيل، وإنما أوثقناك لأننا نعلم أنك ترفض المملكة.

رد يهوذا على سخريتهم واستهزاءهم به قائلاً:

- لعلكم جننتم، إنكم أتيتم بسلاح ومصابيح لتأخذوا عيسى الناصري كأنه لص، أفتوثقوني أنا الذي أرشدتكم لتجعلوني ملكاً.

فامتعض الجند من ازدراء يهوذا بهم، وخانهم صبرهم على كذبه وافترائه وقلة حياءه. فأوسعوه ضرباً بالأيدي، وركلاً بالأرجل، وقادوه بغيظ إلى القدس. ومن بعيد تبعهم بطرس ويوحنا في ظلام الليل دون أن يسمحا لهم بملاحظتهما، ودخلا ضمن الداخلين إلى مقر رئيس الكهنة ومجلس الفريسيين، حيث استمعا إلى كل التحريات التي أجريت مع يهوذا، وسمعا بأذنيهما يهوذا وهو يتكلم بكلام هو الجنون بعينه. حتى أن واحد من الحاضرين قد أغرق في الضحك وهو على يقين بأن عيسى يتظاهر بالجنون هرباً من الموت المحقق.

وإمعاناً في امتهانه والسخرية منه والاستهزاء به وضع أحد الكتبة عصابة على عينيه، ثم تتابعوا عليه بالضرب واللطم والبصق على وجهه وهم يقولون:

- يا عيسى نبي الناصريين قل من ضربك.

وفي صباح اليوم التالي التأم المجلس الكبير الذي يضم عادة الكتبة والفريسيون والكهنة برئاسة رئيس الكهنة، والذي رغب في العثور على شهود

زور يشهدون ضد عيسى ودعوته ومن آمن به، فلم يظفر عليهم. ولا تحققت رغبته. عندها أمر بإحضار يهوذا موثقاً للمثول بين يديه، ولما جاء ووقف أمامه كان في حالة يرثى لها، وعلى هيئة تشبه هيئة المجنون، فسأله عن حوارييه ودعوته، فلم يجبه يهوذا بشيء، فاستحلفه بإله إسرائيل أن يقول الحق، فقال له عندئذ:

- لقد قلت لكم أني يهوذا الإسخريوطي الذي وعد أن يسلم إلى أيديكم عيسى الناصري. أما أنتم فلا أدري بأي حيلة قد جننتم لأنكم تريدون بكل وسيلة، أن أكون عيسى.

فرد عليه رئيس الكهنة غاضباً:

- أيها الضال المضل لقد ضللت كل إسرائيل بتعليمك وآياتك الكاذبة مبتدئاً من الجليل حتى بيت المقدس هنا، أفيخيل لك الآن أن تنجو من العقاب الذي تستحقه والذي أنت أهل له بالتظاهر بالجنون. لعمر الله إنك لا تنجو منه.

ثم أمر خدمه بأن يوسعوه لطماً ورفساً كي يعود إلى رشده ويكف عن هذيانه ويعود إلى عقله ورشده، فتتداعى عليه الخدم بالضرب واللطم والركل. حيث لقي على أيديهم من العذاب والاستهزاء والسخرية ما يفوق الوصف والتصديق. واخترعوا في تلك اللحظة أساليب وطرق جديدة لتعذيبه منها إلباسه لباس مشعوذ، لإثارة ضحك الحاضرين. وعلى نحو يثير الرحمة والشفقة في القلوب، ولكن قست القلوب حتى أصبحت كالحجارة أو أشد، بل رأوا في منظر من ظنوه عيسى مهاناً ممتهناً. وهو يهذي مدعياً الجنون فراراً من المصير المحتوم، مدعاة للفرح والانبساط.

وفي صباح يوم الجمعة اقتيد يهوذا موثقاً إلى الوالي الروماني، فأدخله إلى غرفة مكتبه وسأله لأي سبب سلمه الكهنة إلى أيدي السلطات الرومانية، وما الجريمة التي قبض عليه بموجبها مكبلاً بالقيود كالقتلة، فأجابه إجابة لا تشابه إجابته لأبناء ملته حيث قال:

- لو قلت لك الحق لما صدقتني، لأنك قد تكون مخدوعاً كما خدع الكهنة والفريسيون.

ظن الوالي ومن الوهلة الأولى أن يهوذا يريد أن يتكلم في الشريعة الموسوية ليدخله في قضايا لاهوتية لا تهمه ولا تعنيه فقال له:

- ألا تعلم أني لست يهودياً، ولكن الكهنة وشيوخ الشعب قد سلموك ليدي. فقل لنا الحق لكي أفعل ما هو عدل، لأن لي سلطاناً أن أطلقك وأن آمر بقتلك.

فقال له يهوذا:

- صدقني يا سيد إنك إن أمرت بقتلي ترتكب ظلماً كبيراً، لأنك تقتل بريئاً، لأني أنا يهوذا الإسخريوطي، لا عيسى الذي هو ساحر فحولني هكذا بسحره.

تعجب الوالي بيلاطس عند سماعه تلك الكلمات الموزونة والدالة على تعقل صاحبها ووعيه الكامل، حتى أنه فكر في إطلاق سراحه، فخرج من مكتبه بصحبة يهوذا موثقاً على الجمهور المنتظر للكلمة النهائية فقال لهم مبتسماً:

- من جهة واحدة على الأقل لا يستحق هذا الموت بل الشفقة. إن هذا الإنسان يقول إنه ليس عيسى بل يهوذا الذي قاد الجنود ليأخذوا عيسى، ويقول إن عيسى الجليلي قد حوله هكذا بسحره، فإذا كان هذا صدقاً يكون قتله ظلماً كبيراً، لأنه يكون بريئاً، ولكن إذا كان هو عيسى وينكر أنه هو فمن المؤكد أنه قد فقد عقله من الظلم قتل مجنون.

فاحتج رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب مع الكتبة والفريسيين وتعالت أصواتهم بالاعتراض والشجب قائلين:

- إنه عيسى الناصري فإننا نعرفه، لأنه لو لم يكن هو المجرم لما سلمناه ليديك، وليس هو بمجنون بل بالحري خبيث لأنه بحيلته

هذه يطلب أن ينجو من أيدينا، وإذا نجا تكون الفتنة التي يثيرها شراً من الأولى.

ولما رأى الوالي الروماني شدة تمسك الجموع برأيهم، وإصرارهم على موقفهم على محاكمة من ظنوه عيسى، وعدم اقتناعهم بكلامه، سعى للخلاص من الدعوى والمشكلة برمتها فقال رداً على معارضتهم له:

- إنه جليلي وانتيباس هو ملك الجليل، فليس من حقي الحكم في هذه الدعوى، فخذوه إلى انتيباس.

غير أن الجموع اقتادت يهوذا إلى بيت أرخلاوس الذي كان يتمنى لو زاره عيسى في داره، ولكنه كان يرفض دوماً تلبية دعواته لكفره وعبادته الآلهة الباطلة، ومعيشته وفقاً لعادات وتقاليد الأمم النجسة، وفي داخل بيته سأل يهوذا عن أشياء كثيرة ودقيقة، أعرض عن إجابة بعضها، ولم يحسن إجابة البعض الآخر. منكراً في هذه وتلك كونه عيسى الناصري، حينئذ سخر منه أرخلاوس ومن معه، وأمر بإلباسه ثوباً يرتديه الحمقى والمغفلين، ورده إلى بيلاطس برسالة فحواها:

- لا تقصر في إقامة العدل في بيت إسرائيل.

لم يكتب أرخلاوس تلك الرسالة إلا بعد أن دفع له رؤساء الكهنة والفريسيين والكتبة مبلغاً كبيراً من المال، أغرى الوالي الروماني نفسه على التظاهر بنيته في إطلاق سراح يهوذا طمعاً في نيل حظه من المال الذي دفع بسخاء لغريمه. مما أجبرهم على أن يدفعوا له هو الآخر مبلغاً من المال كي يتراجع عما تظاهر به. فكلّف مجموعة من الجند بجلده جلداً مبرحاً يفضي إلى الموت، وبالفعل جلد يهوذا بشدة وعنف وضراوة تفوق حد المعقول، حتى تدفق الدم من جسمه غزيراً، ولكن قدر الله تعالى ألا يسمح بموت يهوذا تحت وطأة آلام الجلد، بل أبقاه ليكابد مرارة الموت الهائل على الصليب، فألبسه الجنود ثوباً قديماً من الأرجوان وهم يقولون له متهكمين:

- يليق بملكنا الجديد أن يلبس حلة ويتوج.

ثم جمعوا شوكاً وصنعوا منه إكليلاً شبيهاً بأكاليل الذهب والحجارة الكريمة التي يضعها الملوك على رؤوسهم، ووضعوا أكليل الشوك على رأس يهوذا، ووضعوا في يده قصبة كصولجان، وأجلسوه في مكان عال. ومر عدداً من الجند من أمامه حانين رؤوسهم استهزاء وهم يؤدون إليه السلام كأنه ملك اليهود. وبسط بعض منه أيديهم إليه متوسلين أن ينالوا بعض الهبات التي اعتاد الملوك إغداقها عند التتويج، ولما لم ينالوا بغيتهم انهالوا عليه بالضرب والركل قائلين:

ـ كيف تكون إذاً متوجاً أيها الملك إذا كنت لا تهب الجنود والخدم.

ولما رأى رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيون أن يهوذا لم يمت من الجلد، خافوا أن يطلق الوالي صراحه معتذراً بأي حجة وسبب. ولذلك منحوه هبة أخرى من المال، فتناولها وأسلم إليهم يهوذا ليفعلوا به ما يشاءون. فقادوه في موكب كبير إلى جبل الجمجمة، حيث اعتادوا شنق اللصوص أو صلبهم، ومعه لصان من المحكوم عليهم بالقتل، وهناك عومل يهوذا معاملة من يستحق الصلب، ولأجل هذا أوثقوا يديه ورجليه على صليب خشبي بإحكام فلا يستطيع حراكاً. ثم رفعوا الصليب أو أقاموه بعد أن نزعوا منه الملابس التي كان يرتديها مبالغة في تحقيره وإمعاناً في إهانته وامتهانه، وهو يصرخ عارياً على الصليب ويقول مرة بعد الأخرى:

ـ يا الله لماذا تركتني فإن المجرم قد نجا أما أنا فأموت ظلماً.

وعلى أي حال فقد بلغ شبه يهوذا بعيسى حداً أيقن حواريوه والمؤمنون به كافة، وبعدما رأوا وسمعوا منه ما يناقض تماماً ما سمعوه منه هو مباشرة، أن عيسى كان نبياً كاذباً ومدعياً، وفعل ما فعل من الآيات نتيجة لإتقانه صناعة السحر، ولأنه قد قال لهم أنه سيؤخذ من العالم، ولا يموت إلا والدنيا على وشك النهاية، أما الذين ثبتوا راسخين في إيمانهم وبدعوته فقد حاق بهم الحزن والأسى لرؤيتهم له وهو يموت هذه الميتة الشنيعة كأي مجرم عادي. وفي غمرة الحزن والأسى نسوا ما قاله لهم من

أنه سيرفع من العالم، وأن شخصاً آخر سيعذب باسمه، ولا يموت إلا على وشك انقضاء عمر الدنيا.

وعلى الرغم من كل هذا فقد ذهب الحواريون الأحد عشر في صحبة مريم عليها السلام إلى جبل الجمجمة لمشاهدة يهوذا على الصليب وهو يكابد من الآلام الصداع الحاد ما لا يطاق، ومن عذاب الموت ما لا قبل لأحد به، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة على مرأى ومسمع منهم، واعترافاً منهم بالجميل، طلبوا بواسطة نيقوديموس من الوالي الحصول على الجثمان. وعند وصول الإذن أنزلوا الجثة من الصلبب وهم يبكون بحرقة، ثم كفنوه وعطروا جسده بالطيوب، ودفنوه، ورجع كل منهم إلى داره، ومضى برنابا ويوحنا ويعقوب وأخوه بصحبة مريم عليها السلام إلى الناصرة.

أما الحواريون الذين لا يخافون الله فتسللوا ليلاً إلى المقبرة ونبشوا قبر يهوذا وأخرجوا جثته ثم خبأوها في مكان ما مشيعين بين الناس أن عيسى قد قام من قبره. فحدثت بسبب تلك الإشاعة فتنة واضطراب كبير، اضطر معه رئيس الكهنة إلى إصدار قرار حاسم بألا يتكلم أحد عن عيسى الناصري. وكل من يتكلم عنه يعرض نفسه للوقوع تحت عقوبة الحرمان. واستخدم رئيس الكهنة كل ما لديه من سلطات لوضع الأمر موضع التنفيذ، فحصل بسبب ذلك اضطهاد هائل فرجم وضرب ونفي الكثير ممن امتنعوا عن الالتزام بالصمت.

وبلغ الخبر الناصرة. وشاعت قصة قيام ابن الناصرة من الأموات بين الأهالي. وسمعت بها مريم والحواريون الملازمون لها، فبكت مريم وأسرفت في البكاء، حتى توسل إليها برنابا أن ترضى بحكم الله وتكف عن البكاء مراعاة لصحتها، ولكنها لم تكف عن البكاء بل قالت له ولهم:

ـ لنذهب إلى القدس لننشد ابني، فإني إذا رأيته مت قريرة العين.

فدخلت مريم القدس مع برنابا ويعقوب ويوحنا في اليوم الذي أصدر فيه رئيس الكهنة أمره للناس بعدم الخوض في قصة عيسى. ولذلك أوصت

مريم أختها سالومة ومن معها أن ينسوا حكاية ابنها ولا يذكرونها. وبقيت هي صامتة ومقيمة في البيت إقامة دائمة. وقد جاء لمواساتها مرثا وأختها مريم المجدلية وشقيقهما لعازر وبطرس. بل فضل هؤلاء الإقامة معها تخفيفاً عليها من الوحدة، وكلهم شوق لرؤية عيسى بينهم.

في هذا الوقت صعد الملائكة المكلفون بحراسة مريم إلى السماء الثالثة حيث كان ابنها مقيماً، وقصوا عليه كل شيء، ولذلك تضرع إلى ربه كي يأذن له برؤية أمه وحوارييه. فأذن الله له وأمر ملائكته الأربعة المقربين جبريل وميخائيل ورافائيل وأوريل أن يحملوه إلى حيث تقيم أمه، وأن يتولوا حراسته وحفظه هناك ثلاث أيام متوالية، وألا يسمحوا لأحد ما برؤيته خلا أمه وأولئك الذين آمنوا به.

فجاء عيسى محمولاً بأيدي الملائكة الأطهار بعد سبعة أيام من رفعه محفوفاً بالسناء ووضعوه في الغرفة التي كانت تقيم فيها مريم مع أختها ومرثا ومريم المجدلية ولعازر وبرنابا ويعقوب وبطرس، فخروا جميعاً على الأرض من الهلع والفزع. فتقدم عيسى وأنهضهم من الأرض وهو يقول لهم:

- لا تخافوا لأني أنا عيسى، ولا تبكوا فإني حيّ لا ميت.

لبث كل واحد من الحاضرين في الغرفة كالمخبول الذي لا يعي ما يدور حوله لحضور عيسى المفاجىء من جهة. وليقينهم التام بموته من جهة أخرى. وبعد أن استعاد كل منهم وعيه، قالت مريم لابنها:

- قل لي يا بني لماذا سمح الله بموتك ملحقاً العار بأقربائك وأخلائك، وملحقاً العار بتعليمك. وقد أعطاك الله قوة على إحياء الموتى، فإن كل من يحبك كان كميت.

أجاب عيسى وهو يعانق أمه:

- صدقيني يا أماه لأني أقول لك الحق، أني لم أمت قط، لأن الله قد حفظني إلى قرب انقضاء العالم.

قال هذا ورغب إلى الملائكة أن يظهروا لأمه وحوارييه على حقيقتهم

ليشهدوا كيف أن الأمر كما قال لهم. فظهر الملائكة كأربع شموس متألقة. فخر كل من رآءهم كأنهم صرعى لا حراك لهم من الهلع والخوف، عندئذ أعطى عيسى الملائكة أربع ملاءات من كتان ليستروا بها أنفسهم لتتمكن أمه وصحبها من رؤيتهم وسماعهم يتكلمون، وبعد أن ساعد كل منهم على النهوض من الأرض عرّفهم بالملائكة قائلاً:

- إن هؤلاء هم سفراء الله، جبريل الذي يعلن أسرار الله، وميخائيل الذي يحارب أعداء الله، ورافائيل الذي يقبض الأرواح، وأوريل الذي ينادي إلى قيامة الله في اليوم الآخر.

ولم يفقد برنابا طريقته المؤدبة والمهذبة في التعلم من عيسى حتى في هذه اللحظات الحرجة، فسأله:

- يا معلم أيجوز لي أن أسألك الآن كما كان يجوز عندما كنت مقيماً هنا.

أجابه عيسى:

- سل ما شئت يا برنابا أجبك.

عندها سأل برنابا قائلاً:

- يا معلم إذا كان الله رحيماً فلماذا عذبنا بهذا المقدار بما جعلنا نعتقد إنك كنت ميتاً. ولقد بكتك أمك حتى أشرفت على الموت، وسمح الله أن يقع عليك عار القتل بين اللصوص على جبل الجمجمة وأنت ولي الله.

أجابه عيسى بقوله:

- صدقني يا برنابا إن الله يعاقب على كل خطيئة مهما كانت طفيفة عقاباً عظيماً، لأن الله يغضب من الخطيئة، فلذلك لما كانت أمي وحواريي الأمناء الذين كانوا معي أحبوني قليلاً حباً عالمياً أراد الله البرَّ أن يعاقب على هذا الحب بالحزن الحاضر حتى لا يعاقب عليه بلهب الجحيم. فلما كان الناس قد دعوني الله وابن الله على أني

كنت بريئاً، أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب لكيلا تهزأ الشياطين بي في يوم القيامة، وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله، الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله.

ثم توقف عليه السلام وقال داعياً ربه:

- إنك لعادل أيها الرب إلهنا، لأن لك وحدك الإكرام والمجد بلا نهاية.

بعد ذلك التفت إلى برنابا قائلاً:

- يا برنابا عليك أن تكتب إنجيلي وما حدث في شأني مدة وجودي في العالم، واكتب أيضاً ما حل بيهوذا ليزول كل انخداع المؤمنين ويصدق كل أحد الحق.

رد عليه برنابا ملبياً طلبه ورجاءه:

- إني لفاعل ذلك إن شاء الله يا معلم، ولكن لا أعلم ما حدث ليهوذا لأنني لم أر كل شيء.

أجابه:

- ههنا يوحنا وبطرس اللذان عاينا كل شيء يخبرانك بكل ما حدث.

وأخيراً أوصاهم بدعوة حوارييه المخلصين ليروه قبل رفعه إلى السماء، فتطوع يعقوب ويوحنا وجمعوا الحواريين السبعة الباقين مع نيقوديموس وكثيرين آخرين مع الاثنين والسبعين، حيث سعد الجميع بلقاء معلمهم والاجتماع به بعد تلك الأحداث التي أوشكت أن تعصف بهم جميعاً. وشاركوه كما كان يحدث في الأيام الماضية الأكل على مائدة واحدة ومكثوا معه مدة يومين، وفي اليوم الثالث قال لهم:

- اذهبوا مع أمي إلى جبل الزيتون لأنني أصعد من هناك أيضاً إلى السماء، وسوف ترون من يحملني.

فذهب الجميع إلى جبل الزيتون خلا خمسة وعشرين من الحواريين الاثنين وسبعين الذين فروا عقب القبض على يهوذا خوفاً وفزعاً إلى دمشق. وبينما كانوا وقوفاً يؤدون صلاة الظهر جاء عيسى مع عدد كبير من الملائكة الذين كانوا يسبحون الله، فخروا على وجوههم خوفاً وفزعاً. ولكنه ساعدهم في النهوض وهو يقول معزياً ومواسياً:

- لا تخافوا أنا معلمكم.

ثم أنب الكثير من الذين اعتقدوا موته، ولما اعتدل واقفاً قال لهم:

- أتحسبونني أنا والله كاذبين؟ لأن الله وهبني أن أعيش حتى قبيل انقضاء الدنيا، كما قلت لكم، الحق أقول لكم إني لم أمت بل يهوذا الخائن، احذروا لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم، ولكن كونوا شهودي في كل إسرائيل وفي العالم كله لكل الأشياء التي رأيتموها وسمعتموها.

بعد ذلك صلى ودعا ربه لأجل خلاص المؤمنين وتوبة الخطأة، ولما انتهت الصلاة والدعاء عانق أمه قائلاً:

- سلام لك يا أمي، توكلي على الله الذي خلقك وخلقني.

والتفت إلى حوارييه قائلاً:

- لتكن نعمة الله ورحمته معكم.

ثم حملته الملائكة الأربعة أمام أعينهم إلى السماء، وكانت أمه تودعه بإصبعها تشير به نحوه حتى غاب عنها تماماً في أعماق الفضاء الفسيح.





الفصل السادس
الوفاة

شهدت الفترة القصيرة التي أعقبت رفع عيسى عليه السلام حياً إلى السماء بروز أفكار غريبة وشاذة ومناقضة للرسالة ومعارضة لها على طول الخط، تدور جميعها حول شخصه، حتى أوشكت في النهاية أن تعصف بهدف البعثة وغايتها وتذهب بها أدراج الرياح، روج لها وبشر بها بعض المدعين أنهم من حوارييه عليه السلام، وخلفاؤه من بعده في الدعوة والرسالة:

- فمنهم من ادعى صراحة أن معلمهم مات ودفن ولم يقم كما يروج له البعض.
- ومنهم من زعم أن معلمهم مات حقيقة كما يموت سائر الناس ثم قام من بين الأموات.
- ومنهم من بشر بما كان شائعاً في حياة عيسى نفسه ككونه الله أو ابن الله.

إن تلك الأفكار وحدها هي التي دفعت بالبعض ممن يخافون الله من حوارييه. ويدركون جيداً ومن خلال معايشتهم الطويلة لمعلمهم، ومصاحبتهم له في حله وترحاله وعلى مدى أعوام البعثة الثلاثة طبيعة البعثة العيسوية وهدفها وغايتها إلى تدوين وتوثيق الإنجيل كتابة كما تلقوه من فم

معلمهم خوفاً من ضياع تعاليمه ومواعظه. وتبياناً للحقيقة ودحضاً وتفنيداً لتلك الدعاوي الزائفة والافتراءات الباطلة شديدة الكفر، ومن هؤلاء برنابا أقرب الحواريين إلى عيسى، وأحبهم إلى قلبه، وأكثرهم ملازمة له في فترة نبوته.

أبان برنابا وفي مقدمة كلامه المسوغات التي اضطرته اضطراراً إلى الإقدام على عمل كهذا يعلم قبل غيره خروجه كلياً عن هدف البعثة وغايتها، فقال مخاطباً المؤمنين بعيسى وزملائه والناس أجمعين:

«أيها الأعزاء إن الله العظيم قد افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيه عيسى المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين المسيح ابن الله، ورافضين الختان الذي أمر به الله دائماً، مجوزين كل لحم نجس، الذي ضل في عدادهم أيضاً بولس الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي لعيسى لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله، وعليه فاحذروا كل من يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصاً أبدياً»[١].

أما لوقا وهو ربما كان من الرسل الاثنين والسبعين، فقد كان محركه للكتابة هو مسايرته لكثير من رفقائه الذين عكفوا في ظل تلك الظروف القاسية على تدوين إنجيل عيسى، فقال في مفتتح كتابه وكالمعتذر على ما أقدم عليه:

«إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البداية معاينين وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس، لتعرف صحة الكلام الذي عُلمت به»[٢].

---

(١) إنجيل برنابا ص٣.

(٢) إنجيل لوقا: ١: ١ ـ ٤.

وقدر الله تعالى لأمه مريم عليها السلام أن تعيش داخل مسقط رأسها في الناصرة، وفي تلك الأجواء المعبقة بروائح الكفر والجحود، وأن تشهد بنفسها كيف مسخت معالم دين ابنها. وكيف شوهت تعاليمه، ولفترة من الزمان قدرت في المصادر الإسلامية بست سنوات، أسلمت في نهايتها الروح إلى بارئها راضية مرضية عنها، عن أربع وخمسين عاماً من العمر، أما الروايات المسيحية فتزيد عن تلك الفترة بخمس سنوات إذ يقدر علماء اللاهوت أن مريم عاشت حوالي تسع وخمسين عاماً مفصلة على النحو التالي:

- دخلت الهيكل وعمرها ثلاث سنوات، ولبثت ماكثة فيه حوالي اثنى عشر عاماً.

- عاشت مع ابنها عمره كله والبالغ ثلاث وثلاثون عاماً.

- قضت بعد رفع ابنها إلى السماء حوالي أحد عشر عاماً.

ومنذ اللحظة التي ودع فيها عيسى عليه السلام أمه وحوارييه ورفع أمامهم إلى السماء، انقطعت صلته وعلاقته بالعالم الدنيوي ولفترة امتدت إلى ستة قرون من الزمان، لم تقع خلالها عيناه على أحد من البشر ممن ينتمون جسداً وروحاً إلى العالم الأرضي، اللهم إلا حين أسرى الله تعالى بعبده محمد ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن المسجد الأقصى عرج به ملاك الله جبريل عليه السلام إلى السماء الأولى والثانية، وفي كل مرة يطلب جبريل من الحافظين عليها من الملائكة السماح له بالدخول ليقابل من جعلها الله تعالى له سكناً ومقاماً من أنبيائه ورسله، وفي السماء الثالثة استفتح جبريل كالعادة وكما فعل في المرتين السابقتين فقالت له الملائكة القيمة عليها:

- من أنت؟

فقال:

- جبريل.

فقالوا:

- ومن معك.

قال:

- محمد.

قالوا:

- أوقد أرسل إليه؟

قال جبريل:

- نعم.

ففتحوا له أبواب السماء الثالثة قائلين:

- مرحباً بك وبمن معك.

فدخلا، وإذا عينا محمد ﷺ تقع على عيسى ابن مريم وابن خالته يحيى بن زكريا، ولأول مرة تقع عينا عيسى على محمد رسول الله الذي أمر بالتبشير بمقدمه الميمون. بل إن البشارة به وبدعوته جزء لا يتجزأ من بعثته، فسلم عليه ورحب به ودعا له بالخير.

وعندما قص ﷺ على أصحابه والناس أجمعين خبر إسرائه ومعراجه، وما رآه فيهما، قال في وصفه ونعته لعيسى عليه السلام:

«ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس»[١].

وفي رواية أخرى:

«رأيت عيسى وموسى، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر»[٢].

ويمكث عيسى عليه السلام حياً في السماء الثالثة لا يغادرها إلا قبيل

---

(١)(٢) عمدة القاري ج(٦) ص٣.

انقضاء أجل الدنيا المحدد لها، أو على حد تعبيره هو، قبيل زوال الدنيا، عندها يأذن الله تعالى له بالنزول مرة أخرى.

وقد وقت الله نزوله عليه السلام بخروج الدجال الأعور مسيح الضلالة، وهو يومئذ في عنفوان شبابه، قصير القامة متناهي القصر، عظيم الجثة، متباعد ما بين الساقين، أسمر شديد السمرة شدة تقربه إلى السواد. كثيف شعر الرأس ومتفرق. عينه اليمنى عوراء جاحظة غليظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص ولا يبصر بها، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري من شدة اتقادها وتوهجها، عريض المنخرين، ومكتوب بين عينيه كافر يقرؤها كل مسلم كاتب وغير كاتب ولا يقرؤها الكافر.

والدجال لا يخرج إلا في زمن ضياع الدين وتهاون في أحكامه، فتشرب الخمور وتكثر المعازف، وتبطل الحدود ويتشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال، ويؤكل الربا، وتنتقض العهود والمواثيق. ويتفقه الناس لغير الدين، ويكثر العلماء الزائفون، ويقل العلماء العاملون، وتتأجج العداوات بين الأقارب والأباعد وتقطع الأرحام، ويلبس الناس الحرير، وغيرها من الثياب التي يرتديها الجبابرة الطغاة، ويتطاول الناس في البنيان، ويكثر تشييدها لسبب ولغير سبب.

أما البلاد التي يخرج منها الدجال الأعور فقد حصرتها المصادر الإسلامية في المنطقة الواقعة بين بلاد ما وراء النهر والعراق، أي المسماة بخراسان وبتحديد أدق من يهودية أصبهان[١]، وذلك بناء على الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ جاء فيه:

حدثنا رسول الله ﷺ قال: «الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة»[٢].

ويتنقل الدجال بين الناس على ظهر حمار يدعو في مفتتح دعوته إلى

---

(١) مجمع الزوائد ـ الهيتمي ج (٧) ص٣٣٨.

(٢) سنن الترمذي حديث رقم ٢٣٣٨.

الإيمان والصلاح، وأخيراً يدعي الألوهية لنفسه، وذلك على امتداد الجزء المعمور يومئذ بالمسلمين. ما بين مشرق العالم الإسلامي في أصبهان وخراسان مروراً بالعراق وحتى الشام غرباً، وبصحبته دوماً رجلان ينذران ويبشران بما يزعمه لنفسه. ويفتتن به الناس فتنة تزلزل كيانهم الروحي والنفسي وصفها الرسول ﷺ بقوله:

«لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وأنه لم يبعث نبياً إلا حذر أمته منه، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، وإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيج لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكل حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم»[1].

ومن فتنته أنه يدعو المسلمين إلى ألوهيته فمن استجاب له ولم يردها أمر السماء فتمطر حتى تجري الأنهار. ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت حتى تروح أنعامه وترجع بعد زوال الشمس أسمن مما كانت عليه وأملأ خواصر وأدره ضروعاً ومن رده ولم يقبل مزاعمه أنزل عليه الجدب وعمه الجوع وهلكت مواشيه.

ومن فتنته أن معه ملكان يشبهان نبيين من الأنبياء، واحد منهما عن يمينه والآخر عن شماله فيقول الدجال للمسلمين:

- ألست بربكم، ألست أحيي وأميت.

فيقول أحدهما:

- كذبت.

ما يسمعه إلا صاحبه.

فيقول له:

صدقت.

---

(١) سنن أبو داود جـ (٤) ص١١٧.

فيسمعه الناس فيظنون إنما يصدق الدجال.

ومن فتنته أنه يأتي على جماعة من المسلمين فيدعوهم إلى باطله فيردون عليه ولا يقبلونه، فينصرف عنهم، فيصحبون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، فيمر بالخربة من ديارهم فيقول لها:

- أخرجي كنوزك.

فتتبعه كنوزها كيعاسب النحل.

ومن فتنته أنه يطلب شاباً فيضربه بالسيف ويشقه إلى قطعتين ثم يقول:

- انظروا إلى عبدي فأنا أبعثه الآن ثم يزعم أن له رباً غيري.

فيدعو القتيل فيقبل ويقول له:

- من ربك.

فيقول الشاب:

- ربي الله وأنت عدو الله، أنت الدجال، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم.

ومن فتنته أنه يقول لأحد الأعراب:

- أرأيت أن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك.

فيقول:

- نعم.

فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان:

- يا بني اتبعه فإنه ربك.

وعلى الرغم من قسوة فتنة الدجال على المسلمين في دينهم ودنياهم، إلا أن من يتبعه منهم قليل، وأكثر من يتبعه اليهود، ولا تبقى رقعة من بلاد المسلمين إلا وقد وطأتها أقدامه ونشر فيها فساده، إلا مكة والمدينة وبيت المقدس، فقد حرمهما الله تعالى عليه. وقامت الملائكة في مداخلها تحميها

وتدافع عنها، فيرتد هو وأعوانه خائبين.

ويعتصم المسلمين يومئذ بجبال الشام، فيحاصرهم الدجال بمن معه من اليهود، ويشتد عليهم الحصار ويطول. ويبلغ بهم الجهد أشده والجوع غايته. حتى أن الواحد منهم يحرق وتر قوسه ويأكله. وأقواهم من جلس من الجوع والضعف، وفي أحد الليالي يقول رجل من المسلمين لإخوانه:

«يا معشر المسلمين حتى متى أنتم هكذا وعدوكم نازل بأصل جبلكم هذا ما تنظرون أن تلحقوا بإخوانكم في مرضاة ربكم، هل أنتم إلا بين أحد الحسنيين، بين أن يستشهدكم الله أو يظهركم عليه، صلوا حينما ينفجر الفجر وعجلوا بالصلاة ثم أقبلوا على عدوكم»(١).

ويتبايع الجميع على القتال بيعة يعلم الله تعالى أنها الصدق من أنفسهم، ثم تأخذهم ظلمة لا يبصر أحدهم فيها كفه، في هذا الوقت يبعث الله عيسى عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، محمولاً على أجنحة الملائكة، ومرتدياً عند نزوله ثوباً أصفراً خفيف في صفرته، وقد وصف الرسول ﷺ ملامح وجهه عند نزوله إلى الأرض يومئذ قائلاً:

«رجل آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال، سبط الشعر له لمة كأحسن ما أنت راء من اللمم تضرب عنه بين منكبيه، يقطر رأسه ماء، ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس (حمام)»(٢).

وبينما المسلمون يسوون صفوفهم لصلاة الصبح يظهر عيسى عليه السلام في المسجد، فيعرفه كل من فيه. فيقول له أميرهم وإمام صلاتهم:

- يا روح الله تقدم وصل بالناس.

فيقول عيسى:

---

(١) صحيح مسلم ج (٨) ص٦٠٠.

(٢) صحيح البخاري ج (٦) ص٣٤٩.

- لا إن بعضكم على بعض أمراء تقدم أنت فإنها لك أقيمت.

ويتقدم أميرهم ويصلي بالناس، ويصلي عيسى عليه السلام مقتدياً بإمام المسلمين، فإذا قضيت الصلاة يخرجون جميعاً لملاقاة الدجال الأعور، فحين يرى عيسى يتوارى خوفاً، ويسري خوفه وفزعه في أتباعه وجلهم من اليهود، فتتلاشى قواهم، ولا تثبت السيوف في أيديهم فيهربون لا يلوون على شيء، ويتبعهم عيسى والمسلمون حتى يدركونهم بباب لد الشرقي على مقربة من بيت المقدس.

وعند باب لد الشرقي يقتل عيسى الدجال الأعور، وينهزم بمقتله جنده من اليهود، ويتفرقون في المنطقة أحاداً وجماعات طلباً للنجاة، ويتوارون خلف جبال المنطقة وأحجارها وأشجارها، ويشاء الله تعالى يومئذ ألا يبقى شيء من خلقه لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة يتوارى خلفه اليهود إلا أنطقه الله قائلاً للمسلمين الذين يسعون وراءهم:

- يا عبدالله يا مسلم هذا يهودي خلفي فتعال واقتله. إلا شجرة الغرقد فإنها من شجرة اليهود.

وبعد زوال فتنة الدجال تصل جموع يأجوج ومأجوج إلى المنطقة، فيوحي الله تعالى إلى عيسى:

- إني قد أخرجت خلقاً من خلقي لا طاقة لأحد بمقاتلتهم أو التصدي لهم، فمر من معك من الناس بالابتعاد عن طريقهم والاعتصام بجبل الطور في سيناء.

فيجتمع يومئذ في جبل الطور كل من حارب الدجال مع عيسى، وينحاز من لم يدرك عيسى من المسلمين إلى حصونهم ومدنهم. ويضمون إليهم مواشيهم، ولا يبقى أحد من الناس إلا كان في حصن أو جبل شامخ.

ولا تمر جموع يأجوج ومأجوج في زحفهم على حي إلا قتلوه، ولا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه حتى أن

أوائلهم تصل بحيرة طبرية (بحر الجليل) فيشربون ما فيها، فيأتي أواخرهم فيقول قائلهم:

ـ لقد كان بهذا المكان مرة ماء.

ثم يسيرون حتى ينتهوا عند جبل بيت المقدس (جبل الزيتون) فيقول كبيرهم:

ـ لقد قتلنا من في الأرض فلنقتل من في السماء.

فيرمون حرابهم وسهامهم نحو السماء فترجع مخضوبة بالدم فيصيحون فرحين:

ـ قد قتلنا من في السماء.

وتحاصر جموعهم عيسى ومن معه في جبل الطور، كما تحاصر المسلمين في مدنهم وقراهم، ويطول على الجميع أمد الحصار حتى تتناقص المؤن وتقل الأقوات وترتفع قيمة الضروريات، فيكون رأس البهيمة يومئذ لأحدهم خير من الدنيا وما فيها، فيضرع عيسى إلى الله تعالى ليهلك القوم المفسدين وينجيهم من مكابدة الآلام. فيقول:

ـ اللهم لا طاقة ولا يد لنا بهم، فاكفناه شرهم.

ويستجيب الله تعالى لدعاء عيسى. ففي جنح الليل يسلط الله عليهم دوداً يدخل في أذانهم ومناخرهم وأعناقهم فيتساقطون منه صرعى كموت نفس واحدة. وببزوغ فجر اليوم التالي وعلى امتداد تجمعات المسلمين لا يسمع أحد لهم حساً ولا حركة، فيتحيرون من الهدوء المفاجىء الذي أطبق على المنطقة، فيقول أحدهم:

ـ هل من رجل يشتري نفسه وينظر ما فعل هؤلاء.

فيتجرد رجل منهم محتسباً نفسه قد وطنها على الموت، فينزل ليجدهم موتى يركب بعضهم فوق بعض كالجراد، فينادي بأعلى صوته:

ـ يا معشر المسلمين ألا أبشروا إن الله قد كفاكم عدوكم.

وينزل عيسى ومن معه من جبل الطور، ويخرج المسلمون من مدنهم وقراهم وحصونهم فلا يجدون موضعاً في الأرض إلا وقد ملأته دماءهم، وتنتشر في الهواء رائحة جثثهم، حتى يتأذى منها المسلمون أضعاف تأذيهم منهم وهم أحياء. فيستغيثون بالله تعالى، فيرسل الحق عز وجل عليهم طيوراً كبيرة الحجم قوية البنية تحملهم جميعاً وتطرحهم حيث يشاء الله، ثم ينزل الله مطراً يغسل الأرض ويطهرها حتى يتركها على حالة أفضل مما كانت عليه قبل موتهم.

ثم يقيم عيسى بعد هذا في أمة الإسلام، لا رسولاً إليها، بل إماماً وحاكماً بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فيبطل دين النصرانية، ويقضي على مزاعم النصارى عن كونه الله أو ابن الله. ويحرم اقتناء الخنزير وأكله، ويبيح قتله، ويحمل أهل الكتاب على الإسلام ولا يقبل منهم غيره، بحيث لا يبقى أحد منهم ليؤدي الجزية، ويصير الإسلام دين الجميع، حتى أن عيسى يحج ويعتمر ويصلي بالناس إماماً، ويؤمهم في أيام الجمع.

وفي زمان حكم عيسى للمسلمين، والذي يمتد لفترة تزيد عن ربع قرن من الزمان، يكثر المال ويفيض بين أيدي الناس، وتخرج الأرض كنوزها. في هذا الوقت تقل الرغبات، ويزهد الناس في الدنيا زهداً لم تألفه البشرية من قبل، لعلمهم جميعاً بقرب قيام الساعة. ويتجه الكل إلى العبادة والذكر حتى تكون السجدة الواحدة والركعة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها.

وبزوال حب الدنيا من القلوب تزول أمراض النفس مثل التباغض والحسد والغيرة والشحناء، ويوضع السلام، وتضع الحرب أوزارها، وينزع الله السم من كل ذي سم، حتى يلعب الأطفال بالحيات والعقارب ولا تضرهم، وترعى الشاة مع الذئب ولا يضرها، ولا تقرض فأرة جراباً، ويلق الرجل الأسد فلا يهيجه.

كما يعم الخير الجميع. وتنبت الأرض كعهد آدم، حتى لو بذر الواحد حب على الحجر الألمس لنبت وأثمر، بل يأخذ الرجل المد من

القمح فيبذره بلا حرث، فيجني منه سبعمائة مد، ويجتمع النفر على العنقود من العنب أو الرمانة فتشبعهم، ويبارك الله في اللبن حتى أن الناقة الحلوبة من الإبل لتكفي الجماعة الكبيرة من الناس.

وعلى هذه الوتيرة تمضي سنوات عيسى عليه السلام على الأرض وفي خلافة المسلمين، إلى أن يقبضه الله تعالى، فيسلم الروح أثناء واحدة من زياراته المتعددة لقبر الرسول ﷺ، أو عند أداء فريضة الحج أو العمرة، عن عمر يقدر بثلاث وسبعين عاماً، فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه مع رسول الله وأبي بكر وعمر.

وشاء الله تعالى أن الحجرة النبوية حيث دفن الرسول ﷺ، لا يزال باقياً فيها موضع، وهذا ما يؤكده قوله عليه السلام حين سألته عائشة رضي الله عنها:

- يا رسول الله أني أرى أن أعيش من بعدك، فأذن لي أدفن إلى جنبك.

فأجابها:

- وأني لي بذلك الموضع، ما فيه إلا موضع قبري وقبر أبي بكر وقبر عمر وقبر عيسى ابن مريم.

وهكذا شاء الله وقدر لعيسى ابن مريم عليهما السلام أن يعيش بقية عمره النبوي في الأرض، ليموت ويدفن فيها، حكمه في ذلك حكم الله تعالى في كل مخلوق خلق من تراب الأرض. ألا يموت ويدفن في غير التراب الذي خلق منه.



المصادر

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، قصص الأنبياء، تحقيق بشرى عبدالغني البشري، مكتبة القرآن ـ القاهرة، بدون تاريخ.

٣ ـ ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٣.

٤ ـ ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي كرم، الكامل في التاريخ (جـ ١) دار صادر، بيروت، ١٩٦٦.

٥ ـ ابن عساكر الدمشقي، سيرة السيد المسيح، تحقيق سليمان علي مراد، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٦.

٦ ـ البخاري، الإمام، الجامع الصحيح، عالم الكتب، بيروت بدون تاريخ.

٧ ـ برنابا، إنجيل برنابا، ترجمة د. خليل سعادة، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، بدون تاريخ.

٨ ـ الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٧.

٩ ـ الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٨٦.

١٠ ـ زكى شنودة، المجتمع اليهودي، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ.

١١ ـ السقا، د. أحمد حجازي، يوحنا المعمدان بين الإسلام والنصرانية، دار التراث العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨.

١٢ ـ عباس محمود العقاد، عبقرية المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث. منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بدون تاريخ.

١٣ ـ القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧.

١٤ ـ الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) مطبعة جامعة كمبردج، ١٩٧٠.

١٥ ـ الكشميري، محمد أنور شاه الهندي، التصريح بما تواتر في نزول المسيح. تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب ١٩٦٥.

١٦ ـ مسلم (الإمام) الجامع الصحيح، شرح النووي، بدون دار نشر، القاهرة، بدون تاريخ.

١٧ ـ النيسابوري، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم، قصص الأنبياء، المسمى عرائس المجالس، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة، ١٣٦٧ هـ.

١٨ ـ الهيثمي، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٢ هـ.

